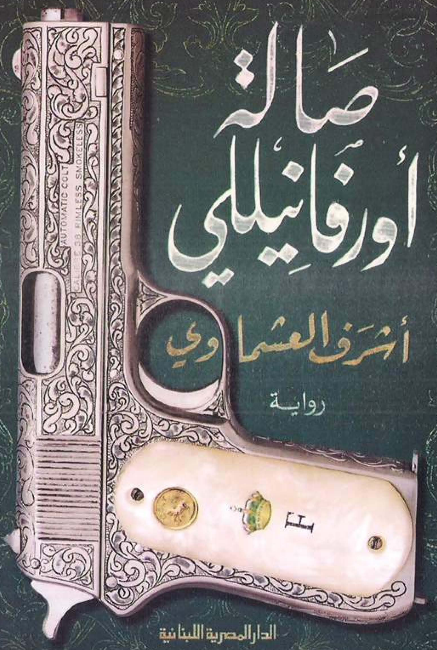
الطبعة 3

صالة أورفانيللي

أشرف العشماوي

رواية

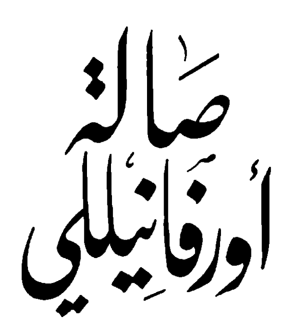


الدار المصرية اللبنانية

العشماوي، أشرف.
صالة أورفانيللي: رواية / أشرف العشماوي. - ط3.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2021.
424 ص؛ 20 سم.
تدمك: 9 - 298 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 22187 / 2020

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى : 2021م
الطبعة الثانية: 2021م
الطبعة الثالثة: 2021م
تصميم الغلاف الفنان: كريم آدم



صالة أورفانيللي

أشرف العشماوي

رواية

«إن القتيل ليس بريئًا دومًا من جريمة القتل»

جبران خليل جبران

الدار المصرية اللبنانية

البداية

أورفانيللي



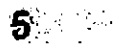
1/1

يراودني شعور غريب بأنني مثل عربة يصعد إليها وينزل منها مَن يشاء، أريد شخصًا واحدًا يبادلني الثقة التي أعطيها للناس، شخصًا يجلس إلى جواري حتى نهاية الرحلة، يمنحني الطمأنينة ولا يجعلني أخشى تركه لي وحدي فجأة.

تنهدت وطال شرودي حتى أخرجني منه منصور التركي بنبرته الحادة الآمرة:

- كفاية سَرَحان يا خواجة واقفل دفاترك، ورانا شغل كتير من النهارده.

أنهينا عملنا بالأرشيف مبكرًا في ذلك اليوم، خرجنا متعجلين على غير العادة، ترقد ستون جنيهًا بكسلٍ في جيبي بعدما ظلت الحيرة على



مـدار شـهرين تفترس عقلـي بنهم، ثم تركتنـي لليأس كي ينـال كفايته مني، في حين يُصر منصور أن لديه حلًّا لمشكلتي.

قفزنـا في أقـرب حنطور إلى ميـدان العتبة، ترجَّلنا المسـافة الباقية محتمين بجريدة نفردها فوق رأسينا حتى توقفت الأمطار عن الهطول، بقيت زخَّات قليلة متواصلة شجعتنا على سرعة الخطى، عبرنا الميدان ودخلنـا صالون صيدنـاوي الضخم فشـعرنا بدفءٍ مفتقـد، تخلصت مـن الجريدة المبتلة وسـرت خلف منصـور، خطواتي بطيئـة فلم يعُد هنـاك ما يجذبني، زرت هذا المُجمع التجاري عشـر مرات نصفها مع خطيبتـي ليلـى، تبقت أربعـون جنيهًا أخـرى تفصلني عـن آخر خطوة لإتمام زواجي، على مقربةٍ مني بدا منصور مثل صاحب المحل، يوزع ابتساماته على العاملين والزبائن بغير حساب ويذكِّرني ببركة المطر كل برهة حتى وصلنا الطابق الثاني. تتصدر حجرة نوم كبيرة المشهد أمامنا في عظمةٍ بألوانها الهادئة وخشبها الفاخر، بجوارها أخرى سعرها أقل منها بعشـرين جنيهًا على الأقل، تبدو متواضعة جدًّا أمام أبهة الأولى، مـع ذلك اخترت الرخيصة متنازلًا عن مقعدين من الفوتيه ملحقين بها لأوفِّـر ثمنهما. تلفَّـت منصور حوله ثم نادى البائع بغطرسـةٍ لا أعرف كيف استدعاها بهذه السهولة قائلًا:

- أنا عاوز البيه المدير فورًا، قول له سعادة وكيل وزارة التجارة.

هـرع البائـع لمكتـب المديـر، مِلـت علـى أذن منصـور معربًا عن توجسي من المنصب المزعوم، أحتاج لعشرين عامًا أخرى من الترقي

مع ضربة حظ موفقة لأجلس على مقعد وكيل الوزارة، أشاح منصور بيسراه وطلب مني أن أخرس وأكتفي بهز رأسي بامتعاضٍ فاستجبت.

وصل المدير منحنيًا في احترامٍ زائد، راسمًا على ملامحه ابتسامة ترحيب تليق بالمنصب الذي أبلغوه به، جذبه منصور ناحيته وهو يقبض على كفِّه مُشيرًا نحوي:

- الأستاذ أورفانيللي ابن سعادة البيه وكيل وزارة التجارة، عاوزين له أوضة نوم ملوكي تليق بمقامه علشان بيتجوز وبصراحة المعروض عندكم موش قَد كِده، لو مفيش قولولنا وندور في حِتَّة تانية.

هَربت الابتسامة من فوق شفتي المدير، راح يُعدِّد مزايا الحجرة الغالية، التفت منصور بجسمه كله، ثم غمز لي بعينه اليمنى، هززت رأسي بامتعاضٍ موضحًا بالفرنسية أن الحجرة ليست كما تخيلتها، أردفت ببطءٍ كي لا يُفتضح ارتباكي أنني لا أريد صناعة حديثة، ثم ابتلعت ريقي بصعوبةٍ وسألت منصور ببراءةٍ عن محلات أخرى تبيع الأثاث القديم.

انحنى أمامي مدير الصالون كرقم ثمانية، ثم مال على أذن منصور هامسًا بصوتٍ تعمَّد أن يكون مسموعًا، أخبره بأن لديه غرفة نوم متفردة كانت بقصر الخديوِ عباس في بنها لكن بها عيوب بسيطة، وبلا مبالاة طلب منصور أن نراها.

اصطحبنا المدير مع بعض العمال للطابق تحت الأرضي حيث مخازن صيدناوي، وقفت بالقرب من منصور بحيث أرى عينيه

بوضـوح لأنفذ تعليماتـه، أُضيئت الأنـوار لتقع عيوننا علـى غرفة نوم فخمة، معها أربعة فوتيهات ضخمة، وأريكة بنصف مسند للظهر مبطنة بقطيفة حمراء فاقع لونها كدم الغزال، تحتل ركنًا قصيًّا بنهاية المخزن، طـرق منصور خشـبها ودار حولهـا متفحصًا إياها كخبير ثم سـأل عن ثمنها، وعندما سمعت أنها بثمانين جنيهًا كدت أسقط مغشيًّا عليَّ.

نحَّاني منصور جانبًا بعدما أخذ مني الستِّين جنيهًا دون أن يرانا أحد من العمال، سـلَّم أربعيـن منها للمدير وكتب له ورقـة صغيرة، ثم قال بثقة:

- دول تحـت الحسـاب واكتب كمبيالة باسـمي بباقي المبلغ على أسـبوعين، أنا منصور حامد التركي مدير مكتب وكيل الوزارة، وبكرة تدبر لنا عربية تنقل الأوضة على العنوان ده.

ما إن خرجنا للطريق العمومي حتى استوقفته قائلًا بغضب:

- مديـر مكتـب وكيل الـوزارة مرة واحدة وأنا ابـن الوكيل، مع إننا موظفين أرشيف.. يا جبروتك يا أخي.

- لـو عاوز تتجـوز يبقى لازم تسـمع الكلام، أنا من شـهور طويلة باخطـط وبـادرس الموضـوع، وأهـو وقتـه حـان، أنا كنت عـارف إن الأوضة دي موجودة هنا من موظف زميلنا أخوه بيشتغل في صيدناوي. ما تقلقش.

- لأ أنـا قلقـان يا منصور ولا فاهم حاجـة.. ومين صاحب العنوان اللي طلبت يوصلوا الأوضة عليه؟

- قلقـان ليه؟ إحنا دفعنا عربون أربعين جنيه بحالهم، ومن شـهور باتحايل عليك تسـلفني الفلوس وأنـت بترفض، ثم أنا كتبت الكمبيالة باسمي يعني مفيش مسئولية عليك. أما العنوان فكلها يومين وتفهم.

- الفلـوس دي كل اللـي حيلتـي يا منصـور، وأنا موظـف صغير، وورشـة أبويا كان داخل فيها شـركة مع اتنين تانيين وأمي باعت نصيبه علشان تجوزني و...

قاطعنـي منصـور بإشـارةٍ مـن يـده لأصمت وهـو يقول بسـخريةٍ ضايقتني:

- والبرنيطـة اللي فوق دماغك كمـان ورثتها عن أبوك يا خواجة.. ده أنت ماقلعتهاش من يوم ما مات كأنها حتضيع.

ثبّـتُّ القبعـة بيدي لا إراديًّا عقـب كلامه، لكنه قطـم الحديث وقد بـدا عليـه التأفف، ثم اسـتوقف تاكسـيًّا طالبًا منه التوجه إلى اسـتوديو ميخاليدس للتصوير بوسـط البلد، في التاكسـي ألححت على منصور أن يشـرح لي ما ينوي عمله، سـرد الأمر بصورةٍ مبهمةٍ بسـبب السـائق الـذي يرمينـا بنظـراتٍ متلصصـةٍ بفضـولٍ من مـرآة السـيارة كل برهة، هززت رأسي كمَن فهم، ثم فتحت النافذة لأستقبل نسيمًا عليلًا ضرب جبهتي بقوةٍ وقلت:

- موت يا حمار.. كده ميراثي من أبويا طار.. أنا غلطان أني مشيت وراك تاني، مع أني اتقرصت منك يوم الشمعدان.

ترجَّلنا من السيارة بمنتصف شارع قصر النيل ثم انعطفنا يمينًا، مضى منصور واثقًا، سرت خلفه متأخرًا ببضع خطواتٍ متلفتًا حولي كما التائه، وقعت عيناي على لافتةٍ كبيرة.. «استوديو ميخاليدس»، المكان عبارة عن صالة واسعة، لا يشف مرآها عن مظاهر أبهة وعظمة، بمنتصفها سجادة عجمية طويلة وبضعة كراسي متناثرة بعشوائية، ستة مصابيح بلُّورية مدلاة من السقف تضيء عشرات الصور المعلقة على الجدران لنجوم المسرح المعروفين، تعرفت على اثنين منهم، يوسف بيك وهبي ونجيب الريحاني، في نهاية الصالة مكتب صغير بصورةٍ ملفتة، يجلس الخواجة ميخاليدس بجسده الضخم وراءه. بدا الرجل شاردًا مهمومًا.. فتشاءمت.

لم يُخبرني منصور هُنا بما يجب فعله فظللت صامتًا لا أجرؤ حتى على الامتعاض، تملكتني الدهشة لمَّا وجدته يطلب من الخواجة ميخاليدس عناوين وهواتف بعض الكومبارس ممَّن لهم ملامح أجنبية، دَسَّ منصور ورقة العناوين في جيبه وصافح ميخاليدس بودٍّ شديدٍ لكنه من طرفٍ واحد، هزَّ الرجل كتفيه في برودٍ ثم نظر ناحيتي ونحن خارجان من الاستوديو ولم يقُل شيئًا، خيل لي أنه يتبسم ابتسامة مشفقة على حالي، ربما لأنني دخلت وخرجت ولم يشعر أحد بوجودي فقد نسي منصور أن يقدمني له.

فكَّ منصور طلاسم دهشتي أثناء سيرنا في شارع فؤاد، ميخاليدس يُصفي أعمال الاستوديو نهائيًا، سيتحول المكان خلال أسابيع قليلة

لصالـة مـزاد، بعـد أن باعـه ميخاليـدس للخواجة كاتسـاروس ونوى مشاركته في النشاط الجديد، ولـم يبقَ سوى تسريح الكومبارس بعدما أُلغيت عقود العاملين في الإضاءة والتصوير.

- وليه يقفلوا استوديو سينما ويفتحوا صالة مزادات؟

رد منصور بسرعة كأنه يتوقع السـؤال:

- لأن اسـتوديو مصر أخد الشـغل كله، ولازم يشـتغلوا في حاجة تانية يكونوا بيفهموا فيها.

هرشت مؤخرة رأسي سائلًا باهتمام:

- يعني الخواجة ميخاليدس هو اللي حيشـتري أوضة النوم بتاعت صيدناوي والا الخواجة كاتساروس؟

- بكرة أفهمك، أمـا النهارده فلازم نحتفل بأكلة كباب محترمة مع نص إزازة كونياك في كازينو الأزبكية.

تجشـأ منصور بصـوتٍ عالٍ، تلفت وهو يتظاهر بالخجل مبتسـمًا، أشـعل سـيجارة وقدمهـا لـي، هـو مَـن علمنـي هذه العـادة السـخيفة بالمدرسة، ثم قال وهو يبتسم بخبث:

- ما تخافش منهم..

لكننـي ظللت علـى ارتباكي منذ لمحت عددًا من كلاب الشـوارع تحوم حولنا من بعيد، فعاد منصور يقول بثقة:

- صاحب الدكان بيرمي لهم عضم ورا الشواية كل يوم.. طالما شبعانين عمرهم ما يعضوك.

قالها وألقى في طبقي ببقاياه، ريشة سمينة تنوء عظمتها بقطعة اللحم المغروسة فيها، ثم أردف وهو يتفرّس في وجهي بدهشةٍ كمَن يراني لأول مرة:

- إحنا نعرف بعض من حوالي عشرين سنة تقريبًا وعمرك ما قلت لي اسم أورفانيللي معناه إيه يا خواجة.

أجبته وأنا ما زلت أتلفت حولي خوفًا من الكلاب:

- حتفرق معاك يعني لو عرفت معنى اسمي؟

هز منصور رأسه بجدية ثم اعتدل في جلسته ولمعت عيناه في لهفةٍ حقيقيةٍ انتظارًا لإجابتي.



1/2

الحياة كما نريدها..

لا أعرف ما إذا كانت تلك المقولة هي المعنى الحقيقي لاسمي أم لا، في كل الأحوال أنا مَدين به لجدي، هو مَن أطلق عليَّ «أورفانيللي» رغم معارضة أمي وسكوت أبي. عند ولادتي قال جدي على الملأ:

«سيكون اسم هذا الصبي مثل شمس ساطعة لا تغيب»، ثم مات بعدها بشهور قليلة بضربة شمس، فتشاءموا مني جميعًا لكنني أحببت الاسم.

لا أذكر تفاصيل كثيرة عن أيام طفولتي الأولى، ولا توجد لديَّ صور تساعدني على تنشيط ذاكرتي، كل ما أعرفه أننا انتقلنا بعد وفاة جدي من الإسكندرية إلى القاهرة بسبب مديونيته التي أرهقت ميزانية أبي، عندما لم يجد ترحيبًا من الجالية اليونانية لمشاركته في محل بقالة جدي، ربما لأنه لم يكن يحب هذه المهنة أو بسبب عدم اختلاطه باليونانيين مثلما فعل أبوه، باع أبي المحل لأحدهم مضطرًّا، ثم راح يبحث عن الحياة التي أرادها لنفسه.

سكنَّا في بيت قديم بالإيجار بالطابق فوق الأرضي، لا يفصلنا عن قسم بوليس الضاهر سوى جدار منخفض، يمكنني رؤية عساكر الدرك من غرفة المعيشة، أحببت الاستيقاظ مبكرًا لمتابعتهم، تمنيت أن أكون واحدًا منهم قبل أن تتحول الأمنية إلى كابوس يلاحقني مثلما يطاردون المجرمين. التحقت بمدرسة الفرير بالخرنفش، تعلمت الفرنسية وفي البيت تكلم أبي وأمي معي بها فأتقنتها. أما الإيطالية فتبخرت مع رحيل جدي ولم يعُد أحد من عائلة أبي يتحدث بها. بقيت منها كلمة واحدة فقط «استابينا»، التي كان جدي يرددها وورثها عنه أبي.

حبي للطعام مثل نبضات قلبي لا يتوقفان أبدًا، ما زلت أتذكر جيدًا ليلة السبت من كل أسبوع، لا نضيء غرف البيت أو نشعل نارًا، لكننا نذبح طيورًا لنأكلها في اليوم التالي عدا الدجاج، فلم يكُن أبي يحب لحمه من الأصل، فقلدته دون أن أتذوقه ولو لمرة واحدة فأمي أيضًا لا تأكله.

يأتي «حلفون» البقال لبيتنا، مرتديًا طاقية سوداء صغيرة تغطي صلعته فقط، ظننتها جزءًا من شعر رأسه في البداية، حتى خلعها مرة ووضعها فوق رأسي وهو يتمتم بكلمات لم أفهمها، يُخرج من جرابه موسى مثل الذي يستخدمه المُزَين، يذبح به إوزة أو بطة حسبما تأتي له بها أمي من فوق سطح بيتنا، أقترب بحذرٍ خائفًا لأسأله وهو مندمج في الذبح عن عدم استخدامه للسكين الكبير بمطبخنا، يجيبني برقةٍ شديدةٍ وهو يُربت رأسي بيدين تقطران دمًا:

- حرام نعذب الطير يا وَلَه.. لازم نريحه بسرعة.

ينتهي حلفون من عمله، يضع الطير المذبوح في صفيحة ثم يُحكم إغلاقها، يتركه يتخبط بحلاوة الروح حتى يسكن فيلتقطه بسهولةٍ ليرقد في إناءٍ كبيرٍ مع غيره، لا أفهم لماذا يذبح حلفون الطير ليلة السبت مع أنه يهودي مثلنا، ربما لأنه رجل طيب يخدمنا فلن يُحاسبه الرب كما يقول أبي. قرب الظهيرة يأتي عَم محمود الفرارجي مبتسمًا بلا سبب ليتولى تنظيف الطيور المذبوحة، ثم تبدأ مهمة أمي بعدهما في غسلها وطهوها، فهي لا تسمح لأحد بلمس الطير بعد نزع الريش

عنه، ترسلني أولًا لسبيل القاضي بركات في نهاية حارة اليهود، أقف في طابور صغير لأحصل على نصيبنا من المياه، يُشرف على السبيل رجل عجوز اسمه «يشع»، يتباهى بأنه يسقي الحارة كلها.. مسلمين ويهودًا.. وأقباطًا أحيانًا، مع أنه لا يفعل شيئًا سوى هَشِّ الذباب الساكن فوق أرنبة أنفه.

ما زلت أتذكر كل صباح الدراجات البخارية التي يستخدمها «الكونستابل» وهم يخرجونها من الجراج لفناء القسم فتُصدر صوتًا مكتومًا خفيضًا ثم يمتطيها أحدهم برشاقة، يُعمل يديه في مقودها فتزمجر بشدة، محدثةً ضجيجًا مخيفًا يُشبه نباح الكلاب التي تتجمع كل مساء قرب بيتنا، وتحرمني من الدخول لساعات إذا ما عُدت متأخرًا.

اضطررت يومًا للمرور أمام بوابة قسم البوليس بعدما أغلقوا شارعنا من الجهة الغربية لإصلاح ماسورة المياه الرئيسية، أبطأت من خطواتي واضعًا خطة محكمة لعبور آمن، قبل البوابة بعدة أمتار سأسرع الخطى فلا يلمحونني، لكن في لحظة اقترابي من البوابة خرج أحد عساكر الدرك منها، كان طويلًا عريضًا مهيبًا في زيه الرسمي الأبيض وأزراره الذهبية وطربوشه الطويل الأحمر، يتدلى مسدس كبير بماسورة ضخمة على جانبه الأيسر، تلاقت عيوننا فخفضت رأسي واتسعت خطواتي، ضغط خوفي على عقلي ولاحت مني التفاتة بسيطة ناحية العسكري، اشتمَّ الرجل خوفي وناداني بحسم

لأتوقف، ارتبكت ثم أطلقت لساقي العنان مع ندائه الثاني، فأطلق بدوره صافرة طويلة شقَّت الضوضاء المحيطة بنا، التفت الخلق كلهم نحوي وشارك بعضهم في مطاردتي، صرت أعدو سامعًا من خلفي أقدامًا تهرول وتدب الأرض دبًا، يدق قلبي وتنهمر دموعي، والكل يردد العبارة ذاتها.. «امسك حرامي».

جريت بكل قوتي مبتعدًا عن الطريق المؤدية إلى بيتنا، توقفت على ناصية شارع كبير ألهث، لمحتهم من بعيد، ثلاثة رجال بوليس يهرولون خلفي، كبيرهم يشير نحوي، انحرفت في الشارع المزدحم، رقدت ثم زحفت على بطني تحت أقرب سيارة متوقفة، كتمت أنفاسي وجسدي كله يرتعش، من مكمني رأيت سِتة أحذية سوداء برقبة طويلة تمر من أمامي مسرعة، تدق بكعوبها والصافرات لا تتوقف مثلما كانوا يحذروننا من الغارات الجوية وقت الحرب منذ سنوات قريبة. دفنت رأسي بين كفَّيَّ مرتجفًا، انتبهت بعد برهة لجسم رطب يلامس يدَيَّ، رفعت رأسي ببطءٍ لأجد كلبًا ضخمًا يتشممني بحذر، لعقني ثم زام متوجسًا مني، ربما ظن أنني استوليت على مكانه المفضل لنوم القيلولة، لم أدرِ ماذا أفعل وأنا منبطح، صرخت عاليًا فابتعد الكلب عني بضع خطوات للوراء فزعًا. نهضت بسرعة من رقدتي لأهرب فاصطدمت مؤخرة رأسي ببطن السيارة، شعرت بسخونة في رأسي وزاغ بصري، رأيت الكلب يقف على مقربةٍ مني وقد صار ثلاثة كلاب متشابهة يسيل لعابها ببطء، سمعت أصواتًا لم أميزها ثم دبَّت فتاة ذات

ساقين جميلتين الأرض بقدميها لتبتعد الكلاب فزعة وتتركني أتأمل جمال عينين واسعتين وملامح وجه صبوح رائق، بعدها أغمضت عينَيَّ ولم أدرِ بما حولي، لكن تبقَّى إنقاذ الفتاة مستقرًّا بذاكرتي، أحببتها منذ هذا اليوم وظللت وفيًّا لحبها طوال عمري.. كانت ليلى حسني جارتنا وخطيبتي الآن.

***

في تلك الفترة من طفولتي اشترت لي أمي قطًّا صغيرًا ليسليني فاصطحبته معي لحديقة عدس، حكيت لمنصور حكايتي مع البوليس وكلاب الشوارع، سخر صديقي الوحيد من خوفي، اتهمني بالجُبن لكني لا أبالي، رددت عبارة أبي الأثيرة في وجهه بثقة.. «من خاف سلم».. ضحك منصور باستخفاف من كلامي، ثم قذف بكرتي بعيدًا لما ألححت عليه باللعب معي، عبرت الكرة أسوار الحديقة، سمعنا فرقعة عالية وصفير إطارات سيارة، دعاني بعدها لتناول الجيلاتي كي يصالحني بعدما تسبب في فقد كرتي للأبد، أصر على دفع الحساب ليتكرر المشهد ذاته، ما إن نبلغ عتبة محل «كرياكوس» الحلواني حتى يصيح البائع الجريجي مطالبًا بنقوده، يرفع منصور ذراعه مجيبًا بصوتٍ عالٍ دون أن يلتفت نحوه:

– ع النوتة يا خواجة..

في عيد مولدي كل عام تدعو أمي أقاربها لكنني لم أعرف أقارب لأبي، المدعو الوحيد من زملاء المدرسة هو منصور التركي فلا أصدقاء آخرين لي غيره، ثم انضمت لنا ليلى جارتنا مع أمها وأبيها

في عيدي الثالث عشر، ظل هذا اليوم محفورًا بذاكرتي بعدها طوال عمري، ليس لأنني التقيت ليلى فيه لأول مرة في بيتنا بعد موقعة الكلب كما أسميتها، إنما لموت مربيتي السودانية «فطوم» في هذا اليوم المشئوم وقت إطفاء الشموع، ومن فرط حزني عليها توقفت عن الاحتفال بعدها طوال حياتي، حتى سقط يوم مولدي من ذاكرتي. ليلتها سألت أمي عن سبب رفضها لاسمي وليتني ما فعلت، ارتسمت الجدية على ملامحها وهي تحكي لي عن أسطورة إيطالية قديمة، تقول إن «أورفانيللي» طائر قليل الحظ كان يصدح في الغابة بصوتٍ جميل، حتى جاء ذئب ذات يوم وأخبره بأن الأسد يريد سماع صوته وإن أعجبه سيضمن له أن يعيش آمنًا من افتراسه، صدقه الطائر ورفرف بجناحيه، هبط فوق ظهره تاركًا أنثاه وفرخه الصغير بالعش، اصطحبه الذئب للأسد وفي الطريق تظاهر بالتعب ثم رقد، ولما نزل الطائر من فوق ظهره التهمه على الفور، عاد الذئب بعدها لأنثاه وفرخه الصغير والريش لا يزال بين أنيابه، أخبرهما بأن ملك الغابة أعجب بصوت «أورفانيللي» ومنحه عشًّا كبيرًا قرب العرين، وطلب منهما اللحاق به، فطارا بغير تفكير وهبطا فوق ظهر الذئب مثل الطائر التعيس.

- وبعدين؟

نظرت أمي لي في ود، مسحت شعري بحنانٍ ولم تُكمل بقية الحكاية، لكنني رأيتها في منامي وتوقفت بعدها عن السؤال، تمنيت ألا تنبت لي أجنحة أو أكون صاحب صوت جميل.. كي لا يأكلني الذئب.



1/3

عقارب الساعة لا تزال مترددة في المعانقة، أمامي أربع ساعات أخرى على الانصراف من أرشيف وزارة التجارة، اختفى منصور اختفاءً مريبًا بعدما تناولنا الغداء في الأزبكية منذ أيام، أقلقني غيابه فلم أنَمْ بسببه، في اليوم الأول لم يرد على هاتف مسكنه، وفي الثاني لم يفتح باب شقته، ثم اتصل بي مساء اليوم الثالث قبل أن أُبلغ البوليس قلقًا عليه وعلى أموالي، التقينا في الصباح على موعد بميدان الإسماعيلية أمام محل إيزافتشي بوسط البلد، سألته عن سبب الاختفاء فلم يُجِبْ سوى بكلمةٍ واحدةٍ زادتني حيرة.. «إسكندرية».

تناولنا سندوتشات الفول وتجرعنا زجاجتي كازوزة بعدها، قبل الظهيرة تحركنا نحو شارع جانبي ضيق متفرع من الميدان، دخلنا صالة مزاد قديمة تعج بالتحف، اضطررتنا للسير ببطء وحذر حتى بلغنا نهايتها. جلسنا أمام جورج ليفي بصالة المزادات التي تحمل اسمه، فهمت من منصور أنها أقدم صالة بالقاهرة، فهي تعمل بانتظام منذ ثلاثين عامًا. بعد تبادل تحية تنبئ عن صداقة قديمة ومعرفة وثيقة، وضع منصور ساقًا فوق أخرى في أريحية ثم أخرج علبة سجائره المعدنية، قدم لجورج واحدة منها وسأله عن الخطوة القادمة. ظل ليفي والسيجارة تتدلى من طرف شفتيه يتفحصني بريبةٍ رغم أن منصور

قدمني إليه على أنني صديق عمره ومن أقارب الخديوِ عباس حلمي، لكنني من الفرع المغضوب عليه في العائلة كما ادَّعى، ثم قال:

- المعاينة تمت وبطاقة البيانات كتبناها بعيوب الأوضة مع نبذة تاريخية عنها، السعر المبدئي لفتح المزاد حيكون زي ما اتفقنا، بس عمولة الصالة حتزيد المرة دي، حتبقى 7٪ وطبعًا أنت عارف ليه يا تركي.

ابتسم منصور بخبث وهو يرد:

- «استابينا» يا خواجة ليفي.. بس العمولة على المشتري موش علينا وإلا أروح صالة تانية، وأنت أكيد عارف إن الخواجة ميخاليدس حيفتح صالة مزادات وبيتحايل علينا نشاركه بأوضة الخديوي، رأيك إيه.. أشرب قهوتي وأقوم، والا موافق على العرض بتاعي؟

ظل وجه ليفي جامدًا، فأشار منصور نحوي مكملًا كلامه:

- صاحبي كمان يهمه أن أوضة جدوده تتباع بسعر كويس، الحياة اليومين دول صعبة ومصاريفها كتيرة ودول ولاد باشوات وأحفاد برنسات زي ما أنت عارف.

بدوت كأطرش في زفة، أوزع نظراتي عليهما بالتساوي في بلاهة، تبدو رواية منصور غامضة، صار اسمي يوسف ولقبي الأخير المانسترلي، ينقصني خيط رئيسي أمسك به لأسير وراءه. اكتفيت بالتدخين واضعًا ساقًا فوق أخرى في ثقةٍ مشروخةٍ متأرجحة، متسترًا بالصمت كي لا تفضح أسئلتي جهلي. لم يُعرني ليفي اهتمامًا واكتفى

بهرش مؤخرة رأسه وهو يتأمل صور حجرة النوم الفوتوغرافية التي وضعها أمامه منصور، حاول الفِصال لكن كل محاولاته تحطمت على صخرة ثقة منصور ونبرته الحاسمة في التفاوض، وافق ليفي في النهاية على مضض، بعدما فشل في زحزحة العمولة ناحية التركي.

خرج منصور من الصالة منتشيًا وأنا خلفه مندهشًا، أخبرني ببرود أن الحجرة بلا قيمة تاريخية، وربما لم ينَم عليها حتى خدم الخديو لكنها تبدو فخمة وراقية رغم عيوبها، خشبها القديم أضفى عليها رونقًا وغموضًا، أكد لي أن جورج ليفي يعرف الحقيقة بخبرته لكن لديه زبون جاهز لشرائها ويستطيع تصريفها، وإلا لما وافق بسهولة على قبولها بصالته، لذا ضغط عليه واعتصره لتخرج الموافقة صريحة منه.

ظل منصور يتكلم وهو يسير بخطوات واسعة كأنه يهرب مني، ما إن ابتعدنا عن صالة ليفي بمسافة كافية حتى أوقفته وسط الطريق سائلًا بغضب:

- أنت بتنصب باسمي؟ هو أنا سليل باشاوات والا حتى بهوات؟ ده منظر واحد جده أمير وقريب للخديوي عباس من الأم والملك فؤاد غضبان علينا؟ بذمتك ده كلام يدخل عقل الخواجة ليفي والا حتى مخ عيل صغير؟

- الكلام ده يا خواجة موش لجورج ليفي، الكلمتين دول علشان يقولهم للزبون وهو يبيع الأوضة، هو نفسه عارف إننا كدابين، لكن

الحكايـة على هواه وداخلة نافوخه ولهـا زبونها اللي يصدقها، ولآخر مرة باقولك لو عاوز تتجوز وتشتري الأوضة اللي خطيبتك ليلى نفسها فيها، اسمع كلامي وأنت ساكت.

- آخـر سـؤال ولازم تجاوبنـي بالصـدق.. صورة الأوضـة جبتها منين؟

- دي صورة لأوضة شـبهها بالمللي لكن خشـبها خايب ورخيص ماتنفعنيـش، شـفتها عنـد تاجـر أنتيكـة اسـمه البربري من إسـكندرية وصورتهـا هناك من يوميـن واضطريت أنتظر تحميض الفيلم علشـان أرجع القاهرة بالصور في اليوم التالت، ارتحت وأسئلتك خلصت؟

اكتفيت بهز رأسي فأردف منصور بجدية:

- لازم تعـرف إن نـص قيمة أي حاجة بتتباع هـي المعلومات عنها يا خواجة.

قالهـا وقفز في التـرام في طريقنا لحي الخرنفـش، التقينا في مقهى «الراعي الصالح» بخمسـة يعملون كومبارس في المسارح، ملامحهم أورُبية، رجلان وثلاث سـيدات، راجع منصور معهم تفاصيل دورهـم، ناقشـهم في بنـود الاتفـاق، ولما اطمأن لحُسـن تلقينهم أنقـد كبيرهـم جنيهيـن ونصف الجنيه أمامهـم جميعًا، واعدًا إياهـم بمثلها بعد نهاية المـزاد. تركني منصور فـي المقهى القريب من بيتـي حائرًا، وانصرف عائدًا لبيته بحجة أنه صار مجهدًا.

ظللت متنبهًا في فراشي، كل ساعة تقريبًا أدير قرص الهاتف لأتصل بمنصور، أسأله عمَّا سيحدث غدًا، ليجيبني الإجابة ذاتها ويختتم كلامه بـأن حجرة صالون صيدناوي سـتكون هدية زواجـي، يُطمئنني كلامه إلـى حين.. لأعـود وأتصل به بعدها، واضعًا احتمالات شـتى لفشـل العمليـة، تصاعـد قلقـي حتى بلغ العنـان بخيالي إلى حـد الخوف من سـمعان صيدناوي نفسه، فهو قد يبلغ عنَّا البوليس ونُرفت من وظيفتنا الحكومية، يقسـم لي منصور بأيمانات المسـلمين إن صيدناوي نفسه لا يعـرف ما يوجد بمخازنه، في المكالمـة الرابعة ضاق بي فيما يبدو، فترك سـماعة الهاتف مرفوعة كي يسـتطيع النوم لبضع سـاعات، رغم كل تأكيداته على نجاح العملية كما أسـماها، لكني لا أستطيع تصديقه حتـى أرى بعينـي النتيجة، فصورة الشـمعدان المينوراه الـذي أكد لي صغيرًا أننا سـنبيعه ونكسـب منه لا تـزال عالقة في ذهني منذ سـنوات بعيدة.

يومها كنت ما زلت أعمل بورشة أبي وطلبت منه أن أكتفي بمراقبة العمال ومتابعة الحسابات بدلًا من العمل الفني فوافقني على مضض. اشـتبهت بعـد أيام قليلـة في عامل بالورشـة سـرق جنيهًا مـن الدرج، اسـتأذنت أبي فـي تفتيـش الجميع، لكنه رفـض أن نُخوِّن أحـدًا منهم ونجـرح شـعوره، لدهشـتي نادى علـى العامل المشـتبه فيه ثـم أعطاه حسـابه بالكامل وصرفه، بعدما أبلغه بأنه إذا ما احتاج إليه سَيُرسـل في طلبه. تسـاءلت بدهشة «لماذا لا نسلمه للبوليس؟»، رد أبي بهدوء:

- إذا كان اللي خلقه سَـتر عليه، عاوزني أنا أفضحه؟! ياخد حسابه ويمشي.

أخـرج أبي مـن جيبه جنيهًا ذهبيًّـا يحمل صورة ملـك بريطانيا، ثم وضعـه في كفـي وأعطانـي فوقه عشـرين قرشًـا، طلب منـي الذهاب لكشك السجائر القريب من الورشة، لأبدله بجنيه ورقي يحمل صورة الملك فؤاد بدلًا من الذي سرقه العامل منًّا. في طريقي التقيت منصور صدفة، حكيت له ما حدث، لمعت عينه واقترح عليَّ شـراء شـمعدان مينوراه من الفضة، على أن نبيعه بعدها بسـاعة في صالة مزادات قريبة لنكسـب ضعـف ثمنـه ووعدني باقتسـام المكسـب، وافقتـه بعد تردد طويل ويا ليتني ما قبلت عرضه.

***

- كلها كام ساعة ويبقى معاك قرشين حلوين ما تحلمش بيهم.

نفس الجملة بالنبـرة الواثقة ذاتها تتكرر الآن في المكالمة الأخيرة قبل أن يرفع سـماعة التليفون، المرة الأولى قالها منصور عندما قطعنا حارة اليهود مهرولين حتى وصلنا متصفها، ثم انعطفنا يسارًا من ميدان الكانتـو، دخـل منصـور محل ساسـون للفضيات واشـترى شـمعدان مينـوراه، هرولنا بعدهـا متجاوزين «حمَّـام التلات» حتـى وصلنا إلى محـل صغير خلـف بنك الرهونات، أمسـك المعلـم حزقيال صاحب الصالة بالشـمعدان وقلبه بين كفيه، رمق منصور بنظرة شك وهو يسأل عـن مصـدره، أجابه منصـور بثقة وهو يشـير نحوي مؤكـدًا أنه يخص

جدي الشامشرجي بقصر السلطان حسين الريفي في شبرا، ثم حكى له رواية قصيرة عن مرض أبي بالسُّل وشلل أمي المزمن، أسهب في مدى حاجتهما للمال مختتمًا بتحديد ثلاثة جنيهات ثمنًا للشمعدان في المزاد، جنيه لأبي صاحب رأس المال، وجنيهان نقتسمهما بالتساوي أنا ومنصور كأرباح بعد بيعه.

دخلت الحكاية أُذن المعلم حزقيال وخرجت من الأخرى حسبما بان لي من ابتسامته المستهزئة بكلام منصور، بينما لا نزال نقف أمامه كتلاميذ، غلفنا الشك وأحاطت بنا الريبة من كل جانب حتى حاصرتنا.

- آلا أونا.. آلا دوي.. الشمعدان بخمسين قرش عند الهانم..

قالها المعلم حزقيال وهو يرمق منصور بنظرةٍ خبيثةٍ ليحثه على الموافقة فيرسي المزاد على السيدة ناطقًا آلاتري، فيما يبدو لا يزال يعتقد أننا سرقنا الشمعدان وسنقبل بأي قروش يرميها لنا، مِلت على أذن منصور معلنًا موافقتي لو باعه بجنيه مثلما اشتريناه، لكزني منصور بعنف لأسكت ثم وجه حديثه لحزقيال في بجاحة:

- وقف المزاد يا معلم.. إحنا لا حنبيع ولا حنشتري.. الشمعدان عاوز أسطوات بتفهم مش بياعين روبابيكيا.

اختتم منصور عبارته الأخيرة وهو يجذب الشمعدان عنوة من يد المعلم حزقيال وسط صالة المزاد التي ازدحمت بعشرة أنفار فملئوها، زايدت سيدة واحدة منهم على قطعتنا ولم يزايد عليها أحد بعدها،

خطف منصور الشـمعدان وخرج من الصالة، في الطريق مد يده لي به واعدًا بسداد الخمسين قرشًا بقية قيمته خلال خمسة أشهر. فقلت:

- أنا حاتحمل الجنيه من يوميتي في الورشة وأنت اعتبر الشمعدان هدية مني يا منصور.

انصرفت بعدها مهمومًـا، ولم أجرؤ يومها على عتابه أو إخبار أبي بتواجدي في صالة مزادات بعد شرائنا للشمعدان.

أغمضـت عيني متأهبًا للنوم وأنا أتذكر خسـارتي للجنيه كاملًا منذ سـنوات بعيـدة، اختـرت إبلاغ أبي بأنه نُشـل مني، ما زلـت أذكر أيضًا «العلقة السـاخنة» التي نلتها منه جزاء عدم احترازي، وربما لمغامرتي الصغيرة الأولى في الحياة كما أقنعت نفسـي. في الغد ستبدأ المغامرة الثانيـةبحجرة صيدناوي التي سـنبيعها في مزاد، سأسـير وراء منصور مغمض العينين كالمرة الأولى، ما زلت أتذكر تأكيده لي أننا سنكسـب يومًا ما وأتشبث ببصيص من أمل هذه المرة، لعله يصدق ولو لمرة.



1/4

للباطل ألـف وجه أحدها التردد في فعل الصواب، تلك مقولة أبي التـي لم تغادر رأسـي طـوال اليوم، ومـع ذلك صاحبني التـردد كظلي ليشـتت تفكيـري فيها. بـدت صالة مزادات جـورج ليفي شـبه خاليـة،

كنت أول مَن حضر، مضت ثلاث ساعات على وصولي وكل عشر دقائق أخرج للشارع أتفحص وجوه المارة، أبتسم لمَن أتوسم فيه أنه في طريقه لحضور المزاد، لكن الجميع يمرون بي ثم يمضي كل منهم لحال سبيله دون أدنى التفاتة لمدخل الصالة ولو من باب الفضول.

قرب الظهيرة فقدت بعضًا من أعصابي، صرت أصيح وسط الشارع «هُنا المزاد.. هُنا المزاد»، خرج منصور مهرولًا على ندائي، نهرني بنبرةٍ غاضبةٍ لأدخل الصالة، أجلسني في الصف الأخير وجلس بجواري يشرح ما خفي عليَّ، لكني لم أستوعب حرفًا من كلامه وقتها. بعد مرور نصف ساعة ازدحمت الصالة بنحو خمسين شخصًا آخرين لكن الحجرة لم يتم النداء عليها بعد، فهمت من منصور أن الأشياء الثمينة تُترك للنهاية، وقتها يكون عتاة المزايدين توافدوا على الصالة وانتشروا بأرجائها مع رجالهم وصبيانهم.

مضى المزاد روتينيًّا، عُرضت صَوانٍ فضية وتماثيل برونزية، تبادل كومبارس منصور المزايدة عليها دون أن يشتروها، يقفون عند سقف معين حدده لهم منصور فيما يبدو، مرت ساعتان أخريان ثم أدخل العاملون حجرة النوم بالصالة ممَّا استغرق وقتًا لضخامتها، لكنه كان كافيًا ليتحدث منصور بهمس مسموع مع رجاله عن قيمتها العالية وضرورة الحصول عليها بأي ثمن لإعادة بيعها. شعرت بسذاجتهم وهم يتجاذبون أطراف الحديث بصوتٍ عالٍ ولا يلتفتون لغيرهم الذين يسمعونهم بتركيز، لكني لم أستطع لفت انتباههم.

بدأ ليفي المـزاد بطرقةٍ من المطرقة واصفًا الحجرة مكررًا تاريخها المزيف نقلًا عن منصور، محددًا سـعر الافتتاح بثمانين جنيهًا، هدأت قليـلًا، لكن منصور وتَّرني بسـرعةٍ عندما رفع يـده مزايدًا لتصل القيمة إلـى مائة وعشـرة، أشـار نحوه ليفـي بالعصا، وهـو يـردد وراءه الرقم الجديـد، بعدهـا رفع أحـد الكومبارس السـعر لمائة وثلاثيـن، لتزايد سيدة غربية عنًّا لمائة وخمسين، يرفع ليفي صوته وهو يُعيد الرقم عدة مرات ليُحمِّس المشاركين.. لكنه لم يتلقَّ سوى صمتٍ مريب.

صـاح منصور فجـأة رافعًا المزايدة إلى مائة وسـتين جنيهًا، طارت فرحتـي، حاولـت أن تلتقي عيناي بعينـي منصور كي أؤنبـه على عدم تركـه حجرة النوم للسـيدة التي زايدت عليها منـذ قليل لكنه لم يلتفت نحوي، ظل يزايد على السـيدة وهي تزيد عليه حتى وصل السـعر إلى مائة وتسعين جنيهًا، فكدت أفقد وعيي.

علا صوت الخواجة ليفي فجأة وهو يصوب بصره لمدخل الصالة من خلفنا:

- أهـلًا أهلًا مسـيو صيدناوي نـورت الصالة، تحب تشـارك معانا على أوضة نوم قديمة شغل فرنساوي؟

مـا إن سـمعتُ ليفـي يرحـب بصيدناوي باشـا حتى التفـتُّ خلفي مفزوعًا باحثًا عن البوليس.

***

يفزعني رجل البوليس بهيئته الصارمة حتى الآن، مجرد ذكر اسمه أمامي كفيل بتوتري لنهاية اليوم وربما لأيام أخرى، عندما كنت صغيرًا كان النوم يطير من عيني لساعة تقريبًا كل ليلة، البداية لم تكن أمام القسم عندما هربت من رجل البوليس، فقد كنت قبلها أسمع وأنا في فراشي أصواتًا غريبة.. مريبة، تفزعني، يعقبها أنين متقطع ثم تعلو بعدها مرة ثانية حتى تخفت بالتدريج فأغفو بالكاد، ظننتها لشهور أصوات كلاب شارعنا تتعارك مع كلب غريب فينبح ألمًا وخوفًا، ولما تجاوزت العاشرة من عمري عرفت من بعض جيراني أنها صرخات لرجال ضايقوا عساكر الإنجليز فقبضوا عليهم، أحيانًا كنت ألتقط أصوات طرقعات عالية متقطعة، تتخللها صرخات مدوية، فأفر من فراشي وأنكمش في حضن أمي، تربت رأسي لكنها لا تحكي لي عنها ولم أجرؤ على سؤالها. حتى جاء يوم عاد فيه أبي من ورشته متأخرًا، متعبًا مكفهرًا، لم يبتسم لنا أو يحيينا، فاته أن يسألني سؤاله التقليدي عن أحوال دراستي، تلك أول مرة أراه يدخل البيت بدون قبعته البيضاء الكبيرة. فرغم أننا يهود مصريون لكنه لم يرتدِ الطربوش مطلقًا.

مضى أبي مطرقًا متباطئًا نحو دورة المياه، لم يطلب من أمي تجهيز العشاء كعادته، غاب كثيرًا بالداخل فاستبد بها القلق، ظلت واقفة تُرهف السمع ولا تطرق الباب حتى خرج إلى حجرتهما فلحقَتْ به، تركا الباب مواربًا فتلصصت عليهما، سمعته يبكي لأول مرة في حياتي وأظنها كانت الأخيرة.

حكى لأمي أن أحد الباشاوات أرسل سيارته إلى الورشة بسبب عطل بسيط في فراملها، أصلحه أحد صبيان أبي وخرج بعدها ليُجربها، ركب الشيطان برأس الصبي، زيَّن له نزهة على كورنيش النيل فانجذب راغبًا مستمتعًا، راح يطوي سقف العربة القماشي لتكبر نشوته وهو يضاعف من سرعتها، فجأة أفلتت قدمه من فوق دواسة المكابح، انحرفت السيارة لتصعد فوق الرصيف ثم اصطدمت بعمود إنارة فتهشمت مقدمتها، أصر السائق على إبلاغ البوليس رغم تعهد أبي بتحمل نفقات إصلاحها، فاقتادوه إلى القسم من وسط صبيانه بعدما مزقوا قميصه وهو يقاومهم.

انخفض صوت أبي فجأة وعلا بكاؤه، اقتربت أكثر لأرى، لمحته من فتحة الباب الموارب جالسًا على حافة فراشه يمسح دموعه ويتحسس وجهه ورقبته، تلمس أمي أذنه اليسرى فيتألم، احتوته أمي بذراعيها وهي تخفف عنه بكلمات رقيقة، شعرت أنني أريد أن أجري نحوه وأحتضنه. طقطقَت ألواح الخشب تحت وطأة قدمي لما تحركت، انتبه أبي ورمقني بنظرةٍ غاضبةٍ ثبتتني مكاني، تجمدت مشاعري مؤقتًا قبل أن ينهرني لتلصصي، جريت نحو حجرتي، دفنت وجهي في وسادتي وبكيت. استدعت ذاكرتي كل الأصوات والأنات التي سمعتها من قبل، كلها هذه المرة بصوت أبي، صوَّره خيالي عاريًا والعساكر من حوله يركلونه ويصفعونه، تخيلت أحدهم يستعد لجلده بسوطٍ رفيع بينما هو منكمش في ركن غرفة شبه مظلمة، دفست رأسي في الوسادة أكثر فغاص فيها، شعرت بيد تربت ظهري، ارتجفت

ولـم ألتفت، نمت بعيون دامعة في صمت، راحت اليد الحانية تمسـح شعري، لكنني لم أعرف يومها أهي لأمي أم كان أبي.

ظلت القصة عالقة بذهني، أصبحت أرى صورة عسكري البوليس متجسـدة أمامـي، فـي وجـوه أسـاتذتي بالمدرسـة إذا أخفقـت فـي واجباتي، ووجوه جيراننـا الذين يمنعوني من لعب الكرة أمام بيتنا كي ينامـوا القيلولة في هدوء، على ملامـح البائعين إذا ما حاولت الفصال في مليم أو اثنين، الوحيد الذي لم أعد أخاف منه هو أبي، شـعرت أنه مثلي ومع ذلك التصقت به مؤقتًا. أصبحت أمشـي بجوار الجدران في طريقي للمدرسـة، أتحسسها كل برهة، أستمد طمأنينتي منها، صارت أمـي تصحبنـي إلى حديقة عـدس العمومية كل أسـبوع لألعب بالكرة وحـدي، أو مع زميلي بالمدرسـة منصور التركـي، لكنه لم يكن يحب اللعـب طوال الوقت ولا الطعـام أيضًا فتوقف عن الذهاب معي، صار يفضل جلسـات الكبار، تأمل وجوههم ومراقبتهم والإنصات لحديثهم هوايته الأثيرة، فبدأت أشـعر أنه يكبرني بأعوام مع أن الفارق بيننا سـنة واحـدة، ربما هذا الفارق البسـيط أمدنـي بطمأنينة كبيـرة مفتقدة، فهو لا يهاب رجال البوليس ولا يخشى الكلاب.



1/5

تركت بـاب ذكرياتي مع البوليس مواربًا على وقع دقات عصا تنقر أرضية صالة جورج ليفي بانتظام، لمحت رجلًا نحيفًا يرتدي طربوشًـا

وبدلـة كاملـة في غاية الأناقـة، عبوس الوجه متأففًا بلا سـبب، يتفرس فـي الحاضرين بالصالة كمَن يبحث عن شـخصٍ هاربٍ منه. شـعرت لوهلة أنني سـأتبول على نفسـي عندما وجدت سمعان باشا صيدناوي يجلس بالقرب مني، صاحب الصالون الشهير ومالك الحجرة الأصلي لا شك يفتش عنَّا بين الجلوس، لا بد علم أننا نصَّابون ومؤكد البوليس في ذيله الآن، يسـتعدون لمحاصرة مداخل ومخـارج الصالة ليقبضوا علينا مُتلبسـين، لو تم ضبطي سأعترف على منصور، هو الذي ورطني والكمبيالة التي وقعها هي الدليل والكومبارس تابعون له وحده.

نظـرت لصيدناوي باشـا وحييته ضامًّا كفَّيَّ قـرب صدري، رمقني بنظرةٍ قاسيةٍ وأشاح بوجهه عني، لن يصدقني إذا اعترفت له بالحقيقة، كـدت أبكـي بين يديـه مستسـمحًا إياه، همسـت للسـيدة الكومبارس الجالسـة بجـواري أن صيدناوي باشـا معنا في الصالة فمطت شـفتيها بلا مبالاة.

نهضـت فجـأة بعد تفكيـر قصير متجهًـا نحو باب الخـروج، ما إن اقتربت منه حتى جريت بأقصى سرعة. تواريت خلف شجرة ضخمة، أتعرق من كل جسـدي رغم برودة الطقـس، أفتش عن رجال البوليس ولا أجدهـم، لا بد وأنهم متخفون في ملابس مدنية، عيني على الباب الرئيسي، لكن لا أحد يدخل أو يخرج.

مرَّت خمس دقائق كأنها نصف سـاعة، تيبَّسـت ساقاي، حركتهما فشـعرت بألـمٍ خفيفٍ بهما، أشـعلت سـيجارة ثـم ألقيتها بسـرعةٍ لمَّا

أمسك لهب الثقاب بفلترها، عبثت بأصابعي بحثًا عن أخرى لأكتشف أن العلبة فارغة، قفزت في رأسي فكرة عظيمة أن أعود للأرشيف بالوزارة وأتراجع عن طلب الإجازة الذي قدمته وأمزقه لأثبت وجودي هناك، مؤكد سيفيدني ذلك بالتحقيق. ما إن هممت بالتحرك حتى سمعت نفيرًا عاليًا يدق ويد تجذبني بقوة للوراء، أعقبها عبارات سباب تصفني بالعمى آتية من بعيد لكنها اخترقت أذني كرصاصات، كادت عربة «الترمواي» تدهسني، وما بين التقاط أنفاسي ومحاولتي للتماسك لمحت صيدناوي باشا يُغادر الصالة.

عُدت بخطى حذرة متلفتًا حولي ثم جلست في صمت، وجدت قيمة الحجرة بلغت مائتين وثلاثين جنيهًا لحساب منصور التركي، لطمت خدَّيَّ، كنت في آخر صف قرب باب الخروج، أهتز بشدة على مقعدي كأن أحدًا يرجُّني. التفتُّ للكومبارس التي تجلس بجواري سائلًا عمَّا فعله صيدناوي بالمزاد فلم تُجبني ورمقتني بضيق.

بدأ جورج ليفي العد.. «آلا أونا.. آلا دوي..»، قبل أن ينطق بالثالثة تحمَّس رجل إنجليزي يرتدي قفازًا من الجلد وقبعة كبيرة، رفع يده ببطءٍ ورمق ليفي بنظرةٍ متحجرة، ثم أشار بأصابعه الخمسة بعدما خلع إحدى فردتي القفاز، ليقفز السعر إلى مائتين وخمسين جنيهًا. شهقت من نهاية القاعة كأن مَلَك الموت يصارعني، لوحت بيدَيَّ في الفضاء كمخبولٍ ليخرس منصور ولا يزايد عليه، استجاب لي بالفعل، نهض من مكانه، وضع يديه فوق رأسه مستعدًا طربوشه، ارتاحت قسماتي وقمت لأصافحه مهنئًا، الفرحة تكاد تطيرني لأحلق فوق رؤوس

المزايدين، فوجئت بمرور منصور بجواري كمَن لا يعرفني، نهوضه كان إشارة للسيدة الكومبارس التي تجلس أمامي كي ترفع السعر عشرة جنيهات لثلاث مرات متتالية.. ففعلَتها بثقة، لكزتُها في ظهرها بغلظةٍ ناظرًا لها في غضب لمَّا التفتَت ناحيتي في دهشة، أمسكت نفسي بالكاد كي لا أُكمم فمها أو أُقيد كفَّيها.

ارتفع السعر ستِّين جنيهًا أخرى في أقل من دقيقة، في تلك اللحظة انتهيت من قضم أظافري العشرة، عاد منصور من نهاية الصالة ليمر عن يساري، غمز لي بعينه هذه المرة، لكنني في حالٍ صعبةٍ لم تعُد تسمح بتقبُّل أي إشارات أخرى أو مزاح من أي نوع. زايدت سيدة ثالثة على الرجل الإنجليزي في هدوء، في كل مرة تتهامس مع الجالسة بجوارها، تتظاهران بمراجعة ما في حقيبتيهما من نقود، حتى وصل السعر إلى ثلاثمائة وثلاثين جنيهًا، ليهتف منصور وهو واقف بمنتصف الصالة باستنكار:

- معقول كل المبلغ ده علشان سرير وكام كرسي نام والا قعد عليهم جناب الخديوي مرة والا مرتين!

قالها وتراجع قرب باب الصالة مشعلًا سيجارة بغضب، صفقت له مؤيدًا لكنه لم يُعرني انتباهًا، لمحت رجلًا شديد السَّمار يرتدي جلبابًا بلديًّا ويضع على كتفيه شالًا طويلًا من الحرير الأبيض يهمس في أذن الرجل الإنجليزي ببضع كلمات، عندما تلاقت عينا منصور مع عيني الإنجليزي، رفع منصور كفيه لتزيد قيمة الحُجرة عشرة جنيهات، خلع

الإنجليـزي بـروده مع فردة قفـازه الثانية رافعًا السـعر دفعة واحدة إلى خمسمائة جنيه.

حلَّـق طائـر الصمت فـوق رؤوس الجميع ولم أعُد أسـمع سـوى دقات قلبي تنافس صوت أنفاسي المتلاحقة.

***

يوترني صمت الترقب، تزعجني لحظات الانتظار ولا أطيق الصبر، كلها دقائق عصيبة تمر بالكاد كأنها تقاوم عقارب الساعة، فجأة خارت قواي عندما هتف جورج ليفي بحماس دون أن ينظر لبقية المزايدين:

- آلا أونا.. آلا دوي.. آلا تري.. مبروك يا مون بيه.. الاسم بالكامل من فضلك.

راح العمال يرفعون الحجرة، ابتسمت السيدتان للمشتري مهنئتين، اقترب منه أحد الكومبارس وصافحه، وأبدى آخر ندمًا شـديدًا لفوات الفرصة منه، ثم رمق أحدهما الرجل الإنجليزي بنظرةٍ ساخطةٍ وخرج.. في حين راح جورج ليفي يُعلن عن القطعة التالية.

جلـس منصور فـي نهاية القاعة واضعًا سـاقًا فوق أخرى، مبتسـمًا ابتسـامة نصر واثقة تكاد تقارب أذنيه من فرط اتسـاعها، يحرك أصابع يديه الثمانية، تتراقص بخفة على أنغام الفوز بعدما وضع إبهاميه بجيبي الصديري، بدا مثل ديك رومي يُسيطر على قفص كامل من الدجاجات تتصايـح أمامـه وتتقافز بأمـره وحده. فجـأة دوَّى صوت قرقعـة عالية

أصابت بعض السيدات بذعر، صرخت إحداهن فزعًا وشهقت أخرى في جزع، ثم ارتفعت ضحكات مكتومة.

نهضت مبتسمًا خجلًا، أنا الذي سقطت بمقعدي الخشبي وسط صالة ليفي لما تهشم تحتي، فيما يبدو لم يستطع تحمل وزني الثقيل مع اهتزازاتي المتالية على مدار ساعات عصيبة.. فهويت.



1/6

غادر منصور الأرشيف قرب الظهيرة متوجهًا لصالون صيدناوي ليلتقي مديره ويسدد بقية ثمن الحجرة، استعاد الكمبيالة التي كتبها على نفسه ولم ينسَ أن يشتري لي غرفة النوم الكبيرة المعروضة هناك، أعطاهم عنوان بيتي، وأرسل معها كارتًا شخصيًا دوَّن به عبارات رقيقة متمنيًا لي ولليلى زواجًا سعيدًا. لفتة جميلة دمعت لها عيناي، لكن ليلى خطيبتي لم ترتح لها. قلبت الكارت بكفيها في ضيق سائلة باستنكار:

- وتفتكر منصور بيعمل كده من غير مصلحة؟ أشك.

لم أجادلها كي لا أفسد فرحتي بغرفة النوم الجديدة، أكدت لها أن منصور صديق عمري الوحيد ولو كان يُريد مني شيئًا فليس في حاجة لكل هذه المقدمات، ببساطة يكفيه أن يطلبه.. وسأفعله مغمض العينين.

لليلى في قلبي مكانة لن تتزحزح، حتى ولو لم تكن تحب صديقي الوحيد منصور، ابتعدت عنها بخطوات ووقفت أمام صورة أبي المعلقة بصالون بيتنا، فجاءت من ورائي ووضعت كفها على كتفي، أغمضنا عيوننا ونحن ندعو له بالغفران، يبدو أبي شابًّا في الصورة، كفَّاه معقودتان على صدره مُمسكتان بالقبعة البيضاء التي أرتديها الآن، ابتسامته كلها ثقة وتفاؤل بالحياة، الصورة التُقطت قبل إصابته بضعف السمع في أذنه اليسرى من بعد اليوم المشئوم إيَّاه في القسم، بعدها تنامى الضعف حتى صار أبي أصم، وقتها أخفينا الخبر عن الجميع كي لا يؤذينا البوليس لكني أخبرت ليلى وحدها، كنَّا أطفالًا فظلت تضحك معتقدة أنه بات يسمع كلمات لم نقلها له، أعجبتني اللعبة وظللنا نختار كلمة وتتخيل كيف سيسمعها أبي ونضحك حتى دمعت عيوننا، لكني بعد أشهر قليلة بكيت عندما تأثر عمل أبي وانحسرت الزبائن عن ورشته بالتدريج، تألمت لما راقبت حرجه البالغ وهو يستعين بصبيانه لسماع أصوات المواتير وشكوى أصحاب السيارات، واضطراره إلى الالتفات ناحيتهم بأذنه اليمنى، ومع الوقت صار شبح الإفلاس شريكًا له في عمله.

ربتت ليلى كتفي وهمست: «أحبك»، التفتُّ وهممتُ بتقبيلها، لكنها قفزت خطوة للوراء كفراشة جميلة وهي تبتسم بدلال، وضعت إصبعها فوق شفتَيَّ، ثم فجأة تبدَّلت ملامحها كأن عقلها وأد مشاعرها، صارت صارمة وتجمعت فوقها سحب غضب كثيفة وراحت تمطرني بنصائحها:

- الشـغل حاجـة تانية.. لازم تأخـذ خبرة منصـور وتبقى فاهم في المـزادات أكتـر منه، وراسـك براسـه طـول الوقت لأن هـو عمره ما عاملـك كصاحـب له. نصيبك النص وإوعى تسـتقيل غيـر لما تمضي معاه العقد قبلها.

تعيدنـي كلمـات ليلى للـوراء بذاكرتـي، تدور برأسـي وأمام عيني أيامي مع منصور كصديق وحيد، أما الخبرة فلا أسـتطيع أن أحكي لها مـا فعله بصالات المزاد حتى لا تكرهـه أكثر، حكيت لها عن عطلات نهاية الأسبوع التي كنت ألتقي منصور فيها بمحل كرياكوس الحلواني الذي يفضله، لا شـيء تغيَّـر، ضحكته العالية ذاتهـا تجلجل بالمكان، صوتـه الجهوري يدوي ليسـمعه العابرون بالطريـق العمومي، وأخيرًا نوتة الطلبات التي صارت دفترًا مع مرور السـنين، وعندما سألته يومها عـن أحـوال المـز · فاجأني بتركـه صالة المـزاد والتحاقـه بوظيفة حكوميـة فـي وزارة التجارة، راتبه قفز إلى ثلاثـة جنيهات كاملة، قالها بفخر، سال لعابي على الوظيفة مع أن يوميتي بالورشة تصل إلى خمسة عشـر قرشًا.

ابتعـدت ليلى خطوة وهي تقلب شـفتيها بصـورةٍ كادت تُضحكني لكني خفت من غضبتها ثم عاتبتني قائلة:

- ده لو منصور عامل لك عمل ماكنتش تعمل كده وتسـيب ورشـة أبوك!

اكتفيت بابتسـامة باهتة وأكملت حكايتي، بالطبع ألححت على أبي كي يتوسط لدى وكيل وزارة التجارة لأعمل موظفًا حكوميًّا بشهادتي،

كان قد أصلح له سيارته الموريس الإنجليزية بمهارة، بعدما فشل مهندسو التوكيل في معرفة العطل الذي أصاب محركها، وبعد تفكير طويل واستشارة أمي وافق أبي على مضض. توقفنا عند ناصية شارع المناخ الذي تُمنع عربات الحنطور من السير فيه حتى المغرب، ترجّلنا ونحن نستنشق روائح الشوكولاتة والحلويات الفرنسية التي تتسرب بقوة من الحوانيت على الجانبين، جرى لعابي تمليها، لكن أبي نهرني حتى لا يزيد وزني.

استقبلنا شمعون بيك وكيل وزارة التجارة بترحاب شديد، سمعنا بصبر طويل ثم أبدى تحفظًا دبلوماسيًّا على شهادتي، حاول تشجيعي على استكمال الدراسة بجامعة فؤاد للحصول على فرصة أفضل، لكننا لا نملك الكثير من المال وأنا بطبعي لا أحب الدراسة. شرح أبي ظروفنا الاجتماعية بنبرةٍ مشوبةٍ بالتوسل المخلوط بالرجاء، فاقترح شمعون بيك أن أعمل بالمراسم باعتباري أجيد لغة أجنبية، توقف فجأة عن الكلام وأمرني بالوقوف، تفرس فيَّ ممتعضًا ثم طلب مني خفض وزني عشرين كيلو جرامًا على الأقل لأبدو في هيئة مقبولة، حتى يمكنه إعادة النظر في أمر تعييني بالمراسم.

الحقيقة أن هيئتي تعجبني وحبي للطعام لن يتوقف، لم أفكر من قبل في تقليل وزني، ولم أحبذ فكرة التعامل المباشر مع أناس كثيرين إذا ما عُينت بالمراسم وما يحتاجه الأمر من دبلوماسية ولباقة، توترت وبدأت صورة عسكري الدَّرَك تكسو ملامح وكيل الوزارة فزاد اضطرابي، تدخل أبي في الحديث فجأة، لا أعرف هل قرأ ما دار

برأسـي أم أراد التمسـك بأهداب فرصة ربما لا تتكرر، بعدما تيقن من فشلي بالورشة، قال وهو يفرك كفَّيه:

- صحيـح الولد سـمين شـوية، لكن للأسـف دي وراثـة عن عيلة أمه يا سـعادة البيك، ويمكن يحتاج شهور علشان وزنه ينزل.. وموش مضمـون برضـه يثبت، يـا ريت أي وظيفـة مؤقتة ولو في الأرشـيف.. نكون ممنونين.

وافـق وكيل الوزارة، تعلق بالكلمة فيما يبدو كي نغرب عن وجهه، قبلت الوظيفة ممتنًّا لأودع ورشة أبي. وفي أول يوم لي هناك وبمجرد هبوطي الدرج لتسـلم عملي بالأرشيف وجدت منصور التركي أمامي يبتسم بهدوء، وكأننا كنَّا على موعد.

قلت لليلـى دون أن أنظر ناحيتها بعدما امتلأت عيناي بالدموع لمَّا فاضـت ذكرياتي، فتظاهرت بانشـغالي في ضبط صـورة المرحوم أبي المعلقة على الحائط أمامنا بينما أتكلم:

- صدقتي أنها رحلة عمر طويلة مع منصور، وقدر بيجمعني معاه؟ صديق حقيقي مش زي ما أنتي فاهمة.

ظلت ملامحها جامدة مثل صورة أبي، فقلت ملطفًا الأجواء:

- يظهر أني مربوط في ديله.. منين ما يروح حامشي وراه.

ثم أطبقت كفي على يد ليلى وسحبتها ورائي لكنها لم تكن طيعة.



1/7

عاد منصور لوزارة التجارة بعد غياب عدة أيام أخرى غَمُض أمرها عليَّ هذه المرة، هبط درج الطابق السفلي في تؤدة، ثم سار في رواق الأرشيف مختالًا كطاووس فرغ لتوه من أنثاه، عاتبه مديرنا لتغيبه عن العمل بدون عذر أو إخطار فلم يُعره انتباهًا، أبلغه المدير بتحويله للتحقيق فأشاح له بيسراه، دار حول مكتبي وجلس على حافته كعادته عندما ينوي قول أمر مهم، وسألني عن قراري.

لمحت طيف ابتسامة عصية على الانفراج يحوم حول شفتيه، نظراته تنبئ عن قلق ذئب كامن وراء الملابس الإفرنجية، فقط ينتظر فرصة سانحة ليبتسم بأريحية حتى تظهر أنيابه، تلك أول مرة ألحظ فيها ملامحه بدقة، كرَّر سؤاله على مسامعي وهو يركز عينيه نحوي، فألقيت بهواجسي ورائي مؤقتًا واكتفيت بابتسامة باهتة. أعاد سؤاله في ضيق:

- ها.. فكرت في اللي قلت لك عليه؟

كنت غارقًا وسط كم هائل من الملفات الكرتونية الضخمة تكاد تحجب الرؤية عني، أجبته بصوتٍ خفيض:

- وهي دي حاجة محتاجة تفكير؟ طبعا حاشاركك، ده أنا منتظرك من الصبح والاستقالة جاهزة في جيبي، مع أني كنت بافتكر مع ليلى

أول يوم لنا هنا في الأرشيف لما أبويا كلم وكيل الوزارة لأجل أتعين.. كأنه امبارح.

مال منصور ناحيتي بملامح جامدة أفزعت عصافير ذكرياتي، فطارت قابضة على قصاصات حكاياتي، وقال بنبرةٍ خشنةٍ مغطيًا فمه بيده:

- لأ.. أنا بس اللي حاستقيل يا خواجة وأنت حتفضل في شغلك هنا.

تركني منصور غارقًا في دهشتي، ثم توجَّه لمدير المستخدمين وقدَّم استقالته، لحقت به لأغادر معه ديوان الوزارة مودعًا وأفهم منه سبب إرجاء استقالتي، لكن منصور صمَّم على الانتظار لأكثر من ساعة أمام شباك الصراف حتى تسلَّم ماهيَّة الشهر المنصرم بعد خصم أيام غيابه، فشلت محاولاتي كلها لإثنائه عن انتظارها بعدما صرنا من الأغنياء في يوم وليلةٍ بضربة حظ. توقف منصور فجأة عن السير في منتصف الرواق المؤدي لباب الخروج، ظهرت أنيابه من بعد ابتسامته، منبهًا أنها لم تكن ضربة حظ في يوم وليلة كما قلت، بل تعب شهور وتخطيط لساعات طويلة كل يوم قام به وحده. أعاد على مسامعي الكلام بنبرةٍ مؤنبة، أومأت بالإيجاب متفهمًا لنتجاوز الأمر بهدوءٍ لما علا صوته وهو يُعاتبني.

خرجنا للطريق بشارع عدلي باشا، وتف منصور فاردًا ذراعيه مبتسمًا مغمضًا عينيه، يعب الهواء ويملأ رئتيه بقوة كأنه يتأهب

لاحتضـان الدنيـا كلها، في حيـن رفعت قبعتـي ثم انحنيـت أمام باب المعبـد اليهودي المقابل لنـا نصف انحناءة في احتـرام، بدأت أرقص على ساق واحدة وأنا أدندن بأغنية فرنسية قديمة تقول كلماتها:

«أستطيع الآن أن أمسك قطع السحاب بيدي وأهديها لكِ.

الدنيا ابتسمت لي من جديد، ويبدو أن الابتسامة ستدوم للأبد»

***

زحـام غريـب، أناس يروحـون ويجيئـون بلا وجهة محـددة، باعة عِرقسـوس تُقـرَع أكوابهـم في تناغـم دقيق، آخـرون يبيعـون التِّرمِس وحَـبَّ العزيز مبتسـمين، ونسـوة بدينـات يفترشـن الأرض ويعرضن لحمة الرأس والفِشَّـة والممبار. دلَّالو الأقمشـة يرتفع صياحهم بأنواع بضاعتهم، وصلنا للمحل بصعوبةٍ بالغة، وبالكاد وجدنا مكانًا رغم أن منصور حجز لنا منضدة مسبقًا بالتليفون، قبل أن نطلب طعامنا ابتلعت الـكلام، مالـت ملامـح ليلى للامتعـاض من بعـد ضيق بينمـا منصور لا يبالي، مع أنني كنت أمتدح شـهامته وحسن تصرفه بمزاد حجرة نوم الخديـوِ، أنزلت ليلى سـاقًا من فوق أخرى، أمسـكت بحقيبتها وبدت متهيئـة للمغـادرة، اندهشـت مـن تصرفها، جئنـا إلى هنـا لأجلها، كي تتذوق النَّيفَة التي أحدثها عنها كثيرًا، ففاجأتنا قائلة وهي تنظر لمنصور بحدة:

- إمتى الشـغل حيبتـدي في الصالـة؟ ويا ترى نـوع البضاعة إيه.. عمومي والا خَرج بيت والا شغل مخصوص؟

اندهشت لجرأتها وغزارة معلوماتها التي لم أكن أعرفها مع أنني شريك بالصالة، خفت أن يُضايق سؤالها منصور، فقد ظل يتفرس في وجهها، ثم نفث دخان سيجارته ببرود لأعلى وهو يصفق عدة مرات، لم أفهم رد فعله، أهو سخرية من تجاوزها معه أم إعجاب بأسئلتها، فوجئت بأن صبي الحاتي مَثل بين يديه، تجاهلنا منصور وطلب طعامًا يكفي عشرة أفراد دون أن يأخذ رأينا فيه، ثم ظل يمازح الصبي متحدثًا عن زيارة الملك فؤاد للمطعم منذ أسابيع قليلة قائلًا:

- سمعت يا واد أن الكباب والكفتة آخر مرة كبسوا على نفس مولانا ورقد فيها أسبوع عيان، اعمل حسابك إحنا عاوزين ناكل ونعيش.

ضحك الصبي وهو يرد بثقة:

- فَشر يا أستاذ منصور ده إحنا موردين لحوم السرايا من سنين طويلة من أيام ما كان مولانا فؤاد سلطان مصر كلها، مفيش مرة زار فيها سيدنا الحسين إلا ولازم يعدي علينا ياكل لقمة، والحاج علي الدَّهان يخدمه بنفسه ومولانا يأكل من تتبيلة إيديه بألف هَنا.

التفت منصور إلى ليلى بعد انصراف الصبي وهو يشير نحوه:

- سمعتي الواد قال إيه؟ كبابجي الدهان مطعم بريمو مفيش كلام، لكن الصيت كله حصل لأن الملك فؤاد بياكل من اللحمة بتاعته وعلشان كده مصر كلها بتيجي هنا زي الملك، وبكرة يجيبوا رجلين ابنه ولي العهد فاروق على المحل. أنا كمان صالتي لازم تبقى البريمو على صالات المزاد كلها. استابينا؟

- لكـن أنـت ماجاوبتـش علـى أسـئلة ليلـى يـا تركـي، مـش مهم دلوقتـي بريمـو والا سـكوندو، المهم حنشـتغل إمتـى، وعمومي والا مخصوص؟

سألته وأنا ألتهم السلطات اللذيذة مع الأرغفة البلدية الساخنة التي رُصَّـت بعناية أمامنا، ولـم يقربها منصور البارد ولا ليلى المتنمرة، لكنه لم يلتفت لي، ظل مصوبًا بصره نحو ليلى في حِدة مردفًا:

- الشـغل أسرار يا سـت ليلى، وفي صالات المزاد بالذات بيكون زي الحـرب كـده.. له معـاد معين وتكتيـك مدروس، لكـن ماحدش يعرف عنه حاجة قبلها غير القائد، وإلا نخسر وغيرنا يكسب.

قالها وأشـعل سـيجارة ثالثة ثم أخـرج جنيهين مـن حافظة نقوده، تركهما بجواري وكبس طربوشه فوق رأسه قائلًا وهو ينهض فجأة:

- بالهنا والشـفا يا خواجة أنا عازمكم وسـيب الباقي بقشـيش، أنا اتتكـرت مشـوار مهم.. ولـو فاض منكـم أكل تبقى حماتـك أولى بيه علشان تحبك أكتر، اتمسوا بالخير.

مـا إن ابتعد منصـور عنَّا حتى ألقت ليلى بفوطـة الطعام في عصبية وهي تزفر بغيظٍ قائلة:

- جليـاط وقليل الذوق ومغـرور وبكرة يبلعك في بطنه ولا تعرف تاخد منه حق ولا باطل.

- مايصحـش يـا ليلـى، منصـور صاحب عمـري لكن في الشـغل ماعنـدوش حبيب.. بس ده كويس لنـا، على الأقل نضمن إن ماحدش

يضحك علينا. إنما قولي لي صحيح يعني إيه عمومي ومخصوص وخرج بيت؟!

وضعت ليلى قطعة خبز طرية في فمها ولاكتها ببطءٍ شاردةً حتى ابتلعتها، نظرت لي نظرة شعرت أنها أقرب للشفقة على حالي، ولم تُعلِّق بكلمةٍ بعدها طوال تناولي الطعام وحدي حتى أوصلتها إلى منزلها. ترجَّلت من بيتها لبيتي كي أهضم الكباب الذي ملأت به بطني وتسبب في ملئه بالغازات فسمحت لها بالخروج بأريحية على دفعات طوال سيري، عبَّأت بها فضاء المسافة بين البيتين، لكن عقلي ظل يكرر كلمات ليلى كأنما أصابه العطب.



1/8

وقفت وراء منصور بخطوتين داخل ساحة كبيرة مسقوفة حتى ثلثيها في قلب القاهرة، بالإضافة لشقة أرضية بواجهة المبنى من الناحية الأخرى، نتأمل الأرض الرحبة منبهرين، ربما كانت من قبل جراجًا مهجورًا أو حديقة خلفية وتم تبويرها، لا أحد يعرف على وجه الدقة، استأجرها منصور خالية بتسعة جنيهات شهريًّا مع الشقة. كان المبلغ فلكيًّا، تعلل بأن مساحة أربعمائة متر مربع في وسط البلد تستحق المخاطرة بإيجار مرتفع، واقترح تقسيمها لصالة وورشة صغيرة مع وجود مخزن مناسب بنهايتها، وافقت على مضض لكني

لـم أوقع العقد، فمنصور اسـتأجرها باسـمه، ووقع عقدهـا وحده في الليلة التي تناولت فيها الكباب وحدي بمطعم الدهان.

جلسـنا علـى مقعديـن متقابليـن تفصلنـا منضـدة متوسـطة،ضوء بعيد يتسـرب من كوة عالية ويتسـلط على وجه منصـور وحده، نهض مـن مكانه لتثبيت إطار خشـبي على الجدار الـذي خلفه، يحمل أصل الكمبيالـة التي كتبها على نفسـه بصالون صيدنـاوي. بعد ثلاث دقات من الشاكوش، رجع خطوة وهو يتأمل الإطار متفاخرًا:

– تحـت البـرواز ده حيكون مَطـرح مكتبي.. من هنا أقدر أشـوف الداخل والخارج.. والمتداري كمان.

أخـرج من جيبه رُزمة نقود ودفع بها على المنضدة لتسـتقر أمامي، دون تفكير أعدت الستين جنيهًا قائلًا بحسم:

– اعتبرهم جزء من نصيبي في الشركة والباقي...

قاطعني منصور بإصرار حقيقي:

– اعتبرهـم سـلفة، العريس الجديد محتاج لفلوس، أنت شـريكي فـي الصالـة زي مـا قلـت لك وكمان اسـمها مـن بكرة حيكـون صالة «أورفانيللي ومنصور».

حاصر الضيق فرحتي بوضع اسـمي على لافتة الصالة، ربما لأنني لم أستقل من وظيفتي مثله، ولا أعرف نسبة الشراكة بصورة محددة فلا توجد ورقة رسـمية بها، شـكرت الله أن ليلى ليست معنا وإلا نغَّصت علينا جلستنا، فيما يبدو قرأ منصور تساؤلاتي ففاجأني قائلًا:

- اسمعني كويس وفتّح ودانك، شركتنا ونشاطنا الجديد تابعين لوزارة التجارة، لازم حد فينا يفضل في الميري علشان يساعدنا، نصيبك حيكون التّلت في الصالة ووجودك في الوزارة له قيمة وتقدير، حنكتب ورقة عرفي بنصيبك علشان أنت موظف حكومة فيبقى حقك محفوظ.

- ومنين حتعلق يافطة كبيرة عليها اسمي وتعمل سجل تجاري وبطاقة ضرايب، وأنت خايف الحكومة تعرف أني شريكك؟ هي الحكومة عَمية والا طرشة؟!

- السجل حفهمك تكتب فيه إيه، والبطاقة الضريبية باسمي وحدي، ثم هو يعني مفيش عيلة اسمها أورفانيللي غيركم؟ بصراحة يا خواجة اسمك عاجبني، ومتخيل الخطاط حيكتبه إزاي بالخط الديواني.. تقدر تقول إني حاستغلك يعني.

قالها وضحك فانفرجت أساريري قليلًا، شعرت باطمئنان بسيط لوجود ورقة عرفية بخط يده تضمن حقي كما وعدني، الدنيا ستبتسم بالفعل كما تقول كلمات الأغنية التي رقصت على إيقاعها يوم استقالة منصور.

اقترب مني وهو لا يزال يضحك مكملًا حديثه:

- وبعدين أنت راجل يهودي وأصولك طلياني، يعني خواجة والحكومة بتعمل لك ألف حساب..

- بالشكل والاسم بس يا حبيبي لكن في الآخر أنا مصري زيك، موظف ميري، بافطر فول وبركب عربية السوارس وباكمل عشايا نوم وطافح الكوتة علشان أعيش زي الناس.

ابتلعت مرارة كلماتي ثم أضفت بصوتٍ خفيض:

- وباخاف كمان من عسكري الدرك.

ندت ابتسامة مبتورة من شفتي منصور بعدما تلاشت ضحكاته، ربما لم يشأ الدخول في جدل عقيم يفسد عليه فرحته بالصالة، راح يتابع بعض العمال الذين أحضروا الأثاث الجديد ومن بينه مكتبه العريض وخزانة حديدية في حجم رجل بالغ وكرسي خشبي دوَّار. جلست عليه لأجربه سارحًا في كلماته عن أصل عائلتي، ثم هززت رأسي مشفقًا على حالي.

تأملته من بعيد وهو يحفز العمال ويوجههم بتكبر واستعلاء كعادته مع مَن هم أدنى منه، نبهته كثيرًا لطريقة معاملته الفظَّة للسعاة والموظفين الصغار بالوزارة، كانوا يكرهونه بسببها، بتر كلامي يومها قائلًا:

- أنا أفضل أن الناس تخاف مني ولا تحبني، أنا طبعي كده يا خواجة وكل شيخ وله طريقة، ونصيحة مني لوجه الله.. اللي ما يشوفش نابك حيتجرأ عليك ويخربشك.

***

دُرت بجسدي على الكرسي الدوار، أعطيت ظهري لمنصور ودار سؤال برأسي لم أجد له جوابًا، لماذا لم يستخدم منصور لقبه «التركي» على الصالة خاصة وأنه جذاب تجاريًّا.. شردت في ماضيه، لا أحد يعرف أصوله، بالتأكيد لا علاقة للقب بإستنبول فمنصور رفيع وملامحه مصرية، ربما الرواية الأقرب للصحة أن يكون مجرد اسم شهرة لجده، أحد فتوات الحسينية أيام السلطان حسين، والذي لقي مصرعه إثر حادث غادر بعدما تسلل أحد صبيانه لفراشه وطعنه بمُديةٍ مسمومةٍ، لتذهب الفتونة لعائلة أخرى مثلما حكى لي أبي.

تربى منصور في حي الخرنفش، تعلم في مدرستي ذاتها، تعارفنا هناك وصرنا أصدقاء، كان يحميني من فتوات المدرسة كما أسميتهم، تلاميذ أقوياء غلاظ القلب، يطمعون في علبة السندوتشات والفاكهة التي آتي بها كل يوم. حماية منصور مشروطة باقتسامها معي وكنت راضيًا، في العاشرة ألحقه أبوه بإحدى صالات المزاد الرخيصة والمتواضعة بالحي للعمل بها خلال فترة الصيف، هي شبه صالة في الحقيقة بعدما أحجم التجار الكبار عن ارتيادها لرداءة مقتنياتها، تعتمد في أغلب زبائنها على اليهود الفقراء وبقية سكان الجمالية من صغار الموظفين، الذين يبيعون ما زاد على حاجتهم ويشترون ما يحتاجون إليه بالكاد. صاحبها يهودي من أصل مغربي لم يحبه أبي لأنه يغش في المعروضات، لكن منصور تعلق به وصار يقلده في مشيته وطريقة كلامه ونظراته، ما عدا كلمة «استابينا» التي يقولها طوال الوقت، فقد سرقها منصور من على لسان أبي ونسبها لنفسه.

حكى لـي منصور كيف عمل كصبـي مناولة، يُمسـك بالقطع أثناء قيام صاحب الصالة بعرضها على المزايدين، يظل واقفًا لدقائق طويلة أحيانًـا دون أن يتنفـس تقريبًـا كي لا تهتـز القطعة بين يديـه، بعد انتهاء المـزاد يعمل على تنظيف المكان ويعيـد ترتيب المقاعد لتعود الصالة للعـرض فقـط. كنـت أزوره كثيـرًا بعد انتهـاء العمـل فيكلفني ببعض أعمال النظافة، يثرثر عن الشغل والنسوان اللاتي يرتدين الملاية اللف ويترددن على الصالة، كان يقف على مقعد خشبي صغير ليرى فتحات صدورهـن وما تيسـر مـن النهدين، أسـأله عـن التفاصيـل بعدها وهو يسهب في وصفها، حتى كوَّنت من كلامه فكرة كاملة عن جسد المرأة عاريًا، ظلت تثيرني كلما تذكرتها وأنا أمارس عادتي السرية.

ترقى منصور بعدها، صار مصاحبًا للخواجة نسـيم صاحب الصالة وهو يشـتري من الدلالين وبائعي الروبابيكيا، الذين يدلونه على بيوت أهـل الحـارة المتوفين وما فيها مـن كراكيب، وقتها أخبرنـي أنه التقط سـر الصنعة بإحساسـه، لكنه لم يدرك بعد هل هذا الإحسـاس صادق أم كاذب، لـم يدلـه أحد فاعتمد على حدسـه، بعدهـا توقفت حكاياته عن النسـوة المترددات على الصالة، وصار يحكـي عن خبايا النفوس التـي يراها علـى الوجوه، لكن حكاياتـه هذه المرة لم تكـن مثيرة لي. حتى جاء صيف غائم وشـعر صاحب الصالة بأن منصور تكونت لديه خبرة كبيرة في وقت قليل، فاستغنى عن خدماته خوفًا منه، هكذا أشاع منصور عن سـبب الاسـتغناء عنه. بينما حُجة طرده التي روَّجها نسـيم المغربي على الطرف الآخر، أن منصور ينقل أسرار الصالة للمنافسين

ويسرق منها بعض القطع ليبيعها لحسابه فلم تقبله صالة أخرى من بعدها، وحُرم من العمل بصالات اليهود في المنطقة كلها.

ظل الحلم يكبر بداخل منصور ولا يرى النور، نخطو بأعمارنا من سنة إلى أخرى وهو يصطحب حلمه معه، يتردد أسبوعيًا على صالات المزاد الكبيرة، متفرجًا، متابعًا، مشتريًا أحيانًا، يدوِّن في نوتة صغيرة بعض الملاحظات، حتى تضخم المارد وحطم قمقمه لأبسط الأسباب، فقط لما قررت أنا الزواج.

انتبهت إلى الإضاءة القوية التي غمرت المكان، بعدما ركبوا المصابيح الكبيرة بالسقف ووضعوا القطع كلها، أعجبتني الصالة وهي مكدسة بالمعروضات، لا يمكنك السير بسهولة فيها، بالكاد أرى مكتب منصور وسطها، تكدسها يُثلج صدري ويُبهج قلبي، كل هذه القطع ستتحول إلى أوراق بنكنوت في حسابي. هكذا يتحقق حُلمي ويكبر أمام عيني. لمحت منصور يتابع كتابة اللافتة مع الخطاط، يرسم الياء التي تميز نهاية اسمي، اقتربت وأنا أقول بثقة:

– لو أنا فِضلت عازب كان زمانك لسه في الأرشيف، خطوبتي لليلى هي اللي حققت حلمك يا تركي.

التفت نحوي لبرهةٍ طالت حتى حسبته سيقول شيئًا من تبدُّل ملامحه، لكنه تجاهلني بعدها كأنني غير موجود.



1/9

أحلامي في الدنيا ثلاثة ثانيها أن أصبح غنيًا، وثالثها إنجاب أربعة أطفال نصفهم من الإناث، لأسميهما على اسمَي ليلى وأمي. اليوم حققت حلمي الأول.. تزوجت ليلى، ابنة سليمان حسني رئيس العمال في محلات «جاتينيو»، الفتاة الوحيدة التي عرفتها في هذه الدنيا، والوحيدة التي تحدثت معي واقتربت مني ومسحت خجلي من فوق ملامحي، كانت تلعب بجوارنا في حديقة عدس مع صديقاتها ولم أجرؤ يومًا على الحديث معها، حتى شجعني منصور مرة وتجاذب معهن أطراف حديثٍ ظللت طواله صامتًا أنظر لعينيها، بعدها أنقذتني من الكلب واقتربنا أكثر، ثم خطبتها أمي لي عندما ألححت عليها، ولدهشتي رحبت فصار حبي لليلى عشقًا من بعدها.

ليلى من أسرة يهودية بسيطة متدينة، اكتشفت عند زواجي منها أنها تكبرني بعام، اعترضت أمي في البداية، ثم لانت ووافقت لمَّا وجدت ليلى مثل ابنتها التي تمنتها ولم يمنحها لها القدر، أما أهل ليلى فقد رفضوا بإصرار زواجي منها، ثم رضخوا بصعوبة أمام إصرار ليلى وتمسكها بي. تم الزواج بحفل بسيط فوق سطح بيتنا بعد تغطيته بالفراشة الملونة، لم يحضره سوى منصور وبعض أقاربنا وعدد محدود من جيراننا، أعددنا وجبة عشاء بسيطة للمدعوين، ذبحنا إوزتين وثلاث بطَّات، وأعدَّت أمي أطباقًا كثيرة من الخرشوف المسلوق الذي أحبه،

طهت جارتنا راشيل حلة قلقاس كبيرة، وأحضر يوسف حسني شقيق ليلى بضع زجاجات نبيذ فرنسي وقام بدور الساقي السخي رغم ضيق أهل ليلى من تصرفه، استأجر بعض أقاربنا سماعات مكبرة لتشغيل أسطوانات عبده الحامولي والست منيرة المهدية، ثم فاجأني منصور بدخوله متأخرًا صحبة فرقة موسيقية من البوليس، خمسة عازفين جلبهم من حديقة الأزبكية مقابل جنيهين لإحياء الليلة، جاملني لكنني ظللت متوترًا طوال تواجدهم بسبب ملابسهم الرسمية.

حققت لي ليلى ربع أمنيتي الثالثة بعد أقل من عام على زواجنا، فاجأتها آلام الوضع على متن السفينة التي أعادتنا من كابري، كنَّا قد سافرنا لشراء بضاعة مع منصور لكننا لم نفعل شيئًا سوى الفسحة، أظن أن منصور أراد لنا ذلك، كانت لفتة كريمة منه بعدما تحمَّل كل مصاريفنا، لكن لليلى رأي آخر كالعادة، راهنت أنه سيخصمها من أرباح الصالة فيما بعد. كسبت ليلى الرهان بعد شهرين لكني لم أخبرها بالحقيقة.

في نهاية الرحلة وضعت طفلنا الأول قبل بلوغنا الإسكندرية بأيام قليلة، أهداني القبطان علبة فضية قديمة لكنها جميلة، بداخلها راقص وراقصة صغيران للغاية، كلما أدرت مفتاحها أصدرت نغمة موسيقية يتراقصان عليها. أعجب بها منصور وأخذها مني لتقييمها، لكني رفضت بيعها في المزاد، فوعدني بأن يصنع مثلها لنفسه ويعيدها لي مرة ثانية، ولم يفِ بوعده.

اخترت لطفلي اسمًا مركبًا رغم معارضة ليلى، أعلم أنها تكره منصور لأسباب عديدة، حكايات أمي لها عمًّا فعلته والدته بحارة اليهود، وسوء أخلاقه منذ كان صبيًّا صغيرًا كثير التشاجر، معاكساته لصديقاتها لمَّا كنَّا شبابًا، ثم شراكته الحالية معي التي لا ترضيها، وترى أنه يستغل وظيفتي الحكومية فقط كسبب لشراكتي، لكني صممت على رأيي وركبت رأسي، أسميته على اسمي واسم شريكي وصديقي الوحيد في هذه الدنيا التي فتحت ذراعيها لنا واحتضنتنا برفق ودللتنا بأكثر ممَّا نتخيل. اخترت الاسم الذي أسماني جدي به وأحببته، صار اسم ابني هو اسم الصالة.. «أورفانيللي منصور».

***

توسع نشاط صالتنا، عرض منصور التركي ما اشتراه مع قطع قديمة تحصَّل عليها من بيوت الأهالي بحي الخرنفش ومن بعض جيراننا ومعارفنا، ثم اكتشفت أن مخزننا مليء بقطع قديمة كان منصور يجمعها عبر السنوات الماضية كأنه ينتظر هذا اليوم ويعمل له حسابًا منذ صغره، بعدها بدأ يتردد على تجار الأنتيكات والدلالين ليشتري بالآجل قطعًا كثيرة، ووقف بائعو الروبابيكيا في صفوف طويلة أمام باب صالتنا الخلفي فاشترى من بعضهم قطعًا قليلة، راح يُعيد تلميعها وترميمها أو يترك عيبًا بسيطًا بها يدوِّنه في دفتره لكنه يُضيف إليه من خياله الكثير ليُجمِّله، فتحمل القطعة تاريخًا جديدًا كأنها ولدت مرة ثانية، فهذه سقطت من جيب الملك أثناء ركوبه فرسة جامحة بحدائق قصر الظاهرة، وتلك خُدشت بسبب عبث الخديوِ توفيق بها وهو طفل

ولما نهرته الوالدة باشا ارتبك فانسابت القطعة من بين أصابعه وحدث بهـا هذا الخـدش التاريخي. حتى الصالة لم تسـلم مـن حكاياته، كان يقـول عـن الخواجة أورفانيللي الذي يسـبق اسـمه اسـم منصور على لافتتهـا إنه حفيد رئيس وزراء إيطاليا، لكنه تخارج مضطرًا من شـراكة الصالـة لما بدأت الحرب الثانية،أطلق منصـور لكذبه العنان،لكني لم أجرؤ على كبح جماحه بسبب المكاسب التي حققها لنا.

تركـت بيت الضاهـر القديم وانتقلنا إلى شـقة أكبـر وأرحب بحي شـبرا الراقي اسـتأجرتها بخمسـة جنيهات شـهريًا رغم معارضة ليلى وأمي، لكن مكاسبي من الصالة لم تُشعرني بفداحة الإيجار، ولا كنت أسـتحق لقـب المجنـون الـذي نعتتني بـه ليلـى وأيدتها فيه أمـي التي اصطحبتهـا لتعيش معنا وترعـى ابني أورفانيللي الصغيـر بعدما نزلت ليلى للعمل عندما بلغ الثالثة.

عرَّفنـا جـورج ليفـي علـى بعـض عملائـه، وأمدَّنـا ميخاليـدس بالكتالوجـات وبعـض العمالـة المدربـة المخضرمـة، كبيرهـم لبيب الضمرانـي الرجل البدين المخيف ومعه خمسـة مـن ضبيانه، ثم عيَّن منصـور الريـس هـارون معرفته القديمة ريِّسًـا للعمـال فتضاءل حجم الضمرانـي وتابعيه، امتلأت خزينـة الصالة بالأموال في فترة قصيرة لم تتعدَّ العامين، بدأ منصور بعدها يشـتري مـا يحتاج إليه فقط، ما يعرف أنه سيبيعه قريبًا لزبون جاهز، ثم راح يعرض لحساب الغير مثل أغلب الصالات مكتفيًا بالعمولة، ولو أنه ظل يجلب أحيانًا بعض الكومبارس ليظهروا أمام المزايدين على أنهم أصحاب القطع الأصليين.

توقفت بالتفكير أمام تلك المساعدات الكريمة من أصحاب الصالات الأخرى حائرًا في كيفية ردها لهم، نقلت حيرتي لمنصور، تقمَّص يومها دور الحكيم كعادته وهو يقول بصوتٍ رخيم:

- ماحدش منهم عمل لنا معروف علشان نرده، كلنا بنبيع حاجاتنا لبعض يا خواجة، الزباين كتير ومفيش صالة تستوعب هَوَس الناس وحبهم لجمع الحاجات القديمة، الزبون اللي بيبعتهولنا ميخاليدس أو جورج ليفي علشان يشتري مننا حاجة، بكرة هُمَّا يشتروها منه ويبيعوا له حاجات تانية بدالها.. إحنا حاطين إيدينا في جيوب الزباين وبنشتغل بفلوسهم، مصر صالة مزاد كبيرة والشاطر اللي يبيع فيها ولا يشتري.

انتهت الحرب الثانية وأعلنوا انتحار هتلر، وزَّعنا شربات على أهل الحي كله، ظهر أغنياء الحرب بأموالهم وأخرج أثرياء القاهرة ثرواتهم المخبأة، صارت «أورفانيللي ومنصور» من أهم صالات المزادات بالمملكة المصرية ربما لأننا محظوظون، بات موقعها في وسط البلد أشهر من أي مكان آخر، صحيح هناك أكثر من خمسين صالة تعمل في الوقت ذاته لكن صالتنا الأرقى، البريمو كما أراد لها منصور، كنا نكسب العشرات فصار دخلنا بالمئات، ثم اكتسبت أهمية إضافية عندما زارها الملك فاروق بعد افتتاحها يوم عيد ميلاده الخامس والعشرين، وكرر الزيارة بعدها بأعوام.. ومن بعده توافد الوزراء والوجهاء على الصالة لتتضاعف أرصدتنا بالبنوك مرة ثانية.

ودَّع منصور طربوشه القصير إلى الأبد، صار يرتدي قبعات إنجليزية من الجوخ الفاخر، ولأول مرة صرنا نمتلك سيارة، اختار هو شفروليه كبيرة بسقف متحرك، بينما أعجبتني ستروين سوداء صغيرة بأربعة أبواب، لكنني خفت من قيادتها فتركتها لليلى التي كانت تقود ببراعة دفعتني لأن أصفق لها أغلب المرات وأنا جالس بجوارها كل مرة.

***

تظل الزيارة الملكية الأولى صاحبة الانطباعات التي تدوم، في اليوم الذي زار فيه الملك صالتنا اشترى شمعدانًا فضيًّا قديمًا، زايد عليه لمرة واحدة، رفع ثمنه للضعف بعدما عرضه منصور بعشرين جنيهًا، فلم يجرؤ أحد بعدها على زيادة جنيه واحد عمَّا قرره الملك، ورغم أن منصور عرض على رئيس الديوان قبلها بيوم في المعاينة إرسال الشمعدان لقصر عابدين مباشرة، لكنه رفض وأخبره أن الملك مصمم على حضور المزاد وسيبقى فيه حتى نهايته، يومها لم يشترِ فاروق قطعًا أخرى، بل حتى لم يزايد مرة ثانية. في نهاية الزيارة استأذن منصور من رئيس الديوان الملكي لالتقاط صورة مع جلالته، هرولت كي أظهر على يسار فاروق مبتسمًا في سعادة رغم نظرة غضب لاحت بعين منصور لكنها اختفت بسرعة كومضةٍ بارقة.

بعد الزيارة أعطاني منصور عشرين جنيهًا، ثم ابتسم وأخرج جنيها ذهبيًّا وضعه في كفي فوقها قائلًا:

- كـده أبوك يرقد مرتاح في قبره يا خواجة، الملك فاروق اشـترى الشمعدان بتاع زمان.

ظللت مبتسمًا ربما لنهاية اليوم مـن فرط المفاجـأة الجميلة التي أعدها لي منصور، كنت نسـيت حكاية الشمعدان المينوراه وجنيه أبي والعلقة السـاخنة التي تلقيتهـا، ظل هذا اليوم لـه مكانة خاصة عندي، بعدها زرت قبر أبي وحكيت له الحكاية كلها باكيًا ثم عدت مستريحًا، أمـا صورتنا مع فاروق فوضعتها في إطار مذهب، وعلقتها على يسـار مدخل الصالة مباشرة بعد تكبيرها في استوديو فيليب بالجيزة، ليلتفت لها كل ضيوفنا وهم داخلون.

على مدار السنوات الثلاث الأخيرة ظلت الأرباح تتضاعف، القطع لا تبيـت أسـبوعًا واحـدًا بالصالة منذ شـرائها حتى تكون فـي طريقها لمالكها الجديد، منصور يعمل لأكثر من اثنتي عشرة ساعة يوميًّا، بينما لي موعد ثابت بالصالة كي أحصل على نصيبي من عمولة البيع، اليوم الخامس والعشرون من كل شهر مع قبض الماهية من الوزارة.

كنت أتردد أيضًا مرة كل أسبوع.. الثامنة مساء الخميس بعد انصراف الزبائـن وغالبية العمال، لأصطحب منصـور إلى كازينو بديعة بالجيزة لمشـاهدة الراقصات والسـهر حتى منتصف الليـل، ولأن المكان لقي هـوى في نفـس منصور، فتركنا زجاجات خمرنا هناك، بدلًا من شـراء زجاجة كل مرة.

في ليلة كنا نسـتعد للمغادرة مثل كل خميس لقضـاء السـهرة، لكن لبيـب الضمراني العامـل بالصالة اقترب من منصـور وهمس له ببضع

كلمـات، تقلبـت ملامحه علـى إثرها والتفـت لرئيس العمـال هارون زاعقًا:

- الواد ده يتعمل له جرد وينطرد، بعدها ما اشوفش وشه في وسط البلد كلها.

أشـار منصور لعامل معين فأمسـكوا به، راح الريـس هارون يفتش بؤجة ملابسـه ومتعلقاته بيدٍ مدربةٍ تعرف ما تريد بأسـرع الطرق، لكنه لم يجد شيئًا مسـروقًا، مِلت بجسدي ناحية منصور مستفسرًا، أخبرني بـأن الضمرانـي رأى العامل يـأكل كبابًا فـي مطعم الألفـي مرتين هذا الشهر. تساءلت بدهشة:

- طيب وإيه المشـكلة يـا منصور؟ ربنا يفتح عليـه وياكل اللي في نفسه والألفي رخيص!

- أنـت أصلـك على نياتك، الـواد ده ماهيته يادوبـك تخليه يعيش علـى الفول والطعمية لأنـه متعين عندنا عمالة جديـدة، وطالما بياكل كباب يبقى بيسرقنا ولازم يمشي.

- لكن الواد طلع ما سرقش منـا حاجة.

- يبقى بيخبص علينا وبيطلع أسرار الصالة لصالات تانية.

- الواد شكله غلبان يا منصور ارحمه واديله فرصة.

- الغلابـة علـى باب الجامـع يا خواجة موش فـي صالتي، أنا مش فاتح جمعية خيرية، ولو صعبان عليك طلع له حسنة من نصيبك.

طـرد منصور الصبي، خرج وعلى قفاه آثـار أصابع كف الضمراني أشـبه بخُف جمل دهسـه بلا رحمة، أشـحت بوجهي الناحية الأخرى أثناء خروجه متألمًا لبكائه، وبعدها بيومين نسيت ضيقي من الموضوع كله كما توقع منصور بالضبط.



1/10

يمر اليوم ببطء رغم أننا في الشتاء والنهار قصير، عقارب السـاعة تقترب كسلحفاة من الواحـدة ظهـرًا، أغلقـت الملفـات وهممـت بالنهـوض لأضعهـا علـى الـرف فوق رأسـي، فجـأة وجـدت منصور أمامـي، مُمسـكًا بمبسـم طويـل بنهايتـه سـيجارة رفيعة، أغرق شـعره بزيت الفازلين فصار حالك السواد لامعًا، يرتدي بذلة إنجليزية رمادية فاتحة، تترصع أكمام قميصه بأزرار ذهبية، وتتدلى سلسـلة الساعة من جيـب الصديري، أخرجها بهدوء ونظر فيها، ثم تلفت حوله ليتأكد من أن أحدًا لا يسـمعه، نقل بصره نحوي قائلًا ببرود يشـي بنبرة من حَسم قراره:

-أنا فكرت وسـألت.. ولقيت من الأفضل إني أروح المشـوار إياه لوحدي.

- ومين الألمعي اللي سألته وشار عليك بالشورة المهببة دي؟!

ابتسم منصور نصف ابتسامة صفراء ثم أشار لرأسه. اقترب ناحيتي أكثر ليقول بصوتٍ خفيض:

- ده علشان مصلحتك، أنا خايف على شغلك هنا في الوزارة.

ألقيت بحمولة الملفات على الأرض بعصبية فأحدثت ضجة لفتت أنظار الموظفين، وصحت معاتبًا:

- ليه بقى وبأمارة إيه؟ هي يعني لو عرفت إن أنا موظف في وزارة التجارة حتبلغ عني معالي الوزير ويرفدني؟! رجلي على رجلك يا منصور يا تركي في المشوار ده بالذات.

كتم منصور فمي بكفه، جذبني بقوة من ذراعي بعيدًا عن عيون الموظفين المتلصصين وهو يبتسم لهم ابتسامة لزجة ضاعفت من فضولهم حتى غادرنا الأرشيف معًا.

يومها كانت أول مرة في حياتي أركب سيارة حمراء.

***

عبرت السيارة الكاديلاك الملكية بوابة قصر الدوبارة، زادت من سرعتها وهي تقطع طريقًا طويلًا بين صفَّي نخيل، تداعب نسائم الهواء رؤوسها فتهتز بدلال مُرحبة، دارت العربة نصف دورة ثم صعدت ممرًا مرتفعًا، وتوقفت أمام بوابة القصر الداخلية، غادرها منصور تاركًا حقيبته الجلدية الكبيرة، وأنا من بعده حاملها.

صافحنا التشريفاتي بإيماءة بسيطة، سرنا وراءه لمسافة مخترقين بهوًا فخمًا، يرتفع سقفه لأكثر من عشرين مترًا، تتدلى منه ثريات ضخمة تضيء إضاءة خافتة، عن يميننا ويسارنا خدم كثيرون، واقفون

في أماكنهم كتماثيل في شرف استقبالنا، يرتدون قفاطين مزركشة تتخللها خيوط ذهبية لامعة تنافس لمعة بشرتهم الأبنوسية، حتى الآن لا أفهم سببًا لذهابنا إلى قصر الدوبارة بدلًا من عابدين، لكني لم أجرؤ على إعادة السؤال بعدما رفع منصور كتفيه متعجبًا مثلي ونحن بالسيارة.

وقف منصور بمفرده منتظرًا أمام غرفة ذات بابين كبيرين محليين بماء الذهب، لينفتح أحد بابيها وتظهر أمامنا سيدة مهيبة الطلة رغم قصرها وبدانتها الظاهرة، شعرها يميل للون الفضي، ترتدي فستانًا فستقيًا بسيطًا لكنه أنيق، مبهر. تقدمت نحونا السيدة، قدمها لنا التشريفاتي.. كبيرة وصيفات الملكة فريدة.. نعمت هانم مظلوم.

ألفيتها امرأة متجهمة، صارمة الملامح، حيَّت منصور بإيماءةٍ من رأسها لا تكاد تُرى ثم رمقتني بنظرةٍ عابرةٍ وتجاهلتني بعدها. تحركت السيدة بخطواتٍ منتظمةٍ كقائد عسكري باتجاه غرفة أخرى، سار منصور بالقرب منها وأنا أمد الخطى خلفهما بسبب سمنتي، أبلغتنا نعمت هانم بنبرة آمرة بضرورة الابتعاد مسافة متر على الأقل عن جلالة الملكة أثناء الكلام معها، التحية تكون بالرأس فقط مع انحناءة بسيطة، الإجابة على قدر السؤال، لا مبادرة بالحديث ويكون دومًا بصوتٍ خافتٍ أقرب لموسيقى، كررت جملتها الأخيرة وهي ترمقنا بنصف عين، ثم راحت تحرك كفَّها مبسوطة مُحدثة موجات في الفراغ لنفهم مقصدها. أومأ منصور برأسه عدة مرات كبندول ساعة مضطرب، شعرت بحبات عرق تلفح جبهتي من جراء اضطرابي لكني

أسرعت الخطى وراءهما إلى غرفة أوسع وأرحب فدهشت، لم أتخيل أن الغرف تتسع كل حين بهذا القدر.

وقفت الملكة فريدة في ركن قصي، أسفل لوحة كبيرة للملك فؤاد تشد الانتباه بدقة تفاصيلها وألوانها الزاهية، مبتسمة ابتسامة باهتة، حيَّاها منصور من مسافةٍ بعيدةٍ وتسمَّر في مكانه، تقدمتُ بعده خطوة وحييتُها بإيماءةٍ خفيفةٍ من اضطرابي، ورجعت مكاني مسرعًا والعرق يزداد تدفقًا من جبهتي. رحت أتأمل فستانها الأحمر وقبعتها البيضاء التي خلعتها بعدما حيتنا، وجدتها أقصر ممَّا تبدو عليه في الصور التي تُنشر لها بمجلة «الهلال»، خفيضة الصوت، جمالها هادئ لكن ملامحها منطفئة، شردت للحظة في المشهد من حولي، أول مرة أدخل قصرًا لملك، والملكة تبدو حزينة رغم شبابها، كيف يحزن المرء وسط كل هذه الأبهة والفخامة والثراء؟!

أفرغ منصور بعض محتويات حقيبته كساحرٍ مخضرم، ترك المقتنيات المهمة مؤقتًا بقاع الحقيبة ليزيدها تشويقًا، الطلب محدد منذ ثلاثة أسابيع، واللقاء مُرتب له بعناية، جلالة الملكة ترغب في شراء بعض العلب الفضية والبرونزية المتفردة، فالملك يهوى جمعها ويقتني منها المئات، والمناسبة هي عيد ميلاده السابع والعشرون.

يدرك منصور قيمة تقديم عُلب متشابهة كأنها تنتمي لعصر واحد قديم، ستُعجب الملكة وتجعل السراي تشتري أغلب مقتنيات الصالة ممَّا يضمن لنا حسابًا بنكيًّا جديدًا يضم رقمًا بجواره صفران، أخرج

منصـور المونوكـول من جيـب الصديـري ووضعه على عينـه لتتدلى سلسـلته الذهبية على صدره، راح يشرح لجلالتها تاريخ كل علبة لكنه لـم يبدأ بالمبالغة والتهويـل كعادته. مدت فريدة يدها لتتفحص العلب المعروضة، قلَّبتها عدة مرات بلا اكتراث، فأدركت أنها ستكون فريسة سـهلة لمنصور، بدا واضحًا من أسئلتها وطريقة فحصها لكلِ علبة أنها قليلـة الخبرة والصبر معًا، مواصفات زبـون صالة المزاد «اللُّقطة» كما يقول منصور. نقلت بصـري صوبه لأتابع انقضاضه عليها، تلمع عيناه كلمـا اختارت الملكة علبة لتقترب السـيدة نعمت مظلوم وتتحسسـها بدورها، ثم تضع كفها عليها، كأنها تخشـى أن يُعيدها منصور للحقيبة مرة ثانية.

خنقـت التقاليـد منصـور، وقيدته قواعـد البروتوكـول التي تفصله عـن زبونه بمسـافة كبيـرة، لكنه راح يمد حبـال الصبر لهـا، مثلما يمد الصياد المحنك خيوط صنارته التي علقت بها سـمكة كبيرة، هي تريد التقـاط الطعم وتظل بعده هائمة في بحرها، وهو ينتظر الفرصة لجذبها مـن الماء فجأة. مع الوقت بـدأ يُفرج بالتدريج عـن خياله المحبوس، صوَّر لها تاريخًا مثيرًا لبعض العلب، مع أنه رممها بورشـة البربري في الإسـكندرية كما أخبرني، والأخريات مشتراة في حضوري من بيوت بعـض الملاحين القبارصـة بالإسـماعيلية عندما ذهبنا منذ أسـبوعين لصيد الأسـماك هناك، فقط أضفى عليها طبقـة رقيقة من بودرة الزنك المنصهـر فجعلتها أكثـر قدمًا، لينخدع بها الشـخص العـادي وأحيانًا بعض الخبراء.

بعـد سـاعة أو يزيد من حكايـات منصور اختـارت الملكة علبتين، واحدة من الفضة والثانية برونزية، من بين ثلاثين علبة، إحداها تحمل نقشًـا لعازف كمـان يمتطي حصانًا ذا أجنحة، لم تسـأله هذه المرة عن سـعرهما، لكن منصـور أصر على منحها علبة ثالثة، مقـررًا أنها تُكمل المجموعة، قائلًا وهو ينحني انحناءة طالت عن سابقتها:

- عيد ميلاد مولانا.. عيد لنا كلنا، اسمحي لي واقبلي من شخصي المتواضع الهدية لأتشرف.

كبـرت دهشـتي وكادت تسـبق يـدي لجذب العلبـة الثالثـة من يد الملكة، رمقت منصور بنظرة غاضبة حتى لا يهديها هذه العلبة تحديدًا لكنـه تجاهلني، قبلت الملكـة الهدية بكبرياء ثـم تبادلت مع وصيفتها نظـرات ذات مغـزى، بعدهـا ارتـدت قبعتهـا وقفازهـا وحيَّتنـا بهدوء وانصرفت، ظللنا ننحني عدة مرات حتى لما أعطتنا ظهرها، ثم انشقت الأرض عن التشريفاتي مرة ثانية مع أننا لم نرَه طوال عملية البيع، راح يشير لطريق الخروج عبر رواق طويل باسطًا ذراعه في اتجاه محدد.

التفـت منصـور نحوي وطلب مني حمل الحقيبـة مجددًا ثم مضى فـي طريقه ولم ينتظـر مني ردًّا، حملتها على مضض هـذه المرة أيضًا. قبل مغادرتنا باب الســراي بخطوة واحدة استوقفنا التشريفاتي، مد يده بظرف منتفخ وهو يبتسم لأول مرة موضحًا أنه نفحة من جلالة الملكة، دسَّه منصور في جيبه بلا تردد وهو يبادله الابتسامة بأوسع منها.

غمز لي منصور بعينه بعدما ركبنا السـيارة فلم أفهم مقصده، همس مراهنًا إياي على قيمة المبلغ المظروف، لكنني عاتبته على منح الملكة

العلبة الفضية التي أهداها لي قبطان السفينة عندما أنجبت طفلي، تجاهل كلامي وظل يحفزني على رهانه.

ردَّدت كلمته الشهيرة في ضيق بقبولي الرهان.

- استابينا..

قدرت أن المبلغ لا يزيد على مائتي جنيه، لكن منصور أشار لي بثلاثة أصابع، ثم أغلق الزجاج الفاصل بيننا وبين السائق، أخرج النقود وأحصاها بسرعةٍ فائقة. كسب منصور الرهان، أدرك بلمسة خبير أن المظروف يحوي ثلاثة آلاف جنيه بالضبط كما توقع وصدق حدسه. شعرت بدقات قلبي تكاد تمزق الصديري، العلبتان تساويان على أحسن تقدير مائة جنيه، والثالثة المهداة مملوكة لي، ولو باعهم منصور في مزاد شرس لمجموعة من المهاويس لما وصلت قيمتهم لنصف هذا المبلغ، ما كل هذه الأموال السهلة، مع أنني في البداية ظننت أن الملكة ستفاصل في الثمن لتحصل على العلب بسعر مُخفض، ففوجئنا بكرم حاتمي أغرقنا حتى أذنينا.

أغمضت عينَيَّ، ووضعت كفَّيَّ فوق الحقيبة التي أحملها، ابتسامتي تنافس بوابة القصر الملكي في اتساعها ونحن نعبرها عائدين للصالة فرحين بالمكاسب، رغم نار الغضب التي اشتعلت بداخلي وحزني الذي جاوز النخل طولًا، لكني أجَّلت وقت الحساب.



1/11

تلف الغيوم مدينة القاهرة برفق مثل كل شتاء قبل أن تفاجئنا بانهمار المطر، تزداد السحب وتتكاثف، رمادية داكنة متهيئة لإغراق الشوارع ورؤوسنا، أحيانًا يسبقها إنذار سماوي خاطف، يدوي الرعد ويومض البرق، لتنفتح مظلات وتُكبس طرابيش، وتُستعدل قبعات وأولها قبعة أبي كي لا تُطيِّرها الرياح.

ظللت أنظر عبر النافذة طوال طريق العودة متجنبًا الحديث مع منصور حتى وصلنا للصالة، غادرنا السيارة الملكية مهرولين من الأمطار، ما إن دخلنا وخلع منصور معطفه حتى ألقى أمامي برزمة أوراق مالية، ثم طوى الظرف في جيبه وهو يوليني ظهره كمَن فرغ من إلقاء مهملات بسلة قمامة. علا صوتي:

– إيه الفلوس دي كلها.. بتراضيني لما حسيت إني غضبت من كلمة مساعد، والا علشان شيَّلتني شنطة معاليك النهارده مرتين، والا لأنك أهديت علبتي الفضة للملكة؟

تظاهر منصور بانشغاله في فحص خاتم بالعدسة فأعدت سؤالي بغضب، أجابني وهو يُغلق درج مكتبه بعنف:

– دي ألف جنيه نصيبك بما أنك شريكي بالتلت، العلبة الفضة مش بتاعتك دي واحدة شبهها وعلبتك حترجع لك، ولو حتفضل كل يوم والتاني غضبان.. نفُض الشركة.

ترنحت روحي عندما أصابت كلماته كبريائي، لملمت بقايا كرامتي بالكاد قائلًا:

- مش مهم العلبة ولا إني أشيل لك الشنطة، إنما لازم تعرف إن أنا شريكك موش بالفلوس بتاعتي بس يا سي منصور لما سلفتك الستين جنيه زمان، أنا شريكك في حياتك، في كل خطوة خطيناها مع بعض..

تحشرجت كلماتي فأشار منصور بإصبعه لشفشق المياه لكني أكملت بصعوبة:

- من غيري ماكنتش تعرف تظبط ملف الضرايب، أنا بابعد عنك المفتشين، وباداري على شريكك الخفي لما بيسألوا ليه الصالة على اسم شخصين.. «أورفانيللي ومنصور» مع إن السجلات باسمك لوحدك، من غيري ماكنتش تقدر تحتفظ بعلامة الجرسين التجارية، لكن أنا اديتك أولوية على غيرك.. لصالحك.

ضرب بكف على المكتب وبالأخرى أشار نحوي مقاطعًا:

- لصالحنا.. أنا وأنت يا سي أورفانيللي، إحنا بيننا اتفاق وعمري ما أكلت مليم عليك، عشر سنين وحداشر شهر وأسبوعين وأنا بتعامل معاك كأنك موجود في الصالة كل يوم، مع إنك مش بتيجي غير مرة كل شهر.. وعلشان تقبض نصيبك على الجاهز أو نخرج نسهر وأنا اللي باعزمك كل مرة.

جلس منصور على حافة مكتبه، مشعلًا سيجارة ثم دسَّها كعادته بين شفتَي بهدوءٍ مسترسلًا:

- قبل ما تتكلم عن الشراكة ما تنساش إنك الشريك الخفي وبتحمي نفسك وفلوسك قبل ما تحميني معاك.. لكن قول لي الأول أنت تفهم إيه في المزادات؟ تعرف إيه عن الكتالوجات والخبرة والتقدير بالعين من غير ما إيدك تلمس القطعة؟!

نهض منصور وتحرك ببطءٍ حتى وقف وسط الصالة وصوته يعلو كممثل وحيد على خشبة مسرح مردفًا:

- عمرك استقبلت زباين باشاوات والا حتى بهوات؟ تعرف إزاي تديهم اللي أنت عاوز تبيعه مش اللي هُمَّا جايين يشتروه؟ عمرك اتعاملت مع معلمين حي العطارين وأسطوات نجارة الأنفوشي والا حتى مع صبيان الزخرفية بتوع مدرسة السَّنية اللي بيرممولنا القطع؟! ما ترد.. ساكت ليه يا خواجة؟

- أنا يمكن أكون...

اشتمَّ منصور ارتباكي من أسئلته وصمتي الذي أتوارى خلفه، فانطلقت كلماته كرصاصات وهو يقاطعني:

- أنت بتكسب من غير تعب ولا مجهود، حتى شغلك في وزارة التجارة ومنع المفتشين وملفات الضرايب وشكاوى اسم صاحب الصالة المخفي بتاخد عليها إكرامية، والا أنت فاكر الماهية اللي

بتوصلك كل شهر فوق أرباحك دي صدقة مني ولا زكاة عن الصالة؟! اصحى وفوق يا خواجة وبلاش تضيع نِعمة ربنا بعتها لك على إيدي.

انتحب صوتي وأنا أرد هجومه الشرس الذي يمزقني:

- النِّعمة دي أنا شريك فيها يا منصور لما استغليت شكلي وثقتي فيك مع الخواجة ليفي في المزاد الوهمي بفلوسي، بالستين جنيه ميراثي من أبويا، بشغلي في وزارة التجارة علشان أحمي مصالحك، باسمي على يافطة الصالة فبقى عندك شريك طلياني يهودي لزوم الوجاهة وعلشان الحكومة تعمل لك حساب في المحاكم، والا فاكرني عبيط؟

ضحك منصور باستهزاء وهو يقول:

- ما كنتش أعرف إن الست ليلى حكيمة وبتعرف تدي لك حُقن كويسة كده.

قبل أن أرد على إهانته أردف بنبرةٍ عصبيةٍ وملامح غاضبة:

- افتح ودانك للكلمتين اللي حاقولهم علشان تعرف تطرشهم تاني للست ليلى، أي كومبارس كان حيعمل الدور أحسن منك، وأنت خرجت بأوضة نوم كنت بتحلم بيها مع مراتك ومش قادر تشتريها، ولو على اسم الصالة أغيره من بكرة الصبح، الأسماء الخواجاتي على قفا من يشيل، والنهارده ألف يهودي يتمنى يشتغل عندي مش يشاركني. ولو حَكَمِت أسميها صالة منصور وبس.

لم أستطع مقاومة دموعي القريبة، أشاح منصور بيده متذمرًا، راح يصفني بأنني مثل النسوان لبكائي كلما احتد النقاش بيننا، لكني أتألم من داخلي بعدما انفرط عقد كرامتي وتبعثرت حباته بالصالة ودهس منصور بعضها، أدركت متأخرًا أنني مجرد مستخدم لديه.. لا شريك له.. شعرت بمهانةٍ من نبرة الاستعلاء التي يتكلم معي بها.. عرفت الآن مدى ضعفي، وربما يكون منصور يستكثر عليَّ الثلث مع أنه نصيبي بالصالة، صحيح أن الفكرة فكرة منصور لكن المال كان يخصني وحدي، صحيح هو مَن خطَّط ودبَّر لكننا من البداية صديقان ثم من بعدها شريكان ودوري كان ألا أستقيل، صحيح أنني خفت وهربت لمَّا رأيت صيدناوي يدخل المزاد، لكن منصور لا يعرف هذه القصة ولم أخبر بها أحدًا حتى ليلى.

أحسست بغُبن شديد أن أرى صديقي الوحيد بعد عشر سنوات على افتتاح الصالة يعاملني كمرمطون بالأجرة، يمكنه طردي في أي لحظة، فلا عقد تحت يدي يثبت نصيبي، ولا سجل تجاري يؤكد مشاركتي بالصالة، مجرد ورقة عرفية يحتفظ بها منصور في خزينته، ربما حتى لم يوقِّع عليها يوم كتابتها، ولا توجد نسخة كربونية أخرى منها لتؤكد حقي.

مسحت دموعي بمنديلي الكبير واستدعيت شجاعتي بالكاد قائلًا بصوتٍ مختنق:

- أنا عاوز نسخة من ورقة الشراكة اللي بينًّا يا منصور ولازم نسجلها.. أظن ده حقي وحق ابني ومراتي.

- وما له يا خواجة.. حقك طبعًا.

إجابته جاءت سريعة كمَن توقع الطلب، أدار قفل الخزينة الضخمة بعصبية بعدما أدخل الأرقام السرية وهو يخفي كفيه بجسده، عبث بجوفها لبرهةٍ طالت حتى حسبتها دهرًا، التفت ناحيتي بيدين خاويتين وهو يرمقني بنظرةٍ باردة، رد باب خزينته وأمسك بورقةٍ وقلم، كتب لي مبايعة بثلث الصالة، قائلًا بنبرةٍ محايدةٍ دون أن يرفع رأسه:

- محتاج أدور على العقد يوم والا اتنين، لكن ما بين الحياة والموت.. الورقة دي تثبت حقك يا خواجة.

بالكاد حملتني قدماي إلى خارج الصالة، لمحت نفسي في المرآة قبل مغادرتي، بدوت شيخًا هرمًا مع أني لم أتجاوز الرابعة والثلاثين بعد، أشرت لأقرب عربة حنطور بالطريق، رغم هرولة سائق العربة الخاصة بمنصور خلفي عارضًا توصيلي، طلبت من العربجي التوجه لشبرا، جذبت غطاء المظلة حتى لا يلمح أحد بكائي، من بعيد سمعت صوت منصور ينادي عليَّ يائسًا، مطلقًا كلمته الأثيرة.. «يا خواجة»، لكني هذه المرة لم أستطع حتى أن ألتفت نحوه.

من كل مراحل حياتي لم تمر بذاكرتي الآن سوى بعض مشاهد طفولتي مع منصور بحديقة عدس، كنا نذهب إليها أيام الآحاد أسبوعيًّا في عطلتنا المدرسية، نشتري كرات البلي الملونة من بائع عجوز يقف ببابها، كنت أملك بلية ضخمة من النيكل صنعها أبي بورشة قريبة من بيتنا خصيصًا لي، ظل منصور يستعيرها مني كل مرة لأنني لا أجيد

النِّيشان بها مثله، هزم بها كل الأولاد الذين يلعبون معنا وأنا أولهم، ثم باع لهم كرات البلي التي كسبها منهم مرة ثانية بسعر أقل ممَّا اشتروها بـه، فانصرف الأولاد عن الشـراء مـن البائع العجوز حتـى اختفى بعد فترة.

فـي كل مـرة كان منصـور يعطينـي ثلاث بليـات فقـط مكافأة على مشـاركته بالبليـة الكبيرة مع أنه يكسـب ضعفَي هذا العـدد، حتى جاء يـوم ذهبنا للحديقة وتجمَّع الأولاد حولنا، غمز لي بعينه لأعطيه البلية النيكل، فقلت ببرود تلك المرة:

- ضاعت يا منصور.. من النهارده إلعب لوحدك.



1/12

كالسـائرين نيامًا قطعت شـارع شـبرا الرئيسـي متجهًـا لبيتي بعدما مللت الجلوس بالحنطور، لم أشـعر بمَـن اصطدم بكتفي وراح يعتذر لي، ولا سـمعت الذي ألقى عليَّ السـلام من المقهى الكبير بالدوران وظـل ينتظر مني ردًّا، لم ألتفت لعم عليـش البقال لمَّا ناداني من بعيد، ربما ليخبرني بتوافر السـجائر التي اعتدت عليها، انتبهت فقط لجاري الـذي كان يسـير خلفـي واسـتوقفني بلطف، نبهنـي لما يـدور حولي ولا أدري بـه، علت دهشـته وهو يقترب مني متفرسًـا في وجهي قائلًا بنبرةٍ قلقة:

- أنت كويس يا أستاذ أورفانيللي؟

أومأت بالإيجاب ومضيت في طريقي، اصطدمت كرة شراب طائشة برأسي، يلهو بها بعض الصبية أمام بوابة بيتي، توقفوا وانكمشوا خائفين من رد فعلي، لمحت من بينهم ابني الصغير لكني رميتهم بنظرةٍ بليدةٍ شاردًا ثم انصرفت مُطرقًا. أدرت مفتاح البيت بالباب مهيئًا نفسي للبكاء في حضن ليلى، سمعت صوت أنين عالٍ آتيًا من ناحية المطبخ، هرولت فوجدت ليلى تتلوى على الأرض، ممسكة بطنها والقيء يندفع من فمها كالنافورة وأمي بجوارها حائرة عاجزة، جثوت على ركبتَيَّ فزعًا، حاولت مساعدتها على النهوض، وصفت لي آلامها كسكاكين تمزق أحشاءها، تنهدت بعمق واستندت بظهري للجدار، ابتسمت ماسحًا ما تبقى على وجنتي من دموع الحسرة لأفسح مجالًا للأخريات آتية بالفرحة وهتفت:

- يبقى أكيد حنخاوي أورفانيللي الصغير.. يارب تكون بنت علشان نسميها على اسم ماما.

حملتها إلى أقرب تاكسي في طريقنا للمستشفى القريب وهي تصرخ بشدة، فقدت ليلى الكثير من ماء جسمها بسبب إسهال شديد راح يضرب أمعاءها بقوةٍ كل ساعة كما قالت، راقبتها بقلقٍ وهي تبتعد عني مسجاة على ظهرها فوق سرير معدني متحرك، حولها أشباح بيضاء لا أميز وجوههم يدفعونها نحو غرفةٍ بنهاية الممر حتى اختفت عن أنظاري وغُلِّقت الأبواب، لم أعُد أسمع سوى أنَّاتها إلى أن خفتت بالتدريج.

وقفت أمام غرفة الكشف لأكثر من ساعة، ينهشني القلق ببطءٍ على صحة ليلى والطفل الذي يتكون بأحشائها، بعدما تأخر الحمل أكثر من عشر سنوات لم نفلح فيها في إنجاب أخ لأورفانيللي الصغير، حتى طالنا اليأس بعد ثلاث مرَّات أجهضت فيها لعدم استقرار الجنين. قطعت المساحة الصغيرة أمام غرفة ليلى جيئةً وذهابًا لأكثر من مائة مرة، وكلما خرج ممرض أو حكيم جريت نحوه ليُطمئنني، في كل مرَّةٍ أتلقى الإجابة ذاتها حتى ظننتها متفق عليها بينهم..

- ادعِي لها يا خواجة ربنا يقومها بالسلامة.

بعد ثلاث ساعات كاملة خرج الحكيم من الغرفة المعقمة،رجل أشيب مهيب الطلة منتفخ البطن، تتدلى سماعته على كرشه، سألني بجليَةٍ عن الأطعمة والمشروبات التي تناولتها ليلى في الأيام الأخيرة، لا تسعفني الذاكرة بأي شيء، استبد بي القلق، بينما الحكيم يهز رأسه سائلًا ويدوِّن ملاحظات في دفتر صغير وأنا لا أجيب. حتى سأل فجأة بدهشة:

- أنتم من الشرقية يا أفندي؟

- لا يا دكتور إحنا من شبرا، وطول عمرنا عايشين في الضاهر.. خير في إيه؟

- متأكد إن الست بتاعتك ما شربتش حاجة من بياعين السكك اليومين اللي فاتوا؟

- لأ.. ماعرفش.. آه، يمكن عرقسوس، لكن كلنا شربنا معاها من يومين.. هو في إيه أرجوك طمني. هي مش حامل؟!

- لأ.. المدام مصابة بالكوليرا واضطرينا نعزلها.. لكن ما اخبيش عليك الحالة متأخرة، ربنا يلطف.

***

تضطرب مشاعري ويتزلزل كياني عندما أتلقى خبرين متناقضين في آنٍ واحد، مثل رجل قابع في قارب صغير وسط النَّوء، يرى الموت والنجاة متجاورين، لا يقوى على مقاومة التيار ولا تسعفه ذراعاه للتجديف نحو الشاطئ، ولمَّا تمتد يد القدر له يتهاوى منهكًا قبل أن يضع ساقًا على البر.

ظهرت أعراض الكوليرا على أمي قبل مرور اثنين وسبعين ساعة على إصابة ليلى، نقلتها إلى حجرة مجاورة لحجرة زوجتي، الأطباء يحاولون إنقاذها، يعوضون الجسد الذابل والجلد الذي أصابه الجفاف بالماء لكن الحالة تبدو متأخرة على ملامحهم وبين طيَّات نبرة صوتهم.

في فجر اليوم الخامس ماتت أمي، وقبل أن ينتهي اليوم بساعةٍ وبعد انتهاء مراسم الجنازة والدفن حيث مُنعنا من إقامة العزاء بسبب انتشار الوباء، أخبرني جاري الذي يعمل طبيبًا بالمستشفى أن ليلى تماثلت للشفاء بعدما تجاوزت مرحلة الخطر. رفع كفيه للسماء وهو يردد:

- معجزة والله العظيم معجزة يا خواجة أورفانيللي.

بيدٍ مرتعشةٍ وشفاه تُغمغم بعبارات مضطربة متناقضة تلقيت التهنئة والعزاء في الوقت ذاته، استنفد الحزن طاقتي فخرجت فرحتي شاردة، مبتعدة عني، كأنها تنوي الهرب مني مع أنها تائهة مثلي.

بقيت ليلى في المستشفى شهرًا حتى عادت لبيتنا. لكنه لم يعُد كما كان.. راحت نصف البهجة، وخلخلت البرودة الدفء حتى أحدثت به ثقوبًا واسعة برحيل أمي. أما ليلى فيبدو أنها اقتربت من حافة الموت ومالت برأسها للأمام ورأت ما أفزعها فاكتأبت، صارت تخاف الحياة، ولم تعُد تراها إلا رمادية مائلة للسواد.

- احمد ربنا.. قضا أخف من قضا، والحي أبقى من الميت.

قالها منصور ثم عاد يدفس وجهه بصحيفة المقطم مسترسلًا في قراءة العنوان الرئيسي بصوتٍ عالٍ: «أكثر من خمسة وثلاثين ألف متوفٍّ من وباء الكوليرا حتى الآن»..

كنا جالسين على مقهى جروبي بشارع قصر النيل قرب منتصف النهار، بعدما سمحوا لنا بالخروج وفك حظر التجوال جزئيًا، فُتحت المقاهي والمطاعم والمحلات لساعات محددة، وعادت المواصلات العامة للعمل لكن بقيود صارمة، طوى منصور الجريدة ممتعضًا وهو يُخرج من جيبه تصريحًا من وزارة الصحة يحمل صورته، مدوَّن على ظهره ما يفيد خلوّه من الكوليرا، ومسموح له بالسفر في مهمة عمل ليوم واحد، فرد منصور ساقه اليمنى لماسح الأحذية قائلًا بضيق:

- عشنا وشُفنا.. حتى السكة الحديد بقينا نركبها برخصة من مكتب الصحة.. تخيَّل علشان أسافر إسكندرية بكرة طلعوا عيني في التصريح ده أربع أيام.. الله يخرب بيت عساكر الإنجليز، هُمَّا اللي جابولنا الكوليرا معاهم من معسكرات جنيفا وكبريت في السويس، داهية تاخدهم. مكتوب هنا في الجورنال إن مديرية الشرقية عزلوها بالكامل ماحدش بيدخلها ولا بيخرج منها. ربنا يفُك عنهم.

ظللت واجمًا لا أُعلق بحرف مترحمًا على أمي في سري، عاد منصور يقول بنبرةٍ مختلفةٍ وهو يبدل ساقيه على الحامل الخشبي، بينما عين ماسح الأحذية متعلقة به، مدفوعة بفضول غريب لمعرفة بقية القصة.

- أمك ربك اختارها وارتاحت، احمد ربنا إنها ما تعذبتش، وكمان ربنا حفظ لك ليلى، لكن لو كان نفسك ربنا ياخدها بالمرة فالستات مفيش أكتر منهم، شاور أنت بس، وأنا من بكرة أجوزك غيرها، وأختار لك أوضة النوم المرة دي كمان يا خواجة.

انفرجت شفتي ماسح الأحذية وهو ينظر لمنصور بإعجاب على كلامه، فألقى في حِجره قرشًا رغم يده الممدودة، ثم أمره بالانصراف قرفًا من سواد كفيه.

شردت في ابني أورفانيللي الصغير الذي تجاوز عامه الحادي عشر ببضعة أشهر، جدته هي التي كانت ترعاه أثناء انشغالي وليلى بعملنا كل يوم، لم أعُد راغبًا في العودة للأرشيف، شعرت أنني سأعيش بقية

عمري في مقبرة وسط الملفات والأوراق الصفراء القديمة، حتى صار ترابها يتخلل نسيج أنفي كل يوم. مزق شرودي تجمهر المارة وصياحهم المفاجئ على صوت أزيز طائرة، خرجت متكاسلًا على نداء منصور الذي سبقني مهرولًا نتأمل الخيط الأبيض العريض الذي خلَّفته الطائرة، يرشُّون القاهرة من الجو كل يومين لمحاصرة الوباء قدر الممكن، لكن عاداتنا في النظافة تسبق طائرة الرش بكثير.

منذ بداية الوباء وأنا أحاول التغلب على مخاوفي منه بالسير يوميًا في الشوارع وسط الناس، لعلي أختلس من وجوههم طمأنينة مفتقدة، لكنني ضبطت نفسي متلبسًا بمراقبتهم، والبحث عن هواجسهم ومخاوفهم، الأيام العادية الروتينية التي كنا نضيق بها كانت أفضل بكثير، يا ترى هل كنا نحتاج للخطر لكي نكتشف منحة الأمان العادي؟ هززت رأسي متعجبًا، على الأقل كنت أجلس متأففًا بلا قلق، ضيقًا بحالي بلا هاجس الإصابة أو احتمال الهلاك، شاكيًا من أمور تبدو شديدة التفاهة، الآن اكتشفت أنني أضعف ممَّا كنت أتخيل، أريد الاحتفاظ بكثيرين في حياتي بعد فقد أمي، ليلى وابني ومنصور أيضًا، أريد العودة للمعتاد من أمور الحياة اليومية، أهاب لحظات الموت وأوقات الوداع الأخير للمرضى في الأحوال العادية، فما بالنا بوباءٍ كنت كغيري أقرأ عنه في كتب التاريخ، وآخر ما كنت أتخيله أن يختطف أمي من بين يدي، ويطير بها بعيدًا حيث لن أراها مجددًا.

- يا خواجة افرِد وِشَّك، اللي بيشيل الهَم بيموت بدري.

قالهـا منصـور وهو يضحـك عندما عدنـا لمقاعدنا وانفـضّ مولد الطائرة، يبدو أن هواجسي انطبعت على ملامحي، رمقته بنظرةٍ حائرة، صحيـح أنـه تقريبًـا بلا مشـاعر منـذ عرفته، لا يعـرف إلا الحسـابات والأرقـام، مـا معك هـو قيمتك في هـذه الدنيـا، يصنف النـاس بقيمة رصيدهم فـي البنك وعدد أملاكهم العقارية وأطيانهم التي تُدر عليهم ريعًا سنويًّا، أما المشاعر فلتذهب إلى الجحيم كما يقول دومًا. تجرعت بقية زجاجة البيرة دفعة واحدة وطلبت غيرها.

من مكاني بجروبي وقعت عيني على إعلان كبير عن صالتنا، فقلت لمنصور بصوتٍ خفيض:

- أنـا بافكر أسـيب الشـغل يـا منصور وأقعـد معاك فـي الصالة أنا وابنـي، بصراحـة أنا عـاوز أعلِّمـه صنعة يـاكل منها لقمة كويسـة لأنه مش فالح في الدراسـة، وبالمرة أسـيب له قرشـين حلوين من بعدي، أنا كشـفت من كام يوم ولقيت قلبي تعبان والحكيم قال لي إنه بسـبب الزعل على موت ماما.

- سـلامة قلبك يا خواجة أنت لسـه شـباب، بس الواد ابنك صغير وعضمه طري على الشغل.

- ما أنت اشـتغلت في صالات مـزاد وأنت أصغر منه يا تركي والا هي حلال ليك وحرام على غيرك؟

ابتسم منصور ابتسامة باهتة ولم يُعلِّق على كلامي رغم حدته، لكنه عاد يقول بنبرةٍ ودودة:

- يا راجل بقى تسيب الميري وأنت كده كده شريك في الصالة، وكمان اترقيت مساعد مدير الأرشيف وعلى الدرجة التالتة؟ ما تستهدى بالله كده وافتكر إن شغلك في الوزارة بيحمينا إحنا الاتنين، أنا حاديلك سلفة من نصيبك.. ألف جنيه تروح تتجوز بيهم جوازة ملوكي.

ابتسمت بمرارة تحت إلحاح تكرار حديثه عن الزواج والرقم المبالغ فيه بالطبع، ثم أردفت ببرود:

- طيب ما تتجوز أنت أولى يا منصور.. على الأقل أنا عملتها قبلك مرة، وبعدين أنا باعشق ليلى وقلبي مافيهوش مكان لواحدة غيرها.

- ومين قال لك إني مش ناوي أعملها.. قريب حتسمع الخبر وحتكون أول شاهد على العقد كمان.

ابتسمت لمجاملته، لكن دهشتي من خطوة إقدامه على الزواج فاقت ابتسامتي اتساعًا.



1/13

حياتي ليست كما أردت، إنما كما أراد لها القدر، في حين يعتبر منصور الحياة شراع سفينته، يفرده بعناية ليقاوم رياح القدر كلما أبحر، حتى يصل للبر الذي يريده في كل مرة.

تفتت دهشتي لقطع كبيرة تليق بخبر زواج أشهر عازب في صالات المزادات بعدما اصطدمت ذراعي بزجاجة البيرة فأسقطتها، انتفضت على دوي التهشيم، التفتُّ ناحية منصور وأنا أحثُّه بعيني على الاسترسال.. فأردف:

- السوق وحشة اليومين دول،ناس كتير بتهرَّب فلوسها برَّه والحال نايم زي الكلب الشبعان.

- لكن ده ما له ومال الجواز يا منصور؟

- ما أنا فكرت واخترت بنت حلال من عيلة كبيرة وخطبتها، بس مارضيتش أقول لك علشان ظروفك اليومين اللي فاتوا بعد موت أمك وزعلك مني يوم ما رُحنا القصر، لكن خلال شهر بالكتير يمكن نكتب الكتاب، ما أنت أكيد تسمع عنها، بهيرة بنت الوزير عبد الفتاح باشا الشوادفي.. الله يرحمه.

- يخرب نافوخك يا راجل، مش دي اللي بيقولوا عليها تعبانة في مخها وبتتعالج عند حكيم نفساني؟!

سكت منصور ونفث دخان سيجارته كثيفًا، ليردف وهو مبتسم نصف ابتسامة خبيثة:

- مجرد كلام وإشاعات مفيش حاجة مؤكدة، هي صحيح مش حلوة أوي وعصبية شوية ورفيعة حبتين، ومناخيرها طويلة وبتلبس نضارة، لكن بنت باشا وحتجوز بيه رسمي.

أفلتت مني ضحكة رغمًا عني وقلت:

- ما شاء الله كلها مزايا، لكن قول لي الأول هو أنت إديت لنفسك بهوية كمان والا إيه؟

- مولانا فاروق أنعم عليًا بالرتبة من كام يوم، بس ظروفك برضه منعتني أقولك.

- وطبعًا حسن الشماشرجي هو اللي ساعدك في البهوية؟

لم يرد منصور واكتفى بالابتسام في غموض، فعدت أسأله:

- ولما بهيرة مش حلوة يا سعادة البيه زي ما بتقول وحواليها إشاعات إن عندها لُطف وفيها العِبَر، حتتجوزها ليه؟ علشان بنت باشا ميت يعني؟! ما بنات الباشوات الصاحيين على قفا مين يشيل، وأنت......

قاطعني بسرعة:

- بهيرة راقدة على خميرة حلوة من ميراث أبوها. وحيدة وتقريبًا مقطوعة من شجرة زي حالاتي، ماعندهاش غير أمها، ولية كركوبة قربت تودع، ده بقى غير علاقاتها بالأميرة شويكار والبرنس يوسف كمال وغيرهم، أكيد حتنفعنا وتجيب لنا زباين دفيانين زيها ونرجَّع أيام العِز اللي فاتت. ونصيبك يكبر يا خواجة.

وقعت عيني على لافتة معلقة على الجدار الذي أمامي، مكتوب عليها ببنط كبير «ممنوع البصق على الأرض»، لابد وضعوها بعد انتشار الكوليرا، هززت رأسي قرفًا، استدعت ذاكرتي مع اللافتة كل

ما قالته ليلى عن منصور، أشحت بيدي في الهواء بلا معنى، ففهم الجرسون أنني أطلب زجاجة بيرة ثالثة، هزَّ رأسه وهرع ليحضرها، التفتُّ لمنصور في ضيق لأنهي الحديث:

- النهاية يعني.. نقول مبروك والا إيه؟

- لأ لسه شوية، تقدر تقول «آلا دوي» بس يا خواجة، محتاج أقلب الموضوع أكتر في دماغي خلال شهر، وأدرس شوية جوانب خافية عليا، وبعدها غالبًا تبقى رسيت علينا وتقول لي وقتها ألف مبروك.

- رسيت عليك مش علينا.

- لأ حترسى علينا يا خواجة.. أنا باتجوز بهيرة علشان أورفانيللي ومنصور.

قالها وأشار إلى الطريق العمومي ناحية اللافتة الكبيرة التي تحمل اسم الصالة، وكنت أحسب أنه يقصدنا معًا.

***

خطا أولى خطواته بالصالة بثقةٍ غير مبررة، مرتديًا زي البحرية باللونين الأزرق والأبيض مثل الذي يرتديه مولانا عندما يمتطي يخت المحروسة، ممسكًا بيدي بكف والأخرى مشبوكة أناملها بأصابع أمه، صافح منصور التركي ابني «أورفانيللي منصور» كما يصافح الرجال بعضهم البعض، قدمته ليلى بفخر قائلة «أورفانيللي الصغير» كما نناديه، لكن منصور التفت ناحيتي متجاهلًا ليلى قائلًا:

- ماشـاء الله كبر عن آخر مرة شُفته عندكم في البيت من سنين لما الســت ليلى عملت لـي عزومة يتيمة على العشـا، نهايته.. من النهارده أنا المسـئول عنه، طول الصيف يتعلم الصنعة، يَملِّي عينيه من الأنتيكة علشـان تلزق في قعـر نافوخه وفي إجازات المدرسـة ييجي يناول مع العمال علشان يعرف قيمتها. وبعدها يترقى لو فلح.

ثم التفت لابني مـستكملًا حديثه رغم تأفف ليلى من تجاهله لها:

- شـوف يا واد، أنت صحيح نص اسمك على اسمي، لكن من هنا ورايح حيكون اسـمك الخواجة، مـا يصحش العمال تنادي عليك وتقول اسـمي أو اسـم أبوك حاف كـده وهُمَّا بيكلمـوك، وأنت كمان شبهي أكتر من أبوك، يعني أنا ليا فيك نصيب وكفاية على أبوك التلت، استابينا؟

- استابينا يا عمو..

- لأ يا خواجة في الشغل مفيش عمو وبابا، أنا المايسترو، صاحب الصالة، منصور بيه التركي، استابينا؟

تعلقت نظرات ابني بشـفتي منصور ولم يرد، ثم أدار بصره نحوي، أحسـسـت أنه يسـتجدي إجابة ملائمة تحفظ ماء وجهه، ألم أخبره في طريقنا إلى هنا بأنني شريك بهذه الصالة مع عمه منصور؟!

اقتربـت ليلـى وربتـت رأسـه فالتصـق بها، ضمتـه بحنـان وخبأته بيـن ذراعيها، كانت رافضة لفكـرة عمل أورفانيللـي الصغير بالصالة، حلمت أن يكون مهندسًـا مثل خاله يوسـف، لكن الصبي خيَّب آمالها

في الدراسة وسهل عليَّ مهمتي، صمَّمَت على ترك عملها بمحلات جاتينيو للتواجد بجوار ابننا في الصالة، أقنعتني بأن الأمر يحتاج لمتابعة نصيبنا ومراقبة أورفانيللي الصغير كي لا يجرفه تيار جشع التركي فوافقتها على مضض، ربما معها حق، يا ويل الصبي لو لقي مصيري ذاته مع منصور، لا أريده ظلًّا أو تابعًا، لا بد وأن يكون شريكًا ونِدًّا.

أطرقت لتفادي سهام نظرات ابني، تملكني صمت اليأس من ضعفي، تبادلت نظرة محبطة مع ليلى، أعلم أنها تضايقت من كلمات منصور، وتزعجها فكرة تشابه ملامح ابنها مع التركي رغم أنها كذلك بالفعل.

ظللنا ساكنين حتى انتفضت ليلى قائلة للصغير:

- عمَّك منصور زي أبوك، وأنت حتبقى صاحب الشغل بعد عمرٍ طويل.

ظل الصبي محملقًا في وجوم بوجه منصور الغاضب حتى لطمه لطمة خفيفة على مؤخرة رأسه ضاحكًا وهو يقول:

- السكوت علامة الرضا. ادخل استلم الشغل من الريس هارون.

صحيح أن خبرتي شبه منعدمة، لكن إشادة منصور بالصبي الصغير بعد سِتة أشهر كانت لافتة، فهو لا يمتدح إلا نفسه. تولى هارون تدريب ابني يوميًّا لمدة ثلاث ساعات، درس خصوصي من أسطى قدير والمراجعة مع التركي. الزمن والعمل اليومي كانا كفيلين بفك

عقدة لسان الصغير، فلم يعُد يجد حرجًا في مناداة منصور بلقب البيك، صار ينحني أمامه وهو يتناول يوميته وإكرامياته. جعله منصور عينًا له على بقية العمال فباتوا يعملون له حسابًا، يخرسون كلما جلس ليتناول طعامه بينهم، يضربون كفًا بأخرى غير مصدقين أن عقلة الإصبع هذا صار أهم منهم جميعًا في أقل من عامٍ واحد.

همس هارون في أذني أن ابني خارق الذكاء، شديد المهارة. لم يقُلها هارون على أحد من قبل. كان الصبي الصغير يحكي لي يومًا بيومٍ ما يدور بالصالة فأردد على مسامعه كلمات جده:

- الأمانة ثم الأمانة.. وبعدها الخبرة.

أقولها لولدي الصغير كلما رأيته، في البيت قبل أن ينام، وأنا أراقب عمله بالصالة أثناء زياراتي الشهرية، وقبل ذهابه للمدرسة كل يوم، لا أريد له أن يسقط في نار التركي كفراشة جميلة تظن أن طريقها ممهد نحو النور، بينما هي تسير على خيوط عنكبوت نهم. حتى جاء يوم وسمع منصور نصيحتي لابني، التفت ناحيتنا ثم رجع بظهره في مقعده مبادرًا أورفانيللي الصغير بالحديث:

- الخبرة يا خواجة.. الخبرة تلات مرات وبعدين حط الأمانة وكلام البقالين اللي بيقوله أبوك ده بعدها، التاجر من غير خبرة يبقى أهبل، وساعتها المنافسين ياكلوك في السوق والزبون يضحك عليك وتفلّس بدري.

لوحت بيسراي ممتعضًا من كلام منصور، ولما التفت ناحيتي تظاهرت بفحص تمثالٍ من البرونز لموتسارت كأنني أقلده وهو يشير بيده للفرقة الموسيقية، سمعت ضحكة مكتومة لم أعرف مَن مِنهما مصدرها، نظرت خلسة ناحية ابني وغمزت له بعيني ولسان حالي يقول.. «لا تصدق التركي أبدًا»، وخُيِّل لي أنه هزَّ رأسه موافقًا على كلامي.



1 /14

كل شيء بحساب كدفاتر صالة منتظمة، تزوج منصور بعد ثلاثين يومًا كما حدد بالضبط من بهيرة الشوادفي، أقام حفلًا كبيرًا في كازينو بديعة على شاطئ النيل بالجيزة، حضره أكثر من مائتي مدعو من الكبراء والوجهاء والوزراء وأصحاب المعالي السابقين وغالبيتهم من عملاء الصالة، جاملـه أهل الفن من زبائننا، افتتحت الست تحية كاريوكا الليلة بعدما قامت بزفِّه إلى عروسه، وغنى فريد الأطرش ثلاث أغنيات قصيرة من أغانيه الشهيرة، وحاول إسماعيل يس إلقاء بعض النكات، لكن منصور لم يُبدِ ترحابًا بالموضوع كي لا يضايق مدعوِّيه من الطبقة الأرستقراطية التي يتندر عليها «سُمعة» كما كنَّا نناديه. فتراجع إسماعيل يس محبطًا وهو يمط شفتيه ويفرد كفَّيه فأثار ضحكات الموجودين.

توليت وليلى توزيع علب حلوى صغيرة فرنسية الصنع على المدعوين، محفور على جانبيها اسم الصالة، أدهشتني طريقة الدعاية التي ابتكرها منصور، مازحني وهو يغمز بعينه واصفًا إياها بـ «شغل يهود» فضحكت، لكن ليلى تصعبت بشفتيها ولم تعجبها دعابته. أرسل منصور دعوة للسراي آملًا في حضور فاروق لكن الملك لم يستجب رغم تأخير الزفة لأكثر من ساعة، قبل أن يتعانق عقربا الساعة بقليل جاء مَن لم نتوقعه، دخل الكازينو بوللي أحد أهم أفراد الحاشية الملكية بصحبته حسن الكردي الشماشرجي، الذي اصطحبه فاروق معه في أول زيارة لصالتنا وصار صديقًا حميمًا لمنصور من يومها. هنّأ بوللي منصور بالزواج في عبارات بسيطة ثم قدَّم لعروسه خاتمًا ماسيًّا هدية من الملك، بينما اكتفى الكردي بتهنئةٍ حارة، معتبرًا أن توسطه في حصول منصور على رتبة البكوية هدية كافية ذات أثر طويل ممتد.

استغل منصور الحدث بسرعة، جذب الميكروفون من يد فريد الأطرش الذي كان يستعد للغناء مرة ثانية بناء على إلحاح المدعوين، هتف منصور شاكرًا الملك على هديته متمنيًا له عمرًا مديدًا، فتح العلبة ورفع يده بها عاليًا، جعل عيون ضيوفه تجحظ انبهارًا بالخاتم المقدم من ملك مصر والسودان.

على عكس ما توقعنا لم يُغادر بوللي الحفل، اختار طاولة منزوية في ركن شبه مظلم مع حسن الكردي، راحا يعبّان كئوس الويسكي التي أقدمها لهما بيد سخية، بعدما نبّه عليَّ منصور بحُسن ضيافة

منـدوب الملـك، فهمت أنه يقصـد بوللي فقط، أما الكـردي فلا يعدو سِوى شماشرجي، رغم أن منصور يخاطبه دومًا بكلمة «صديقي».

شعرت أن بوللي غير مرتاح لجلستي معهما، ولاحظت من نظراته وإيماءاتـه مـع الكـردي أنـه يرغب فـي التخلـص مني. عقـب الكأس السـادسة مال الشماشرجي على أذني هامسًا:

- ألا قول لي يا حبيبي.. شـايف السـنيورة الحلوة اللي هناك دي؟ روح هاتها علشان تآنسنا واتهوى أنت شوية.

التفتُّ إلى حيث أشـار، وجدت سـيدة تقف وحيـدة قرب البار في ركن مظلم وتولينا ظهرها، لم أتعرف عليها بسـهولة بعدما ثقل رأسـي من الشـراب، لكن ما إن تلفتت ناحيتنا حتى ارتجفت شفتاي وشعرت بسـخونة في مؤخرة رأسـي، فقد كانت السـيدة المطلوبة للمؤانسـة.. زوجتي.. ليلى.

***

صرت مثل رجل عاري القدمين يتحسـس خطواته وسط حشائش طويلة تزحف فيها الثعابين، أخشى ظهور الكردي مرة ثانية بعدما علم أن ليلـى زوجتي وتعمل بالصالة، صحيح اعتذر يومها بلباقةٍ متحججًا بالإفـراط في الشـراب، لكني لم أكن مرتاحًا لنظـرة عينيه، ولا مصدقًا لكلمات اعتذاره. لم أعد أستطيع ترك ليلى وابني الصغير يترددان على الصالة بمفردهما، فقدمت إجازة أسـبوعين من الأرشـيف لحين عودة التركي من شهر العسل بلبنان.

بعد سفر منصور بيوم واحدٍ بدأ سعد كروان مدير الصالة الجديد يعرض بعض الخواتم والفازات والأطباق على ليلى، حصة يومية لمدة ساعتين، يشرح لها فيها نوع كل قطعة وخامتها، يبسط كفّه أمامها، يضع خاتمًا كبيرًا بإصبعه الصغيرة، يرفعه نحو أنفه ليحُكّه ثم يبرزه في وجهها، يضيف خاتمًا آخر ويعيد الكَرَّة. بعدها يُمسك طبقًا من الكريستال بيدٍ واحدةٍ مستخدمًا ثلاثة أصابع، يُطبق عليه بكفيه ويضعه على الطاولة برفقٍ مثل طفلٍ رضيع، يدور بجسمه في خفة راقص باليه، يرفع لوحة بعناية حتى نصف صدره، يكاد إطارها يغطي وجهه، يحركها يمينًا ويسارًا بطريقة آلية كأنه يعمل بزنبرك مُركب في ظهره، ثم يضعها على حامل خشبي بحرص كناسك يتعبّد في محراب مقدس، فتستقر من أول مرة.

راح كروان يتنقل وسط القطع المكدسة بالصالة، يُسرع الخطى ويبطئ بلا سبب واضح ولا يصطدم بأيٍّ منها، يتوقف ويلتفت إلى ليلى فجأة كأن شخصًا نادى عليه فيعود من حيث بدأ. أفهمها سعد بضرورة تخصيص عين على الزبون لتقرأ ما يدور بعقله وعين أخرى على القطع كي لا تصطدم بها، وفي الوقت ذاته تتعلق العينان بصاحب الصالة لمعرفة الأوامر التي لا تُتلى على مسامع الزبائن، إنما تُقرأ من صفحة الوجه. سكت كروان برهة ثم أشار إلى أذنيه وهو يسترسل شارحًا لليلى سر المهنة، هناك أذن مع الزبون لنعرف رغباته ولا نلبيها بسرعة، فقط نُريه متشابهات ليسيل لعابه عليها ويتشتت ذهنه، أما الأذن الأخرى لنسمع حواره مع مَن اصطحبه، فإذا جاءنا وحيدًا..

سُخِّرت له الاثنتان، نجاحنا أن يشتري ما نريد، لا ما يحتاج، وبعدها سيعود إلينا مرات ومرات.

انبريت صائحًا بحماسٍ موجهًا حديثي لكروان:

- على فكرة كلامك هو نفس كلام منصور وسمعناه كتير.

- طبعًا يا خواجة.. منصور بيه هو المايسترو في الشغلانة دي، لكن التكرار يعلِّم الشُّطَّار.

أفحمني رده فلزمت الصمت، لاحظت من موقعي بالصالة أن ليلى تتابع كروان بلا مبالاة، سرعان ما انقلبت إلى ضيق بعد يومين، ثم بدأت تتأفف لمَّا طالت فقرة التعليم الإجباري وقاربت الأسبوع، حاولت ليلى مقاطعته عدة مرات لتُفهمه أنهم يعملون في صالة مزاد وليس في محلٍّ لبيع التحف لكن سعد لم يُعرها اهتمامًا، استمر في أداء فقرته فبدأت أعترض بدوري، حتى تدخل لبيب الضمراني في الحديث عندما تكاسلت ليلى قائلًا بصلفٍ كعادته:

- دي أوامر منصور بيه .. وسعد عبد المأمور، لازم الست ليلى تعرف حاجة عن كل حاجة في ظرف أسبوع.

الجملة ذاتها تتكرر على مسامعي، أسمعها تطن في رأسي بصوت أبي، حاولت تعلم سر مهنة المزاد لكنه ظل حبيسًا بصدر منصور والريس هارون، لم يَبُحْ به أيٌّ منهما لي، كل ما قالاه «اقرا الزبون بودنك وقدر القيمة بعينك وحِس بعقلك»! كيف أفعلها وكلها متناقضات بعيدة عن المنطق؟ ربما فشلت كما أخبرني أبي

يوم تركت ورشته قبل التحاقي بوزارة التجارة، عندما حصلت على البكالوريا رفضت العمل معه، تشاءمت بعد إصابته بالصمم الجزئي لكنه لم ييأس واصطحبني رغمًا عني للورشة، حاول تعليمي فك أجزاء الموتور وفحص أسلاك الكهرباء وتغيير بطارية الدينامو، لم أحب المهنة فلم تُعطني أسرارها، بخلت عليَّ وولَّت مُدبرة، فلم أرَ منها إلا ظهرها وغاب عني جمالها، فشلت في كل شيءٍ حتى مجرد تغيير إطار سيارة، الإنسان عدو ما يجهل وما يكره، هل أنا لا أحب المزاد أيضًا من داخلي ولا أدري؟ ربما كنت مجبرًا على مشاركة منصور بالصالة، لكني الآن أحلم بامتلاكها وحدي وتشاركني ليلى الحلم ذاته.. «صالة أورفانيللي».

أشرت لليلى من مكمني وراء مكتب منصور لتجاريه كي يمر الأمر بسلام، لا أريد الاحتكاك بالضمراني فمعركتي خاسرة، ليس خوفًا منه بقدر ثقتي في أن منصور سيقف في صفِّه مهما فعل بنا، فهو أفيد له منَّا، والدنيا مثل المزاد كما يقول فلن يشتري خاطرنا أحد.

لم أحب لبيب الضمراني أبدًا وأظن أنه بادلني الشعور ذاته، منذ أرسله لنا ميخاليدس باعتباره عمالة خبيرة مدربة وأنا لا أرتاح لنظرة عينيه، تطل منهما الخسة بوضوح وفي بجاحة أحيانًا، لم يحبذ وجود ابني بالصالة فبخل عليه بالمعلومة وسر الصنعة، متقلب المزاج بصورة مريبة حتى عرفت من منصور أنه يضع قطعة صغيرة من الأفيون تحت لسانه، يلوكها لفترة ثم يدفسها في فتحة صغيرة بضرسه السفلي، ينحرف مزاجه لو تأخر ميعاد الجرعة وينقلب لشخص عدواني مع

الجميع.. إلا المايسترو بالطبع. المشكلة التي تواجهني الآن هي إدارة الضمراني للصالة في غياب منصور، فهو يعتمد عليه كذراعه اليمنى، يثق فيه أكثر مني ومن الجميع.

على النقيض من الضمراني كان سعد كروان، هو الذراع اليسرى لمنصور، عمل لدى جورج ليفي سنوات طويلة ثم تركه للعمل لدى ميخاليدس حتى أعجب به التركي وضاعف مرتبه ليعمل لدينا.. ففعل منذ عامين تقريبًا.

أحب كروان ابني الصغير لكن بمقدار، وباح له بسر الصنعة إلا قليلًا، تولى رعايته في صالة العرض بعدما اجتاز مرحلة الريس هارون بنجاح، خرج ابني من الورشة إلى الصالة، فترقى ليكون في مَعيَّة كروان، سعد يتحدث دومًا بصوتٍ خفيضٍ مع ابتسامة حذرة لا تغيب عن وجهه، يرتدي أفخر الثياب وأغلاها، رائحة عطره تستنشقها من مدخل الصالة لتعرف أن سعد بداخلها، أقرب في هيئته للأمراء والوجهاء، أنيق العبارات، حلو الكلمات، رشيق الخطوات.. مع ذلك يراودني شعور غريب أن منصور يفضل الضمراني على سعد كروان، ربما لأنه مَن يدلُّه على الصنايعية الذين يقلدون القطع القديمة بمهارة، ويعرف كيف يتعامل معهم بأقل الأسعار، ولديه قدرة على جلب زبائن مليئة للصالة رغم هيئته المزرية، في حين يظل كروان هو واجهة الصالة الراقية ومُستقبِل الزبائن الأول.

ربما كروان لا يكترث لمعيار المحبة فدينه هو المال ولا شيء آخر، ولكل منهما احتياج وحاجة، ومنصور بارع في توظيف كليهما

لصالحه. الوحيد في هذه الصالة الذي يحبه الجميع هو الريس هارون، لكنه صامت أغلب الوقت كأنه يراقب أفعالنا من علٍ، يبتسم بسخريةٍ ويكتفي بهز رأسه معظم الأحوال كإجابة على تساؤلات كثيرة في عيوننا، أدمن الصمت فيما يبدو وكان سكوته الطويل هذا يقلقني.



1/15

فوجئنا بدخول منصور علينا قبيل موعد إغلاق الصالة بنصف الساعة قبل أن ينتهي شهر العسل بأيام ثلاثة، حيَّانا على عجلٍ وبدا منشغلًا بأمرٍ ما بينما بهيرة تنتظره في السيارة، فهمنا أنه نزل من الطائرة متجهًا إلينا مباشرة، أخرج أوراقًا من الخزينة وطلب دفتر اليومية وا[illegible]نات، ظللنا جميعًا واقفين أمامه كأننا ننتظر أمرًا، أشعل منصور سيجارة ونادى على أورفانيللي الصغير طالبًا منه إحضار قطعة معينة من المخزن، دفس وجهه في أوراقه ثم أمسك بالهاتف متحدثًا بصوتٍ خفيضٍ للغاية فلم نعرف محدثه. اقتربت مني ليلى هامسة أنها ستشكو لمنصور من صلف الضمراني في طريقة حديثه معها، قبل أن أُبدي رأيي لها، مالت على أذني مرة ثانية وأبلغتني بتراجعها عن شكواها مفضلة أن أفاتحه في الأمر بيني وبينه كي لا تسبب لي حرجًا، وافقتها بإيماءةٍ من رأسي ثم ضغطتُ على كفِّها برفقٍ لأطمئنها لكن ظل عقلي منشغلًا بسبب تعليمها أصول المهنة في ظرف أسبوع كما قال الضمراني.

كنت أخفيت عنها ما حدث من الكردي ليلة زفاف منصور لكني أشتم رائحته الآن من بعيد. بوللي هو مهندس سهرات الملك وحسن الشماشرجي أحد أفراد الحاشية التي تحاصر فاروق وتحيط به، تناجيه ويناجيها بمعزلٍ عن العمل الرسمي، تنقل له الأخبار، تدبر له السهر، تذيع عنه الدعاية وتنشر حوله الإشاعات، تحمسه وتغريه وتضلله أحيانًا، لكنها لا تهديه أبدًا، لا بد أن عيونهم على ليلى فغالبيتهم من القوادين كما تقول.

انتبهنا إلى صوت زجاج يتهشم، وجدت أورفانيللي الصغير واقفًا في منتصف الصالة شاحبًا لا يتحرك مثل تمثالٍ من الشمع، عشرات القطع الزجاجية تناثرت حوله وبين قدميه لمَّا سقطت الفازة منه، ضربت أمه صدرها بكفها مهرولة نحوه، سبقها هارون واحتضنه بقوةٍ وهو يبعده عن قطع الزجاج، بدا الصبي ترتعشان ولا يجرؤ على مواجهة منصور.. فأطرق، شعرت بعروقي تنفر والسخونة تضرب رأسي، أعرف غضبة منصور في حالاتٍ مشابهةٍ لكسر قطع أقل قيمة، وجَّهت بصري ناحيته، بدوت مستعدًّا لوضع جسدي حائلًا بينه وبين ابني إذا ما لزم الأمر لأتلقى الضربات بدلًا منه.

فوجئنا بمنصور يبتسم لأورفانيللي الصغير قائلًا بنبرةٍ ودودة:

- ولا يهمك يا خواجة.. المفروض أخصم تمنها من يوميتك، لكن علشان خاطر أنت ابن الست ليلى حنعتبرها معيوبة ونستبعدها من المزاد.

قـال عبارتـه بخبث أو هكذا خُيل لي فـازداد غضبي، التفت منصور بعدهـا للضمراني ولـم يقُل حرفًا، فقط صوَّب له نظـرة واحدة ليتحرك بخفة نحو المخزن، عاد الضمراني بأخرى تكاد تكون هي التي تحطمت، وضعها أمام منصور على المكتب فألصق عليها بطاقة صغيرة، ليحملها لبيـب عائدًا وكأن شـيئًا لم يكن. مقلدة مثل أخريـات لا قيمة كبيرة لها، ولا زبون حقيقي أحضرها لنبيعها لحسابه، كلها أسماء وهمية من دليل التليفونات، يدونها بدفاتر الصالة على أنها أسماء أصحاب القطع بعدما استغنى عن الكومبارس لمغالاتهم في الأتعاب، لتعرض القطع بالمزاد ويبيعها منصور لحسـابه بمئات الجنيهات على أنها قديمة كعادته، لكنه يبلغ الضرائب بقيمة عمولته فقط.

اقتربـت مـن مكتـب منصـور ولا أدري بما سـأقوله فـي غضبتي، فوجدت نفسـي أحـاول الاعتذار عمَّا فعله ابنـي لكن كلماتي خرجت متلعثمـة، أشـار لي منصور بما يعني أن الأمر لا يسـتحق ثـم وقَّع عدة شـيكات في عجالـة، بعدها وجَّـه حديثه إلـى ليلى، دعاهـا معي على العشـاء بشـقته الجديدة في جاردن سـيتي للتعرف على زوجته بهيرة. حدَّد لنا موعدًا مساء الغد. همست ليلى في أذني سائلة بدهشة عن شقة جاردن سـيتي، أخبرتها بأنها شـقة بهيرة، ثم لكزتها لتسكت فالحوائط هنا لها آذان كثيرة مرهفة.

قبـل أن يغـادر منصـور الصالـة تلاقت نظراتـه مع كـروان، أومأ له الأخيـر إيماءة خاطفة لكني لمحتها، ليقول منصور وهو يتحرك باتجاه باب الخروج بعدما استعجلته بهيرة بدق نفير العربة:

- عندنا مزاد مهم بعد أيام يا ست ليلى، ياريت تشتري فستان جديد من شيكوريل أو هانو، بهيرة حتنزل معاكي، بس بلاش الفساتين المبشنقة المخنوقة بتاعتك دي لأن فيه ضيوف مهمين حيشرفوا المزاد، ولازم نبان شيك ومتحضرين علشان سمعة الصالة.

- مين يا منصور اللي حيحضر المزاد المهم ده؟ وليه مفيش إعلانات ولا معاينة؟ وليلى ما لها وما له؟

سألته بتحفز بينما صورة بوللي والكردي يوم زفاف منصور لا تفارق ذهني. لم يُجبني إنما وجَّه بصره نحو صورتنا مع الملك فاروق التي تتصدر مدخل الصالة، ثم غمز لي بعينه اليسرى مبتسمًا ليتضاعف قلقي.

***

طوال طريقي إلى حارة اليهود يشغلني منصور التركي، يركب رأسي ثم يتقافز فوق أكتافي، هل هو قوَّاد فعلًا؟! الكلمة التي ضايقته صغيرًا تبدو صفة ملتصقة به كظله لكنه يتمدد ليطول آخرين أولهم أنا، لا بد وأن كل ما رُوي عن معرفته بعلاقات أمه وسكوته عليها كان صحيحًا، لا أتصور أنه يمكنه مجرد التفكير في تقديم ليلى للملك باعتبارها من مقتنيات الصالة، لو فعلها سأقتله. ارتجفت لمجرد الفكرة.

يعاتبني منصور لأنني كثير السؤال ودائم الثرثرة، يقول إن المزاد يتطلب الكتمان، لكن ليلى ليست قطعة من قطعك الفنية يا منصور، يتصاعد الغضب لرأسي ويعبئ الضيق صدري، يضغط على ضلوعي

ويضرب جوانبي بعنف، ذرات الشك تكبر لتحتويني كفقاعة خانقة، ولا أحد غيره يستطيع تبديدها، لكنه لا يفعل.

أبطأ الترام في المحطة قبل الأخيرة، صعد رجل بوليس وجلس أمامي، فردت صحيفتي ودفست رأسي بها، لا أرى شيئًا من سطورها ولا أسمع سوى دقات قلبي وأنفاس الرجل الثقيلة تعزفان سيمفونية قلق أجبرتني على مغادرة عربة الترام في المحطة التالية، ترجّلت المسافة الباقية حتى منتصف حارة اليهود، طويت الجريدة تحت إبطي، تتصدر صفحتها الأولى صورة كبيرة للدكتور حسين هيكل وهو يلقي خطابه بالأمم المتحدة، متحدثًا عن الدم اليهودي الذي سيسيل في الدول العربية ولن تتمكن الحكومات من إيقافه بسبب نزيف الدم الفلسطيني بإسرائيل. تحققت نبوءته بعد يومين فقط، لا شك عندي الآن أن جماعة الشيخ حسن البنا وراء تفجير القنبلة بحارة اليهود أمس، التقطوا الخيط من كلام الدكتور هيكل وتحصنوا به وقاومونا في مصر مع أننا مصريون مثلهم، ليسقط بعدها أكثر من اثنين وستين يهوديًا ما بين قتيلٍ وجريح، ناصرتهم الحكومة بعدما ارتدت جلبابًا وأطلقت لحيتها تيمنًا بالملك، اتهمت اليهود أنفسهم بأنهم وراء التفجيرات لتخزينهم ألعاب نارية في منازلهم بطريقة خاطئة، قُيدت التحقيقات ضد مجهول، لتظل الشبهة تحوم حول الإخوان في الفضاء ولا يمسك بها أحد، مثل دخان تراه وتشتم رائحته بوضوح، لكنك لا تقبض عليه أبدًا.

زرت ثلاثة من أقاربنا ممَّن أُصيبوا في حادث تفجير القنبلة، قدمت التعازي في منازل أخرى بحارة اليهود، راعني حال الحارة وقذارتها عمَّا كنَّا نسكن فيها، كل شيءٍ تبدَّل، بنك الرهونات أغلق أبوابه وغالبية محلات اليهود صارت ملكًا لغيرهم،تغير نشاطها إلى محلات بقالة ومخابز بلدية وخردوات.

جيراننا المسلمون لديهم عبارة لطيفة يقولونها في المآتم بثقة.. «آخر الأحزان إن شاء الله». يبدو أن الله لم يشأ بعد، فلم يكد ينتهي شهر يونيو حتى فوجئنا بانفجارات أخرى في محلات شيكوريل وأوريكو بشارع فؤاد، تبعها إلقاء قنابل على متجر بنزايون عدس ومثلها في جاتينيو. قبل أن ينتصف أغسطس وصل عدد القتلى اليهود لعشرين شخصًا، من بينهم والد ليلى زوجتي، الذي أُصيب بشظايا من جراء قنبلة، وظل يتلقى العلاج بعدها أسبوعًا حتى فاضت روحه.

جاء إعلان قيام دولة إسرائيل منذ شهرين ليجعلنا نعيش أجواء حرب مرة ثانية، جاليتنا كبيرة تقترب من مائة ألف يهودي تقريبًا لكن لم يعُد مُرحبًا بنا على أرض النيل مع أننا لا نريد الهجرة إلى هناك، ولم نفكر يومًا في ترك مصر وساذج مَن يتصور فينا ذلك، لكنَّ المصريين المسلمين البسطاء تغيروا معنا فجأة، نجح حسن البنا وجماعته في غسل عقولهم المتحضرة، ليس أمامي الآن بعد مصرع حماي إلا تسجيل ملكيتي بالصالة وبيعها ثم الهجرة من مصر، لكني أيضًا لن أذهب إلى إسرائيل.

الليلة سـأطالب بحقـي، لن أغادر إلا والمبايعة الرسـمية في يدي، ولن أسمح لمنصور بمماطلتي أو مراوغتي.



1/16

خواطر سـريعة كوميض مصباح كهربي متقطع، تضرب رأسي ولا تُنيـر عقلي، بالـكاد ألمح طريقًـا ثم يختفي مـن أمامي، يشـتد انتباهي لألتقط طرف خيطٍ آخر أسير وراءه لينقطع بعد قليل، فلا أجني سوى إجهاد ذاكرتي.

ظللت أُشـجع نفسـي طوال الطريـق للصالة حتى وصلـت إليها.. فوجدتهـا مغلقـة. رحت أدور حـول أبوابها وواجهتها فلا أرى سـوى العتمـة، مـن بعيـد لمحـت الحارس يشـتري علبـة دخان مـن البقال، انتظرتـه حتى عاد، قطعت عليه الطريق سـائلًا عـن منصور، تفحصني ببجاحةٍ وهو يمسـح شاربه ويسـتعد لإشعال سيجارة، خطفتها من بين شفتيه ووبخته على طريقته الباردة في التعامل معي، رد بغلظة:

- دي أوامـر منصـور بيه يـا خواجة، اصبر واسـتنى هنا.. راجعلك تاني.

الغريب أنني تركته يمضي بعدما اسـترد سـيجارته من بين أصابعي بسـهولة، جلسـت أنتظر على حجـر أملس كبير أمـام مدخل الصالة لا

يجعلني مستقرًا في جلستي، عاد الحارس بعد دقيقتين مصطحبًا إياي للدخول من الباب الخلفي الذي لم أفكر في الدخول منه. الظلام شبه دامس لكن ثمَّة ضوء بعيد خافت ينبعث قرب مكتب منصور يسمح بالرؤية وعدم الاصطدام بالقطع، وجدت أمامي منضدة خشبية مستديرة حولها أربعة أشخاص وخامسهم التركي، تتوسطهم شمعة تـآكل غالبيتها، وورقة صغيرة تدور بينهم، يدوِّن كل منهم رقمًا بها ثم يسلمها لغيره في أقل من عشرين ثانية. الباقون ينظرون في ساعاتهم عندما يدوِّن أحدهم الرقم الذي يريده بالورقة لاحتساب الثواني، ولو تخطاها لا يُعتد بالرقم الذي حدده ويذهب الدور لغيره. أومأ لي منصور برأسه محييًا، وقفت بجواره أراقب ما يفعلون لكني لم أفهم شيئًا، سألته بعد دورتين فضحك باستنكارٍ قائلًا:

- معقول تبقى يهودي يا خواجة وماتعرفش مزاد الشمعة؟ اقعد اتفرج واتعلم وتبقى بجمِيلة..

مزاد الشمعة أدمنه منصور فيما يبدو كمقامر عتيد، فهمت من حواره مع الموجودين أنه يمارسه كل فترة، بدا لي واضحًا أنه يحسبها بدقة وتمرن عليها كثيرًا، يعرف متى يقول كلمته كل مرة، يحصل على ما يريده بالسعر الذي اختاره، يضيف جنيهًا في مرة وعشرة جنيهات في ثانية، ليعود لنصف الجنيه في الثالثة، يثق بأن الوقت سيمر ويطيعه آخر المطاف، مثل الساعة ستتعانق عقاربها حتمًا في توقيت مُحدد مُقدر سلفًا، لم تمضِ عشر دقائق حتى طقطق لهب الشمعة ببطءٍ من

دموعها معلنًا قرب وفاتها، بدا الصوت كدقات المزاد، الدقة الثالثة التي تعلن موت رغبة وولادة أخرى في اللحظة ذاتها.

سال الشمع المتبقي كموجة بحر افترشت الشاطئ وأفاضت بملحها فوق رماله، خفت اللهب وارتعش رعشة أخيرة ثم انطفأ، وضع منصور كفه على الورقة بعدما دوَّن بها رقمه النهائي كي لا يسحبها الجالس بجواره، قال وهو يشعل قداحته فبدت ابتسامته واسعة على ضوء لهبها:

– الخاتم الألماظ من نصيبي يا خواجة منك له.. المزاد رسي عليا بـ 88 جنيه.

استعد المزايدون للانصراف غاضبين، سيتحملون وحدهم الفارق بين قيمة الخاتم الذي اقتنصه منصور منهم وبين ما دفعوه فيه، تهيأت للمطالبة بحقي متنمرًا، لكن منصور دفعني برفق، أجلسني وهو يرفع كفَّه بالخاتم قائلًا:

– هدية مني للست ليلى حرمك المصون، ما تغلاش على الغاليين يا شريكي العزيز.

فتح كفِّي ودسَّ الخاتم به وأغلق أصابعي عليه، غشت لمعة الفصوص عيني، وطارت مطالبتي بحقي محلقة بعيدًا عن عقلي بمسافة شاسعة فلم أستطع إدراكها.

***

يهاجمني صيف القاهرة على أجنحة ضخمة من الرطوبة، يجثم على أنفاسي منذ الشروق حتى غروب الشمس مثل ضيف ثقيل أتمنى رحيله، لكنه يخلع نعليه ويرقد بجواري على الأريكة، يلتصق بي، يلفح هواؤه الساخن وجهي حتى أكاد أختنق من فرط صهده.

زرت منصور في بيته بعد شهر من وفاة والد ليلى، طلبت منه بوضوح تسجيل نصيبي بالصالة خلال أيام، كررتها متحاشيًا النظر لعينيه، لم يُبدِ حماسًا وحاول التملُّص متحججًا بالمزاد الكبير الذي تأجل لأكثر من شهرين حتى الآن مع أننا لم نعلن عنه بعد، علا صوتي مهددًا ربما لأول مرة في حياتي:

– لو مش عاوز تسجل نصيبي يا منصور أنا مستعد أبيع لك حصتي في الصالة بالورقة العرفي اللي بينَّا، أنا في الحقيقة محتاج فلوس لأني نويت الهجرة.. يا إما أبيعها لأي حد والسلام.. قلت إيه؟

لدهشتي رد بهدوءٍ شديد:

– وأنا اشتريت منك يا خواجة وبالسعر اللي تحدده كمان، اعتبر البيعة تمت وفلوسك حتبقى في حسابك بالبنك بعد شهر، ولو تحب نطلعها لك برَّه مصر مفيش مشكلة.. استابينا؟

– استابينا يا تركي..

لا أعرف لماذا يساورني الشك رغم تأميني على كلامه بكلمته التي لا يمل من ترديدها، أوافقه على ما يقوله لكني لا أصدقه في أغلب الأحيان، لا شك أنه يكذب ولو في جزءٍ من كلامه أو يُسكتني مؤقتًا،

لم يسألني عن وجهتي في الهجرة، ولم يعرف القيمة التي أريدها نظير بيع حصتي بصالة «أورفانيللي ومنصور». عدت أسأله عن موعد تنفيذ اتفاقنا، كذبت عليه لأول مرة في حياتي، أبلغته بنيتي السفر خلال شهر ليلتزم بكلمته، يعلم الله أنني لم أحدد موعدًا ولا حتى أعرف وجهتي القادمة، لكني خفت من مراوغته فيكسبني مثلما يفعل طوال حياتنا، رغم أن معي ورقة المبايعة هذه المرة وموقفي قوي.

قال بالهدوء ذاته:

- قبل الشهر ما يخلص فلوسك تكون وصلت لك بالكامل.

كتبت مسودة للاستقالة من أرشيف وزارة التجارة لتكون جاهزة إذا ما قررت السفر في أي وقت، لكن بعد ثلاثة أيام أعلن منصور عن مزاد كبير فعلًا بالصالة خلاف المزادات الأسبوعية أو الشهرية العادية، ألصق العمال أوراق الدعاية في الشوارع، ووزع آخرون مثلها على المنتديات الراقية، طبع منصور كتالوجًا أنيقًا على ورق مصقول كلفه الكثير.

يوم المعاينة كنت أنا وليلى هناك، ذهبت مضطرًا لمَّا ألحَّ منصور بضرورة حضورها، انتهى الوقت المحدد للمعاينة منذ ساعة، ولا يزال منصور فاتحًا باب الصالة على غير العادة، لمحت سيارة حمراء كبيرة من مكاني قرب المدخل، توقفت أمام الباب مباشرة، مرق منصور من جواري كالسهم. تبادلت مع ليلى نظرات حائرة، فهمست لي بأنه الملك.

تشككت في صحة استنتاجها، فلم يضعوا سجادة حمراء قرب المدخل، لكنها أكدت أن فاروق سينزل من العربة الآن، بعد ثوانٍ دخل الصالة الشماشرجي حسن الكردي وبصحبته ثلاثة آخرون ولم يظهر فاروق، أغلق الضمراني الباب بعدما رفع لافتة المعاينة التي كانت معلقة على المدخل، ووضع لافتة أخرى تُقرأ «مُغلق» بالفرنسية.

***

حيَّانا الكردي بإيماءةٍ خفيفةٍ من رأسه، توجَّه لركن بعيد بالصالة ليُعاين بعض القطع، بعد أقل من دقيقة نادى منصور على ليلى لتلحق بهم، هممت بالنهوض وراءها لكن الضمراني اقترب مني حاملًا دفترًا كبيرًا، حال بيني وبينها بجسده الضخم، طلب مساعدتي في مراجعة حسابات مزاد سابق اختلف فيه مع مصلحة الضرائب.

رمقته بنظرةٍ مشمئزةٍ كعادتي، قلت وأنا أكز على أسناني:

- أما دمك بارد صحيح.. هو ده وقته؟ يعني يبقى الجدع ده هنا وإحنا نظبط دفاترنا قدامه؟!

- ده مهما طلع ولا نزل مجرد شماشرجي جاي يعاين بضاعة لسيده لكن شغلنا مستعجل، ولو ما سلمتش الرد النهارده قبل الساعة تلاتة للمصلحة حيقدروا ضرايب عالية علينا وتبقى مسئوليتك قدام منصور بيك، ويمكن يخصمهم من نايبك طالما نويت تبيع وتهاجر.

تلجم لساني، لا أعرف ما الذي أقوله ردًّا على وقاحة الضمراني في الحديث معي، لم أفهم لماذا أخبره منصور برغبتي في بيع نصيبي

بالصالة والهجرة، ظنته سيظل سرًّا بيننا، دارت الأسئلة في رأسي ولم أجد لها جوابًا، تباطأت قليلًا، لكن قبل أن تتحرك باتجاه المخزن كان الكردي ورجاله يقتربون منَّا، توقفوا عند علبة من «السيفر» كبيرة وعريضة، ظل الكردي واقفًا أمامها لفترة طالت لكنه لم يمد يده إليها بينما راحت ليلى تشرح قيمتها، حتى قال منصور:

- لو أي حاجة عجبت معاليك لمولانا، يشرفنا إنها تنول الرضا السامي.

تدخل في الحديث أحد أفراد الحاشية، مشيرًا بعينه ناحية ليلى وهو يبتسم بخبثٍ صريحٍ قائلًا بلهجةٍ شامية:

- مولانا بيحب أي حاجة شغل شرقي.. خصوصًا لو مصري يا حبيب عيني.

أخرج كارتًا صغيرًا من سترته دوَّن به كلمات قليلة ثم دسَّه في جيب منصور، وغادر مسرعًا خلف الكردي، عاد منصور بعدما ودعهم، ما إن لمحني أعاتب ليلى على فستانها المفتوح الذي اشترته لها بهيرة حتى تقلبت ملامحه وقال بحدةٍ شعرت أنها زائدة:

- هو ده وقته يا خواجة؟! مولانا بعت لنا سكرتيره الشخصي يختار القطع بداله، وطلب بضاعة تانية شغل إنجليزي قديم وكروان حيجهزها الليلة لأن بكرة الست ليلى لازم تروح عابدين تعرضهم عليه، ولو عجبوا جلالته حيشتري برة المزاد، نقوم إحنا نسيب الشغل المهم ده كله ونتكلم في الفساتين؟!

- أنت أكيد اتجننت يا منصور، شغل إنجليزي قديم إيه اللي مراتي تروح تعرضه في قصر عابدين؟ وازاي يعني نبيع حاجة الناس برة المزاد؟ أنا مش موافق على المشوار ده خالص، ولا ليلى عاوزة تروح القصر.

خطا منصور نحو مكتبه ببطءٍ وهو يقول بصوتٍ عالٍ:

- زي ما تحب، بس دي موش أول مرة نبيع برة المزاد والا أنت نسيت مشوار الست فريدة؟

سكت برهة وهو يتفرس في وجهي ثم أردف بنبرةٍ تنطوي على تهديدٍ مفضوح:

- أنا كمان ماقدرش أشتري نصيبك وأنا خسران صفقة زي دي، لو تفتكر من كام سنة أخدنا تلاتلاف جنيه في شوية علب برونز، تفتكر ممكن نكسب كام المرة دي؟ فكر على مهلك في الكام ساعة دول، خد قرارك بالعقل وبلغني، أنا طالع الفجر إسكندرية أشوف البربري في شغلانة مستعجلة وراجع قبل المغرب.

لملم أوراقه لكن قبل أن يغادر توقف فجأة في منتصف الصالة، التفت ناحية ليلى وهو يقول:

- الكردي بيه معجب بطريقتك في تقديم القطع، وهو اللي اقترح إنك تقدميها لمولانا، المشوار ده حيكسبنا فلوس ما نحلمش بيها، ياريت تعقّلي جوزك والا حاشتري نصيبه بتراب الفلوس. خسارة ليكم قبل مني.

تدخلت في الحديث مقاطعًا بعصبيةٍ قبل أن ترد ليلى:

- هو أنا بقرنين يا منصور علشان تودي ليلى قصر عابدين لوحدها وتقوللي مولانا حيكون معجب بطريقة تقديمها للقطع، ثم يفهم إيه حسن أفندي الكردي، ما هو شماشرجي لا راح ولا جه على أي الضمراني.

- ومين قال لك إنها حتروح لوحدها؟ أنا رايح معاها طبعًا يا خواجة، أما الكردي فلازم تعرف إنه واحد من تلاتة بيشوفوا الملك كل يوم أكتر من الملكة نفسها، الأفندي اللي معاليك بتقلل من قيمته ده أهم عند فاروق من رئيس الوزارة ذات نفسه.

عبثًا حاولت إقناع منصور بالذهاب بمفرده فلم أفلح، اقترحت أن أصطحبهما فرفض، تحجج بأننا سنبدو مثل الفلاحين الذين يخشون من ملاطفة الملك لزوجاتهم فأتينا بالزوج معنا، وربما يثير الأمر حفيظة فاروق ويطردنا من القصر، وقد يتطور الموضوع أسرع وتغلق الصالة في اليوم التالي، أو على أحسن تقدير ينفض عنها الزبائن لتصبح مثل البيت الوقف.

وقفت شاردًا في كلام منصور غير مقتنع فجذبني من يدي لغرفة المكتب، سكب برأسي مخاوف كثيرة، حكى لي روايات لا أعرف مدى صحتها عن أناس تعرضوا للأذى لمَّا رفضوا الامتثال لطلبات مولانا، أو لم يتفهموا العطف الملكي. بدأ بحكاية رجل رفض أن تراقص زوجته الملك في ملهى الأوبرج ففصلوه من عمله، وحكى

عـن آخر اعتـذر بصلافة عن عدم قبول خاتم من الماس هدية لزوجته، فلفَّقـوا لـه تهمة اختلاس بضائع من مخازن شـركة الملاحة التي كان يديرها فدخل السـجن وما زال به، وثالث لم يرضَ بالخسـارة في لعبة البوكر أمام الملك، فلم يجد مَن يقبل جلوسـه معه للعب على طاولته بعدهـا فـي أي مكان، ثم التـفَّ حوله بعض الأجانـب ولعبوا معه عدة ليالٍ حتى أفلسـوه، والآن يشحذ ويبيت بالطرقات قرب ضريح السيدة زينـب، بعدمـا صـار مجذوبًا يلقمـه المـارة بالحجارة وهو يشـهر في وجوههم أوراق اللعب ويهذي.

تشـوَّش عقلي تمامًا، تخيلتني بملابس السجن، متهمًا بالتزوير في أوراق رسـمية أو باختـلاس عهـدة، أو مجذوبًا بحي الحسـين أرتدي ملابس رثة، مشـهرًا كارت ملك الكوتشـينة، دائرًا علـى المقاهي طلبًا للصدقة، فأطرد شر طردة.

خرجنـا من غرفـة المكتب ومنصور يضع يده على كتفي، سـحبني برفق وأنا مستسـلم له، بكت ليلى بكاءً صامتًا، نظرت لها لتنطق، لكنها لـم ترفض ولـم تقبل، أطرقت فقط. قطع منصـور الصمت آمرًا كروان والضمرانـي بالانصـراف ثم أخـرج الـكارت الصغير مـن جيبه الذي أعطـاه له رجل الحاشـية الشـامي، قلبه فـي يده وقرأ بطريقة مسـرحية ما دُوِّن على ظهره:

- كلمة السر.. قصر المنتزه.



1/17

ظننت في صغري أن شبحًا يعيش بخزانة ملابسي، كنت أسمع صوته بوضوح وأتخيل شكله وأبكي خوفًا منه، حتى أخبرتني أمي بأن هذا الشبح يسكن رأسي وملامحه تشبه فقاعات الهواء، فإذا ما تركت باب الخزانة مفتوحًا لليلةٍ واحدةٍ سيخرج ولن يعود، لكنني حتى يومنا هذا بعدما تخطيت الثلاثين ببضع سنين ما زلت أنام تاركًا باب خزانة ملابسي مفتوحًا.

ليلة أمس رأيت الشبح لأول مرة يخرج من الخزانة، كان طويلًا بدينًا وله شارب ويضع تاجًا كبيرًا فوق رأسه.

قمت متوترًا متعبًا من فراشي كأنني كنت أتقلب فوق مسامير طوال الليل، رحت أنفض كابوسي من رأسي لكن ظل مزاجي منحرفًا، أضعت النهار في قراءة الجرائد والاستماع للموسيقى بالراديو ، ليلى تبدو لي مترددة، لن أتركها تواجه المشكلة وحدها، ولن أكون سلبيًا كما تتهمني هي دائمًا، قررت أن أفاجئها ومنصور وأذهب بصحبتهما إلى قصر عابدين، بعدما فشلت بالأمس في إقناعها بالعدول عن الذهاب بمفردها، نقاش قصير دار بيننا، انتهى بوأد كل حججي في قبر الثروة القادمة والمكسب الكبير إذا ما نلنا العطف الملكي المنتظر، حدثتني عن رغبتنا في الهجرة وتأمين مستقبل أورفانيللي الصغير،

وحلم افتتاح صالة تحمل اسـمي وحـدي.. صالة أورفانيللي، عاتبتني بحدة على شـكي فـي قدرتها علـى حفـظ كرامتها، ولامتني بشراسـة علـى ضعفي أمام منصور في الوقت ذاتـه، فأربكتني ودفعتني لاختيار الصمت ساترًا.

غـادرت ليلـى بيتنـا قبلي للقاء منصـور، تظاهرت بـلا مبالاة حتى لا تنفجر في وجهي وتفسـد خطتي، فقد بدت مشـحونة وعلى وشـك الانفجـار منـذ الصباح، قبل موعدهما مع الملك بسـاعة وجداني أمام الصالـة أقطـع عليهمـا الطريق، واضعًا يـدي حول خصـري، متحفزًا، أبلغتهما بحسـم بأنني سـأصاحبهما مهمـا كانت العواقـب، تجاهلني منصور مبتسـمًا باسـتنكار وهو يهز رأسـه متعجبًا، مر بجواري قاصدًا سيارته ولـم يوجِّه لي كلمة واحدة كأنني مخمور يهذي، ابتسمت لليلى كي تتقبل وجودي لكنها رمقتني بنظرةٍ غاضبةٍ ثبتتني في مكاني، غامت ابتسامتي بعدها حتى غابت سيارة منصور عن بصري .

دخلـت الصالـة مطرقًا، جلسـت على يسـار المنصـة لأرى وجوه المزايدين، أرقب مشـاعرهم المتباينة كل لحظة. شـفاه منفرجة، عيون جاحظة قلقة، عقول شـاردة، أجسـاد تهب فجأة واقفة ثم تسـتريح في بطءٍ بوجوه متوترة، هذا يحك مؤخرة رأسه بقوة، وآخر يضرب جبهته بعنـف لمـا رسـا مزاد قطعـة يُريدهـا على غيـره، تلك تقضـم أظافرها بعصبيـةٍ في انتظار أن يُرسِّـي سـعد كروان المزاد عليهـا، هذه تتهامس مع جارتها والغضب يكسـو ملامحها لأنه توقـف عند كلمة «آلا أونا»

فقط وظل يكررها متعمدًا الإطالة، فالسعر لا يزال خفيضًا لا يُرضيه. لا أسمع كل ما يقولونه بالتفصيل لكني أشعر بشعورهم جميعًا، أنا مثلهم، قطعتي الغالية في طريقها الآن لقصر عابدين، ومصباح رأسي لم ينطفئ منذ أمس، يا ترى هل يُرسِّيها منصور على وليّ النِّعَم، أم يُعيدها لي سليمة كما وعدني؟

لا إجابة تُريحني.. حتى الثانية.

التفتُّ نصف التفاتةٍ ناحية كروان الذي يُدير الجلسة بدلًا من منصور، تلاقت عيوننا فغمز لي، يا ترى هل علم بالأمر هو الآخر، لا شك عندي أن الضمراني يعرف كل شيءٍ عني، وربما كان معهما الآن في قصر عابدين فلم أرَه في الصالة منذ الصباح، لكن سعد محترم ولا أظنه مشاركًا في هذا الأمر، وقعت عيني على أورفانيللي الصغير فتجاهلني، بدا منشغلًا للغاية بدوره كصبي مناولة رغم أنه لم يكمل عامًا في عمله، يؤديه بجدية وملامح محايدة لا تجرؤ على الابتسام لأيٍّ من زبائن الصالة، حتى ولو كان هذا الزبون.. أباه.

قمت متثاقلًا للجلوس في آخر صف كما أفضل، محاولًا تفادي العيون التي تلاحقني، شعرت أن الجميع يرمقني، لا بد أنهم يعرفون بشراكتي الخفية مع منصور، مؤكد يعلمون أيضًا أن ليلى زوجتي وأنني أغامر بها لتكبر حصتي، سيصفونني بالوصف ذاته الذي التصق بمنصور التركي ولم يُفارقه. ربما أخطأت التقدير بالمقامرة، كمَن يكشف أوراقه كلها مرة واحدة أثناء اللعب، لكن المكسب مُغرٍ،

سيُعينني ولا شك على هجرتي، سيؤمِّن مستقبل أورفانيللي الصغير لسنوات طويلة، وربما يفتتح صالة باسمَينا قريبًا.. «صالة أورفانيللي»، لأعيش الحياة مع ليلى كما نريدها.

هززت رأسي بشدةٍ لأنفض بقية الأفكار التي سترد تباعًا لعقلي في حالة افتراض الخسارة، شعرت بتسرعي، يا ليتني ما وافقت، لكن ليلى لم تعترض للدرجة التي تشجعني، اكتفت بصمتٍ يُفسَّر على أوجهٍ عديدة، ربما أنا مخطئ وهي ومنصور على صواب، والأمر سيمر بسلام.. ربما.

أشعلت سيجارة ثالثة ورُحت أنفث دخانها ليُشكل حلقات في الفراغ، أتسلى بمتابعتها شاردًا وهي تتداخل وتتبخر، لم أعُد أسمع نداءات كروان ومزايدات الزبائن، فاروق يشغل تفكيري كله، لا أعرف سببًا لهذا العبث الملكي غير المبرر، لماذا يحدد كلمة سر لمَن يتردد عليه بقصر عابدين إلا إذا كان في الأمر شيءٌ مريب، هززت رأسي بالنفي، كل مَن حوله يؤكدون أنه يحب المغامرة، يهوى الأفعال الصبيانية ولا يتجاوزها لأبعد من ذلك.. هكذا قال منصور ولا بد أنه على صواب أيضًا.

ارتفع رنين هاتف الصالة فجأة، سكت المزايدون، رفع الريس هارون السماعة وانتظر قليلًا وهو يُنصت باهتمام، ثم هرول وهمس في أُذن كروان ببضع كلمات، على إثرها دقَّ سعد الجرس ثلاث مرات قائلًا بصوتٍ عالٍ:

- يا حضرات مضطرين لإيقاف إجراءات المزاد مؤقتًا بسبب نزاع على ملكية الفازة المعروضة لأن في بلاغ مقدم عنها بالنيابة الآن.. بنعتذر لكم.

انسحب كروان بهدوء إلى حجرة المكتب، قطعت قلب الصالة في طريقي إليه، الجميع قادمون في اتجاهي، تعلو منهم همهمات، أعقبتها عبارات استنكار معبأة بضيق لإيقاف المزاد بهذه الصورة، بدأت الشائعات في التكوين لتكبر عند باب الصالة بعد قليل تمهيدًا لتنتشر.

استوقفت الريس هارون الذي تلقى المكالمة الهاتفية، أخبرني أن المتصل منصور وطلب إيقاف المزاد كله فورًا، هرولت ناحية كروان، وجدته منشغلًا في محادثة تليفونية أخرى، وكلما حاولت مقاطعته أشار لي بيده لأسكت، مر الوقت بطيئًا وعيناي متعلقتان بشفتيه، لكنه يسمع أكثر ممَّا يتكلم حتى وضع السماعة وقال:

- يظهر إن الست ليلى عملت مشكلة مع نعمت هانم مظلوم وصيفة الملكة، منصور بيه دلوقتي في قسم البوليس وكان بيكلمني من مكتب المأمور.

- وليلى مراتي فين؟!

لم يُجبني كروان، انطلق كسهم ناحية باب الخروج وأنا في ذيله، عشرات الاحتمالات تتقافز في رأسي مثل فئران حبيسة بقفص ضيق تبحث عن مخرج نجاة فلا تجده. أول مرة أذهب إلى قسم بوليس

بقدمي، صورة أبي وهو يبكي ببيتنا ثبتت بمخيلتي لا أستطيع صرفها. صعدت الدرج الكبير بخطواتٍ مرتجفة، توجهت مع سعد كروان لمكتب المأمور، وجدت منصور جالسًا ومعه اثنان لا أعرفهما وثالثهما الكردي، من الواضح أن لهما سطوة ما فالمأمور يوجِّه حديثه لهما باحترام وتبجيلٍ وهما يردَّان بعنجهية، أحدهما يضع ساقًا فوق أخرى ويُدخِّنُ بشراهةٍ وينفث دخانه في وجه المأمور بغير اكتراث.

تفاديت النظر للجميع لمَّا التفتوا ناحيتي، أنقذني منصور عندما أشار إلى ركنٍ بعيدٍ بالغرفة الواسعة فجلست فيه صامتًا، راح يتهامس طويلًا مع كروان الذي مال على أُذن الكردي بعدها لبرهة، ثم استأذن من المأمور وانصرف وهو يرمقني بنظرةٍ غريبة، خُيِّل لي أنه يُشفق على مصيري فيها، فتسارعت دقات قلبي.

عادوا يتهامسون، حاولت ربط خيوط الحديث فلم أفهم شيئًا، يتكلمون بحرص، ينظرون ناحيتي أولًا قبل أن تخرج كلمة من شفاههم، ثم تحدث المأمور في الهاتف، قال عبارات متناثرة لا رابط بينها، أفلحت في التقاط جمل غريبة، مثل إنها ليست أول مرة، وإن دولة الباشا رئيس الوزارة يتابع الموضوع كل نصف ساعة، وإن شخصًا ما لم يذكر اسمه ولا صفته لن يجرؤ حتى على تقديم شكوى.. أيكون أنا هذا الشخص الجبان؟!

فجأة تدخل منصور في الحديث مع المأمور للتأكيد على عدم ضبط الكارت، ثم تردد اسم الطبيب الإيطالي الشهير «جيلات» في

جملـةٍ مُريبـة، كدت أُصـاب بلوثةٍ عقليةٍ لمجرد سـماع اسـمه. ما كاد المأمور يضع السماعة حتى دق الجرس، استمع وهو يهز رأسه، ثم أكد لمحدثه على حتمية إنهاء الأمر قبل عودة الملك الليلة من الفيوم.

نهضـت مـن مكانـي واقتربت مـن منصور، سـألته عـن ليلى وفي ذهنـي أنها مع فـاروق، لم يجفل لي جفـن وأنا أنظر له بتحـدٍّ لكنه بدا مرتبـكًا، وجهت بصري لمأمور القسـم، شـعرت لأول مرة في حياتي أنـه هو الذي يخاف منـي، ينكمش في مقعده، يترقب خطواتي، حبات عرق تتلألأ علـى جبهته وربما تنتظر صرخاتي في وجهه لتنهمر، حتى الكردي لملم سـاقيه، بينما سـكت الرجلان الغريبان، أطرقا في وجومٍ وأطفأ أحدهما سيجارته.

تلاشـت صورة أبـي لمَّا تعـرض للإهانة في مكان مشـابه، أنا الآن أقـوى مـن الجميـع، حاجز الخوف سـقط ويبـدو أنه كان سـميكًا في خيالـي فقـط، مع ذلـك لا أعرف مـاذا أفعـل، غُرس عقلـي في أرض حيرتي الرطبة، صرت مثل ممثل على خشـبة مسـرح طـار الحوار من ذاكرته فجأة ولم يجد مَن يسعفه، فمنصور كان دومًا هو الملقن.

فجأة هـبَّ التركي من مقعـده، جذبني من ذراعي بقوةٍ فاسـتجبت فـي ليـن، اصطحبني لخارج القسـم، وضعنـي على المقعـد المجاور للسـائق بعربته كدُمية، تحرك بالسـيارة باتجاه الصالة، سكب في أذني الحقيقة التي شـلَّت تفكيري.. جلالـة الملكة ضبطت ليلى في الجناح الخـاص بالملـك، تصاعـدت الأمـور، فأبلغـت وصيفتهـا الحـرس

الملكي، استدعوا قوة من قسم البوليس وقبضوا على ليلى هناك.. ما زال منصور يتكلم وأنا أحملق فيه ذاهلًا، صورته تتراقص أمام عيني وصوته يتلاشى.

لو رويت الحقيقة للخيال سيندهش. الملكة سيدة رقيقة، لا يمكن أن تتحول لوحش فجأة هكذا إلا في خيال منصور.

رحت أتخيل الصورة التي كانت عليها ليلى بجناح فاروق الخاص، ما الذي رأته فريدة منها لتظن أنها عشيقته؟! وأين هي زوجتي الآن؟ ماذا فعلوا بها؟ ظل منصور يحرك شفتيه لكني لا أسمعه، لا بد وأنه يتنفس كذبًا كعادته، سمعت صوت كلاب تنبح من بعيد، رأيت أمامي صورة المأمور والكردي والرجلين الغريبين وهم يقتربون مني، أفواههم مفتوحة عن أسنان كبيرة قبيحة، ثم طافت صورة سعد كروان في ذهني وهو يحمل ليلى بين ذراعيه مثل الفازة الرقيقة، معلنًا إرجاء المزاد بسبب شكوى على ملكية قطعة متنازع عليها، ردَّدها مرات ومرات بصوتٍ يعلو بالتدريج، صرخت وأنا أُغطي أُذنَيَّ بكفَّيَّ لكن صوته لم يتوقف. ترك منصور السيارة أمام باب الصالة لكن لم أقوَ على مغادرتها بمفردي وظللت أبكي، أسندني على ذراعه وجذبني وسار بي، ترنحت وأحسست بأن ساقي تخونني، أمسكت بكتف منصور حتى لا أسقط وهو يلفني بذراعيه، والريس هارون يرجوني لكي أهدأ بينما عمال الصالة مرتبكون، لمحت اللافتة التي تحمل اسمي قبل منصور، تمتمت بكلماتٍ أخيرةٍ سبَّبَتُ بها منصور وهممت بالدخول.. لكني هويت.

«يا ليتني كنت نارًا لأحرقكم جميعًا، لكنني مجرد حطبٍ جافٍّ مُحطَّمٍ باح بسِرِّه للنار مطمئنًّا.. فأحرقَته»

أورفانيللي إستيفان ألفيزي

1948 – 1912



الحكاية

منصور



2/1

لم أكن قوادًا يا صديقي، لم أُجبر أحدًا على فعل شيءٍ لا يريده، أنا أنير الطريق فقط، أدل الآخرين عليه، ثم أترك كل منهم يختار سِكَّته، لست مسئولًا عن تعثُّر أحد أثناء سيره أو قبل بلوغه غايته بقليل.

الحياة مغامرة والمزاد مقامرة، لكننا ننسى وقت الخسارة، ونبحث عن كبش فداء لأخطائنا.

في طريقنا إلى مدافن اليهود بالمعادي عصف الهواء المندفع من نافذة السيارة نصف المفتوحة بوجهي، تتراقص الصورة أمام عيني، سقط أورفانيللي على باب الصالة تحت اللافتة، بعدما تدلى فكُّه السفلي ومال إلى اليمين قليلًا، تحشرجت كلماته وهو يصرخ في وجهي ويسبني. مات أورفانيللي.. لم يتحمل قلبه الخسارة الكبيرة، كان طيبًا رغم خوفه الزائد من كل شيء، لم يعِشْ يومًا في سلام، دائمًا في انتظار الأسوأ، حتى جاءه هذه المرة على جناح مَلَك الموت.

طلبت منك إقراضي ستين جنيهًا لأبدأ حُلمي الكبير بامتلاك صالة مزاد لكنك رفضت وجبنت، ولما رأيت الحجرة في صالون صيدناوي سال لعابك ووافقت، بعدها تقبلت الشراكة التي عرضتها عليك،وضعت اسمك عليها قبل اسمي،شاركتك لأنك صديقي وأنت قبلت لأنك تريد المال بسهولة.

لست قوادًا بل شهمًا. ليلى تعثرت ومن قبلها أنت من أول خطوة وساندتكما، ولو عادت سالمة لما سمعنا صراخك وربما طلبت منها الذهاب مرة ثانية ووافقت هي، فلماذا أكون القواد وحدي؟! لا.. لست قوادًا يا صديقي، سأظل أرددها حتى لو لم تكن تسمعني الآن، زوجتك لم ترفض، وأنت قامرت وراهنت لتفوز.

صدقني يا أورفانيللي أنا مثلك.. أنا وجه العملة الآخر، لكني الملك وأنت مجرد رقم.

***

يتشابك الموت مع الحياة عند كل البشر مهما اختلفت دياناتهم. داهمني هذا الشعور منذ صلوا صلاة القاديش على جثمانه بالمعبد اليهودي كأننا في مسجد، ثم نقلناه في عربةٍ مخصوصةٍ إلى المدافن، جلس أورفانيللي الصغير بجواري في سيارتي شاردًا، ينظر عبر نافذته بوجهٍ جامدٍ ودموع متحجرة تأبى الانهمار. لم يبكِ أباه بعد ولا أعرف ما الذي يدور بعقله. ربتُّ كتفه برفقٍ لكنه ظل متخشبًا في جلسته، سحبت يدي متوجسًا، هل أخبره أبوه بحقيقة الأمر؟ هل وصفني له

بأنني قواد؟! هززت رأسي بشدة، أصابني الضيق من هواجسي، هذا الصغير لن يفهم معنى الكلمة، بل لن يجرؤ أورفانيللي على قولها له، وإلا كان قوادًا مثلي في عينَي ابنه عندما وافق على إرسال زوجته لقصر عابدين.

أغمضت عيني وأعدت رأسي للوراء متذكرًا تلك الليلة القريبة، وقفنا عند البوابة الرئيسية، أخبرتهم بكلمة السر «قصر المنتزه»، الكلمة التي اعتاد الملك وحاشيته التعامل بها مع صديقاته إذا ما دعاهن إلى القصر في زيارةٍ خاصة، استقبلنا الشماشرجي حسن الكردي ببشاشةٍ وأجلسنا في صالون صغير، دخل علينا بوللي وصافحنا، توترت ليلى من وجوده لكنها ظلت ملتحفة بصمتها منذ غادرنا الصالة، بدا بوللي رائق المزاج، أفهمها بأنه سينتظر معي بالصالون وطلب من الكردي اصطحابها للطابق العلوي انتظارًا لمولانا. تبدلت ملامح ليلى، رمقتني بنظرة غضب وربما احتقار، تسمَّرت قدماها بالأرض، لكن بوللي لم يكن سهلًا، دعانا لمكتبه وتركناها بمفردها في الحجرة، ظن بوللي أنها ستهدأ وتضطر للقاء الملك وسيعرف مولانا كيف يلين خشونتها. فهمت منه أنه ما زال أمامنا متسع من الوقت، فلم يكن جلالته قد عاد بعد للقصر من رحلة صيد البط بالفيوم، لكن ما لم يخطر على بالنا هو أن ليلى قررت الهرب من القصر. ظنت أن طريقها ممهدة للنجاة، لم تدرِ أنها تمشي حافية على قطع من البلُّور، تركت الحقيبة بالصالون، سلكت دهاليز وطرقات لا تعرفها فلم تؤدِّ بها لباب الخروج، ساقتها نحو الهاوية مغمضة العينين، إلى مكتب الملك بالطابق الأرضي قرب

الحرملك. لمحتها نعمت هانـم مظلوم من بعيد فأبلغت الملكة فريدة ومن بعدها قامت القيامة.

وصـل الخبـر إلينا من عيون الكردي بالحرملـك، هرعنا إلى حيث جنـاح الملكة الذي احتُجزت ليلى بغرفة جانبية قريبة منه، ظنت فريدة أن ليلى عشـيقة لفاروق، عبثًا حـاول الكردي إفهامها أنها تعمل بصالة «أورفانيللـي ومنصور» وأتت لعرض بعض القطع القديمة على جلالة الملـك، ولأن الحقيبة لم تكـن معها وقت ضبطها فلـم يُصدقها أحد، خاصة وأنها كما قيل لنا من الخدم الخباصين خلعت حذاءها ووضعته تحت إبطها كي لا تُحدث صوتًا أثناء سيرها، فأثارت هيأتها الشـكوك فيها.

أسـهب الخدم فـي سـرد التفاصيـل، أخبرونا بـأن فريـدة تعلم أن فاروق يحتفظ بمسـدس من الفضة الخالصة في درج مكتبه، ورثه عن أبيه ويُربه لكل ضيوفه متفاخرًا بدقة صناعته. فأتت به مسـرعة باعتباره الأقرب لها وأشـهرته في وجه ليلى، هددت بقتلها، فانهارت ودخلت فـي نوبة بكاء طويلة. أقامت الملكة الدنيا ولم تُقعدها، اتصلت برئيس الوزراء واسـتدعت قائـد الحرس الملكي، سـألته عن دفتـر الزيارات وتحـت إلحـاح جلالتهـا عرفت بدخـول ليلى عـن طريق كلمة السـر فتأكدت شـكوكها، حـاول بوللي التدخل مدافعًا عـن مولاه بأن رحلة الصيـد مُرتب لها منذ فترة، وربما يقضي الليلة بالأويرج، ممَّا يؤكد أنه ليـس موعـدًا غراميًّا كما تظن الملكة، رمقته فريـدة بنظرة احتقار هائلة لم أرَ مثلها في حياتي إلا التي منحتها منذ قليل لحسـن الكردي، نظرة لا تعني سوى كلمة واحدة.. «قواد».

لُذت بالصمت حتى غادرت الملكة مع وصيفتها مُخلِّفتين عاصفة غضب وراءهما حجبت عنّا رؤية ما تُخططان له والمسدس الفضي المزخرف لا يزال في كفها الصغيرة فيجعل خيالنا يشطح نحو الأسوأ، طرحت حلولًا كثيرة لإنقاذ ليلى لكن حقيبة القِطع اختفت بفعل فاعل، ولم يعُد في جعبتي ما يسند حجحجي بأنها موظفة عرض بصالتي، يبدو أن فريدة اختارت الانتقام من الملك وتلقينه درسًا على نزواته الطائشة فطاشت الرصاصة منها و أصابت ليلى وحدها. عادت إلينا نعمت هانم وأبلغتنا بأن الملكة هدأت قليلًا لكنها مصممة على استدعاء بوليس قسم عابدين ليقبض على ليلى، فلا رواية من التي رويناها أفلحت في إسكات شكوكها.

نحَّيت الكردي جانبًا، اقترحت في النهاية ادعاء أن ليلى مضطربة عقليًا، نقول مثلًا إنها مصابة بهوس المشاهير، ودخلت القصر خلسة لكي ترى الملك وهو لا يعرفها، وفي ذات الوقت نبعد البوليس عن ليلى. أعجبت الفكرة بوللي، أجرى عدة اتصالات هاتفية انتهت بشهادة طبية قُدمت في قسم عابدين من الدكتور «جيلات» صديق السراي، دوَّن الطبيب الإيطالي بالشهادة أن ليلى تُعالج منذ سنوات وتُعاني من هلاوس وضلالات وغير مسئولة عن أفعالها.

شهدت بالمحضر على اضطرابها النفسي، وأن لديها وسواسًا قهريًا يصور لها أنها ملكة مصر، فأوصى الطبيب في نهاية تقريره بضرورة احتجازها بالمستشفى.

أنقـذت شـهادتي ليلـى مـن السـجن، وجنَّبـت مولانـا مزيـدًا من الفضائـح كان ينتظرها حزب الوفد علـى أحر من الجمر، لكنها أودت بحياة أورفانيللي مع أنني حفظت كرامة زوجته حتى النهاية.

الآن وبعد أن عرفت الرواية كلها، أجب عن سؤالي.. مَن مِنَّا القواد يا صديقي؟!



2/2

ربمـا أكـون الطفـل الوحيد من بيـن معارفي الذي تشـكَّلت أغلب ذكرياته في الحواري والشـوارع وداخل أروقة صالات المزاد، هجرنا أبـي وأنا صغيـر بعدما اعتدى على أمـي بالضرب المبـرح ولـم أعرف السـبب، لكنهـا ظلـت قويـة فتعلمـت منها التماسـك فـي المصائب، أخبرتنـي أنها سـتعمل حتـى أنتهي من دراسـتي وأجد وظيفـة وبعدها تسـتريح، لكنهـا لـم تخـرج للعمل، راحـت تبيع بعض القطـع من بيتنا وتشـتري غيرهـا، تنتقي بعنايةٍ قطعًـا قديمة، غاليتها بغيـر فائدة تُذكر، ثم تحكي عنها قصصًا للمشترين كأنها أغلى ما نملك، باعت واشترت وكسـبت، راقبتهـا منبهـرًا باللعبـة وتمنيـت أن أمارسـها معهـا، لكنها رفضـت خوفًا من ترك دراسـتي، مع أنني كنـت أقضي غالبية يومي في الشارع بمباركتها.

في إحدى المرات التي كنت أزور أبي فيها بعد هجره لأمي أخبرته بما تفعله بعد غيابه وبرغبتي في العمل معها لكنها ترفض، فاصطحبني لصالة مزاد بحي اليهود، أتذكر هذا اليوم جيدًا، كم قطعة بيعت ومواصفاتها وسعرها، ملامح المزايدين وانفعالاتهم وصرخاتهم، هيئة الريس هارون الرجل الوقور الصامت الذي يناول صاحب الصالة، ولا يرفع عينه من عليّ مندهشًا، ربما من اهتمامي وصغر سني. أو لأن أبي مزايد غشيم.. لم أكن أدري وقتها بالحقيقة، لكنني بعدها علمت أن أبي أوصاه بأن يعلمني المهنة.

رحب أبي يومها على بأن أعمل بالصالة إلى جوار دراستي، ربما قصد إبعادي عن أمي لأكون تحت عينه، لكنه توقف عن متابعتي بعدها لما طلب مني الإقامة معه ورفضت حتى لا أفقد حريتي التي منحتها لي أمي مبكرًا. كنت أعود من المدرسة مكتفيًا بما نستذكره هناك لمدة ساعتين بعد انتهاء اليوم الدراسي، ألعب الكرة في الشارع وأحيانًا أتشاجر مع بعض الصبية لفرض سيطرتي بحارة اليهود، أو على أصحاب المحلات الذين يُشغِّلون الأولاد الصغار ويأكلون حقوقهم نهاية الأسبوع، ألجأ للنبلة وأهشم زجاج واجهات محلاتهم من بعيد بكُرة نيكل صغيرة عقابًا لهم، أيضًا ألعب الكارت مع صبيان اليهود لقتل الوقت، ثم صارت لعبتي المفضلة والمثيرة في آنٍ واحدٍ بعدما تعلمتها منهم، نلعب بوقت محدد، يضع كل منّا مليمًا على الطاولة في بداية اللعب، كان عليَّ الاحتفاظ بالكروت الرابحة حتى اللحظات الأخيرة لأضمن فوزي، نجحت في أغلب المرات في الحصول على القرش الذي نُقامر عليه كل مرة.

في صالة المزاد التي عملت بها وكان اسمها النجمة لصاحبها الخواجة نسيم مغربي، تولاني الريس هارون بالرعاية والتدريب، هو كبير العمال وأنا مجرد صبي، أعطاني هارون أسرار المهنة كلها لمَّا وجدني أحبها، تبناني بكل ما تعنيه الكلمة فلم يكن لديه أولاد. عشت حياة متقلبة كحال البحر في صالات المزاد التي تنقلت بينها مضطرًّا كل مرة بسبب تكرار طردي، لكن هارون لم يتخلَّ عني أبدًا، ظل يساعدني في الالتحاق بصالةٍ تلو الأخرى لأراقب وأتعلم.. ورغم صمته الدائم إلا أنه أخبرني بدوافعه لمَّا قرأ دهشتي من وقوفه بجواري رغم أخطائي الكبيرة أحيانًا، قال إنه يؤمن بي ولم يرَ مثلي طوال حياته وسيكون لي شأن يومًا ما قريبًا في صالات المزادات، لم يزد حرفًا بعدها حتى تحقق الحلم فكان هو أول مَن دخل صالة «أورفانيللي ومنصور» معي، هو الوحيد الذي لم أشك فيه. هارون قطعتي الأغلى والأعز.. الماسة التي تزين حياتي والبوصلة التي تهديني في مشواري. لو حكيت ذكرياتي يومًا سيكون هارون هو بطلها.. هو أبي الذي لم ينجبني، وزوجته أمي الحنون أيضًا.

لم يكُن لي أصدقاء كثيرون في تلك الفترة، ربما أقربهم هو أورفانيللي بحكم تزاملنا في الدراسة، لكنه لم يكُن مغامرًا أو جريئًا، كانت أمي تحبه وتسمح له بزيارتي بينما تراقبنا أمه ويتجاهلني أبوه كلما ذهبت لبيته، كل ما أذكره عن أمي في تلك الفترة هو ترحيبها الزائد ببقائي خارج البيت أطول وقت ممكن، كنت أرى غرباء بصحبتها إذا ما عُدت مبكرًا في غير موعدي، أخبرتني تحت إلحاح أسئلتي أن بعضهم أقاربها، والبعض الآخر تتاجر معهم في القطع المستعملة، فصدقتها

مضطرًّا، أما أبي فلم أكن ألتقي به إلا مرات قليلة، كلما قبض البوليس عليَّ بسبب مشاجرة في صالة مزاد أو عند اتهامي بالسرقة منها، أو لعب القمار بالطريق العمومي، وفي كل مرة يضمن فيها خروجي من القسم كان يناديني بالكلمة ذاتها: «قواد».. الكلمة التي صارت مثل صدى صوت يتردد من الماضي، ومنقوشة على جدران الحاضر، ثم مسكة بتلابيب مستقبلي لتصاحبني كظلي كلما حاولت الهرب منها، الحمة التي كانت آخر ما تمتمت به شفتا أورفانيللي وهو ينساب من بين ذراعَيَّ بمدخل الصالة، ثم أغمض عينيه بعدها.

***

- وصلنا يا منصور بيه..

انتبهت على كلمات سائقي، غادرت السيارة بخطًى متثاقلة، عبرنا ممرًّا طويلًا وسط بستان منمق تتراص فيه مقابر اليهود بشواهدها المرتفعة في تناسق، أمسكت بيد أورفانيللي الصغير، ضغطت عليها بقوةٍ لأطمئنه، فاستجاب لأول مرة.

صافحت عيناي اسم أورفانيللي الأب، مثلما كان يُكتب على كراسات المدرسة ويُنادى به كل - صة وهو جالس إلى جواري، كنَّا نسخر من اسم جده، نكتم ضحكاتنا لمَّا نسمعه، هذه المرة سنبكي والاسم لن يُنادى، سيظل للأبد منقوشًا أمام أعيننا على قطعة رخام رخيصة مثبتة بشاهد قبره، محفورًا بالعربية والعبرية والإيطالية معًا..

«أورفانيللي إستيفان ألفيزي كُولوتي».

وضعت إكليلًا من الزهور على قبره ودمعت عيناي، قرأت الفاتحة سرًّا ثم عدت خطوتين للوراء، على مقربةٍ مني يقرأ حاخام عجوز من كتاب صغير بصوتٍ مسموع، لاحظت أنه يتعجلنا لإنهاء المراسم مثلما نفعل مع موتانا، يحث الموجودين على ترديد عباراته خلفه ليرتاح المرحوم في سلام كما رحل بهدوء. على بُعد خطوات يقف بعض أقارب أورفانيللي وعائلة زوجته، لا يتعدون أصابع اليدين، اكتفيت بمصافحتهم وبهز رأسي، اقترب الحاخام من ابن عم أورفانيللي، همس له ببضع كلمات فأخرج قميصًا من حقيبةٍ بجواره، مزَّقه الحاخام إلى قطعتين وألقاه بالقبر مع الجثمان، تلفتُّ مندهشًا، مال الريس هارون على أذني موضحًا أنها عادتهم في الدفن ليشعر الميت أنهم يتمزقون حزنًا على فراقه.

وجدت شخصًا على يساري لا أعرفه ينظر لي بحِدَّة، تجاهلت نظراته في البداية لكنه لم يرفع عينيه عني طوال مراسم الدفن، تفرَّست فيه حتى تذكرته.. يوسف سليمان حسني، شقيق ليلى زوجة أورفانيللي الذي درس الهندسة في باريس، التقيته مرة أو مرتين من قبل، لكن لم تجرِ مياه الود بيننا بسبب ميوله الشيوعية فسقط من ذاكرتي بسرعة.

انتابني الهاجس السخيف ذاته، فسَّرت نظراته على أنه يعرف الحقيقة وبدأ طائر التوتر ينقر رأسي، جذبت أورفانيللي الصغير برفق لننصرف، اقترب منَّا يوسف حسني حتى صار في مواجهتنا، لم يصافحني إنما جثا على ركبتيه وهو يمسك بوجنتي الصبي، مرددًا عبارات المواساة المعتادة وهو يدعوه للتماسك، مع أن أورفانيللي

الصغير لم يبكِ بعد. عرض عليه يوسف أن يعيش معه حتى تخرج أمه من المستشفى، سأله الصبي بنبرةٍ عصبيةٍ عن حقيقة مرضها، ارتبك يوسف ولم يُجبه ثم طلب منه الدعاء لها. أشعلت سيجارة وابتلعت قلقي مع دخانها، لا أعرف ما الذي قالوه لأورفانيللي الصغير عن أمه كي يسأل عن مرضها بعصبية هكذا، كنت كلفت الضمراني بمتابعة أمره لانشغال كروان بإجراءات الدفن، يبدو أن الضمراني هدَّأ من روعه بطريقته.

وجدت الصبي يبتعد عن خاله ويقترب ناحيتي، رمقت يوسف بنظرةٍ حادة، ألقيت سيجارتي بالقرب منه ثم جذبت الصبي متجهًا لسيارتي، كل ما يشغلني الآن الاتصال بحسن الكردي كي يمنع الدكتور «جيلات» الزيارة تمامًا عن ليلى لخطورتها على حياتي، لكن على مدار أسبوع لم أفلح في الاتصال به، في اليوم الثامن نحيت سائقي جانبًا واستقللت سيارتي في طريقي لمستشفى بهمان بحلوان، ذهني شبه متوقف عن العمل، صورة أورفانيللي لا تغيب عن عيني، أشعر بضيقٍ في صدري طوال الوقت، علمت من الضمراني أنه أخبر أورفانيللي الصغير بأن أباه مات لمَّا علم بعلاقة أمه مع فاروق، وأنني أدخلتها المستشفى حتى لا يتم سجنها بعد ضبطها عارية بسرير الملك في قصر عابدين.

عاتبته منزعجًا بسبب تأليفه لقصةٍ كاذبةٍ مثل تلك، والتي لا بد فُجع الصبي بسببها، رد الضمراني وعيناه تلمعان:

- علشان يبقى طوع إيدينا ونعرف نشغله، الواد مناخيره في العالي ولازم تنكسر، بس دماغه تِتلَف في حرير ويفهم في الأنتيكة بعينه رباني كده من غير علام كتير، مع إن عوده لسه أخضر.

عاد أورفانيللي الأب لمخيلتي مجددًا، نقر على واجهة جبهتي، دخل رأسي بغير استئذان، أكاد أسمع صوته المتردد الخفيض، أراه أمامي بوضوح ونحن صغار نلعب في حديقة عدس مستخدمين كرة من الخيط مع قطته السمينة، نرفع الخيط في الهواء بطول ذراعينا، تقفز القطة عاليًا لتلتقط الكرة فنبعدها، يخفق أورفانيللي بعد محاولتين لتتمكن القطة من الكرة فيصرخ، يبتعد عنها، فأقترب لأفزعها كي تتركه، ونعيد اللعبة، لكن تلك المرة أنا صاحب النصيب الأكبر.



2 /3

من بعيد تبدو كقصرٍ مهجورٍ وسط غابةٍ من أشجار الجازورين الكثيفة العالية، أعطتني انطباعًا بأنها شبيهة بالأماكن التي تدور فيها قصص شيرلوك هولمز التي كنت مغرمًا بقراءتها فشعرت برجفةٍ خفيفة، تركت سيارتي بالقرب من باب مستشفى بهمان وتوجهت صوب مكتب المدير مباشرة، التقاني الطبيب الإيطالي «جيلات» بابتسامةٍ ظلت تتسع عندما ذكرت له صلتي بحسن الكردي ومعلومات أخرى لا يعرفها أحد عن دخول ليلى هنا غيري.

قبـل أن أتوجَّـه لحجرتها سـألته عمَّن زارها خلال الأيـام الماضية فقال بلا مبالاة:

- أخوها يوسـف بيزورها كل يوم وامبـارح كان معاه أفوكاتو كبير في السن ولابس بدلة آخر شياكة.

قادتنـي ممرضة سويسـرية عجوز إلى غرفةٍ بعيـدةٍ بالجناح الغربي للمستشـفى، أدارت المفتـاح فـي القفل ثـم انحنت وهـي تطلب مني بالفرنـسية أن أدق لها جرس الغرفة عندما أنتهي من الزيارة.

الحجرة شبه معتمة، السـتائر مُسـدلة إلا جانبًا صغيرًا منها، سـمح بدخول خيط ضوءٍ متسـرِّبٍ بقلقٍ كأنه يستكشـف المـكان، تقبع ليلى فوق سـريرها، تحتضن سـاقيها بذراعيها وتسـتند بذقنها على ركبتيها، بدت شـاحبة ونحيلة لما فقدت الكثير من وزنها وقد ازدادت بشـرتها سُـمرة، نظـرت لي بتنمُّـر قطةٍ شرسـةٍ تقـوَّس ظهرها وباتت مسـتعدة للانقضاض.

جلسـت فـي مواجهتها بعدمـا أزحت السـتائر جانبًا، غمـر الضوء الغرفة، لا شيء سوى سرير ودولاب حديدي صغير وراديو ترانزستور منكفئ على كومودينو منخفض خرجت أسلاكه من بطنه وبدا محطمًا مـن أحد جانبيه، فجأة التقطته ليلى ثم قذفتـه نحوي بعنف، لـم يُصبني لحسـن حظي بعدما خفضت رأسـي بسرعة لكنه تهشـم تمامًا، فقفزت برأسـي فكرة، لا بد وأن مَن سبقني بالزيارة تعرض للهجوم ذاته بنفس الطريقة، فقلت على الفور:

- صدقيني مفتاح الخروج من هنا عندي وحدي.

نجحت في جذب انتباهها فاعتدلت بجلستها، ظلت تحملق بوجهي، يبدو أنني خمنت خطأ، حاولت إيهامها بأنني أعرف ما دار بينها وبين أخيها يوسف فراوغت وعادت لشراستها، تراجعتُ خطوة وأنا أفكر في مدخل جديد، لكنها شتتت أفكاري بسؤالي عن سبب الزج بها في هذا المكان، أخبرتها بأن السجن كان البديل، إنما بالمستشفى يمكننا تحرير شهادة بالشفاء والخروج إذا تعهدت أن تكون خرساء للأبد، فمولانا لا يحب الثرثرة. تقلبت ملامحها وهبطت من الفراش بخفة، اقتربت مني ثم بصقت في وجهي، وضعت يديها حول خصرها متحفزة.

رددتُ بهدوءٍ وأنا أمسح بصقتها:

- الغضب مش حيرجّع أورفانيللي للدنيا، اعقلي علشان ابنك على الأقل.

- ابني شريك في الصالة وأخويا حيجيب حقّنا غصب عنك وحتى لو هو خايف منك.. أنا مش خايفة، ورقة المبايعة بخط إيدك معايا وبيني وبينك المحاكم، آخرتك السجن أو الأوضة اللي جنبي يا منصور يا تركي، لما تتفضح بسبب الغش في المزادات، والناس كلها تعرف إنك قوّاد حقير بيشتغل لحساب الشماشرجي.

خرجت من عندها ألملم شتات كرامتي، الحسنة الوحيدة من زيارتي أنني علمت بخوف يوسف حسني مني، توجهت لمكتب الطبيب «جيلات»، أخبرته بأن الكردي يطلب منع الزيارة عن ليلى

بأمر من مولانا شخصيًّا، لم يُراجعني جيلات، رفع سماعة الهاتف وألقى بتعليمات واضحة على مساعديه، قرب الباب التفتُّ له قائلًا وأنا أرفع إصبعي في وجهه محذرًا:

- يا ريت الدكتور بنيامين بهمان ما ياخدش خبر بزيارتي أو بسبب منع الزيارة عن ليلى هانم.

أومأ جيلات بالإيجاب مبتسمًا. عند مغادرتي المستشفى لمحت من بعيد يوسف حسني في طريقه للدخول وبجواره شخص قصير لم أتبين ملامحه فزفرت بضيق، ضغطت دواسة البنزين في طريقي لقصر عابدين، بالكاد سمحوا لي بالدخول هذه المرة، انتظرت بمكتب السكرتارية لأكثر من ساعة لكن الكردي لم يحضر للقائي، التقطت ورقة صغيرة، دوَّنت بها كلمات قليلة ووقَّعت أسفلها بلقبي، ثم تركتها لدى سكرتيره وانصرفت، كتبت للكردي:

«الكلبة كثيرة النُّباح، تُحدث ضوضاء مزعجة والسكان لا ينعمون بالراحة».

***

مُحاط بمجموعةٍ من الأغبياء في تنسيق صالات المزاد، لكني مضطر لتحملهم بسبب مهارتهم في الصنعة، نبهت عليهم مرارًا أنني أكره تكدس القطع بصالتي، الكيف قبل الكم دائمًا، لكن كروان والضمراني لا يفهمان، رونق الصالة في رحابتها وعمقها الذي يُضيف لها مساحة أكبر في عين الزبائن، وهما يُصرَّان على وضع كل القطع إلى جوار بعضها البعض ثم يُمضيان نصف اليوم في تنسيقها، لا يُدركان

أن الزبون لا بد وأن يسير في أريحية، لا يقلق ذهنه الاصطدام بإحداها، لا بد وأن يكون شاردًا فيما يراه، هائمًا برونقه، تائهًا يسهل اصطياده، أريد زبونًا لا يفكر في شيءٍ سوى اقتناء معروضاتي.

دقَّ جرس الهاتف ليُخرجني من ضجري إلى ضيقٍ أرحب وأكبر، كانت نبرة صوته آمرة لا تقبل المساومة:

- الليلة في شبرد الساعة 8.

قالها الكردي بحسم ثم أغلق الخط في وجهي.. وصلت مبكرًا عن موعدي بنصف ساعة، أدخلوني لقاعةٍ جانبيةٍ بتوصيةٍ منه، لمحت فاروق متواجدًا بركن بعيد بها يلعب الورق، تابعته لبرهة قصيرة وهو يفرد أوراق اللعب أمامه، فاجأ الجميع لمَّا وضع على الطاولة ثلاثة ملوك فقط معلنًا فوزه، نبَّهه أحد اللاعبين إلى أن الأوراق ناقصة وليست الملوك الأربعة لورق اللعب، عاد فاروق بظهره للوراء وهو يؤكد بثقةٍ أنه الملك الرابع، واعتبر نفسه فائزًا بالدور.

جذبني الكردي من يدي إلى صالون صغير مُلحق بالقاعة، بينما تعالت ضحكات الحضور من خلفي وهم يصفقون للملك بسعادةٍ بدت لي مصطنعة وممزوجة بالدهشة من تصرفه المفاجئ.

شرحت ما دار بيني وبين ليلى، استمع الكردي ثم قال ببرود:

- لو السنيورة ليها حق في الصالة تبقى مشكلة شخصية تحلها بمعرفتك، لكن لو بتلسَّن على مولانا يبقى فيه عندنا تصرف تاني، قول لي بقى الحقيقة إيه بالضبط علشان أقرر؟

اختلقت له رواية على لسـانها بعد تفكيـر قصير، مؤداها أن فاروق ورطها في زيارة القصر وحاول مغازلتها من قبل ولم تستجب له وأنها تنوي فضحه، ابتلعت ريقي بسبب نظراته الثاقبة ثم أضفت بثقة:

- ماتنسـاش أني صاحب فكرة المستشـفى ولولا يـا كانت فضيحة القصـر مـع حـزب الوفـد بجلاجـل. وحتى لـو أنـا اديت ليلـى حقها المزعوم في الصالة ماضمنش لسانها يا كردي بيه.

رد الكردي وهو يلقي بكرة النار في حِجري:

- ولا أنـا أضمـن لك حاجة يـا حبيبي لو هي اتكلمـت برضه، دي مشكلتك لوحدك ولازم تقطع لسانها.

مرت أسـابيع علـى لقائي بالكردي وأنا لا أجـرؤ على الاتصال به، قللت من نشـاط الصالة مؤقتًا تحسـبًا لأي رد فعل من السـراي، أيضًا لـم يعُـد ذهنـي قادرًا علـى متابعـة العمل بصـورة كاملة كمـا كان. في تلـك الفترة اقترب مني أورفانيللي الصغيـر، اختار أن يعيش مع خالته بمنطقـة عابديـن، لم يسـأل يومًا عن أمه، لم يذكر اسـمها مـرة واحدة أمامي، أخبرني بأنه لا يرغب في اسـتكمال دراسـته بالمدرسـة مكتفيًا بالسنوات التي قضاها بها، وافقته مشجعًا وأنا أتذكر كلمات الضمراني عن مهارته بالعمل، فصار يعمل معنا كل يوم بعدما هجر الدراسة.

ذات صباح كنت جالسًـا وسـط الصالة أتصفـح الجرائد بلا مبالاة بعدما تشـابهت عليَّ الأيام، اقترب سـعد كروان وهمـس بأذني ببضع كلمـات ثـم تـرك ظرفًـا صغيـرًا، دخلـت حجـرة المكتـب، ففضضتُ

الظرف، وجدتُها رسالة من الكردي، تحمل عبارة مقتضبة للغاية..
«تابع جرائد الغد».

لم أنَم حتى حصلت على نسخة جريدة «الأهرام» من بائع الصحف في الصباح المبكر، لم أكن في حاجةٍ للبحث عن الخبر، فصورة يوسف حسني تتصدر الصفحة الأولى مع آخرين، تحت كل صورة اسم صاحبها، تسبقه كلمة «المتهم»، ما عدا يوسف، هو الوحيد الذي سبق اسمه كلمتان.. «المتهم الهارب».

عناوين الخبر دالة على مضمونه.. «القبض على أخطر تنظيم سري من الإخوان المسلمين وراء تفجيرات حارة اليهود».. «يهودي مصري جنَّدته الجماعة لصالحها بالمال من أجل معاونتها في التفجيرات».

حملَت الصفحات الداخلية تفصيلات عن اعترافات منسوبة لآخرين ضد يوسف في عمليات التفجير، ضربت كفًّا بأخرى وابتسمت، لم أكن أعرف أن حسن الشماشرجي لديه ذراع قوية بهذا الطول. بعد تفكير قصير توجست وشعرت بمرارة في ابتسامتي، هذه الذراع ستطولني ولا شك، أيضًا يوسف هرب وربما يظن أنني وراء الزج باسمه في هذه القضية، وحتمًا سيفكر في الانتقام مني، قررت أن ألتقي الكردي بأي وسيلة بعد عودتي من المحكمة اليوم لكي أعيش في سلام ويعود عملي كما كان، فليس أمامي الآن حلول أخرى سوى انتحار ليلى.



2/4

- نادي على القضية اللي بعدها..

قالها القاضي وهو يُثبِّت نظارته الطبية السميكة بعدما انزلقت على أرنبة أنفه، في حين صاح الحاجب:

- رول سبعة..ليلى سليمان حسني،القاصر أورفانيللي منصور أورفانيللي.. ضد منصور حامد التركي.

طلب مني المحامي الجلوس هادئًا بالصف الأخير، لا أتكلم ولا أومئ حتى لو ذكروا اسمي، مثلي مثل أي مواطن يحضر الجلسات بالمحاكم وليس طرفًا في قضايا.. وما أكثرهم.

فعلتها ليلى، أقامت قضية ضدي منذ أسبوعين في محكمة مصر بباب الخلق تطالب فيها بحق زوجها، نصيبه بالصالة وتعويض عن السنين الماضية لها ولابنها بعدما اتهمتني بالتلاعب في الدفاتر، أعلم يقينًا أن أورفانيللي كان يسلمها مكاسبه كل شهر، وأنها مَن تدير مصروف البيت، ولا بد أنها ادخرت مبلغًا محترمًا من نصيبه الكبير الذي حصل عليه مني لكنها طمعت الآن، توحَّشت، اعتقدت أن ذراعي لينة ستلتوي معها، لو طلبت نصيبها فقط لكنت سجلته لها وانتهينا مقابل سكوتها، لكنها سلكت طريقًا معوجًا، ظنَّت أنه الأقرب لصالة المزاد كلها ولا تدري أنه مسدود في نهايته.

تقدم المحامي الخاص بي من منصة القاضي وأثبت حضوره عني، وكذلك فعل محامي ليلى وأورفانيللي الصغير، طالب محاميهما العجوز بإثبات صحة توقيعي على ورقة المبايعة، مؤكدًا أنها محررة بخط يدي، لكن وكيلي قدَّم بهدوءٍ أوراقًا للقاضي، وهو يقول بصوتٍ رخيمٍ عالٍ فيما يبدو لأسمعه بوضوح:

- المدعية يا سيدي القاضي مصابة بمرض عقلي ومحجوزة بمستشفى بهمان من شهور، معايا تقارير طبية تفيد بتدهور حالتها لدرجة أنهم منعوا الزيارة عنها، ولا يجوز لها أن توكل محاميًا عنها أو تتصرف في ممتلكاتها، بل لا يحق لها قانونًا أن تكون لها ولاية على طفلها الصغير أورفانيللي منصور، لكن هذا ليس موضوعنا، لذا أطلب من عدالتكم رفض الدعوى لحين تعيين مَن يتولى أمورها نيابة عنها.

قلَّب القاضي في الأوراق، دوَّن كلمات قليلة في محضر الجلسة، نظر لمحامي ليلى مليًا ثم سأله إذا ما كان يرغب في الاطلاع على المستندات، تلعثم الرجل العجوز قليلًا وقال كلمات غير مفهومة بالنسبة لي ثم طلب أجلًا طويلًا للاطلاع، لكن القاضي سلَّمه المستندات التي قدَّمها وكيلي قائلًا بحسم:

- الاطلاع الآن، والقرار آخر الجلسة.. اتفضل يا أستاذ شوف شغلك.

ثم التفت لحاجبه وقال بنبرةٍ آمرة:

- نادي على القضية اللي بعدها..

جلس وكيلي بجواري، همس بأن المسألة شكلية، سيتم رفض القضية غالبًا، وعلى أسوأ الفروض سيُشكل القاضي لجنة لفحص حالة ليلى وإعداد تقرير جديد، وهو ما قد يستغرق شهورًا وسنحصل على النتيجة ذاتها. راقبت محامي ليلى وجدته يطلع على المستندات في عجالة واقفًا، ربما يخشى على بذلته الأنيقة من غدر مسامير أرائك المحكمة الخشبية.

نطق القاضي بالحكم في نهاية الجلسة كما توقع المحامي، تم رفض القضية التي أقامتها ليلى ضدي، بدأ الحضور يتهيئون لمغادرة القاعة، فجأة اقترب مني شاب طويل ودسَّ في يدي ظرفًا أحمر به ورقة مطوية، وما بين فضها وقراءة ما دُوِّن بها والالتفات نحوه كان قد تبخَّر من أمامي. لكني لمحته بالكاد وهو يغادر القاعة فخرجت وراءه، وجدت بشرًا كيوم الحشر، العشرات يرتدون بذلات داكنة ويغطون رؤوسهم بطرابيش، يروحون ويجيئون شبه مهرولين، حتى ملامح وجهه لم أعد أتذكرها، كل شيءٍ حدث كما الومضة. فتحت الورقة في توتر، أعدت قراءة ما دوِّن بها..

«الندم في طريقه إليك فاستعد لاستقباله».

وكان الخطاب بدون توقيع.

***

ألقت ليلى أولى قنابلها، ثرثرت بغير تحديد مع صحفي مجهول بجريدة «الكليم»، ربما نجحت في رشوة الطبيب جيلات عن طريق

أخيهـا يوسـف أثناء زيارته لها، ومؤكد أنه هو الـذي اختار لها صحيفة تصـدر عـن الرابطة اليهوديـة بالقاهرة، نشـروا كلامهـا بعناوين مثيرة، طال الرذاذ السـراي، تزامن النشـر مع طلاق الملكة فريدة من فاروق، نُقـل مأمور قسـم عابدين إلى الواحات الخارجـة وأحيل قائد الحرس الملكـي للتقاعد، صدَّق الناس حكاية ليلـى وربطوها بالأحداث التي وقعت، نسـجوا حولها قصصًا عن غراميات الملـك المراهق، أضاف كل منهم لها فصلًا من خياله وفقًا لما يهوى الحكي عنه.

بـدأت ليلى من قمـة الهرم في العـدد التالي، ضربـت رأس مولانا بـأول حجـر، ثـم فضحت رجـال الحاشـية، وصفتهـم بأنهم قـوَّادون برتبـة بكـوات، لكنهـا لم تُشـر لاسـم أيٍّ منهـم، لعلها اكتفـت بذلك وغضَّت الطرف عني. صارت رسـالة يوسف وتهديداته كوابيس يومية تحرمنـي مـن الحيـاة، أيضًا لا بـد وأن ليلى تدبـر لي أمرًا مـا وتتركني للنهاية،فالصحفـي ذكر أن للحـوار بقية.انقطعت أخبـار الكردي عني بعـد فضيحة القصـر، صحيح أنه احتواها قدر الممكن مسـتغلًا إعلان الأحـكام العرفية بعد اغتيال النقراشـي باشـا فصـودرت أعداد جريدة «الكليم»، ومن بعدها صحيفة «المقطم» التي نشـرت الخبر باقتضاب في صفحة داخلية، لكن المصادرة تمت بعد ساعات طويلة من صدور العـدد الثانـي، وفـي بلدٍ كمصـر لا طائل كبيـر من وراء هـذا الإجراء، فالأمـر لا يحتاج لأكثر من عشـرة أشـخاص فقط لكي تنتشـر الأخبار وتتناقلها كل الألسـنة ولن يهتم أحد بالبحث عن المصدر الحقيقي أو حتى صحة النبأ.

عندي هاجس قوي بأن الكردي سيفعلها ويجعلني أُشهر إفلاسي، أو تفاجئني ليلى بقضية جديدة فأخسرها، وربما تطولني فضيحة بالجرائد تبعد عني أهم زبائني فأموت معنويًا كما يريدون لي. لم أعد أشتري قطعًا جديدة للمزاد ولا أقبل قديمة، بدأت أفكر في تهريب أموالي للخارج، وبسبب تشتت ذهني كلفت سعد كروان بترتيب الأمر لمعرفة التكاليف وحجم المخاطر. أقنعت أورفانيللي الصغير بالعودة لمدرسته رغم فوات أكثر من شهرين على بدء الدراسة، وجوده بالصالة لن ينفعنا في الوقت الحالي، لم أعد أفعل شيئًا سوى قراءة الجرائد، لمتابعة أخبار السراي وقضية تفجيرات اليهود، وسماع حكايات الضمراني المكررة عن أصحاب صالات المزاد الأخرى لقتل الوقت.

صار مكتبي سجني الذي لا أبارحه، تقدمت سكرتيرتي الجديدة نحوي بخطوات مترددة، لمحت ارتباكًا في عينيها، قبل أن أسألها عنه وضعت البوسطة كلها أمامي وانصرفت، لاحظت أنها تركت ظرفًا أحمر فوق الأوراق، ثاني خطاب يصلني بنفس اللون والحجم، مُرسل هذه المرة من مكتب بريد العتبة العمومي، فضضته بعصبية، وجدت بداخله قصاصة مكتوبة أيضًا على آلة كاتبة بغير توقيع، قرأتها عدة مرات..

«الضمراني يبيع أسرار الصالة للمنافسين، مَن كان يعرف بأمر البيانو غيره؟»

تأملت الضمراني من بعيد، كان منشغلًا في تلميع شمعدان زينة فضي «مينوراه» ممَّا يستخدمه اليهود في احتفالاتهم الدينية وبعنا مثله لفاروق، لا أصدق أن الضمراني يخونني بعد كل هذه السنوات التي قضاها في خدمتي، البيانو بالفعل لم يكن أحد يعرف عنه شيئًا إلا هو، لكننا فوجئنا بعرضه في صالة ميخاليدس، وخسرنا صفقة كنَّا سنكسب من ورائها الكثير، تذكرت الآن كيف اتهم الضمراني ميخاليدس يومها بسرقة الزبائن منَّا، هل ضحك علينا واستطاع أن يحبك المسرحية لهذه الدرجة المتقنة؟!

استدعيت كروان لمكتبي وأخبرته بالأمر، علت الدهشة ملامحه لكنه لم يُدافع عن الضمراني بل غرس بداخلي بذور شك أكبر فيه، ساورني القلق، فكرت في مصلحة كروان للخلاص من الضمراني والانفراد بي، فشعرت بتشوش أفكاري، كلاهما يتلاعب بي، لجأت للريس هارون فاقترح أن نختبر الضمراني، نُفشي له سرًّا وهميًّا لنرى ما هو فاعل بعدها. راقت لي الفكرة وسرحت في كيفية تنفيذها، قطع شرودي طرقات ثلاث على باب غرفة مكتبي، دخل أورفانيللي الصغير وجلس في ركن بعيد حتى ننتهي، فاسترسلت شارحًا بهمس لهارون الفخ الذي يتعين إعداده للضمراني، ثم التفتُّ لأورفانيللي الصغير الذي هبَّ واقفًا في صمت، مد يده بظرف أحمر قائلًا:

- الظرف ده واحد رماه على باب الصالة وجري.

فتحته متوترًا، وقرأت:

«النار ستحرقك قريبًا».

خرجت للطريق العمومي مسرعًا والضمراني وأورفانيللي الصغير وهارون يهرولون ورائي، الحركة عادية، لا شيء ملفت للنظر، شعرت أن كل السائرين مشتبه بهم، رحت أطيل النظر لهم فينظرون نحوي ويمضون، الشك يقتلني، الجميع في موضع ريبة، مَن منهم ترك الورقة، مَن الذي جنَّده يوسف حسني حتى يصل لي بهذه السهولة، عبثًا حاولت مع أورفانيللي الصغير أن يذكر لي وصفًا واحدًا للرجل الذي تركها، لكنه أكد لي أنه لم يرَ ملامحه بدقة. لاحظت غياب سعد كروان فزفرت في ضيق ثم شعرت بدوار بسيط، جلست إلى مكتبي واضعًا رأسي بين كفَّي، تفرست في ثلاثتهم وهم يقفون أمامي، لم تعُد الصالة آمنة، ولا أعرف متى تكون الضربة القادمة، وممَّن!

من مكاني وراء مكتبي لمحت شبح رجل قصير يقف بمدخل الصالة، كان يفحص كومودينو قديمًا صغيرًا بلا مبالاة، ثم خلع البيريه الذي يرتديه، وقام بتعليق معطفه ومظلة المطر على الحامل الخشبي، اقترب مني بخطًى ثابتة، فخطوت مسرعًا مصافحًا إياه في ودٍّ شديد.

وقف حسن الكردي صامتًا وهو ينظر للعاملين بالصالة ثم نقل بصره نحوي، فدعوته لحجرة المكتب، ما إن جلس حتى قال بهدوء يُحسد عليه:

– مستشفى بهمان حصل فيه حريق كبير امبارح بالليل ونزلاء كتير ماتوا.

تنفست الصعداء، أعدت رأسي للوراء وأغمضت، الآن فهمت الرسالة الحمراء، يظن يوسف أنني أحرقت ليلى، لأول مرة منذ شهور طويلة أشعر براحة حقيقية، أخيرًا انتهى الكابوس من حيث لا نتوقع ودون أي مسئولية علينا. أما يوسف حسني فأمره بات سهلًا، حتمًا سأعرف مكانه وأتخلص منه بعدما ماتت شقيقته.

انتبهت إلى أن الكردي لا يزال جالسًا معي، مِلت بجسمي كله ناحيته وأنا أسأله بلهفةٍ عن إجراءات دفن ليلى، وهل يجب أن نعلن الخبر الآن أم نتكتم عليه مؤقتًا، قبل أن أسترسل في بقية أسئلتي، صدمني الرجل بالهدوء ذاته قائلًا:

- الست ليلى عايشة يا منصور.



2/5

ارتعشت يده بوضوح وهو يقرأ من الورقة الحكومية ذات الأختام الزرقاء البيضاوية الكثيرة، ثم ردد قائلًا:

- ثلاثة آلاف جنيه فقط لا غير، وإلا يتم الحجز على المعروضات لاستيفاء المديونية..

أشرت له بكفّي ليتوقف، بعد زيارة الكردي بثلاثة أيام فوجئت بمصلحة الضرائب تطالبني بمحاسبة متأخرة لعامين فائتين، المبلغ

الذي يُعيده سعد كروان على مسامعي الآن فلكيًا، أرسلت المحاسب للتفاوض معهم لكنهم أبدوا تعنتًا غريبًا معه، ورفضوا أي اعتراضات من جانبنا، توالت بعدها الضربات وكلها من تحت الحزام، وصلت شكوى من مجهول إلى الغرفة التجارية بأننا نتلاعب ببطاقات الوصف والنماذج الرسمية بتفويضات المالكين للتحف في بيعها بمعرفتنا، ثم ادَّعى شخص آخر شراء فازة من الصالة واتهمنا بأنها مقلدة، طالبناه بفاتورة الشراء الأصلية، أخبرنا ببساطة أنها فُقدت منه وصدقوه، ثم هبطت علينا في نهاية الأسبوع لجنة تفتيش صارمة، فحصت كل قطعة وطابقتها بالدفاتر، كاد الأمر أن يمر بسلام لولا أن أحد أعضاء اللجنة صمَّم على تفتيش المخزن، وهناك اكتشف بعض القطع بلا بطاقات وصف أو تفويض، وأخرى غير مسددة بالدفاتر ولا صاحب لها فتحفظوا عليها جميعًا، وحرروا محضرًا ضدي.

ضعفت مقاومتي بعد ثمانية أيام لمَّا رُفض الطعن على التقدير الضريبي الجزافي ورفضت بدوري التصالح، أحالت النيابة قضيتي للمحكمة، وكتب صحفي كبير مقالًا طويلًا عن غش صالات المزاد يفهم منه بليد الذهن أنها صالتي.

ترحمت على روح أورفانيللي، لم يكن هذا العبث ليحدث مع صالتنا لو كان على قيد الحياة.. أدركت الآن فقط حجم خسارتي برحيله. اتصلت بحسن الكردي رافعًا الراية البيضاء، جاءني صوته بنبرةٍ باردة، رجوته بأخرى مغلفة بطبقةٍ رقيقةٍ من التوسل:

- أنا رايح المستشفى بكرة الصبح زي ما أمرت يا كردي بيه، لكن كل اللي باطلبه هدنة يومين إذا تكرمت.

وضع الكردي السماعة بعدما قال كلمات قليلة العدد كبيرة الأثر، تركني أواجه القدر وحيدًا لكنه دلَّني على مكان السلاح.

تركت سيارتي في شارع جانبي مظلم، ينتهي بغيطان كثيفة ترعى بأطرافها أغنام شاردة بجوار مستشفى الجمعية الخيرية بالعجوزة، ترقد ليلى بإحدى غرفها، نقلوها مع كل المصابين إلى هنا لعلاجهم بشكلٍ أفضل، طوال الطريق أتذكر بقية محادثتي الهاتفية مع حسن الكردي، ما زلت أسمع نبرة التهديد الذي دسَّه ببراعةٍ بين ثنايا كلماته، ألقى في حِجري بالمسئولية كاملة عن ثرثرة ليلى، تلقفتها مجبرًا ورددتها على استحياء، قلت سأحاول إقناعها بالهجرة من مصر، عندها سكت الكردي برهة ثم لدغتني إجابته:

- أنت اللي جبتها لنا عابدين وأنت المسئول عن سكوتها،دي آخر فرصة تحل فيها مشكلتك، وإلا تبقى أنت المشكلة نفسها وإحنا نحلها بطريقتنا، أو نقول لك البقية في حياتك.

المبنى عريض وضخم، مُشيد على الطراز الإسلامي، يبدو مهجورًا من فرط الهدوء الذي يلفه، به عنبر كامل مجاني مخصص لإصابات الحريق أفضل من بعض مستشفيات أوربًا كما يقولون، علمت من إحدى الممرضات بعد منحها جنيهًا كاملًا أن حالة ليلى ليست مستقرة، زارها بعض أقاربها لكن لا يوجد دفتر زيارات هنا،

فلم أعرف أسماءهم ولا دلتني الممرضة على أوصافهم، ظلت مهتمة فقط بالحالة الطبية فأسهبت في الكلام عنها، الحروق في نصفها السفلي فقط، تستجيب للعلاج ببطء، تحتاج لجراحة ثانية لرتق الجلد، وربما تنجو بأقل خسائر ممكنة، الوعي والإدراك كاملان، لكن بسبب إصابتها بصدمة عصبية من جراء الحريق وموت بعض زميلاتها بمستشفى بهمان، اضطروا لوضع أنبوب لها حتى تستطيع التنفس بسهولة وهي تحت تأثير المهدئات القوية.

اقتربت من فراشها فوجدتها نائمة، ملامحها منزعجة، تبدو غير مستريحة في رقدتها، تذكرت تهديدها الأخير لي، كدت أوقظها وأصرخ فيها ألا تذكر اسمي أو تقول شيئًا عن الصالة كي لا أؤذيها لكني لم أفعل، سيظل الكلام بيننا عالقًا بالهواء، فهناك شيء ما يخيفني منها، ربما صلابتها وقوة شخصيتها وعنادها.. لا أعرف.

قفزت لمخيلتي صورة أورفانيللى الأخيرة وهو يترنح ويسقط بين يدَيَّ ومن قبلها يصرخ في وجهي بأنني قواد، شعرت بأن ليلى ستصحو من نومها وتقولها لي. بحثت عن طرف الأنبوب الآخر المتصل بفمها فوجدت آخر متصلًا بذراعها وطرفه الثاني ينتهي بجهاز كبير لمتابعة ضربات القلب، راقبت صدرها وهو يعلو ويهبط بوتيرة منتظمة، الجهاز يصدر صوتًا رتيبًا أشبه بصفارة خافتة آتية من بعيد، نزعت الغطاء عن نصف جسدها السفلي بهدوء، راعني مشهد الجلد المحترق، عظام فخذيها تكاد تظهر بوضوح، إحدى قدميها تفحَّمت تمامًا، أعدت الغطاء بسرعة وشعرت بتقلب هائل في معدتي تغلبت

عليه بصعوبة، فابتعدت عنها، أغلقت باب الغرفة من الداخل ورجعت إلى ليلى متوترًا، أتعرَّق بشدة وأكز على أسناني بقوة، لا أقوى على قتلها ولا أضمن سكوتها وأخاف مواجهتها، الوقت يمر بسرعة وأنا لا أتخذ قرارًا، تهديدات الكردي تحفزني على خنق ليلى، صالتي وسمعتي وأموالي كلها بين شفتيها، بكلمةٍ واحدةٍ منها تحفظها أو تضيعها كلها فلا تعود. لم أدرِ بنفسي عندما جذبت الخرطوم الموصل للهواء إلى أنفها إلا عندما اصطدم ذراعي بأنبوب الجهاز الآخر ففصلته أيضًا، قاومت ليلى انحسار الهواء عن رئتيها لمَّا تأزمت جبهتها، رفست ببطءٍ شديدٍ ووهن، حرَّكت إحدى أصابعها قليلًا، ثم ما لبثت أن سكنت وبعدها أطلق الجهاز صفارة متصلة.

شعرت بارتباكٍ شديدٍ وأنا ملتصق بسريرها، بيدٍ مرتعشةٍ أعدت الخرطوم الضخم والأنبوب الآخر مكانهما، ضبطت وضع القناع الزجاجي الذي يغطي فمها وأنفها، عُدت مسرعًا لباب الغرفة وفتحته، رجعت لليلى، ضبطت وضع الأنبوب مرة ثانية لكن الجهاز خرس تمامًا، تمنيت ألا تكون قد ماتت، هززتها برفق فلم تستجب، ضربت وجنتها عدة مرات ضربات خفيفة، خُيل لي أن جبهتها تتأزم مرة ثانية وشفتيها تتحركان ببطءٍ شديد، راجعت توصيلات الجهاز الطبي فلم أفهم منها شيئًا، راحت حبَّات العرق تنهمر من جبهتي فوق ملاءة فراشها.. متلاحقة متسارعة، تأملت ملامحها وأنا أكاد أصرخ فيها لتفتح عينيها أو تومئ برأسها، شعرت أنها استراحت.. لكنني لم أكن مثلها.

سـمعت وقع أقـدام من بعيـد، أطفأت مصبـاح الغرفـة وغادرتها، انحرفت يسـارًا فـي نهاية الرواق الكبير المؤدي لبـاب الخروج، فجأة وجـدت أمامي سـيدات كثيـرات قادمات نحـوي، بصحبتهن عدد من أطباء المستشفى بزيِّهم الأبيض المميز، قبل أن أفكر في الاستدارة علا مـن بينهن صوت رفيع حاد أعرفه جيدًا وكان لآخر مَن أتوقع وجودها هنا:

- مش معقول.. إيه المفاجأة دي، بتعمل إيه هنا يا منصور؟!

انغرسـت في مكانـي أحملق في وجهها بذهول بعـد ما طارت كل الإجابات المنطقية من رأسي.



2/6

خرجـت جنازتـه مـن صالتـه طبقًـا لوصيتـه، مـات جـورج ليفـي صاحب أشـهر صالـة مزادات في مصـر وأقدمها جميعًـا، لاحظت أن الـكل يتجاهلني طوال تواجدي في الصالة، لكـن أثناء الجنازة اقترب منـي ميخاليدس، بـدا غاضبًا، أمسـك ذراعي بقوة ولـم يتـرك أذني إلا بصعوبـة. انهمرت كلماته كسـهام تصيبني فـي مقتل،أمطرني بعبارات اللوم على اسـتغلال اسـم صالته فـي الحصول على صالـون من أحد أثريـاء الإسـكندرية، مـال علـى أذنـي وهو يضغـط أكثر علـى ذراعي قائلًا:

- كفاية وساخة في السوق يا منصور، ريحتك فاحت.

شعرت أن المُعزِّين سمعوا كلامه لمَّا التفت بعضهم نحونا، جذبت ميخاليدس برفقٍ احترامًا لسنِّه المتقدمة بعيدًا عن بقية المشيعين، أبطأت من خطواتي حتى صرنا في الصف الأخير، رحت أعاتبه لمحاولته سرقة أسرار صالتي عن طريق الضمراني، ثم هددته بفضحهما. أنكر الرجل بشدة حتى كدت أصدقه من فرط دهشته ونبرة الصدق التي يتحدث بها، لكني واثق أن ميخاليدس كاذب، وتلك اللمعة بعينيه ليست سوى دموع تمساح عجوز.

أنهيت الحوار معه بصلافة، لكنه لم يقبل الهزيمة وراح يكرر تهديداته لي، ثم قال:

- أنت عار على الشغلانة بتاعتنا، ماحدش بيعمل الشغل الوسخ ده في أي صالة، ده شغل بوتيكات حقيرة بتبيع أنتيكات وتحف مغشوشة للسياح، موش صالة مزاد بتحترم الزباين بتوعها وتبيع لحساب الغير.

- اخرس قطع لسانك.. إيَّاك ترفع صوتك أحسن ودِيني أقفل لك الصالة بتاعتك من بكرة.

علا صوتي لأُرهبه، اتهمته بالخروج على أصول الشغل وهددته بالشكوى في الغرفة التجارية، ابتسم بسخريةٍ ثم ترك ذراعي وابتعد عني بمسافةٍ قائلًا:

- مفيش فايدة فيك.. ديل الكلب عمره ما يتعدل.. والطبع غالب.

لم أنتظر حتى انتهاء مراسم الدفن، غادرت معبًّا بالغضب، رأيت الناس في الشوارع أطيافًا مهزوزة، هددني ميخاليدس في نهاية الجنازة بفضحي ودفني للأبد وهو قادر على فعلها للأسف، لكن ما يشغلني هو إحراقه لكارت الضمراني، ثم قراره اللعب به ثانية مع أنه ورقة خاسرة، وصلت بيتي محملًا بأسئلتي لأجد بهيرة تستجوبني بالمزيد منها، شكوك كثيرة لا تزال تساورها عن سبب تواجدي بالمستشفى، ارتباكي لرؤيتها أمس صباحًا ضاعف من هواجسها، وزادها صمتي ارتيابًا، لم أفلح في إيجاد حُجة مقنعة، ما زلت مرتبكًا للغاية بعد موت ليلى، أحاول أن أفرض على عقلي أنني أرحتها ممَّا كان سيفعله الكردي بها، وممَّا نالته النيران من نصف جسدها، كانت ستعيش مشوهة، على الأقل كنت رحيمًا بها، لكن عقلي رفض حججي كلها فلزمت الصمت.

حاولت أن أتلمس بابًا للهروب من عينيها، نظرات بهيرة مربكة.. متشككة.. متوعدة، حركات جسدها متحفزة، تتأهب لتحطيم أي أوانٍ زجاجية في طريقها كعادتها العصبية إذا ما غضبت، راحت تحاصرني كلما تحدثت أو حتى ظللت صامتًا بعدما رأتني أمس وبصحبتها صديقاتها من جمعية الهلال الأحمر، لم يكن أمامي لحظتها سوى الوقوف معهن لبعض الوقت متحججًا بزيارة زبون من زبائن الصالة ثم التظاهر بالانصراف، ما لا تعرفه بهيرة أنني بعد تفكير هادئ عُدت للمستشفى مرة ثانية في المساء من الباب الخلفي بعد انصرافها، كان لا بد من إيجاد سبب لوجودي في المستشفى بعدما رأتني بهيرة لإبعاد

الشبهات عني، سرت في رواق طويل حتى وصلت لغرف المرضى، مررت بأكثر من عشرين غرفة، أقرأ الأسماء المدونة على لافتات الأبواب حتى وقع اختياري على المريضة «بولا» زوجة المرحوم سولومون شيكوريل الذي يملك متجرًا كبيرًا باسم عائلته، مدام بولا قبل مرضها الأخير كانت من أهم زبائن الصالة، ترقد الآن في جناح كبير بالقسم المخصوص، التقيت بزينب المحلاوي السيدة المصاحبة لها، أخبرتني في ضيقٍ أن الزيارة ممنوعة، ثم أشارت إلى دفتر زيارات أحضرته معها لتخفيف تكدس الزوار بالجناح، فرصة رائعة لانتشالي بعيدًا عن أي شبهة فقبضت عليها بكفّي، دونت كلمات بالدفتر متمنيًا لبولا الصحة والعافية، كتبت اسمي ثلاثيًا بخطٍّ واضح، قبل مغادرتي انتظرت لفترة حرصًا على مصافحة السيدة زينب بحرارة لتتذكرني وقت اللزوم، لكنها مطّت شفتيها وزامت كعادتها باشمئناط.

رددت القصة على مسامع بهيرة ببطءٍ كي لا أخطئ فيها، نظرت لي زوجتي باستخفاف، سرعان ما تحول إلى شك واضح لا يقبل التأويل، ثم قالت بنبرة محقق وهي تقترب مني:

– ويا ترى زي ما بتعرف تزور الزباين بتوعك عرفت إن ليلى حسني مرات صاحبك ماتت امبارح؟

– ربنا يرحمها، سمعت الخبر في جنازة الخواجة ليفي.. ارتاحت من الدنيا وبلاويها.

سادت فترة صمت أخرى تعمّدت بهيرة إطالتها، هذه المرة لم يقوَ فضولي على تحملها، فقلت دون أن أنظر لعينيها:

- بيقولوا إنها ماتت بسبب الحريق في مستشفى بهمان.

- لأ يا منصور.. ماتت في مستشفى العجوزة لمَّا أنت كنت هناك، والبوليس شاكك إنها اتقتلت.. بلاش تعمل عبيط والنبي، مصر كلها عارفة الحكاية، بس ماحدش قادر يتكلم.

تسرَّب العرق من كل مسامي، جلست حتى لا أبدو مرتبكًا، أشعلت سيجارة بسرعة كي لا تلحظ بهيرة رعشة يدي، طالت فترة صمت حتى قطعتها متسائلًا:

- ومين قتلها؟ وليه؟ وازاي قتلوها؟ ده حتى أورفانيللي جوزها الله يرحمه ماعندوش أعداء!!

- أنت عارف كويس إنهم قتلوها بسبب فضيحتها مع فاروق لمَّا مسكوها في القصر، والجرايد بتاعت اليهود نشرت الخبر، ليه مصمم إنك ما تعرفش حاجة مع إني متأكدة إنك اللي ورا الموضوع كله من أول يوم؟

لُذت بالصمت مرة ثانية، عقلي يدور أسرع من عقرب الثواني ليجد مخرجًا لكنه يتعثر، عدت أسألها عن سبب شكوك البوليس، لكنها سبقتني قائلة باستنكار واضح:

- وهو صاحبك أورفانيللي مات ليه؟ ممكن تفكَّرني كده؟!

تهاوى الجدار الذي حاولت الاختباء وراءه تحت وطأة قذائف بهيرة المباشرة، اندفع كل ما كانت تكتمه بصدرها، خرج مُعبَّأً بكراهية

لـم ألحظها بهذا الوضـوح من قبل وكنت أظنها مـن ناحيتي فقط. هل تعتقد بهيرة أنني سبب موت أورفانيللي، أم تلمِّح بأنني قواد لمَّا ذهبت بليلى إلى قصر عابدين؟ هل هذا ما يُشاع عني؟!

تطـور الـكلام بيننـا إلى مشـادة تمـادت فيها بهيـرة للنهايـة، قالت بالفرنسـية إن صديقاتهـا تصفنني في جلسـاتهن الخاصـة بأنني مجرد قـوَّاد لشماشـرجي الملـك، خرجـت كلماتها بصـوتٍ مختنـق، تكاد تبكي، لكنها لم تفعل بعد.

حاولـت مقاطعتها برفع صوتي، لكنهـا أردفت بأنني مجرد جربوع اسـتغلها وطمع فيها بعدما انتشـلتني وعرَّفتني على الطبقة الراقية التي لـم أكن أحلـم حتى بمصافحة أحد أفرادها خـارج حدود صالتي. علا صوتهـا أكثر فابتلـع همهماتي وحـال دون مقاطعتي لهـا، ظلَّت تكرر سُـبابها وهـي تؤكـد ندمهـا على الـزواج مني، لـم أدرِ بنفسـي إلا وأنا أصفعهـا بشـدة عدة مرات متتالية حتى سـال خيط أحمـر رفيع من بين شفتيها، قبل أن أغادر الشقة صاحت وهي راقدة على الأرض تبكي:

- لولا أني حامل كنت طلبت الطلاق، الله يلعنك يا منصور ويلعن اليوم اللي شُفتك فيه ويلعن اللي في بطني منك.

كان ذلك أسـوأ خبر سـمعته مؤخرًا، قطعة رديئة ستأتي لي بأخرى أردأ منها.. لن أجعل هذا الطفل يرى النور أبدًا.



2/7

بهيـرة رغـم عصبيتها الجنونية امـرأة باردة في كل شـيء، حتى في مشـيتها المتراخيـة ذات الوتيـرة الواحـدة والخطـوة المنتظمة، سـواء كنـا نتنـزه أمام واجهـات المحلات الكبيـرة أو كنَّا نتفـادى المطر، في الحالتين تسـير ببطء، ترخي ذراعيها ويتهـدل كتفاها، بليدة الذهن في نظراتهـا أو كلمـا تحدثـت، تعيد الكلمـات الأخيرة مـن كلام محدثها كأنهـا صدى صوت ثـم لا تعطي أي انطباع آخر بعدها. أعلم ذلك منذ أول يـوم رأيتها فيه، صبرت فقط للحصول على أشـياء أخرى فجنيت التعاسة وحدها.

في الفراش لم يكن الحال أفضل، شـعرت في المرات القليلة التي عاشـرتها أنني أضاجع وسادتي، لا أبالغ إذا ما وصفت إحساسي بأنني أنام مع جثة هامدة، لا مشاعر ولا صوت ولا حتى إيماءة واحدة تثيرني. بهيرة أشـبه بموظفة تؤدي مهمـة ثقيلة على قلبها، وفـي كل مرة أنتهي فيهـا منها تصير عصبية للغاية بعدها، آثرت مع الوقت السـلامة وصار فراشـي باردًا طوال السنة. رغم برودها فإن بهيرة امرأة متسلطة، طويلة اللسـان، كئيبة المزاج، تشـغلها المظاهر، تحـرص على تصدير صورة الزوجين السـعيدين أمام معارفنا مع أننا لسنا كذلك، حديثها بالفرنسية طوال الوقت يوترني ويضايقني، تحتقر المصريين البسـطاء، تأنف من

مصافحتهم، تميز بينهم بلون بشـرتهم وأصولهم مع أنها ابنة الشوادفي باشـا صاحب الأصـول الفلاحية والبشـرة المائلة للسـواد، الذي كان يجلس في قصره بالجلباب حافيًا ويأكل بيديه حسبما يُروى عنه.

كبرت مشـاكلي مع بهيرة يومًا بعد يـوم حتى أصبحت بحجم جبل المقطم، بينما ترى وجودي في حياتها أصغر من قرص أسبرين، صرت مجرد حسـاب بالبنـك وواجهة اجتماعيـة لامرأة قبيحة سـخيفة فاتها قطار الزواج متعمدًا حتى أجبرت سائقه على الوقوف بمحطتي، ليتني ما فعلت. اخترتها وندمت بعدما اكتشـفت أن أباها الباشـا لم يترك لها الكثير ومات مفلسًا، أنا أغنى من عائلتها، لكن علاقاتها بالطبقة الراقية كانت قوية وما زالت تجلب لي زبائن، اخترتها مثلما نختار قطعة أثاث لا تلفت نظر أحد في مزاد، كان لديَّ حاسـة أخبرتني أن قيمتها ستكبر مع الوقت، سـأعرضها مرة ثانية وأكسـب من ورائها الكثير، لكننا فيما يبـدو نخطـئ التقدير أحيانًـا، بهيرة قطعة فالصو بكل مـا تعنيه الكلمة. والآن ستنجب لي قطعة أخرى مثلها لترثني. كابوس لا بد وأن أستيقظ منه قبل أن يكتمل ويصير واقعًا.

خنتهـا عشـرات المـرات وكل مـرة أشـعر بتعاسـتي، ثـم يراودني الشـعور ذاته بالانتقـام فأعود لخيانتها متلذذًا، صـرت ثورًا مربوطًا في سـاقية الشـهوة لا يعرف متى تنتهي دورته، ترددت على بيوت الدعارة بالأزبكيـة، اختـرت بيتًا محـددًا ارتحـت للخدمة فيه، لـديَّ فتاة معينة لا أغيرهـا، لكن فكرة أن هناك مَن يشـاركني فيها بعدمـا أنتهي منها لم

تـرُق لي مـع الوقت فتركتها، ثـم أغلقوا بيوت الدعـارة كلها فجأة منذ سـنوات قليلة،فتعرفت على راقصة مغمورة تُدعى روحية كانت تؤدي فقرتها بملهى الكورسال، ظلت تتردد على شقتي القديمة بحارة اليهود ثلاث مرات كل أسـبوع حتى صارت خليلتي، وفي كل مرة أضاجعها فيها أشعر بأنني أضاجع طبقة بهيرة كلها. لذة غريبة تنتابني كأن زوجتي تشاهد ما أفعله مع هذه الراقصة وتتحسر على نفسها.

أنتهي من فتاتي وتنهمر أسئلتي فوق رأسي فتغرقني في كآبة، يا ترى هل كانت أمي مومس مثل الراقصة روحية؟ هل ضاجعت الرجال كما يقـول أبي لتُنفق على معيشـتنا وتعليمـي؟! نفس النظـرة الطيبة وحالة الرضـا التـي لدى روحية، هـي ذاتها التي كنت أراهـا بعيني أمي بعدما هجرنـا أبـي.. صارحتنـي روحيـة بعملهـا في بيـوت الدعـارة قبل أن تحتـرف الرقص، لكني لم أكن أعرف ذلك قبل تعلقي بها ولمَّا عرفت تغاضيـت وسـامحت، هـل فعلتُ ذلك مـن قبل مع أمـي بغير وعي؟! تقتلنـي الإجابة التي لا أسـتطيع طردها من رأسـي وتقفـز لذهني بنبرة صوت أبي كل مرة.. «أمك مومس ومركبالك قرون».

ترجَّلـت من سـيارتي وأمـرت سـائقي بالانصراف، قررت السـير لأريح رأسي من تفكيري، مررت بجوار فيلا صغيرة بشارع خليل أغا، بعد غدٍ سيُقام مزاد كبير هنا لبيع مقتنيات الدكتور علي باشـا إبراهيم، أعـرف أن ورثته يعرضون ما جمعه من سـجاجيد ومنسـوجات هندية قديمـة، ثـروة هائلـة لا يعرفـون قيمتها، يمكننـي وضع أسـعار زهيدة

لبعـض القطع المهمة ثم أزايد عليها مع كروان وبعض التجار التابعين لنا كي نحصل عليها ونُعيد بيعها بسعرٍ أعلى في صالتنا.

القائمان على المـزاد من معارفي، أولهما «عزيز أرقش» الذي كان يعمـل لدى جورج ليفـي بالصالة والآن صار خبيـرًا للتثمين، وثانيهما الخواجة العجوز «فاسـيلوبولو» الذي يملك صالـة مزاد صغيرة بممر بهلـر حاليًا. عند اقترابي من بيتي هَبَّ البواب من على دِكّته الخشـبية، اقترب مني وهو يحمل ظرفًا صغيرًا قائلًا وهو يلهث من الأمتار القليلة التي هرولها:

- فـي واحـد سـاب لسـعادتك الظـرف ده، وبيقول مهـم جدًّا معاليك تشوفه قبل النهار ما يطلع.

فتحـت الظرف الأحمر بارتياب، عاد توتري يلتصق برأسـي كقبعةٍ ثقيلـة، وجـدت بداخلـه قصاصة بيضـاء كالعـادة، مدوَّن عليهـا بالآلة الكاتبة:

«لا تصـدق إلا مـا تراه بعينيك، سـأنتظرك غدًا في التاسـعة صباحًا بشارع خليل أغا، جاردن سيتي نمرة 2».

***

غرفتـي تضيق بي، السـقف يقتـرب مني ويكاد يطبـق عليَّ، صرت أتحاشـى النوم خوفًا من كوابيسـي، أسـوأ كابوس أن تحلـم بأن الكل صـار يعـرف حقيقتـك عاريـة. تقلبـت في رقدتـي، خطابات يوسـف حسني تقلقني، من أين أتى بهذه الشجاعة ليُرسل لي خطابًا كل أسبوع

تقريبًا، الآن وصل إلى بيتي، مَن هم رجاله الذين يثق بهم لهذه الدرجة ويأتمنهم على مكان اختبائه؟! ومَن استطاع الوصول إليه من رجالي غير لبيب الضمراني؟! دوائر الشك تحيط بكروان لكنها لم تكتمل بعد.

قرب الفجر استيقظت،اكتشفت أنني غفوت لساعتين ثم طار النوم من عيني ولم أفلح في الإمساك به مرة ثانية، ذهبت لحجرة مكتبي أقلب في أوراقي القديمة، وجدت صورة لثلاثتنا لا أعرف تاريخ التقاطها، لكنها في الأشهر الأولى لافتتاح صالة المزاد، أتوسط فيها أورفانيللي وليلى، نبتسم في فتور عدا أورفانيللي يبدو مسرورًا. عاد وجه ليلى النائم يطل من نافذة ذكرياتي، مشاعر متضاربة تنتابني، لا أصدق أنني قتلتها، أطبقت كفِّي على الصورة، تاهت ملامحنا وتداخلت مع بعضها البعض، أعدت فردها بصعوبة، خطوط ثناياها فرقت بيني وبينهما، مزقت الصورة قطعًا صغيرة، ثم زفرت فأطرتها من فوق سطح مكتبي. أشعلت سيجارة وصورة أورفانيللي الصغير تقفز لمخيلتي بلا سبب، تذكرت فجأة أنه اختفى منذ عدة أيام، أرسلت الضمراني للمدرسة فأخبروه أنه متغيب منذ أسبوع، حتى خالته لا تدري شيئًا عن أموره، بعثت لها سعد كروان فعلم منها أنه يأتي متأخرًا كل ليلة لينام ثم يخرج في الصباح ليختفي طوال اليوم.

ساورتني الشكوك في علمه بمقتل أمه، لا بد أنه التقى خاله يوسف، ضربت جبهتي بشدة كيف فاتني أن هذا الفتى الذكي هو عين يوسف حسني، هو الوحيد الذي يعرف عني كل شيء، وهو الذي يمكنه أن

يرسـل لي الخطابات بتكليف من يوسـف، هو آخر مَن يمكنني الشك فيه.

هـذا الكلـب نجح فـي خداعي واسـتغلال عطفي ومحبتـي له، لم أكـن أتخيل أنني بهذه السـذاجة، هذه النبتة القـذرة لأورفانيللي وليلى تظللني الآن، الحقد والطمع يورثان ولا شـك ويرويان بذور كراهيته. ظللت جالسًا بغرفة مكتبي أرقب النيل من وراء الستار، موجات هادئة لا تكاد تُرى، تتكسر على الشاطئ في فتور، نسمة هواء تداعب غصون شـجرة عجوز تظلل شـرفتي، خيوط النهار غمرت حجرتـي فحوَّلتها لطاقة نور، شـعرت أنني مفضوح، السماء تراقبني عن كثب وتتلصص علـيَّ. أغلقـت سـتائر الغرفـة وأخرجـت مسدسـي مـن درج مكتبي، راجعت طلقاته ثم ارتديت ملابسي، عقرب الساعة يقترب من التاسعة والنصف، اليوم سأحسـم كل الأمور المُعلَّقة برصاصةٍ واحدة.



2/8

شـوارع جاردن سيتي ملتوية كثعابين، قطعتها من بيتي على قدمَيَّ، دخلت من بوابة فيلا علي باشـا إبراهيـم بخطى بطيئة متحفزة، لمحت شـخصًا يُشـبه الضمراني في هيئته ومشـيته، أسـرعت لألحـق به لكنه سـبقني للداخل، هناك وجدت زحامًا شـديدًا، مئات الأشـخاص يعج بهم البهو الرئيسي، يفحصون ويتكلمون، ضوضاء عالية لا تسمع منها

كلامًـا مفهومًا. رُصَّـت داخل البهو بعنايةٍ فائقـةٍ كل مقتنيات المرحوم علـي إبراهيـم، لم يشـغلني جمـال القطع الفنيـة عن قبـح الضمراني، تحركـت في دوائر متقطعة بحثًا عنه لكنه ذاب وسـط الزحام، وجدت أمامي «عزيز أرقش» ببدلته الشركسـكين البيضاء وحذائه ذي اللونين، تبادلنـا أطراف حديث فاتر عن الصحة والأحوال، ثم سـألته فجأة عن لبيب الضمراني، أشار ببرود إلى باب غرفة مغلق قائلًا باستنكار:

– أكيـد موجـود مـع الخواجة «فاسـيلوبولو» في المكتب علشـان يُلقط لك حتة والا اتنين يا تركي زي العادة ويخرجهم برَّه المزاد، أنت حتلعب عليَّا أنا كمان؟

لم أسمح لدهشتي أن تكبر أكثر من ذلك، اقتحمت الغرفة فوجدت الخواجة جالسًـا وراء مكتبه وبجواره الضمراني يراجع بطاقات القطع، استندت بظهري للباب وصوَّبت مسدسي نحو الضمراني وأنا أسحب الماسورة المعدنية قائلًا:

– من النهارده مالكش عيش معايا يا بن الكلب، لكن قبل أي حاجة لازم تنطق وتقول لي يوسف حسني فين وإلا حاخد عمرك حالًا.

ارتبك الضمراني وتلعثم،حاول الدفاع عن نفسه لكنه لم يقُل كلامًا واضحًا،هدأني «فاسـيلوبولو» وهو ينهض مـن مكانه مذعورًا، حذرته مـن التدخُّل فتراجـع وهو يتمتم بكلمات غير مفهومـة وعينه لا تفارق مسدسي.

بدا الضمراني أبكم وهو يلوح بكفيه في الهواء، ثم ضرب بهما على رأسه، خرجت منه الكلمات تباعًا، أقسم إنه لا يعرف شيئًا عن يوسف حسني، ولم يرَه في حياته إلا لمَّا نشرت الجرائد صورته، توسَّل ألا أقتله وراح يبكي كطفل، سال مخاطه كثيفًا حتى اختلط بشاربه، بكاؤه لا يليق بهيئته الخشنة، اقتربت وصفعته لكنه لم يتراجع عن إنكاره، ركع وحاول تقبيل حذائي فركلت وجهه بعنف، سألته عن سبب تواجده بالمزاد، فأقسم مرة ثانية إنني أنا الذي طلبت منه الحضور عندما اتصلت به، فسببته لكذبه. رأيت أن أعطيه فرصة أخيرة ليُخبرني عن سبب ذهابه لميخاليدس بعد محاولة شراء صالون الإسكندرية، عاد يُقسم بشرف أمه إنه تلقَّى مكالمة مني على تليفون الصالة أخبرته فيها بأنني أنتظره هناك فأتى على الفور. صفعته مرة ثانية أشد من الأولى، بدا لي كذبه مفضوحًا في المرتين، نصحني فاسيلوبولو ألا أتهور أكثر من ذلك، فالضمراني لا يستحق التضحية بحياتي حتى لو كان خائنًا.

بصقت في وجه الضمراني، وصفته بأنه قوَّاد عدة مرات، شعرت براحة وأنا أقولها، خفضت مسدسي وبعدها تهاويت على أقرب مقعد لاهثًا من التعب، أبلغته بأنني لا أريد رؤية وجهه مرة ثانية، مضى مطأطئ الرأس، قبل أن يغادر الغرفة دخل علينا فجأة سعد كروان ومعه أورفانيللي الصغير، مرتبكان للغاية وملامحهما جزعة، قبل أن أسألهما عن سبب حضورهما المفاجئ، قال كروان وهو يلهث وصدره يرتج:

- الصالة احترقت بالكامل يا منصور بيك.. ربنا يعوض عليك.

***

هل رأيت من قبل حلمك رمادًا بعد ما احترق؟ أنا اليوم مررت بتلك التجربة القاسية، لمستها بحواسي كلها.. رأيت السواد وتحسست بقايا القطع، رائحة الدخان لا تزال تتسلل إلى أنفي رغم مرور شهرين على الحريق الذي أتى على كل محتويات الصالة، وطالت النيران جانبًا من المخزن بعد تأخر عربة الإطفاء ظنًّا منهم أن الصالة مملوكة ليهودي مثله مثل المجرمين الذين حرقوها، ربما بسبب اسمها.

أتت النار على محتويات صالتي بعد ساعة من حرق الكثير من محلات القاهرة، الحكومة اتهمت الإخوان المسلمين والإنجليز اتهموا فاروق في حين أشارت أصابع اتهامي ليوسف حسني، لكني ترددت في الإشارة نحو القصر والكردي مع أنني أشك فيهما أيضًا، أما في الأوراق الرسمية ومحاضر التحقيق فقد قبضت كفي، ولم أُشر إلى أحد، فصار الفاعل مجهولًا.

وضع عزيز أرقش ساقًا فوق أخرى وسط جدران يغطيها السُّناج وقال بغطرسة:

- نصيبي في الصالة النص.

أمسكني عزيز أرقش من يدي التي تؤلمني، ضغط بشدة بعدما عرضت عليه العمل عندي، أغريت أرقش بضعف راتبه لأنني أحتاج

لخبراته، لديه صنايعية مهرة من اليهود، وشبكة علاقات مع زبائن ثقيلة تجري النقود بين أياديهم بلا حساب، لكنه الآن توحش بعدما صار خبيرًا يُشار له بالبنان، رفض عرضي وصمَّم على مشاركتي. اقترح في البداية النصف، استغل حاجتي عارضًا تجديد الصالة بالكامل لنبدأ العمل خلال شهر على الأكثر، ثم طلب وضع اسمه على لافتتها بعد حذف اسم أورفانيللي، العرض بالنصف مُغرٍ وأنا أشعر بوهن لا يمكنني معه البدء من الصفر لكني لم أضعف بسهولة، قررت الاستدانة كي لا أضع اسمه على اللافتة ولا يتساوى رأسه برأسي في الإدارة.

بعد مفاوضات استمرت لأكثر من أسبوع وافق أرقش على مشاركتي في الصالة بشروطي، احتفظت باسم أورفانيللي على اللافتة لأنه ارتبط بذهن زبائني، لكني لم أفلح في جعل أرقش موظفًا عندي، صار مديرًا وشريكًا بالثُّلث، وبقيت المشكلة مع البنك الإيطالي الذي رفض إعطائي قرضًا بلا ضمانات كي أستكمل نصيبي.

عرضت على البنك رهن الصالة ضمانًا للأموال، لكنهم تباطئوا في الإجراءات، ماطلوا في الشروط وتعسفوا، ثم توقفت المفاوضات فجأة بدون تبريرات، حاولت مع بنوك أخرى لكني فشلت، ثم علمت أن أرقش وراء كل ذلك بعلاقاته مع مديري البنوك من اليهود ليجبرني على رفع نصيبه. فلجأت إلى بهيرة لأقترض منها، اضطررت لتأجيل قرار انفصالنا مؤقتًا، رويت لها ما دار بيني وبين أرقش ورفض البنوك تمويلي، حدثتها عن صفقةٍ هائلةٍ من خلال مزاد كبير قريب مؤكدًا أنني

سأربح من ورائها آلاف الجنيهات إذا تمكنت من تدبير باقي المبلغ المطلوب. وضعت يديها حول وسطها وهي تسألني باستنكار:

- محتاج كام يعني؟

- عشرة آلاف جنيه.

- وحسابك في البنك مافيهوش المبلغ ده يا منصور؟

لم أجرؤ على إخبارها بتهريب غالبية أموالي للخارج، ومن الصعب استعادتها حاليًا في وقت قصير فالتكلفة ستكون عالية في العادة مثلما كانت في الخروج الآمن، ذكرت لها رقمًا زهيدًا، أقل ممَّا تبقى في حسابي بكثير، لكن آخر ما توقعته أن تعرض بهيرة مشاركتي في الصالة بالثلث بعدما رفضت إقراضي، رغم يقيني أن هذا المبلغ هو كل ثروتها وربما باعت بعض مجوهراتها لتُكمله.

تركتني لأفكر في عرضها فحملقت في المرآة مذهولًا، لو وافقت فبهيرة الشوادفي وعزيز أرقش في أقل من عشرة أيام سيملكان ثلثي الصالة بعدما كنت أملكها وحدي، لو الأمر بيدي لأفرغت خمس رصاصات من مسدسي في رأس يوسف حسني الذي تسبب بكل هذه المصائب دفعة واحدة، ثم أطلقت على نفسي الرصاصة الأخيرة حتى لا أعيش هذا الكابوس مستيقظًا.

دقَّ جرس الباب ليقطع هواجسي، لمحت بواب العمارة ممسكًا بظرف أحمر صغير بيده ويسلمه لزوجتي، جذبت المسدس وهرولت نحوه وأنا أصرخ في وجهه مشهرًا إياه صائحًا «كفاية بقى يا ولاد

الكلب».. تسمَّر الرجل مكانه وفزعت بهيرة، أمسكت البواب من رقبته ووضعت فوهة طبنجتي على جبهته، سألته عن الشخص الذي أتى بالظرف فألقى بباقة ورد من يده الأخرى التي لم أكن أراها، وقال وهو يرتجف:

- يا بيه ده الظرف اللي جه مع الورد من واحد اسمه الأستاذ عزيز أرقش بيبارك لك على تجديد الصالة.



2/9

- مفيش مليم حتاخده إلا لما تكتبلي مبايعة بنصيبي، ومش حانزِّل اللي في بطني يا منصور.

لا تزال كلمات بهيرة تتردد في أذني، كلانا لا يطمئن للآخر، أنا أحتاجها لكني لا أفهم سر احتياجها لي، لا بد أن طمعها أغراها بمشاركتي، لكني لا أراه سببًا كافيًا، لا بد وأن هناك سرًّا وراء الموضوع، تناولت قرصًا ثانيًا من الأسبرين الذي لا يفارق جيبي، ضغطت بكفِّي على جبهتي ليزول الصداع الذي ورثته بعد وفاة ليلى وأورفانيللي، وبسبب هطول الخطابات الحمراء فوق رأسي، فركت عينَيَّ وفتحتهما، وجدت أورفانيللي الصغير أمامي، أخبرني بأن العمال أنهوا كشط الجدران وسيدؤون الطلاء غدًا، بعد يومين أو ثلاثة ستكون الصالة جاهزة للعمل، سألته عن المعاينة فطلب مني

إلقـاء نظـرة عابرة، قمت متكاسـلًا مـن وراء مكتبي أنظر لـه بارتياب، لكنـي شـعرت بارتياح لمَّا رأيت المخزن والقطـع تتلألأ به كنجوم في سـماء صافية، منشـورة بعناية ومختارة بدقةٍ وذوقٍ عالٍ. لمسـات عزيز أرقش سـاحرة وطريقته متفـردة في العرض والبيع والتثمين، مكسـب كبيـر للصالة حتى لـو أخذ الثلث. أشـار أورفانيللي الصغير لسـيدات يُقلبن في القطع المعروضة هامسًا:

- زباين تقيلة يا مايسترو.

نظرت له بإعجاب لم أستطع إخفاءه وقلت:

- وعرفت ازاي يا خواجة؟

أشار لسيدة أربعينية قصرت شعرها مثل الرجال، همس بأنها تعاني فراغًا عاطفيًا فأتت إلى هنا لتملأه، ثم حوَّل بصره ناحية أخرى جاوزت السـتين بكثير وهو يؤكد على أنها هاوية جمع تحف، لكنها ستشـتري أي شـيءٍ بسـرعة فخبرتها قليلة بسـبب تعجلها في فحـص كل قطعة، مال ناحيتي أكثر وهو يُخفض صوته حتى أصبحت أسمعه بالكاد وهو يُحلل رجلًا وسيدة كل منهما يعطي ظهره للآخر، الرجل يعمل مندوبًا لـدى صالة أخرى، يفحص بعينه ويُسـجل في عقله بعضها ويدوِّن كل برهـة ملاحظات عن أخريـات منذ منعنا التصوير بالصالة، أما السـيدة فهـي تبحث عن قطع أثـاث تصلح جهازًا لعروس، ربمـا تكون ابنتها، وستشتري لأنها متلهفة.

علت دهشتي فتجاوزت إعجابي الممزوج بانبهاري من قدرات الفتي الصغير، استفسرت منه عن كيفية توصله لكل هذه التحليلات الصحيحة فقال بهدوء:

- الريس هارون علمني إزاي أعرف أقراهم، ومتنساش إني في الأصل تلميذك يا مايسترو.

اقترب منَّا عزيز أرقش فانشغل أورفانيللي الصغير بمتابعة الزبائن بعينه كما علمته، اتسعت ابتسامة عزيز وهو يشير نحوه بإعجاب صريح:

- الولد عبقري، كنز حقيقي يا منصور باحسدك عليه.

شعرت بالرضا لكنني تداركت قائلًا خوفًا من الحسد:

- صحيح يا عزيز.. بس عيبه أن عينه زايغة على النسوان ويضيع عليهم كل فلوسه، مع أنه لسه صغير على الصرمحة، نقطة ضعف ممكن تضيع كل اللي بيعمله. طالع شيطاني غير أبوه الله يرحمه خالص.

ضحك عزيز ضحكة مجلجلة وذهب ناحية المخزن، فناديت أورفانيللي الصغير:

- إيه رأيك ناخد بقية اليوم إجازة نقضيه مع بعض، أنا عاوز أتكلم معاك كلمتين.

- استابينا.

قالها وهو يقلدني بنبرة صوتي ذاتها في دقة مذهلة، ضحكت عندما تذكرت أنني كنت أكلفه بالرد على بهيرة في الهاتف أثناء اختلاسي لساعات مع روحية كي لا تكشف مكاني. وصلنا حديقة الأزبكية، جلسنا على أريكة خشبية عريضة، وضعت سلة الطعام والشراب بجواري، التفتُّ إلى أورفانيللي الصغير وقلت بدون مقدمات:

- البقية في حياتك، الست والدتك تعيش أنت، أنا عارف إنها متأخرة شوية لكن أنت كنت مختفي والظروف كانت ملخبطة في الصالة مالحقتش أعزيك.

تفرست في ملامحه لأرقب انفعالاته، لم تختلج عضلة واحدة من عضلات وجهه، لا يزال بداخلي شك ناحيته، لا بد وأن له علاقة بيوسف والخطابات التي تُرسل لي، تمنيت ألا ينطق بهذه الحقيقة، أشعر بأنه ابني الذي لم أُنجبه، كل السوق يتعامل معه على هذا الأساس، ومَن لا يعرفنا يظن من اسمه المركب أنه كذلك بالفعل.

نظر لي الفتى بعينين حزينتين، وتوارت مشاعره خلف ملامح وجهه الطيب وقال:

- الله يقي حياتك.. أنا عرفت بالخبر لكن هي بالنسبة لي ماتت يوم ما أبويا مات من تلات سنين ونص.

اعتدلت في جلستي وقد تحفز توتري بداخلي:

- عرفت من مين إنها ماتت؟ من خالك يوسف طبعًا! انطق.. اتكلم بتقابله فين؟

نظر لي الفتى بدهشةٍ كبيرةٍ لعصبيتي المفاجئة متعجبًا من سؤالي، لكنه قال بنفس الوتيرة الهادئة:

- عرفت من الضمراني قبل حريق الصالة بيومين، وقال إنك طلبت منه يبلغني، أما خالي يوسف فأنا ماعرفش عنه حاجة من يوم ما بابا سابنا ومشي. لكن خالتي بتقول لي إنه أحيانًا بيزورها وبيساعدها بفلوس كل شهر. لكن أنا ماشفتوش ولا قابلته.

قالها بحزن دفين ثم أطرق في أسى، شعرت بندم لتسرعي ولعنت الضمراني في سري، رفعت رأسه، لمحت دموعًا تترقرق في عينيه، وضعت ذراعي على كتفه، شعرته باردًا لا يستجيب، استرخيت شاردًا في جموع اليهود الذين يفترشون أرض الحديقة على مبعدة منَّا، ثم قلت بهدوءٍ محاولًا تلطيف أجواء الحديث:

- أنت اختفيت فين الأسبوع اللي فات، سألنا عليك في المدرسة قالوا غايب، رحنا لخالتك قالت إنك بتنزل من صباحية ربنا وما بترجعش إلا نص الليل، خير؟!

سكت لوهلة ولم يرد، تعمَّد ألا ينظر ناحيتي، دقَّ قلبي بعنف متوترًا من إجابةٍ ربما يفقد هو حياته بسببها، أدرت وجهي بعيدًا عنه وأردفت وأنا أرفع إصبعي محذرًا:

- قبل ما تجاوب أنا حابب أقول لك إن كلنا ممكن نغلط وأنا مستعد أسامح بشرط ماتكذبش.

هـبَّ الفتى فجـأة، لاح غضب خفيف على وجهه وهـو يقول بنبرةٍ تحمل قدرًا لا بأس به من الندية:

- لـو شـاكك فيًّا إرفدنـي، أنا مش لبيـب الضمرانـي ولا صبي من صبيـان الصالـة، أنا ابن صاحبك الوحيد وتربية إيـدك، وكنت باعتبرك أبويـا التانـي، لكـن طالما شـاكك فيًّـا بسـبب الجوابات الغريبـة اللي بتوصلـك.. أنـا حاقول لـك كنت بروح فيـن ومين اللـي بيبعتها لك.. لكن بعدها حاسيب الصالة.



2/10

ما بين فتات أفكار لا أسـتطيع الإمساك بها، وشظايا دموع لا تنهمر فتجرحنـي من داخلي، وغبار أحلام تشـبث بذاكرتي وظـل عالقًا بها، خرجت كلمات أورفانيللي الصغير كضوءٍ بعيدٍ أراه من مرقدي في قاع الشك العميق، بدَّد عتمة عقلي إلى حين لكني لم أستطع الوصول إليه، مـا زلت عاجزًا، مشـلولًا، بطيئًا في رد فعلي، حـذرًا في خطواتي، قلقًا من المقامرة بفتاي الذهبي، ورغم ذلك كله طمأنني إلى حد كبير.

تركـت الفتـى يهدأ، وأخرجـت الطعام من السـلة، وضعـت أمامه كل مـا بها، راقبتـه وهو يأكل، فكه معوج قليلًا، لا يـزال بداخله بركان غضب لم يخمـد بعد، حركته تبدو عصبيـة وملامحه منزعجة، طلبت

منه أن يُعيد على مسامعي ما قاله ليُطربني ثانية.. فقال وهو يزدرد ما بفمه:

- كنت بامشي ورا لبيب الضمراني من غير ما يلاحظ، شكّيت إنه ناوي يُغدُر بينا بعدما سمعتك بتتكلم مع كروان، قلت لنفسي لازم عين من عندنا تبقى عليه، كل يوم كنت باقطُره لغاية ما عرفت إنه بيقابل صبيان ميخاليدس وأكيد كان بيخبُص علينا، لكن آخر حاجة أتوقعها إنك تشك فيا أو إنك...

قاطعته منفعلًا:

- سيبك من الضمراني وقول لي مين في فكرك اللي بيبعت لي الجوابات؟

- مفيش غيره.. خالي يوسف طبعًا، هو المستفيد الوحيد.

ألجمني رده، حاصرني بصراحته، فشلت في الإبقاء على شكوكي فانتزعها بسهولةٍ من وجداني بكلماته وثقة ردوده. فرددت كالتائه مرة ثانية:

- أنت متأكد من كلامك؟

أومأ بالإيجاب وسكت بعدها، شعرت أنه أشار بعصا المزاد نحوي ولا بد أن أقول كلمتي، حكيت له ما فعله يوسف وما كتبه في الخطابات الحمراء، نقلت له مخاوفي من انتقامه، ترك الفتى طعامه وقال مقاطعًا بنبرة رجلٍ نضج مبكرًا:

- ما تخافش منه، اللي عاوز يعمل حاجة بيعملها مش بيهدد كتير قبلها، وطالما هو اشتغل ضدنا يبقى نهايته قرّبت والحكومة مش حتسيبه، شُفت الجرايد كتبت عنه إيه؟ ده كل يوم بيفتشوا بيوت يهود جنب بيت خالتي، وناس معارفنا سابوا مصر ومشيوا، بيقولوا الحكومة مش عاوزانا نعيش هنا.

قاطعته متحمسًا:

- أنتم مصريون ودي بلدكم زي ما هي بلدنا، دي غُمَّة وراحت وحكومة الوفد معاكم دلوقتي.

انشغل الفتى بطعامه مرة ثانية، بدا غير مقتنع بكلامي، ربما لا يفهم كثيرًا في السياسة لصغر سنه، الآن ولأول مرة أشعر براحة منذ وفاة أورفانيللي وليلى، أغمضت عينَيَّ ووضعت يدَيَّ خلف رأسي ومددت ساقي، شعرت بحاجة حقيقية لنوم عميقٍ جافاني لشهورٍ طويلة، استأذن مني أورفانيللي الصغير للذهاب إلى دورة المياه، انشغلت بتصفح جريدة «الكليم» اليهودية، صرت متابعًا لها منذ نشرت تحقيقًا صحفيًا عن ضبط ليلى بقصر عابدين وهاجمت الملك لكنها الآن غيَّرت من اتجاه دفتها وراحت تشيد بإنجازات الحكومة تحت القيادة الرشيدة لمولانا ملك البلاد.

انتبهت إلى أورفانيللي الصغير عائدًا وبصحبته سعد كروان الذي وصل لتوه مع عائلته الصغيرة، اليوم عيد «البوريم» الذي يحتفل به اليهود كل عام في حديقة الأزبكية وكانت الحكومة أوقفته عقابًا لهم

على التفجيرات، كثيرون لا يعرفون أن سـعد يهودي، اسـمه الحقيقي سعد إيزاك، أما كروان فهو اسم شهرة بسبب صوته الجميل، وحكاياته التـي لا يمل مـن روايتها على أسـماعنا كلما غنَّى لنـا طقطوقة قديمة، وكيـف أن فريـد الأطرش حاربه ومنعـه من الغناء فـي الإذاعة فاضطر للعمل بصالات المزاد، ابتسـمت وأنا أتذكر رفضه حضور حفل زفافي لمَّا عرف أن الأطرش سيُغني فيه وراح يُقلده باستهزاء.

من بعيـد لمحت عزيز أرقش مع ابنته الصغيرة، لوح لنا مُحييًا لكنه لم ينضم إلينا، مِلت على سعد سائلًا بدهشة:

- هو عزيز أرقش يهودي؟! أنا كنت فاكره قبطي.

- عزيـز مالوش مِلَّة يا منصور بيك، بعدين أفهم سـعادتك حكايته بس للأمانة هو راجل بيفهم في الشغل.

انشغل كروان مع أسرته بالاحتفال بعدما سلَّمني ظرفًا مغلقًا بعناية وهـو يهز رأسـه بما يعني أن كل شـيء على ما يـرام، على الفور تركت أورفانيللي الصغير معهم وعدت لبيتي، ذهبت لغرفة مكتبي وراجعت الأوراق، رتبتهـا ثم طلبت من السـفرجي استـدعاء بهيـرة، قدَّمت لها عقد الشـراكة بيننا في الصالة وورقـة المبايعة بالثلث، دفعت بالأوراق ناحيتها بلا مبالاة قائلًا:

- الورق كلـه قدامك، ناقص توقيعك عليه ونخلص ولازم تدفعي نصيبك المتأخر.

وضعت نظارتها وراحت تقرأ بتأنٍّ، لمّا طال الوقت صحت فيها غاضبًا:

- الورق اللي معاكي ضامن حقك ما تخافيش وتوقيعي قدامك. بتقري إيه كل ده؟ ده عزيز أرقش اليهودي وقَّع العقد من غير ما يقراه.

لم تُعر كلامي اهتمامًا، قرأت بعناية حتى السطر الأخير ثم أمسكت بالقلم ووقعت نسخة واحتفظت بالأخرى، غابت قليلًا في حجرتها ثم عادت بدفتر الشيكات وكتبت لي شيكًا بعشرة آلاف جنيه، قائلة:

- أنا اللي حاختار ألوان الحيطان والسكرتيرة بتاعتك ترفدها وتعين راجل مكانها، أنا مش ناقصة إن حد يفضل يتكلم عليًا، الشيك تاريخه بعد يومين، تسجل نصيبي وبعدها تصرفه وإلا حالغيه.

- مش حاخد شيكات علشان الضرايب. اصرفي الشيك بمعرفتك واديني الفلوس كاش.

هزت رأسها ولم تُعلق، دقَّ جرس الهاتف بجواري فغادرت وهي ترمقني بنظرةٍ لم أفهمها، لكني شككت في أنها سترفع السماعة من الناحية الأخرى.

جاءني صوت زوجة ألبير مزراحي جزعًا وهي تصرخ:

- الحقني يا منصور بيه.. المحكمة حبست ألبير النهارده.

***

طوال الطريق إلى سجن الأجانب كنت أفكر في عشرات التهم التي يمكن أن تُلصق بألبير مزراحي ولا أستقر على واحدة أبدًا، هذا الصحفي اليهودي الذي عرَّفني عليه أورفانيللي قبل وفاته، نشأت معرفة بسيطة بيننا، ثم علمت أنه أحد أهم وأمهر مهربي أموال اليهود من مصر.. فأصبحنا صديقين مقربين، لكنه لم يوافق على إخراج جنيه واحد من أموالي للخارج إلا بعد تأكده من شراكة أورفانيللي معي بالصالة، يومها سألته عن السبب فرد بكبرياء:

- مسألة مبدأ، أنت موش يهودي والحكومة موش بتضايقك ولو أنا ساعدت كل الناس على تهريب فلوسها مصر حتبقى مديونة زي إنجلترا، يرضيك نعمل كده في البلد اللي عشنا فيها أحلى أيامنا واديتنا خيرها؟!

ترن كلمات ألبير في أذني حتى تركت سيارتي على ناصية شارع عماد الدين، اتجهت إلى الفيلا الأنيقة ذات النوافذ العالية، سرت على ممشى أحمر قانٍ طويل حيث غرف المسجونين، قبل أن أراه وصلني صوته يصيح غاضبًا في سجَّانيه، يوبخهم بشدة لعدم إدخال معجون الأسنان إليه، يشكو من تأخير وصول الطعام بسبب إجراءات التفتيش الطويلة حتى صار باردًا، سخر منهم وهو يدعوهم لتناوله معه، بدلًا من حسده على صنوف الأكل التي تعدها زوجته وتدير رائحتها رؤوسهم.

لمحني ألبير من بعيد، هلَّل مناديًا باسم الصالة لا باسمي وحدي، فوجئت أن تهمته هي العيب في الذات الملكية بعدما سخرت صحيفته

مـن أفنديــنا برســم كاريكاتيري لفنان مجهول، صوَّر فيه فاروق جالسًــا على سـفرة كبيرة وأمامه إناء يغلي بأغنيـاء اليهود. هذه التهمة هي آخر ما أتوقعه، فلم يكُن ألبير جريئًا لهذه الدرجة، صحت مندهشًا:

- أنـت يـا ألبيـر؟ إزاي؟ دي وزارة الداخليـة نفسـها هـي اللـي بتصـرف على المجلة بتاعتك وبتشـتري كل أعدادها يا راجل، يقوموا يحبسوك؟!

ابتسم في مرارة، ثم تلفَّتَ حوله عدة مرات قبل أن يقول:

- ما هو ده السـبب فيما يبدو، بوللي إيده طويلة يا منصور والسـرايا كارهة حكومة الوفد، والنحاس باشا أتقل من جبل المقطم على قلبهم، بوللي بعت لي حسـن الكردي يطلب منـي نُص الفلوس اللي خرجت مـن مصـر وأنا رفضـت، بعدها زقـوا عليَّا الرسـام اللي رسـم فاروق، ودخلت أنا السـجن لأني رئيس التحرير والرسـام هرب واختفى فجأة زي ما ظهر.

- يا خبر اسود.. نص الفلوس مرة واحدة.. ليه يعني؟

- مـا هـو في الحالات دي يا منصور يا حبيبي التورتة موش بتتوزع بالتساوي، والحتة بتاعتك لازم تبقى أصغر من نصيب اللي فوقك.

- طيب وبعدين، حتعمل إيه في المصيبة دي؟

- ماتخافـش الفلـوس فـي أمـان، أنا طلعتها فرنسـا، موجـودة في حســاب سـري باسـم واحد قريبـي وحنشـغلها قريب جدًا فـي تجارة

الألماظ علشان تعمل أرباح كبيرة، لكن طلبي الوحيد منك إنك تتوسط لي عند بوللي، هو بيعمل لك خاطر ومولانا زبونك والكردي صاحبك، أنا عاوز أخرج من هنا بعفو ملكي لأني مريض بالقلب، وفي نفس الوقت حادفع لبوللي اللي يسكته.

لا أجد ما أقوله لألبير، بوللي يحتقرني ويعاملني كخادم له مع أنه كان مجرد كهربائي بقصر عابدين، شعرت بحرج بالغ إذا قلت أن سقفي ينتهي عند شماشرجي الملك، لست صديقه إنما راشيه فحسب، ساد الصمت لبرهة ثم قلت بحسم متصنعًا الضيق بعدما قلبت ملامحي:

- لا يا عم ألبير ابعدني عن بوللي ومولانا أنا مش قد الناس دي، أنا هرَّبت الفلوس من مصر بسببهم، ثم إن دي موش فلوسي زي ما أنت عارف.. دي أمانة، الخمسين ألف جنيه نصيب أورفانيللي الله يرحمه، وحق ابنه الصغير اللي بيشتغل معايا، أنا عاوزك تحولها لي على بنك في لبنان ومش عاوز أرباح ولا تجارة.

تلفت ألبير حوله ثم همس:

- ماقدرش أحول فلوس وأنا محبوس، كمان أنا اللي محتاج مساعدتك يا منصور.. افهمني.

طالت حواراتنا حتى انتهت إلى طريق مسدود، صممت على طلبي باسترداد أموالي، شرد ألبير وطالت فترة شروده، ظل ينظر إلى لا شيء، ثم تأزمت جبهته وضاقت حدقتا عينيه كأنه يستشرف مستقبلًا مخيفًا، أعدت كلامي على مسامعه، مؤكدًا على سفري لبيروت بعد ثلاثة

أسابيع، أمسكت ورقة وقلمًا وكتبت له تصرفًا في الأموال ووقعت عليها في حالة وفاتي قبل سفري، قرأها بتركيز ثم قال بنبرة لا تزال محملة ببقايا الشرود:

مفيش مشكلة ربنا كبير وقادر يحلها من عنده، لبنان أو فرنسا في الحالتين حق أورفانيللي محفوظ بالورقة دي والفلوس حتشتغل وتعمل أرباح كمان. مال اليهودي عمره ما يضيع يا منصور، واللي يمد إيده عليه تصيبه لعنة زي لعنة الفراعنة.



2/11

خرجت من سجن الأجانب مهمومًا، تركت ألبير وحيدًا عائدًا لحجرته يحمل عمود الطعام الذي وصله أثناء زيارتي ولم يقربه، ربما حكاياته معي أفقدته شهيته وطلبي لأموالي ضايقه، شروده أقلقني أكثر وطلبات بوللي ستكون سيفًا نافذًا على رقبة ألبير واليهود كلهم وأنا من قبلهم، ثروتي في مهب الريح، كلها تحت يده ولا أملك إلا ورقة عرفية يشهد فيها أنه تسلَّم مني الخمسين ألفًا، وورقة مكتوبة على آلة كاتبة لا قيمة لها تحمل توقيعه بالفرنسية أسفلها، وحتى لو ذهبت بها لأي محكمة فماذا أنا قائل للقاضي؟ هرَّبت أموالي خارج المملكة خوفًا من الكردي وبوللي!

فكـرت فـي أن أذهـب للكـردي وأتوسـط عنـده لألبيـر، لكنه من المؤكد سيشـك في أنني هرَّبـت بعضًا من أموالي، وسـيُطالب بنصيبه وهو من أكبر مدمني الرشـاوى مع موردي القصر الملكي، سـيُعاملني مثلهم بالتأكيد.

وسـط الهمـوم ظهر وجـه روحيـة أمامي، قفـزت صورتهـا عارية بمخيلتي، تتلوى بجسدها فوق الفراش لتُثيرني مثل كل مرة، قررت أن أذهب إليها لأُخفف من حمولتي، دُرت بالسيارة من ميدان الأوبرا في طريقي لحي السـكاكيني، حيث الجارسـونيرة الصغيرة التي ألجأ إليها منذ زواجي من بهيرة مسـتجيرًا من برودها. أشـعر مع روحية أنني مثل فـاروق، أنا ملك فؤادها وجسـدها، أطلبها فـي أي وقت فأجدها، مثل ربان المحروسة، دائمًا على أهبة الاستعداد إذا ما كانت الرغبة الملكية تميـل نحو ركوب البحـر العالي في أي وقت، لا أعرف إن كنت أحبها أم مجرد رغبة جنسـية، لكني أظل في حضنها بعدما أنتهي منها، دافسًـا رأسـي بين ثدييها البارزين، تُشـعرني بالأمان والحنان معًا، شـعور لم أصادفـه مـن قبل بهذه الدرجة مـع أي امرأة عرفتها، وأفتقـده دائمًا مع بهيرة.

تركت سـيارتي في شـارع بعيد وترجَّلـت المسـافة الباقية مثل كل مـرة، قبل أن أدخل المنزل اقترب مني شـاب يركب دراجة وهو يطلق نفيرها بإلحاح، التفتُّ نحوه منزعجًا، لكنه اقترب مني بجرأة، نجحت فـي تفاديه بصعوبة، ألقى في وجهي بشـيء ما ثم ابتعد مسـرعًا. اختل توازني وترنحت لكني اسـتطعت التماسك في آخر لحظة مستندًا على

الجدار القريب، وقعت عيني على ما ألقاه، ظرف أحمر صغير، تلفتُّ حولي قبل أن ألتقطه، ثم قرأت ما دُوِّن بالقصاصة داخله، ففترت رغبتي في روحية وشعرت برجفةٍ تسري في ركبتَيَّ.. كتب المجهول لي هذه المرة:

«سأُغريك بالذهاب إلى الشاطئ وعندما تخلع ملابسك وتقفز ستُفاجأ بأن ماء النهر قد جف».

***

لا تصدق كل ما رأيته، لا تستمع لما قالوه لك يومها، أنت شاهدت جانبًا وحيدًا من الصورة، جزءًا صغيرًا من المشهد، الحقيقة ليست كما دفنتها معك ورحلت بها عنًّا، البقية عندي وحدي صدقني. سامحني إن خانني التوفيق، اغفر لي لو أسأت إليك، حتى ليلى لم أقصد قتلها، لا.. لا لم أقتلها من الأساس، أنا أعدت أنبوب الهواء مكانه والروح لا تزال بها، أنا واثق من ذلك، كانت تتحرك، نعم أخطأت لكني أصلحت خطئي، لا تُحملني ما لا طاقة لي به أكثر من ذلك، منذ رحيلك والأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، أنت ترقد الآن في سلام، فاتركني أعيش ما تبقى لي في أمان.

قرأت الفاتحة على روح أورفانيللي ومسحت وجهي بكفَّي، التفتُّ ناحية ابنه الواقف على مقربةٍ مني، مسح طرف عينه خلسة ثم تظاهر بأن ذبابة ضايقته، وحرك كفَّيه بعصبية. أكاد أجزم أني لمحته يبكي لكنه لا يُظهر مشاعره أمامي، استدرت وولَّيت ظهري للقبر

عائـدًا مع أورفانيللي الصغير بعد زيارةٍ خاصةٍ لأبيه، ألححت عليه كي يصحبني فيها، كنت أحتاج لها لكنها زادتني همًّا. في طريق عودتنا على كورنيـش المعادي هدَّأت تمامًا من سـرعة السـيارة بسـبب قيام بعض العمـال بالحفر لتركيب أسـلاك التليفونـات، التفت الفتـى فجأة وهو ينظر من نافذة السـيارة كمَن لمح شـيئًا خاطفًا، أشعلت سيجارة لحين السماح لنا بالمرور، استفسرت من أورفانيللي الصغير عمَّا يلفت نظره ويكاد يتدلى من النافذة بسـببه، طلب مني التوقـف فورًا، أمام إصراره تركنا السـيارة على يمين الطريق، وترجَّلنا حيث فيلًا قديمة يجلس أمام بوابتهـا رجل نوبي عجوز على دكة خشـبية لامعـة مرتفعة عن الأرض بصورة ملحوظة، همس أورفانيللي الصغير قائلًا:

- خشـب فرنسـاوي شـغل «إيميـل جاليـه».. إيـه رأيـك بقـى في المفاجأة دي يا مايسترو؟

نظرت للصغير بإعجاب، تأمَّلت الدكة الخشـبية اللامعة ثم سحبته من يده مقتربًا من النوبي، مستأذنًا أن يسـمح للفتى بقضاء حاجته بدورة المياه الملحقة بالحديقة، وافق الرجل بترحاب وذهب معه أورفانيللي الصغير وهو يتلفت نحوي كل خطوتين بدهشةٍ ممَّا يجري. بعد خمس دقائق خرجا ليجداني جالسًـا على الدكة مبتسـمًا لأورفانيللي الصغير فبادلني الابتسـام بثقـة، هَمَّ بالجلوس استعدادًا للتفـاوض مع النوبي على شـرائها منـه، لكني نهضت مسـرعًا وألقيت السـلام على الرجل بعدما منحته عشـرة قروش، جذبت الفتى من يده متجهًا للسـيارة، في منتصف الطريق استوقفني قائلًا بعناد:

- ورحمة أبويا شغل «إيميل جاليه» بس مدهونة جَملكَّة، أنا شُفت أختها في مجلات كتير.

- ورحمـة أبوك وأمـك إيميل جاليه عمره ما عمل دكك بوابين، ده شغل البربري بتاع إسكندرية، اركب الأتوميبل بلاش لماضة.

ضربت مؤخرة رأسه برفق لكني منحته جنيهًا تقديرًا على ملاحظته حتى لـو خابت توقعاته، اختلسـت نظرات إعجـاب لوجهه وهو ينظر عبر نافذة السيارة، صامتًا مترقبًا كصقرٍ يبحث عن فريسـة أخرى شاردة، لاحظ أننا سلكنا طريقًا غير تلك المؤدية للصالة، فـسألني بقلق:

- هو إحنا عندنا مشاوير تانية النهارده؟

رددت مبتسمًا وأنا أحرص على غموض إجابتي:

- أيوه.. عندنا مشـوار مهم علشان يبقى درس وعبرة لكل صالات المـزاد في مصر، عـاوزك تتفرج وتتعلم علشـان اللي يدوس لك على طرف تقطع رجله.

***

تواجُـد المنافسـين كزبائن هو أكثر ما يُضايـق أصحاب الصالات، ظهور خبير في أي صالة مزاد يرفع السعر لأرقام غير حقيقية أو يهبط به أسفل السافلين، مجرد جلوسي وإيماءات رأسي أو تغير ملامح وجهي يؤثر بالسـلب أو الإيجاب على القطعة المعروضة ولو لم أزايد عليها. صحيـح أن بيننـا اتفاقًا غيـر مكتوب علـى احترام القواعـد، وصحيح

أننا نحضر مزادات بعضنا البعض من خلال رجالنا أو أشخاص غير معروفين، لكن ميخاليدس كان أول مَن كسر القاعدة وشذَّ عنها، عندما أغوى لبيب الضمراني نحو بئر الخيانة فشرب منها حتى صار ثملًا، الآن حان وقت استعراض العضلات ليعرف كل صاحب صالة حجمه الحقيقي.

مِلت على أذن الفتى قائلًا:

- شايف الكرسي الخشب اللي على اليمين ده يا خواجة؟

أومأ أورفانيللي الصغير بالإيجاب، فأردفت:

- أهو ده شغل إيميل جاليه يا فالح، اتملَّى كويس بعينك منه علشان تحفظه، أما الفازتين اللي جنب بعض دول، الكبيرة شنايدر ألماني والصغيرة إيميل جاليه برضه.

- لكن أنا حاسس إن الصغيرة موش أصلية يا مايسترو.

- تبقى لسه ما تعرفش ميخاليدس كويس، عمره ما يعرض حاجة فالصو أبدًا، كل شغله أصلي.

دخولنا لصالة ميخاليدس صاحبه صمت الترقب، ثم سَرَت همهمة قابلتها بلا مبالاة، فهمت أن الزبائن تعرفوا عليَّ، رُحت أقرأ إعجاب المزايدين وانبهارهم على ملامح أورفانيللي الصغير وفي عيونهم، الكل يترقب القطعة التي سوف أزايد عليها، البعض يُخمن ولا شك ويُراهن على اختياراتي ويُعيد حساباته بناءً عليها.

وضعت ساقًا فوق أخرى، أشعلت سيجارة متأملًا ملامح الخواجة ميخاليدس التي تقلبت كبحر الإسكندرية وقت النوة منذ دخولنا الصالة، على يسارنا يجلس سعد كروان وفقًا لاتفاقي معه لكننا لم نصافحه، أشار ميخاليدس لأحد رجاله فجلس بجوار كروان ليراقبه، الصالة لم تكن مزدحمة كصالتي، فآثرت المتابعة في صمت.

اعتلى ميخاليدس منصته ليبدأ المزاد ممسكًا بالعصا، ابنته هيلينا التي تساعده في الصالة تقف بجواره صامتة، ترمقنا بضيقٍ مثل أبيها. مضت الدقائق الأولى بغير حافز على المشاركة حتى ظهر عود خشبي قديم، قدرتُ عمره بخمسين عامًا رغم أن ميخاليدس أضاف له عشرًا أخرى من عنده. افتتح المزاد بعشرين جنيهًا، وصل السعر لأربعين بعد دقائق قليلة، لاحظت أن الزبائن تنظر لي أولًا فابتسمت ابتسامة باهتة لم تدُم، ارتفع السعر بعدها لكن بجنيهات قليلة بسبب ملامحي المحايدة. ابتسامتي كانت مستفزة لميخاليدس فارتبك قليلًا وهو يدير المزاد، عندما وصل السعر إلى مائة جنيه نهضت ثم جلست ثانية، بدَّلت من وضع ساقَيَّ، ارتفع السعر خمسون جنيهًا بعدها مرة واحدة!

أوقف ميخاليدس المزاد معلنًا أن السعر غير حقيقي ومبالغ فيه، قرر استراحة عشر دقائق يتم بعدها إعادة المزايدة على العود الخشبي، شعرت بزهو الانتصار، الأمانة المفرطة هي نقطة ضعف الخواجة اليوناني العجوز ولا شيء غيرها، لن يبيع العود بهذا السعر المرتفع ليخسر سمعته بعدها. اقتربت منَّا هيلينا وأبلغتنا بضيقٍ أن الخواجة

يريدنا بغرفة المكتب لتناول القهوة، قبل أن نجلس انفجر ميخاليدس في وجهي زاعقًا:

- يظهر موش ناوي تجيبها لبر يا تركي، أنت جاي تبوظ المزاد والا إيه؟ أنا ممكن أمنعك وبالقانون.

بدأت تقليم أظافري بقصّافةٍ صغيرةٍ وقلت ببرودٍ دون أن أنظر إليه:

- أصل الولد بيتعلم عود اليومين دول، وعرفت إن الحتة دي حلوة سعرها مناسب قلت آجي أشوفها يمكن تبقى من نصيبنا، أو نرفع سعرها ويبقى حلال عليك العمولة وأهو حصل وألف مبروك، لكن ألا قول لي يا خواجة هو القانون اتغير وبقى بيمنعني أحضر مزادات والا إيه؟

زفر ميخاليدس بضيقٍ شديدٍ وبرطم بالجريجي فلم نفهم ما سبّنا به بالتأكيد، ثم قال:

- مبروك عليك العود يا منصور، اعتبره هدية مني لأورفانيللي الصغير، أهو يبقى عازف فاشل أحسن ما يتعلم الصنعة بتاعتنا على إيدك ويطلع نصاب وحَلَنجي، بس ياريت ما أشوفش وشك تاني لأن القانون بيمنع حاجات كتير، يمكن لو البوليس عرفها حيبقى ليهم كلام تاني.

أنهى ميخاليدس اللقاء فجأة وتركنا بمفردنا في الغرفة، ثم سمعته يصيح معلنًا أن صاحب العود عدل عن البيع فتم استبعاده من المزاد،

بدأ ميخاليدس بعدها ينادي على فازة كبيرة مفندًا مواصفاتها، وجدت أورفانيللي الصغير يغمز لي بعينه، التفتُّ خلفي فوجدت أحد رجال ميخاليدس يُريني العود قبل وضعه في جراب جلدي كبير مبطنًا من أطرافه. حملنا العود وغادرنا من الباب الخلفي مُشيَّعين بنظرات الغضب من ابنته، في اللحظة ذاتها كان ميخاليدس ينادي من بعيد على آلة موسيقية جديدة، التفتُّ لأورفانيللي الصغير وأنا أقول:

- إيه رأيك موش محتاج بيانو عزف عليه إمبراطور النمسا بالمرة قبل ما نمشي؟

علت ضحكاتنا حتى غطَّت على صياح ميخاليدس وهو يقول.. آلا تريه.



2/12

أشعر بالاغتراب بصالتي، يغمرني إحساس بأن كل مَن حولي خائنون، أستعيد كلمات أمي وهي على فراش الموت.. لا تثق في حياتك إلا باثنين.. الله.. ومرآتك التي ترى وجهك فيها كل صباح، هما مَن يمنحانك الأمل كي تعيش قويًّا لآخر عمرك.

ظلت بهيرة تتواجد كل يوم تقريبًا في الصالة رغم ظهور أعراض الحمل عليها بوضوح، بعدما أبلغها صاحب الخطابات الحمراء بمكان

الجارسونيرة وفضح علاقتي بروحية فهبطت عليها في غارة مفاجئة مع بلطجية جلبهم لها عزيز أرقش من خلف ظهري لكنها لم تؤذها، اكتفت بهيرة بطرد روحية من الشقة بعدما تأكدت من عدم وجود عقد زواج بيننا، أو طفل في الطريق قد يزاحم ما يرقد ببطنها مني في ميراثي بعد عُمر قصير كما تتوهم.

كلفتني صالة «أورفانيللي ومنصور» عشرين ألفًا لإحيائها من جديد، نصفها سدَّده أرقش، وتحمَّلت بهيرة النصف الثاني، لكني قدَّمت لهما فواتير تُفيد بأن التكلفة أربعون ألفًا حتى أحصل على نصيب الأسد وحق الإدارة. لم أدفع مليمًا من جيبي ولن يكشفا حيلتي، يكفي أنهما يشاركان منصور التركي، هذا شرف لا يستحقانه، كنت محتاجًا لهما وما زلت، لكنه احتياج إلى حين.

طردتُ بهيرة وأرقش من رأسي مؤقتًا وعُدت لهوايتي الأثيرة التي لن أملَّ منها حتى أموت.. تأمُّل الزبائن، غريزة الاقتناء عند جامعي التحف والمترددين على صالات المزاد مثلها مثل غريزة الجوع، تجعلك تأكل أي شيء لو تم تجويعك، المهم كيف تجعل الزبون جائعًا، لا بد أن يأكل بعينيه أولًا ليجوع أكثر، عيونهم هي التي تدفعهم دفعًا للشراء بأي سعر، بعدها يضعون أيديهم في جيوبهم. عليك أن تثير غريزتهم بصورة صحيحة وقت المعاينة، ليصبح الزبون طوع يدك طوال المزاد، النداء الأول «آلا أونا» أشبه بكلمة أحبك التي يهمس بها العاشقون لأول مرة، ثم يكفي أن تُلقي له نظرة لوم أثناء النداء الثاني.. «آلا دوي».. كأنك تُعاتبه على ترك حبيبته التي قد تذهب لغيره لو

نطقت أنا كلمتي الأخيرة.. «آلا تري».. استخدمت هذه الطريقة كثيرًا مع هؤلاء المهاويس على مدار سنوات طويلة، ولم يخذلني أحد منهم حتى اليوم.

***

- قول لهارون يجيلي على المكتب، وما تخليش حد يدخل علينا.

برقت عينا أورفانيللي الصغير، بدا منزعجًا من نبرتي الحادة الصارمة لكنه هرع لتنفيذ ما طلبته، ما إن دخل هارون مكتبي وأغلق الباب خلفه حتى طلبت منه تدبير شقة جديدة لروحية ثم همست له بهواجسي في أورفانيللي الصغير وعلاقته الخفية بخاله يوسف حسني، رغم أنني خُدعت بدموع التماسيح التي ذرفها في حديقة عدس، إلا أن استمرار الخطابات الحمراء أعاد بوصلة الشك ناحيته وحده، استمع هارون بهدوءٍ ثم نفذ لقلبي بخفة، حاول أن يُميل دفته لصالح الفتى الذي يتفانى لإرضائي، ذكّرني بأشياء كثيرة جلبها لي أورفانيللي الصغير من صالات أخرى، قطع نادرة كنت أبحث عنها ولا أجدها ودلّني هو عليها، لو كان خائنًا لما اهتم بإحضارها.. نبهني إلى أن أورفانيللي الصغير نفسه يشك في خاله وقالها صريحة فماذا أريد منه أكثر من ذلك. سكت هارون وانتظر رد فعلي.

أشعلتُ سيجارة حرقتُ ثلثها في نفسٍ طويل، ثم قلت وأنا أطفئها بعصبية:

- صحيح أورفانيللي هو ابني اللي ماخلفتوش، لكن فيه حاجة في كلامه عن خاله يوسف لسه موش مريَّحاني ولازم أقطع الشك باليقين، من الليلة توضب رجالة ثقة، عاوز تلاتة يمشوا ورايا، يقطروني منين ما أروح والا آجي، يشوفوا مين بيوصل لي الجوابات ولو ظهر إنه خاله عن طريقه، يبقى نقوله البقية في حياتك.

حاول هارون بعدها أن يجعل الدفة تميل ناحية سعد كروان لكنني لم أقتنع، فمهما بلغت خِسَّة كروان وشراهته للمال فلن تُفقده ذكاءه وخبثه، ولو باعني لا بد وأن تكون الصفقة رابحة بالزيادة. والزيادة هنا أن يحل محلي بالصالة وهو ما يدرك جيدًا أنه لن يتحقق أبدًا لا في أحلامه ولا حتى في أسوأ كوابيسي.

***

كررت ما فعلته مع ميخاليدس ثلاث مرات بعدها، لم أحصل منه على قطع أخرى بذات الطريقة، لكني زايدت كل مرة على قطعة لحساب زبون من زبائني، أو كنَّا نشتريها لحسابنا باسم أحد أقارب كروان أو هارون مثلما اعتدنا. إذا كانت القطعة تهمني خسفت بقيمتها الأرض، فالمترددون على الصالات يعرفونني، يصدقونني، يقرؤون ما أعرضه لهم على ملامحي بسهولة وأنا أتعمَّد أن تكون رسائلي واضحة. أما إذا كانت القطعة عادية فأُظهر اهتمامًا قليلًا بها ليرتفع سعرها إلى حد معقول كي يسكت ميخاليدس راضيًا ولا يشتكينا، أو يوقف المزاد بسبب المغالاة في سعر التقدير بسبب تورم أمانته.

بعنـا ما جلبناه من صالته بضعـف الثمن، أخذت حقي ممَّا فعله هو والضمرانـي مـن قبل ورضيت، ثـم صار الجميع يرتعـد لو مررت من الشارع الذي تقع صالاتهم به. الرسالة وصلت وأنا اكتفيت.

يـوم الجمعـة قبل الصـلاة من الأوقـات الهادئـة أو الميتة بالنسـبة لصـالات المزاد، تبدو مهجـورة من خارجها كأن أحـدًا لم يقربها منذ شهور طويلة، بينما في داخلها يجري العمل على قدمٍ وساق، بعد أيام قليلة ستجري المعاينة النهائية لمزاد ضخم نستعيد به الصدارة، تتخطى قطعه المعروضة حاجز العشـرين ألف جنيه لأول مرة، سـأعوض كل شيءٍ بسـرعة لأفض هذه الشراكة اللعينة مع أرقش وبهيرة، وأطردهما من حياتي كلها.

حدَّدنا لإجراء المزاد يوم 26 يوليو، علَّقنا اللافتة ونزلت الإعلانات بالجرائـد قبلها بأسـبوع، الـكل يعمل بهمَّة، توليت تدويـن بيانات كل قطعـة بالتفصيل على بطاقات العرض ثم بالدفتر الذي كان أورفانيللي الصغير ممسكًا به، فاردًا إياه أمامي، بينما تولَّى العمال رصَّ القطع في الأماكن التي حدَّدها لهم عزيز أرقش قبلها بيومين، تاركًا مساحة كبيرة خالية أقصى اليسـار دون أن يُفصح لهم عن السـبب لمَّا استفسروا منه عنه، لكني فهمت مقصده وأعجبتني فكرته.

عمَّال آخرون يلمعون قطعًا برونزية، بعض صبيان المدرسة الزخرفية يُرممـون منضدة خشـبية بغِراء، تولَّـى هارون تحديد نسـبة تركيزه كي لا يَفسـد الخشـب الأصلي ليظهر الترميم وكأنه عيب قديم وليس كسرًا

واضحًا أصلحناه. كل نصف ساعة أذهب للمخزن الخلفي، أُتابع مع العمالة اليونانية التي جلبها أرقش تثبيت مادة «الباتينة» على تماثيل من البرونز وتلميعها، لا أحد يعرف سرَّها مثلي في بر مصر كلها، الغالبية تستخدم «التوتيا» لأنها أرخص وتخدع الزبائن العادية، لكني حريص على تقديم أفضل ما عندي حتى ولو لم تكن القطعة أصلية.

في مهنتنا لا بد وأن نفعل كل ما نقوله لأن الزبون يشتري نتيجة.. لا خدمة، يُزايد على قطع قد لا يكون في حاجة إليها لكنه الآن في حالة نفسية معينة، أنا الذي هيأته لها ووضعته فيها، ولو أفاق من سكرته سيغادر الصالة فجأة ولن يشتري وربما لا يعود. أنا أقول ما أريد لكن بمنطق، أدوِّن ما يعنُّ لي ببطاقة الوصف إنما بمقدار، أقدم القطعة بالصورة التي أتخيلها بلا شطط، والزبون يقتنع أنها أصلية دائمًا، يكفي أنها من صالة «أورفانيللي ومنصور» لتكون كذلك.

جلس الخواجة «فاسيلوبولو» بجوار مكتبي على كرسي خشبي، زارنا فجأة بلا مقدمات، راح يهز منشة كبيرة متأففًا من ذبابة تطارده وتستقر على أرنبة أنفه كل برهة كأنها موطنها الأصلي، فيلعنها وهو يرطن، طلب فنجانًا من القهوة وهو يدق بعصاه على خشب أرضية الصالة سائلًا بتهكم:

- أنت سايب مساحة كبيرة ليه على شمالك يا منصور؟ ما كنتم أولى تحطوا فيها كراسي للناس ترتاح عليها.

أجابه أرقش دون أن يلتفت له والسيجارة تتدلى من بين شفتيه:

- المعاينـة اللي اتحـدد لها بكرة 23 حيحضرهـا صحفيين من كل الجرايد والوكالات الأجنبية، والمكان الفاضي علشـان يقفوا يصوروا منه لأنها أحسن زاوية للتصوير في الصالة، ولما الصور تغرق الجرايد، تاني يوم الناس كلها تيجي المزاد، وساعتها نحط كراسي يا خواجة زي ما أنت عاوز، يمين وشمال وفي الشارع كمان.

قبيـل فجـر 23 يوليـو كان العمل بالصالة قد أوشـك علـى الانتهاء تقريبًا إلا من بعض الإداريات التي يسجلها سعد كروان بالدفاتر، ارتاح العمال على الأرض بعدما أحضر لهم عزيز أرقش سندوتشات خفيفة مـن منزلـه، وقـف أورفانيللـي الصغير بالقـرب مني وقد بـدا مجهدًا، رحت أضبط ياقة قميصه وأسـوي خصلات شـعره، سأجعله مختلفًا، متفردًا، الوحيد الذي سـمحت لهارون بتدريبه، صناعة يدي كما نقول، ليس الآن إنما بعدما تثبت براءته لأستريح، ربَّت كتفه قائلًا:

- أنـت كبـرت ماشـاء اللـه وبقيت 16 سـنة ونـص يـا خواجة ولو إن شـكلك أكبـر من سـنك زي أبـوك، يوم المـزاد عـاوزك تلبس بدلة إنجليزي جديدة مقلمة بصفين وتدهن شعرك بالفازلين وتقف تناولني شخصيًّا.. استابينا؟

- استابينا يا مايسترو.

أخرجـت حافظـة نقـودي، منحتـه عشـرين جنيهًا لـزوم الملابس المطلوبة، ابتسـم ووضعها في جيبه، لاحظت أن ابتسـامته غائمة، قبل أن أسـأله عمَّـا يضايقـه دقَّ جرس التليفـون على مكتبـي، ارتبكنا، مَن الذي سيتصل بنا فجرًا في الصالة؟!

الأقـرب للهاتـف كان عزيـز أرقش، رفع السـماعة وفمه محشـور بالطعام، راح يبتلعـه بصعوبة ليرد على المتصل، فجأة تبدَّلت ملامحه وتوقف مضغه ثم قال لمحدثه باستغرابٍ كبير:

- معقـول بالسـرعة دي؟! والكلام ده حصل إمتـى؟ طيب طمنونا الحالة إيه دلوقتي!

التفـت عزيز أرقش بجسـده بسـرعةٍ خافضًا سـماعة الهاتف قرب ركبتيه، وراح يبحث عني بعينين مندهشتين.



2/13

صورهـم تتصـدر صفحـات الجريـدة أمامـي، مجتمعـون في مقر القيادة، يحتسـون الشـاي في حديقة، يُصلُّون في جماعة، أو مكدسون كما هو الحال الآن داخل سيارة مكشوفة تقطع الكورنيش ببطءٍ متعمَّد، وإلا لماذا استغرقوا ثلاث ساعات به يُحيُّون الجماهير كما كتب محرر الخبر، الذي أضاف من خياله أن مصر كلها كانت تُصفِّق لهم بحماسٍ كأنها تعرفهم من قبل، أو كما قال عزيز أرقش مفسرًا بنبرة حكيم:

- لأنهـم شـبههم وحاسـين إنهـم منهـم، ظبـاط مصريـن عاديين يا منصور، مش أجانب ملونين زي فاروق والإنجليز.

طويت الجريدة شـاردًا واضعًا رأسـي بين كفَّـي، مصوبًا عينَيَّ نحو مدخل الصالة المكدس بعشرات التحف التي لم نبِع منها قطعة، فجأة

نهضت وهرولـت وأغلقت الباب بإحكام، رفعـت صورة فاروق التي يتوسـطنا فيها أنا وأورفانيللي وابتسامتنا معه تكاد تصل لأذنينا، ناديت علـى كـروان وطلبت منه تغليفها جيـدًا ووضعها بسـيارتي كي أعلقها بمنزلي.

عـاد طائر القلق محلقًـا لا يريد أن يحط على أرض، ولا يرغب في الرفرفة بعيدًا عن رأسي مكتفيًا بنقرها كل حين، أشعلت سيجارة رابعة وسُحب الضيـق تتداخل مع دخانها الكثيف، إعـلان الأحكام العرفية أدى لتوقف نشـاطنا، ولا نعرف إلى متى سنظل مجمَّدين. كنَّا بالأمس نسـخر من فاروق وناريمـان، قُلنا إنها جلبت له النحـس مع ولده أمير الصـعيـد أحمـد فؤاد، ها هي بهيرة فعلتها فجر يـوم 23 يوليو، وأنجبت لي ولدًا بعد سـبعة أشـهر فقط مـن الحمل، أتاني النحـس راكبًا جملًا ضخمًا. بعدما تلقيت النبأ وضعـت سماعة الهاتف، ثم أذاعوا البيان في السـابعة صباحًا، الجيش قام بحركة تطهير، تولوا مقاليد الأمور ونحن نيام، ألغينا المزاد الكبير الذي كان مقررًا له يوم السـادس والعشرين من الشـهر ذاته ممَّا سـبب لنا خسـارة فادحة، تصادف أنه اليوم نفسه الذي طُرد فيه فاروق من مصر، مستسلمًا ببساطة تثير الدهشة، كأنما يوافقهم على فساده ويُقرعم على طرده.

ثلاثة أيام فقط انتهى فيها كل شيء، والله لو كانوا سيحتلون الصالة لاحتاجوا وقتًا أطول.

ذهبـت إلى المستشـفى لزيارة بهيرة، الطفل لا يـزال يحتاج لرعاية صحيـة خاصـة لكنهـم لم يشـخصوا الحالة تمامًـا بعد، لم أكـن فرحًا

بقدومه بما يكفي، ولم أختَر له اسمًا بعد، تلك مصيبة ثانية، لا أريد أن تربطني ببهيرة أية ذيول، كنت أنوي التخلص منها وإسقاط حملها لكني جبنت وتغاضيت لمشاركتها، الآن أنا مقيد بطوق سميك حول رقبتي، لا يزال ضيقًا، يخنقني ولا أعرف كيف أجعله يتسع كي أخلعه بسهولة.

اقترب مني سعد كروان وأنا جالس ببوفيه المستشفى، وضع أمامي كوب شاي قائلًا بمودة:

– يمكن ربنا عصمنا من مصيبة كانت حتحصل في المزاد.. قول الحمد لله، وإن شاء الله البلد ترجع بعد يومين على حالها، يعني هي أول مرة الإنجليز يشيلوا ملك ويجيبوا غيره، مين عارف ما يمكن أحمد فؤاد يبقى أجدع من أبوه لما يكبر!

– موت يا حمار ده لسه بيرضع، لكن على قولك طالما ربنا عصمنا من مصيبة يبقى نسمِّي المولود عاصم.. عاصم منصور التركي. إيه رأيك؟

قلتها بسخرية، لكن كروان فاجأني بالرد:

– اسم باشواتي يا مايسترو، قوم فرَّح الست بهيرة وأنا حاطلع على مكتب الصحة أعمل له شهادة الميلاد.

غادرت المستشفى في طريقي للصالة، قبل أن أركب سيارتي وجدت على ماسحة زجاجها ظرفًا أحمر صغيرًا، لا أعرف لماذا خطر في بالي سعد كروان على الفور، لا بد وأنه يتلاعب بي وأورفانيللي

الصغيـر بـريء، لكنـي لأول مرة أبتسـم لرؤيـة الخطاب، شـعرت أن خوفـي زال فجـأة من شـبح يوسـف، رحـل الملـك ولا بـد أن بوللي وحسن الكردي معه الآن على ظهر يخت المحروسة، لن يصدق أحد يوسف حسني، ولن يهتموا بحكاياته وكلامه وخطاباته الحمراء. لكن بمجرد أن قرأت سـطور الرسالة أصابني الجزع ومسَّني الخوف. كتب يوسف هذه المرة يقول:

«الكراسـي تبدَّلت، والجالسـون عليهـا الآن لا يهمهم أمثالك، لن يحموك وسـيبحثوا عن الفضائح، يدي سـتطولك مـن أي مكان، أنت ومولودك الجديد وأموالك التي هرَّبتها مع ألبير مزراحي».

***

- لونها أسود وصغيرة..

قال الشهود إنها سيارة ماركة ستروين، سكت كروان قليلًا ثم شرح لي كيف تضاربت أقوالهم بشأن وصفها ورقمها فلم يصل قلم المرور إليها، الحادث وقع ليلًا، ومصابيح الإنارة بالشارع كانت محطمة قبلها بيوم واحد فقط، فقُيِّد الحادث ضد مجهول.

فجعـت في مـوت ألبير مزراحي بعد خروجه من السـجن بأقل من شـهر، صدمته سـيارة مجهولة أثنـاء عبوره الطريق فمـات على الفور، مـات ودُفنت معـه أموالي وورقـة التفويـض بالتصرف فيها، شـعرت يومها أن عربة الغدر صدمتني في مقتل. رحل ألبير قبل أن يحول مليمًا إلـى بيـروت كما طلبت منـه، ماطل ورفض زيارتي له بالسـجن بعدها

عدة مرات، خمسون ألفًا طارت في الهواء بخلاف أرباحها المنتظرة، استقرت في حساب سري بباريس كأنه مرقدها الأخير، لا أحد يعرف مكانها ولا ورثة سيطالبون بها لأني لم أخبر أحدًا حتى الآن، لكن ما زال لديَّ خيط يمكنني جذبه.

عرفت بهيرة من الخطابات الحمراء التي تصلها بالتوازي معي بأمر تهريب أموالي، فصمَّمت على زيادة نصيبها بصالة المزاد، أما عزيز أرقش الذي خشي غدر الحكام الجدد لمصر فقد طالبني بنصيبه وأرباحه ليخرج من الصالة، المصائب تُحلِّق فوق رأسي كغربان الشؤم، تنعق وهي تدور في حلقات، تنتظر فقط وقوعي لتنهش من لحمي نسائر رفيعة وتزيدني ألمًا.



2/14

أسير عصر كل يوم في نزهة على الأقدام للتخلص من القلق، لديَّ قليل من الأمل بظهور شبح يوسف فيلتقطه رجال هارون الذين يتابعوني، وما بين قلقي وأملي أتأمل القاهرة الجديدة التي تحيرني، أشعر أن المجتمع تبدَّل كأنه كان على موعد مع التغيير وينتظره بشغف، فلما أتى ألقى بنفسه في أحضانه بغير تفكير. الوجوه بالشوارع سعيدة رغم رحيل الملك وتعيين الرضيع أحمد فؤاد على العرش. لكن زبائني وجيراني في جاردن سيتي لهم رأي آخر، متشائمون، قلقون،

لـم يرحبوا بعد بالضبـاط ولا يجهرون بعداوتهـم ولا يزالون متوقعين الأسوأ.

صدق أفضل المتشـائمين، فبعد شهور قليلة أعلنوا مصر جمهورية بدلًا من مملكة مثل جنين مبتسـر محكوم عليه بالموت، مددت شفتَيَّ ممتعضًا، نحن فيما يبدو على موعد مع التعاسـة، لكن لا أحد يوافقني علـى كلامـي إلا زبائنـي القدامـى، وما أقلهـم. علمت من كـروان أن بوللي بقي في مصر مجبرًا، تحوَّل من مُرشد ملذات للملك إلى مُرشد للضبـاط الأحرار عن فسـاد فـاروق، والأغرب أنهم صدقـوه وأعطوه الأمـان، كشـف لهم كل الأسـرار أو كما قال كروان.. «شـاهد ملك». أعجبنـي وصفه وأقلقنـي في الوقت ذاتـه، مؤكد بوللي سـيُطلق لجام لسانه حتى يطولني مع آخرين.

انقطعـت عنـي أخبار الكـردي وأنهـى أورفانيللي الصغير دراسـته وحصل على الثانوية العامة كما أسموها، أشياء كثيرة تغيرت مسمياتها، شـوارع وميادين وضعـوا عليها أسـماءهم ومسـميات حركتهم، مبانٍ قديمـة شـوَّهوا واجهاتهـا الخديويـة المميـزة بلافتات قبيحـة، قصور وفيلات أشبه بمتاحف مصغرة استولوا عليها بالكامل. تذكرت كلمات زبوني الباشـا وزيـر الداخلية الوفدي في عهد فاروق قبل أن يحبسـوه بأيام قليلة بعد قيام الثورة عندما لخَّص لي الحكاية كلها، «ورثوا مصر كلهـا قرب مطلع الفجر ونحن نيام». حتى عَلَم البلاد الذي حاربوا في الفالوجـا وهـم يرفعونه.. بدَّلوه. حكى لي سـفيرنا في واشـنطون وهو أحد كبار زبائني أنه بكى يوم إنزال العلم الأخضر ذي الهلال والنجوم

الثلاثة من فوق السفارة، استبدلوا به العلم الجديد ذا الألوان الثلاث، انتحب صوته وهو يقول:

- حسّيت أن حِتّة منّي بتتشال، حياتي بتنطوي وصفحة خضرا بتقلب، سابولنا حتة سودة في العلم الجديد وقالوا عنّا عهد بائد، ناويين يعايرونا طول عمرنا لأننا خدمنا مع الملك، والله يا منصور بيه حسيت أني قربت أموت وعاوز أسيب وصية أنهم يلفوني بالعلم الأخضر قبل ما يبقى أنتيكة ويبيعوه في المزادات.

استرسل السفير وهو ينتحب متحسرًا على زمن الباشوات والبهوات الذي راح، وكيف صرنا جميعًا أفندية، تسبق أسماءنا كلمة السيد، سيد على مَن، لا نعرف، المهم أننا أسياد وعلينا أن نصدق الكذبة.

اختتم صديقي السفير السابق كلامه وهو يزم شفتيه رافعًا كتفيه في يأس، أما أنا فلا أظنها ستستمر بغير عبيد.

***

جلست وحيدًا في حديقة جروبي القريبة من المعبد اليهودي، شاردًا في الورقة التي وقعتُها لمزراحي قبل وفاته، نادمًا على أفعالي العاطفية، مددت ساقَيّ مسترخيًا على مقعد صغير محاولًا إراحة أعصابي المنهكة، أستمتع بعصير الليمون المخلوط بالصودا وأتصفح الجرائد بغير اهتمام، من بعيد لمحت الريس هارون يدخل الحديقة مهرولًا، يبحث عني بلهفةٍ لاهثًا، اعتدلت في جلستي قلقًا ولوحت له، اقترب مسرعًا وقال:

- 4711 أجرة مصر.

رددت ساخرًا:

- اشمعنى..!

أردف بجدية:

- نمرة العربية اللي بتمشي وراك، فيها راكب واحد مش بينزل منها عادة، ومن شوية كلِّمني واحد من رجالتنا في الصالة وبلَّغني إنك وصلت هنا والعربية الأجرة واقفة برة قاطراك، أنا شفتها وأنا داخل.

- يوسف حسني فيها؟!

- مش عارف لأن السواق وشه مش باين، لابس كاب ونضارة سودا ومتلفع بكوفية والراجل اللي كان راكب معاه نزل وركب الترمواي فجأة، ورجالتي مالحقتش تحصله لكن السواق تحت عينيهم ومنتظرين أوامرك.

خرجنا مسرعين والجارسون خلفنا لاهثًا يطالبني بالفاتورة، أشار هارون إلى سيارة ستروين أجرة مصر تقف على يسار الطريق تُشبه سيارة أورفانيللي التي باعتها ليلى بعد وفاته، ما إن اقتربنا منها حتى دارت مزمجرة وابتعدت.

«مؤكد رآنا في مرآة السيارة».. ردَّد هارون.

دوَّنت الرقم وشعرت لأول مرة أن يوسف حسني صار قريبًا جدًّا مني.

***

قلبت باهتمام صفحات الجريدة التي تحمل خبر تفجير جديد في سينما مترو بقلب القاهرة، ثالث تفجير تقوم به جماعات يهودية مجهولة بعد مكتب بريد الإسكندرية ومحطة سكك حديد مصر، قرأت أقوال الشهود بالتفصيل، وضعت خطوطًا بالقلم تحت بعضها، ثم انتبهت على صياح الحاجب وهو يدق بكعبيه زاعقًا:

- محكمة..

جلسنا لمَّا استراح القضاة الثلاثة على مقاعدهم، تلك هي الجلسة الثانية في القضية التي رفعتها بهيرة ضدي، أما عزيز أرقش فقد اكتفى بمغادرة البلاد مطرودًا مع عشرات اليهود من مصر بعدما تنازل لي عن نصيبه بالصالة مجبرًا.

ألف جنيه فقط كانت قيمة مشاركته التي سجَّلناها بمصلحة الشركات والضرائب بعدما زوَّرنا أوراق نصيبه بالصالة دون علمه، أبلغت عنه اللجنة العامة لشئون اليهود التي شكَّلوها مؤخرًا، سلَّمتهم صورة من نصيبه بالسجل التجاري فخيروه ما بين التنازل عنها لصالحي أو مصادرتها، ظل عزيز أرقش يضرب كفًّا بأخرى حتى مغادرته ميناء الإسكندرية ولا يدري كيف تم خداعه.

هارون بالنسبة لي جزء مني، بدونه أصير معوقًا، أيضًا هو عقلي في بعض الأحيان وضميري في أحيان أخرى، ومرشدي في كل وقت، أما كروان فهو يدي التي تُنفِّذ ما يدور برأسي، أخبرني هارون بنقاط ضعف أرقش بالتفصيل، تكمُن كلها في تغييره لديانته، وتزويره لبطاقته

الشخصية أكثر من مرة بسبب خوفه المبالغ فيه من رجال السلطة، فهو يهودي الديانة لكنه منذ تفجيرات اليهود غيَّر بطاقته وكتب بخانة الديانة «قبطي»، شاركني ببطاقته الأصلية ثم أشهر إسلامه بعدها ليتزوج من سيدة ثرية، ثم طلَّقها بعدما استولى على أموالها وعاد لديانته اليهودية وتزوج من فرنسية وأنجب منها طفلة عمرها ست سنوات الآن، صحيح لا مِلَّة له كما وصفه كروان من قبل.

ادَّخرت المعلومات كلها لهذا اليوم، هدَّدت أرقش أولًا بفضحه والإبلاغ عنه، صمت ولم يُجادل، بدا غير مكترث حتى وجد نصيبه ألف جنيه فقط لا غير رغم أنه دفع آلاف الجنيهات، ثار وعلا صوته، أشهرتُ صورة المستندات فغطَّت وجهه، ابتلع لسانه حتى لا يُحبَس بتهمة التزوير في أوراق رسمية، قبل أن يُغادر الصالة التفت نحوي وهو يتقصع في وقفته بصورة غريبة عنه لم أعهدها فيه من قبل قائلًا:

- طول ما أنت طبال وأنا زمار حتجمعنا الموالد يا منصور.

بعث لي التنازل عن نصيبه مكتوبًا بخطٍّ يده كما اشترطت عليه مع كروان، ثم غادر بعدها إلى فرنسا بتأشيرة خروج بلا عودة، شأن غالبية يهود مصر من أصحاب رؤوس الأموال. ما جرى لعزيز أرقش سرى على بهيرة زوجتي بالطبع، القيمة ذاتها مسجلة كنصيبها بالصالة، فقط ألف جنيه مصري بدلًا من عشرة آلاف جنيه دفعتها بهيرة بالفعل، لكنها لم تستسلم مثل أرقش، قررت أن تنتزع حقها مني عن طريق النيابة ثم المحكمة. هددت بفضحي، ثم حرماني من طفلي، وأخيرًا قتلي، لم

أُعرهـا اهتمامًا، فالثعبان لا يزأر أو يعـوي مثل غيره قبل أن يلدغ، فقط يفعلها في صمتٍ ثم يُطلق فحيحه بعدها إعلانًا لانتصاره، بهيرة أجبن من أن تفعلها، لا لشـيءٍ سوى الحفاظ على صورتها الاجتماعية أمام طبقتها الأرستقراطية، فأنا سأظل أبًا لطفلها إلى الأبد.

لست نادمًا على خداعهما، خسرت أموالي كلها عند ألبير مزراحي، ولا بد أن الله عوضني بهذه الطريقة كي أتخلص من عزيز أرقش وبهيرة بضربةٍ واحدة. طلقتها منذ ثلاثة أيام غيابيًّا، أرسلت ورقة الطلاق على بيـت أمها، وعرفت من بعـض صديقاتها أنها بكت بـكاءً مريرًا يومها، لم أفهم سـبب البكاء لكنه أرضى غروري. لجأت بهيرة كلبؤة جريحة للمحكمـة تطالب بالعشـرة آلاف جنيـه نصيبها في الصالـة، وتتهمني بالتزوير في أوراق رسمية، حسنًا لنرى لمَن الغلبة اليوم يا بهيرة!



2/15

طرق بابي طارق غريب في صباح مبكر، وجدت رجلًا يرتدي بدلة صيفيـة صفراء فاتحة بأزرار نحاسـية باهتة لا تسـر الناظرين، سـلمني ورقة ووقعت على بياض بعدما التحف بالخرس في مواجهة أسئلتي، قـرأت الورقـة بعـد انصرافـه فوجدتهـا تحمـل كل عبـارات التهديـد والوعيـد إذا مـا تخلفت عـن الحضور أو حاولت عرقلة سـير العدالة، مع أنني المجني عليه ومطلوب لسـماع شـهادتي غدًا. كنت هناك قبل

الساعة الثامنة إفرنجي، موعد التكليف الرسمي الصباحي المطبوع، لكني أمضيت ساعات طويلة رهين حراسة الخوف حتى لا يحملني الملل على الفرار، إلى أن أتى دوري لمَّا نودي على الشهود، اقتربت من المنصة، وعيني على بهيرة وأخرى على القاضي.

- قول والله العظيم أقول الحق.

وقفت في مواجهة القاضي واضعًا يدَيَّ أمامي في خشوع، مرددًا اليمين بصوتٍ خفيض، سألني عن قيمة مشاركتها للمرة الثانية، فأكدت له أنها المثبتة بالسجل التجاري والمسجلة بالشهر العقاري، ألف جنيه فقط لا غير، تدخل المحامي طالبًا تعويضًا مؤقتًا من بهيرة لتشهيرها بي والزج باسمي في قضايا ملفقة، متهمًا إياها بأنها التي زوَّرت العقد الذي بين يديها بتقليد توقيعي ثم إضافة صفر للرقم المثبت به، فصار عشرة آلاف بدلًا من ألف.

ابتسمت بهيرة بتحدٍّ، واثقة بالطبع من أنني الذي زوَّرت، لم تفلح ابتسامة التحدي التي صدَّرتها في إخفاء نظرة شجن وراءها تختبئ على استحياء، تستدعي ذكريات ولو قليلة لأيام عاشتها معي كانت سعيدة فيها، هكذا ظننت، لكن نظراتها لم تؤثر فيَّ، لم تزحزحني خطوة واحدة عن طريقي. تذكرت في اللحظة ذاتها نظرات روحية الحنون التي تروي ظمأ مشاعري بسرعةٍ كلما احتوتني بعينيها، قبل أن ترتمي بأحضاني وتتمسح فيَّ كما القطة عندما أفرغ منها، لا بد وأن بهيرة حزينة على نفسها، تؤلمها كبرياؤها التي انكسرت، ولا شيء آخر.

صفع تقرير خبير التزييف والتزوير بهيرة بشـدة، جعلها تفيق على كابـوس ينتظرهـا بصبـر عندما عرفـت أن توقيعـي والرقـم المكتوبين بالحروف والأرقام ليسـا بخط يدي، وأن الصفر أُضيف لرقم ألف بعد كتابته بحوالي يومين على الأقل وكانت الورقة بحوزتها هي، وبقلم غير الذي كُتبت به العبارات كلها، لتصبح الحقيقة الآن أن لا شـيء يُنسـب لي سـوى توقيعـي الحقيقي على العقـد الذي معي بقيمة مشـاركتها.. ألـف جنيه فقـط لا غير، والباقي كله مـزور. لا أحد على وجه الأرض يمكنه تنفيذ رغباتي بدون مراجعة سـوى سـعد كـروان، هو الذي زوَّر توقيعـي، ووضـع الأصفار بعدها بعدة أيام، ثم سـجَّلنا نسـخة الشـهر العقاري والغرفة التجارية بألف جنيه فقط باعتبارها النسـخة الأصلية، ولما طلبت منَّا بهيرة نسخة ثانية عندما اكتشفت ضياع نسختها منها لما بدلناهـا في غفلة منهـا، أضاف كروان الأصفار مرة أخرى للرقم بخطه وقلد توقيعي، وكتب عبارة «عشرة آلاف جنيه» بيده اليسرى إمعانًا في التمويـه بعدما وضـع ورقة بيضاء علـى الرقم المزيـف لحجبه وكتب فوقه عشرة آلاف.

صارت بهيرة أمام القانون هي صاحبة المصلحة في تغيير الحقيقة، هي المتهمة بالتزوير مع شـخص آخر مجهول، والعدالة عمياء لا ترى إلا مـا دُوِّن بأوراقها. ظلت بهيرة تنظـر في وجوم نحوي، خُيِّل لي أنها تكلم نفسها وتبتسـم في بلاهة، فجأة وجدتها تترنح، لكنها لم تقوَ على المقاومة، صرخت بأنها مظلومة عدة مرات ثم سـقطت مغشـيًّا عليها،

فلم تسمع الحكم بحبسها سنة مع الشغل، وتغريمها بمبلغ ألف جنيه تعويضًا مؤقتًا لصالحي.

غادرت جراج المحكمة في سيارتي ومن بعيد لمحت عند خروجي بهيرة محمولة إلى عربة ترحيلات سجن القناطر، عويل وصرخات تنطلق عبر نوافذ ضيقة، تنتشر وتتواصل لتلفت أسماع الجميع قبل أنظارهم القلقة. وأنا وحدي أبتسم.

***

طلبت من السائق إيقاف السيارة بنهاية شارع محمد علي والبقاء فيها، ترجّلت مع كروان واثنين من عمال الصالة حتى مقهى قريب، جلسنا بركنٍ منزوٍ يسمح لنا برؤية مدخل بيت قديم بعدما تأكدنا من اختباء يوسف حسني به، عرفنا المكان بعد تتبع السيارة الستروين ذات اللوحات المزورة، رأيناه ينزل منها على ناصية الشارع يومين متتاليين ويدخل نفس البيت، راجعت مع كروان عدد الرجال الذين نشرهم بالشارع فأكد أنهم أربعة، اثنان منهم مسلحان.

بعد أكثر من ساعتين وصل يوسف حسني متخفيًا في ملابس بلدية، متلفعًا بكوفية صوفية طويلة سوداء تُخفي أغلب ملامحه، يسير مطرقًا وسرعان ما ابتلعه المدخل الضيق للبيت لكنني تعرفت عليه. اتصلت من المقهى بحكمدارية القاهرة، أبلغتهم بتواجد المجرم الهارب من البوليس في قضية تفجيرات حي اليهود، تاركًا لهم مساحة ليضيفوا من خيالهم دوره في تفجيرات عملية «سوزانا الجديدة» حسبما وصفتها الصحف ونسبتها ليهود مصريين وأجانب، يكفيني ذكر أن يوسف

حسني متهم مع جماعة الإخوان المسلمين وصدر ضده حكم غيابي بالإعدام. الإخوان هم كلمة السر هذه الأيام بعدما انقلب عليهم عبد الناصر، إذا ما أردت التنكيل بجارك، كل ما عليك أن تتقدم لأقرب مركز بوليس لتقول للضابط بنبرة العارف ببواطن الأمور «أنا شاكك إن جاري إخوان، اجتماعات قرب الفجر ومعاهم مصاحف ومنشورات وحلقوا دقونهم».

وضعت السماعة وعدت لمكاني متوترًا من تأخر وصول رجال البوليس، طمأنني كروان أن رجالنا سيعطلون يوسف حسني لو حاول الخروج قبل قدومهم، خشيت من استعمال رجالنا لسلاح ناري، لكن كروان قرأ أفكاري، أشار ناحية رجل نحيف بصورة ملحوظة، ملابسه رثة للغاية، تحُضك هيئته على الشفقة به مرغمًا، ثم قال:

– الواد شلتوت من صبيان فتوة الحطقة، جاهز ليوسف ومن غير دم ولا سلاح، زي ما سعادتك أمرت.

فجأة لمحنا أحد رجالنا يدخل المقهى مسرعًا، لم يتجه إلينا، وجهته كانت صوب الرجل النحيف الذي أشار عليه كروان منذ قليل، همس في أذنه ببضع كلمات، على إثرها هبَّ الرجل من مكانه فبانت هيئته المتواضعة وبنيته الضعيفة بوضوح. خرج مهرولًا لمنتصف الطريق مصحوبًا بإشفاقي عليه من نزال مرتقب مع يوسف حسني، لدهشتي وجدت صبي الفتوة يفتح غطاء بالوعة الصرف الصحي، وبسرعة خلع ملابسه عدا سرواله الداخلي، ثم غطس في البئر وغرقنا نحن في حيرتنا!

تبادلت مع كروان نظرات اندهاش صامتة، ثم رأينا يوسف حسني يغادر وهو يُسرع الخطى مع صاحب البيت «أرمون قرمونة» الذي يؤويه عنده، لديهما ولا شك عيون في الحكمدارية أبلغتهما بأن البوليس في الطريق، نهضت لنلحق بهما فأمسكني كروان من ذراعي وهو يشير ناحية شلتوت الذي كان خارجًا لتوه من فوهة البالوعة، جسده كله مغطى بالخراء ومبلل بالماء العطن، راح يجري وراء يوسف حسني وأرمون بنشاطٍ غريب، لحق بهما بسهولة، احتضنهما بقوة ثم طرحهما أرضًا بعدما ضرب كعبيهما بمهارة وسرعة، ثم راح يصيح بصوتٍ جهوري لا أعرف كيف خرج من حنجرته:

- خربتوا بيتي وأخدتوا فلوسي منكم لله، والنبي ما سايبكم إلا في القسم يا كفرة يا ولاد الكلب.

دوت «سرينة» عربة البوليس عالية ليخرج منها العساكر كالنمل، أحاطوا بالرجال الثلاثة المنبطحين حتى غابوا عن نظري.

***

حوكم يوسف حسني في قضية تفجيرات اليهود القديمة مرة ثانية بعد أيام قليلة، خفَّفَت المحكمة الحكم الصادر عليه إلى السجن خمس سنوات فقط، ثم قرأنا خبرًا بالجرائد عن انتحاره بشنق نفسه في زنزانته بكوفية طويلة، علَّقها على حافة النافذة، وبعدها بيومين أعلنوا عن انتحار أرمون قرمونة بالطريقة ذاتها، توجَّست ولم أصدق ما قرأت.

- هرَّبوه من السـجن على حيفا بعد ما أرشـدهم عن خلايا شيوعية كتيـرة.. ده كلام في سـرك بيني وبينك عرفتـه خالتي من ظابط كبير في الداخلية. أنا سمعتها النهارده وهي بتتكلم في التليفون.

صدمتنـي المعلومـة التـي ألقاهـا أورفانيللي الصغير فوق رأسـي، أشـبه بحجـر ضخم سـقط من علٍ فهشَّـم دماغـي وبعثـر كل أفكاري وترتيباتـي، طُـردت الطمأنينة من قلبـي وظللت أنظر للفتـى طالبًا منه تكرار الحكاية، فيعيدها بالدقة ذاتها مؤكدًا على تهريب يوسف حسني بمعرفة الحكومة في صفقة مربحة للطرفين، وضعت رأسـي بين كفَّي، كل ما يقوله أورفانيللي الصغير لا يعني سوى أنني سأفشل في ملاحقته، وحتى لو وجدته.. سيكون هذه المرة محصنًا من الحكومة.

تركـت الجريـدة مفتوحة على صورة يوسـف، شـعرت بـأن عينيه تنظران لي في تشفٍّ، ارتشفت بعضًا من القهوة التي أمامي فكانت مُرة بـاردة، لأجـد بعدها بقليل كروان يقـدم لي ظرفًا بريديًّـا حكوميًّا كبيرًا مُرسـلًا من مكتب بريد العتبة بواسـطة شـخص يُدعى يوسف سليمان حسني. فتحت الظرف متوترًا لأجد بداخله آخر صغيرًا لونه أحمر.

عـادت شـكوكي تطل برؤوسـها وعيونهـا الجاحظة ناحيـة كروان بعدما ظننتها دُفنت مع يوسـف في قبـره لكن أورفانيللي الصغير أحياه من مرقده، أخذت وقتًا طويلًا قبل فتح الظرف الأحمر، لأقرأ القصاصة إياها المكتوبة على آلة كاتبة:

«تذوقت الدماء وأعجبني مذاقها مثلك».



2/16

وسط غيوم شكوكي ظهر شعاع مريب عندما تلقيت اتصالًا هاتفيًا من حسن الكردي، أبلغني باختياري مع آخرين من خبراء المزاد المصريين عضوًا بلجنة فنية تابعة لمجلس قيادة الثورة مباشرة لجرد القصور الملكية، تمهيدًا لبيع مقتنياتها بمزاد كبير لم تتحدد ملامحه بعد، دهشتي من اختياري أقل بكثير من دهشة وجود الكردي بين دوائر صناعة القرار.

ذهبت إلى قصر الدوبارة لحضور أول اجتماع، كل شيءٍ تغير عن زيارتي القديمة منذ خمس سنوات مضت، منذ وصولي وجدت أفرادًا من البوليس الحربي في انتظاري، موظفو القصر ذوو الملابس المزركشة تبدلوا، ولا أعلم من أين أتوا بهؤلاء الذين استقبلوني مرتدين ملابس تشبه زيَّ سُعاة أرشيف وزارة التجارة.

سرت في البهو الذي مررت منه مع أورفانيللي لمَّا كنا في طريقنا للقاء الملكة فريدة، لمحت موظفًا يُعِد القهوة على شعلة صغيرة بأحد الأركان، وآخر يرفع إناءً فضيًّا قرَّب فمه ليشرب من بوزه، سألت عن الكردي فأجابني أحدهم بلا مبالاة:

- حسن أفندي الكردي تلاقيه في الدور التاني مع لجان المصادرة.

اكتشـفت بعـد قليـل أن الكردي بيـك صار يقـدم الشـاي والقهوة لرئيـس اللجنة وبقيـة الضباط، يحرص على متابعة السـفرجية وعمال القصـر، يقف فـي ركن بعيد من الغرفـة واضعًا كفيه أمامه في خشـوع حتى يشـير له رئيس اللجنـة بالانصراف عندما يبـدأ الاجتماع، فيغادر مطرقًا، واضعًا ذيله بين فخذيه، يكاد ينبح حسرة على نفوذه الذي طار، ومليكه الذي كان أول مَن يراه كل صباح وآخر مَن يُغمض عينيه عليه، لم يبقَ منه إلا صورة بغير إطار مدفونة بالمخازن ويعلوها التراب.

حرصت اللجنة على اختيار اثنين من أصحاب صالات المزادات، أنـا والخبيـر الشـهير صبحي جـاد، ربمـا باعتبارنـا أكثر مَـن يفهم في المجوهـرات والقطع الثمينـة، الباقون كانوا ضباطًـا وموظفين بوزارة الخزانـة وبعـض العامليـن ممَّن أبقـوا عليهم من المصرييـن بالقصور الملكيـة، ومـن أول لحظـة بدا لـي الأمر كابوسًـا ثقيلًا قد لا أسـتطيع الفكاك منه.

بعنا على مدار ثلاث جلسـات مزايدة الطيور والدواجن والحيوانات التي كانت في قصور المنتزه ورأس التين وأنشـاص، أغلب المزايدين مـن الفرارجيـة وأصحـاب محـلات الأطعمـة الرخيصـة وبعـض الطباخين، شـعرت بدوار مـن رائحة العرق المختلطـة بروائح الطيور وفضـلات الـكلاب. اسـتعادت ذاكرتـي المرهقة رائحـة العطور التي كنَّا نستنشـقها مع دخول هوانم مصر للصالة، دقات الجرس وكلمات المزايديـن بصالتي التي كانت أشـبه بسـيمفونية، وتتوارى خجلًا الآن مع صيحات الباعة وشـجار الطباخيـن مع أعضاء اللجنة وتداخلها مع جلبـة الحيوانـات وضوضـاء الزبائن الجـدد، بعضهم أتى للمـزاد لمَّا

قـرأ ما نشـرته الجرائد عن الملك الـذي كان يأكل أربعيـن حمامة كل يوم، ولديه دجاجات تبيض بيضًا ملونًا من أجل الفحولة الجنسـية. لو رأى فـاروق مـا يحدث الآن في الفناء الخلفي لقصر عابدين في أسـوأ كوابيسه لما صدَّق نفسه.

انتبهـت لوجود نقنقة عالية، تذكرت أنني في مزاد لبيع طيور فتعكر مزاجـي مرة ثانية، لمحـت دجاجة على المنصة، حجمهـا غير عادي، ومديـر المـزاد يتغزل في سـلالات البيض التي تنتجها، شـعرت بأنني أقف في سوق البيض على أطراف بنها، شردت قليلًا في كونها دجاجة تمتعـت بالرعايـة الملكية حتى لو كانـت نهايتها الذبـح، عكس آلاف الدجاجات التي لاقت منَّا معاملة سـيئة طوال حياتها التعيسة وذُبحت أيضًا، نبهني صبحي إلى أن الدجاجة إيطالية من نوع «اللِّجهورن»، وقد تُسـجل سـعرًا عاليًا، صدقت توقعاته فقد وصل سـعر بيع الواحدة إلى جنيه كامل، ووصفت الجرائد المشترين في اليوم التالي بالجنون.

انشغلت بعملي الجديد عن صالتي المتوقفة تقريبًا، فبعدها بأسابيع قليلـة كلفتنا اللجنة بعقـد مزاد آخر، بيعت فيه سـيارات الملك فاروق بعدما احتفظت رئاسـة الجمهورية بعشرٍ منها، بعنا ستًّا وأربعين سيارة في بضع ساعات بخمسة آلاف جنيه فقط، أما المرسيدس التي أهداها هتلر لفاروق، فقد كانت أغلى سـيارة وبيعت بسـبعمائة جنيه فقط. من بعيد لمحت سـيارة حمراء صغيرة، لكني لم أسـتطع رفـع عيني عنها، وقعـت في غرامها من أول نظرة وحتى نهاية المزاد، وكلما تحسـسـتها وجلست فيها أحببتها أكثر.

تصـورت أن عملـي انتهى عنـد هذا الحد مـع أنني لم أفعل شـيئًا، عرفت من الكردي أن في شهر فبراير القادم سيُعقد أكبر مزاد بالشرق، سـيبيعون مقتنيات فـاروق المتبقية بالقصور، كتمـت ضحكتي وملت على أذن زميلي صبحي جاد هامسًا:

- هو لسَّـه فـي حاجة من مقتنيات فاروق علشـان يبيعوها، ده إحنا لقينا القصور تقريبًا فاضية كأن أهلها عزِّلوا من سنين طويلة!

- اربـط الحمار مطرح ما يعوز صاحبه يـا منصور، أنت أكتر واحد يفهـم في الفضـة والألماظ وعلشـان كـده اختاروك، بـلاش تخليهم يفقـدوا ثقتهم فيـك، وبعدين ماتقلقش، بكرة الحاجـات دي ترجع لنا ونبيعهـا تاني، يعني هي حتروح مننا فين، النـاس دي ماتعرفش قيمتها وما يعرفوش يبيعوها من غيرنا، اطمن.

- بيتهيـأ لـك، الناس دي حتهـرَّب كل حاجـة برَّه مصـر ويبيعوها بآلافات وبكرة أفكرك.

خرجـت من المزاد غانمًـا، أول مرة في حياتي أقود سـيارة حمراء بل وأمتلكها، صحيح أنها فورد صغيرة ببابين لكنها ملكيَّة، نجح سـعد كـروان بمعاونة مـن الكردي في الحصـول عليها لصالحي بخمسـين جنيهًـا خـلاف عمولة الكـردي ثلاثين أخرى، وجدت أسـفل مقعدها قفازًا جلديًّا برتقاليًّا فاقعًا مخفيًّا بجيب سري، حُفِر بخيوط ذهبية على فردتيه حرف (F)، مؤكد كان فاروق يستخدمه أثناء قيادته هذه السيارة بنفسـه ونسـيه فيها. أمسكت القفاز وتشـممته بعمق، أغمضت متخيلًا مولانا وهو يرتديه ويقبض على المقود، سَرَت رجفة خفيفة بجسدي،

انتابني شعور بالعظمة كلما قُدت هذه العربة، ضبطت نفسي متلبسًا عدة مرات وأنا أحيي عساكر المرور في الشوارع بالطريقة التي كان مولانا يحيي بها رعاياه، أرفع كفِّي اليُمنى قرب حاجبي، ثم أخفضها سريعًا وكأنني نادم على التحية. في منتصف شارع قصر النيل انحرفت يسارًا بجوار البنك الإيطالي حتى وصلت إلى الصالة، تركت السيارة لأحد العمال ليغسلها وأوصيته بها، بعد خطوتين توقفت لبرهة قلقًا، لاحظت جمهرة من رجال البوليس أمام الباب الخلفي، اقتربت بحذر، لمحت أورفانيللي الصغير وسعد كروان يتحدثان مع ضابط صغير بعصبية، تقدمت بثقة وعرَّفته بنفسي، فوضع يده على كتفي قائلًا:

- شرَّفت يا أستاذ منصور، اتفضل معانا على قسم البوليس.

رمقت كروان وأورفانيللي الصغير بنظرات حائرة لكنهما لم يُعطياني إجابة شافية.



2/17

«مَن منهما يخونني؟!»

عادة لا أترك بالخزينة أكثر من خمسين جنيهًا، والبوليس يفترض أن الحادث وقع بغرض السرقة، لكني أشك كثيرًا في ذلك، فالسرقة اقتصرت على ورقة واحدة، لم أنقل شكوكي للضابط ولم أتهم أحدًا، ذكرت في أقوالي أن المسروقات خمسمائة جنيه وخاتم ذهبي فارتاح محرر المحضر لأن القضية كبيرة.

كروان أم أورفانيللي الصغير هو الذي سرق كمبيالة ألبير مزراحي؟ ولماذا؟ الأسئلة تتدافع كأمواج البحر الهائج، لا تنتظر أن يتنبه لها السابحون، تعلو وتهبط فوق رؤوسهم، ترجُّهم بشدة، تُغرقهم في حيرة، ما أكاد أفرغ من سؤال باحثًا له عن إجابة حتى يهبط على رأسي ثانٍ، ثم ثالث، فأُغمض عيني حائرًا لتلطمني موجة الشك بعنف.

- عندك أقوال تانية؟

- لأ..

وقَّعت على المحضر وانصرفت، حكى لي كروان عند عودتي للصالة بعض ما خفي عني، وأكمله أورفانيللي الصغير من بعده، باب الصالة وجدوه مفتوحًا، أما قفل الخزينة فكان مكسورًا، محتوياتها مبعثرة، أوراق وعدسات وأختام ودفاتر وبطاقات عرض بلا بيانات، تركاها كما هي وأبلغا البوليس، أتوا ورفعوا البصمات، استجوبوا العمال، اشتبهوا في اثنين منهم لكنني برَّأت ساحتهما بعد مراجعة هارون، يعملان معنا منذ افتتحنا الصالة ولم يسرقا مليمًا من قبل. هكذا طمأنني هارون.

- اركبوا معايا.

طوال الطريق ظللت صامتًا حتى نزل سعد كروان قرب بيته وانفردت بأورفانيللي الصغير، أوقفت السيارة قرب حلواني كرياكوس، سنوات طويلة لم أدخله لكن لا شيء تغير، سوى أن الزمن نال كفايته من ملامح الخواجة صاحبه وذاكرته حتى إنه لم يتعرف عليَّ، جلست

أتنـاول قهوتي على مهل، فـي حين كان الفتى يتنـاول الجيلاتي بنهم، مِلت ناحيته هامسًا بشكوكي في سعد كروان وأنني سأبلغ البوليس عنه وأسـجنه، لدهشـتي دافع عنه أورفانيللي الصغير باسـتماتة، مسح فمه بيده وقال إنه قد يشـك في نفسـه ولا يشـك في كـروان، ظلت ملامح الفتى جامدة، آثرت السكوت وأنا أتفرس فيه بعدم راحة وهو لا يجفل أبدًا.

شـردت عنه في حركـة المارة بالطريـق، عربات الحنطـور تتوقف قـرب المدخل، سـائقوها يدقون الأجـراس ليعلنوا جاهزيتهـا لزبائن آخريـن، سـيارات التاكسـي تُنـزل الرواد أمـام الباب، بعـض العربات الكبيرة التي تحمل أسـرًا من أربعة أو خمسـة أفراد تنتظر دورها لتفرغ حمولـة ركابها وينصرف سـائقوها بها، تجولت ببصـري بين المناضد من حولي، شـكل الزبائـن تغيَّر كثيرًا، لا يوجد ضابـط إنجليزي واحد ولا شـخص يرتدي طربوشًـا، إذا كان كل شـيءٍ قد تغير هكذا بين ليلةٍ وضحاهـا، لماذا لا يتغير كـروان وأورفانيللي الصغير أيضًا؟ سـبقهما الضمراني من قبل وفعلها. عاد السـؤال يلح على رأسـي، لم يعُد لديَّ شـك الآن في أنهما رتبا سـويًّا الموضوع، اتفقا وسرقا الكمبيالة مني، سيبيعانها بالتأكيد، لكن لمَن وبكم؟!

– عشرين قرش..

- التفـتُّ خلفي مبتسـمًا للخواجة كرياكوس وهو يعيـد الرقم مطالبًا بفاتـورة الحسـاب، جملته عادت بـي للوراء ثلاثين عامًـا على الأقل،

نبهني أورفانيللي الصغير إلى أننا لم ندفع حسابنا عندما هممنا بالمغادرة، أخرجت ورقة جديدة بخمسة جنيهات ووضعتها في جيب معطف الخواجة الأبيض، وتركت دهشته تتسيد ملامحه لعلها تعينه على استعادة ذاكرته وانصرفت. بعدها بيومين فقط، تلقت ظنوني لطمة قوية أعادتني لطريق الثقة مؤقتًا فيهما، عثر الريس هارون على الكمبيالة خلف بيانو كبير أثناء تحريكه من مكانه، أحضرها لي ممزقة لثلاثة أجزاء من جراء نزعها عنوة لكنها واضحة المعالم، ألصقتها ووضعتها بجيبي وتنفست الصعداء، ولم تعُد تغادر حافظة نقودي لكني لم أخبر أحدًا بعثوري عليها، لست مرحبًا بفكرة الانتقام رغم إلحاحها على عقلي، لكنني لن أتورع عن تنفيذها لو اقتضى الأمر ذلك.

دقَّ جرس الهاتف بالصالة دقات طويلة تنبئ عن مكالمة خارجية، رفعت السماعة بقلقٍ لأجد صوتًا آمرًا لم يمهلني وقتًا للرد بعدما أفرغ ما في جوفه بأذني:

- بكرة الساعة عشرة الصبح في محطة سيدي جابر، اعتبر المكالمة تكليف رسمي.

ثم أغلق الخط في وجهي، فسكوتي علامة رضا ولساني لا يقوى على النطق بغير نعم.

***

طوال الطريق إلى الإسكندرية بالقطار، رحت أفكر فيما طلبني رئيس لجنة المصادرة من أجله على وجه السرعة هذه المرة، لم أصل لسبب منطقي سوى أنهم قرروا بيع قصر رأس التين في مزاد علني، ويبنون مكانه كبائن تصييف شعبية للمواطنين حتى لا يتذكر أحد فاروق مرة ثانية.

في مكتب فسيح بقصر المنتزه حيث أنزلتني أمام بوابته السيارة الحكومية التي انتظرتني بمحطة سيدي جابر، جلست أتأمل الغابات الصغيرة وأشجار النخيل من حولي، البحر أمامي يبدو ثائرًا غاضبًا بأمواجه العالية، ربما يُعلن رفضه لما نفعله، إلا منطقة السباحة التي كان يستخدمها فاروق والأميرات فقد أُحيطت بصخور كثيرة على هيئة هلال، جعلت مياهها هادئة ساكنة رغم كل التقلبات من حولها. من بعيد لمحت غزالًا شاردًا عن قطيعه، يقفز فزعًا فوق تل صغير، يجري وراءه رجل قصير حافي القدمين، يلقمه بحجر صغير تلو الآخر، يعلو سبابه ليصل إلى مسامعي، يضحك مع زميل له فيما يبدو، يحشو فمه بالطعام وقد تدلت كرشه من قميصه، وقف يلتقط أنفاسه المتقطعة، ثم جلس ليستريح من مطاردة الغزال الشارد.

انفتح باب الغرفة فجأة، دخل رئيس اللجنة وخلفه ثلاثة ضباط مكفهرين، ما إن لمحني حتى أشار بيده كي أظل جالسًا، شرح المشكلة باختصار، الأمير وحيد الدين ابن الأميرة شويكار، ورث عنها ثروة تُقدَّر بحوالي مليون جنيه، جمع صباح أمس مجموعة كبيرة من الأطباق الذهبية والمجوهرات الثمينة قبل وصول لجان الجرد، ثم

وضعها في عربته وانطلق بها إلى الإسكندرية، أودعها في خزانة سرية استأجرها في أحد البنوك استعدادًا للهرب بها على متن باخرة ترسو في الميناء وستُبحر بعد يومين. وصلت المعلومات للحكمدارية فتمكن البوليس من القبض عليه.

- عظيم..

قُلتها غير مهتم بمعرفة نهاية القصة، فقد اعتدنا على قصص مماثلة من بعض أفراد الأسرة المالكة، الأمير وحيد نفسه حاول خداعنا من قبل بتغيير أثاث قصره بالمطرية، ووضع بدلًا منه قطعًا عادية من الخشب بعد أن وقَّعنا الحجز عليه تمهيدًا للمصادرة، وقتها كشفت حيلته واستعدنا غالبية الأثاث وتركت له بعضه، لكني اقتسمت مع الأمير بعض قطع السجاد نظير سكوتي، وإكرامًا لأمه التي كانت من أهم زبائني.

ردَّ عليَّ رئيس اللجنة بحزمٍ معاتبًا وكأنه يتلصص على أفكاري وذكرياتي:

- لأ موش عظيم خالص يا منصور أفندي، اللجنة اللي فحصت المجوهرات اختلفت في التقدير، نصهم قالوا حقيقية والنص التاني قال مُقلدة، وأنا موش حاصادر حاجة مزيفة وأعرضها في مزاد وتبقى فضيحة بجلاجل وبعدين يتهمونا بتبديلها وسرقتها. علشان كده بعتنا نجيبك والا أنت مش بتفهم في المجوهرات؟

ضايقني تهكمه قليلًا لكني ابتلعت ضيقي مجبرًا، شغلت تفكيري بالدافع الذي يجعل الأمير وحيد يودع مجوهرات مقلدة بالبنك ثم يحاول الهرب بها للخارج بهذه الطريقة الساذجة. تسارعت الأفكار في رأسي بلا إجابة منطقية سوى قلة حيلته.

أوصلتنا السيارة الحكومية إلى فرع البنك البلجيكي حيث ضُبطت المجوهرات التي أودعها الأمير هناك. استقبلتنا قوة من البوليس الحربي على مدخل البنك، لمحت الأمير وحيد جالسًا بركن غرفة المدير، بجواره حكمدار الإسكندرية وشخصان مسلحان. بقية أعضاء اللجنة لا أعرفهم، غالبيتهم من وزارة الخزانة، كانوا جالسين أمام منضدة عريضة، رُصَّت عليها القطع المضبوطة، يفحصونها بعدسات متنوعة، يهزون رؤوسهم ويمطُّون شفاههم في حيرة، تلاقت عيناي مع عيني الأمير، حيَّاني واقفًا فلم أرد التحية، شعرت أنه يستنجد بي، بدا كغريق يتعلق بمَن سينقذه، أمرته بالجلوس فجلس على حرف مقعده، يكاد يسقط في أي لحظة، ثبّت عينيه على شفتَيَّ فرمقته بنظرةٍ محايدةٍ أربكته، راح يتعرَّق من كل مسامه، لم أنسَ بعد أنه راوغ وماطل سعد كروان حتى سلَّمني السجادتين العجميتين.

حييت الموجودين في عجالة، فحصت القطع كلها في نصف ساعة باعتباري الخبير المنتدب، حبس الجميع أنفاسهم، فلم أعُد أسمع سوى صوت عجلات الترام وهي تشق السكون كل بضعة دقائق بالوتيرة ذاتها، تعلو وتنخفض مع كل عربة آتية أو مغادرة. ندت مني ابتسامة استنكار ثم وجَّهت سؤالي للأمير عن مصدر المجوهرات،

أجابني باضطراب أنه ورثها عن أمه، أضاف أنه لم يكُن ينوي تهريبها، ثم بدأ يشرح سبب إيداعها بالبنك، لكن الحكمدار أسكته بنظرةٍ قاسية.

أمسكت بعدسةٍ مكبرةٍ وأعطيت مثلها لاثنين من الضباط وثالث من أعضاء اللجنة، سألتهم عن درجة الاصفرار التي يلمحونها بفصوص المجوهرات أمامهم، سكتوا لبرهةٍ واجمين. أعدت السؤال طالبًا منهم تقليب القطع بميلٍ طفيف، رحت أُريهم كيف أُمسك بالقطعة رافعًا يدي أمامهم، ففعلوا مثلي ثم هزوا رؤوسهم بالإيجاب، هتف أحدهم فجأة أنه يراها بوضوح، لفتُّ نظرهم إلى وجود نقاط سوداء دقيقة للغاية، لم أنتظر منهم ردًّا هذه المرة، سألتهم عن عددها لدى كل منهم، تفاوتت إجاباتهم بالطبع ما بين اثنتين وثلاث ولا شيء، ثم بعد تردُّد صارت واحدة صغيرة.

شعرت بالطمأنينة من تغفيلهم وجهلهم، ألقيت بالعدسة باستهتار على المنضدة، ثم تناولت عُقدًا طويلًا من اللؤلؤ، جعلته حدًّا فاصلًا بين كومتين من القطع المنثورة أمامي، رجعت بظهري في مقعدي وأنا أُشير للكومة الكبيرة قائلًا بهدوء:

- ربنا يعوض عليك يا وحيد أفندي، مجوهرات الست الوالدة أغلبها فالصو.



2/18

أجلس في الصف الأخير لكني أرى بوضوح ما يجري على المنصة الرئيسية، نهض البكباشي محمود يونس ممسكًا بميكروفون كبير قائلًا بصوتٍ جهوري «باسم الله وباسم الجمهورية نفتتح هذا المزاد الذي نُعرض فيه تحف اقتناها الملك من دم الشعب، وهي تُباع اليوم ليعود ثمنها إلى صاحبها.. الشعب»

كلماته ستتحول إلى عناوين رئيسية بجرائد الغد لتستقر في قاع عقول الشعب، أعقبها تصفيق حاد لم نسمعه من قبل لفاروق نفسه حتى لمَّا أعلن المشاركة في حرب فلسطين، مثلما لم نسمع عن مزاد بهذه القيمة، ولا بكل هذه القطع الفنية في مكان واحد وكأننا نتخلص من كراكيب بيت قديم، مع أن قطعة واحدة كافية لجعل أصغر صالة في مصر من أهم صالات المزادات في الشرق كله.

بعد انتهاء التصفيق طلب البكباشي محمود يونس من رئيس اللجنة بدء المزاد، اتخذ مكانه على يمين المنصة مع مندوب رئاسة الجمهورية يتوسطهم الخبير الأمريكي الذي يُدير المزاد ويعرف اللغة العربية. اندفع الدم برأسي، شعرت بضيق تنفسي، كدت أصرخ في وجهه: «ليتك تركتها لنا وسنبيعها أفضل منهم وبالعمولة ذاتها».. لكنني آثرت الصمت خوفًا. المصريون كلهم مثلي خائفون من دخول

المزاد حتى لا تنكشف ثرواتهم فلم يتقدم أحد للشراء، لكنهم تجمعوا بالمئات منذ الصباح بعدما سددوا ربع جنيه قيمة تذكرة الدخول المرتفعة، ليشهدوا لحظة بيع التاريخ أمام عيونهم كمتفرجين، لا شيء يسعدنا أكثر من المشاهدة ومط الشفاه والتحسر على أحوالنا.

اختارت اللجنة يوم 11 فبراير لإجراء المزاد بقصر القبة، يوم ميلاد فاروق الأول الذي لم يكن له ثانٍ، هديتهم الكبيرة له أن يبيعوا مقتنياته دفعة واحدة لمَن يدفع أي سعر نقدًا. التعليمات التي وجهت لنا كأعضاء لجان الجرد والفحص ألا نشارك ولو من خلال وسطاء، مع أننا لم نقم بالثمين ولا نعرف عنه حتى الآن شيئًا كأنه سر حربي، أخبرونا بأن العقوبة ستكون السجن مدى الحياة ومصادرة كل أموالنا، لم أسمع عن قانون بهذا المعنى، لكني متأكد أنه سيكون سهل التطبيق بالنسبة لهم، فكلمتهم الآن صارت قانونًا، بل دستورًا واجب النفاذ. لكنني حتمًا سأجد ثغرة كالعادة.

الكل مترقب، الأنفاس مكتومة في صدور مفعمة بالحزن، الغضب محبوس بين ثنايا ضلوع تئن تحت وطأة ضيق يضرب جنوبها بعنف، أتمزق إربًا مع كل قطعة أعرف أنها ستُباع بهذا السعر، أعلم قيمتها وتاريخها، بعضها رأيته رأي العين لمَّا كانت عائلة فاروق يرتدونها. تذكرت يوم اجتماع اللجنة الأخير لما عرضت عليهم وضعها في متحف، فنهرني رئيس اللجنة ووبَّخني على رأيي، ولما انتهى الاجتماع مال على أذني زميلي صبحي جاد وهو يهمس:

- ما ينفعش يعرضوها في متحف يا منصور، أنت باين عليك كبرت وخرفت.

- ليه بقى إن شاء الله، هو أنت مقتنع بالكلام الفارغ بتاعهم؟

- لأ موش مقتنع بس لو عرضوها في متحف حنعرف إنهم سرقوا الباقي والناس تحن لأيام الملك ويمكن يطالبوا برجوعه، وأنت عارف الحال عندنا، اللي بيسيب الكرسي الكبير لا يمكن يقعد عليه تاني.

دقَّ الجرس وبدأ المزاد فتوقفت ذكرياتي، الأجانب يضعون ساقًا فوق أخرى يتابعون الكتالوجات بهدوء، يُدوِّنون ملاحظاتهم وهم يُقلِّبون الصفحات بسرعة، فالوتيرة متلاحقة والسعر بخس، القطع تتسرب كقطرات مياه من صنبور أصابه العطب ولا أحد يريد إصلاحه. بينما اكتفى الحضور من المصريين بالتصفيق عند كل قطعة تُباع.

أقوم وأجلس رغم وضوح مجال الرؤية، كل الخبراء المثمنين المصريين الذين حضروا المزاد ظلوا تقريبًا واقفين طوال الجلسة، لا أحد يُصدق السعر المفتتح ولا قيمة الترسية في غالبية القطع، أنا شخصيًا بعت أشياء مقلدة بأضعاف القيمة التي تُباع بها الآن مقتنيات فاروق الأول ملك مصر والسودان وسيد بلاد النوبة وكردفان وآخر ملوك الأسرة العَلَوية، يا له من لقب طويل يسيل اللعاب على مقتنياته، لو تركوا لي الأمر برمته لأدخلت خزينة مصر عشرة ملايين جنيه ثمنًا لنصف هذه المقتنيات، وأعيش مليونيرًا ما تبقى من عمري بعمولتي عن البيع فقط.

في نهاية اليوم كانت مجموعة طوابع الملك التي تمثل أربعين بالمائة من إصدارات مصلحة البريد الملكية قد بيعت بنحو ستة آلاف جنيه، من بينها عشرة طوابع نادرة قيمتها الحقيقية نصف مليون جنيه، اعتبر مندوب الرئاسة مبلغ الستة آلاف جنيه الذي حققته المبيعات رقمًا كبيرًا حتى إنه أوقف المزاد عشر دقائق لإجراء مكالمة هاتفية، عاد منتشيًا بعدها وهو يتمخطر في مشيته، همس صبحي جاد قائلًا:

- خيبة الأمل راكبة جمل..

لكزته ليسكت حتى لا نركب جملًا آخر يذهب بنا وراء الشمس كما يُقال هذه الأيام عمَّن يُقبض عليهم ويختفون، ابتسمت في وجهه ليقلدني، فالابتسام مفروض علينا منذ دخلنا القصر والتجهم اعتراض لا نملك رفاهية رسمه على وجوهنا.

ظللت أتابع ما يجري أمامي بأسى، عمال وزارة الخزانة يمسكون بالشمعدانات الفضية والذهبية، بعضهم حافي القدمين، أياديهم متسخة وأظافرهم قذرة وطويلة، الوكالات العالمية تصوِّر الحدث التاريخي بكاميرات السينما، العمال يطبقون بأصابعهم على كل شمعدان كأنه يقبض على رقبة إوزة مهيأة للذبح في طهور طفل بالريف، فجأة سقط إحداها وتهشم فبيع بربع ثمنه، مع أن تقدير اللجنة له كان خمسة جنيهات لا غير.

تراصت على المنصة لُعب الملك وهو طفل صغير، ليقول صبحي جاد لنا بسخرية:

- تصدقوا بالله مجموعة لعب الأطفال هي الوحيدة اللي الشهادة لله ماحدش مد إيده عليها!

خرجت منّا ضحكات حزينة مشروخة، بلغت حصيلة المزاد بالكامل ثلاثة أرباع مليون جنيه، وهو تقريبًا عُشر القيمة التي قدرناها لبيع نصف المقتنيات المعروضة، لمحت دموعًا تترقرق بعينَي صبحي جاد، استفسرت منه عن حاله وأنا أُربِّت كتفه في قلق، نظر إلى لا شيء وهو يتمتم كمَن مسَّه الجن:

- خلاص يا منصور كلنا مالناش قيمة.. اللي يبيع تاريخه بالشكل ده حيفرط في أي حاجة بسهولة بعد كده.

ودَّعت صبحي جاد وعُدت للصالة محبطًا، نصف باشاوات مصر كان يملك أربعة أضعاف هذا المبلغ الذي بيعت به مقتنيات فاروق، شغلت نفسي في إعادة ترتيب مقتنياتي، أغير مكانها كل يومين كعادتي، لكني هذه المرة شعرت بضآلتها كأنني بائع متجول بسوق الجمعة.

اقتحم كروان خلوتي وسألني عن موعد المعاينة القادمة للمزاد الذي أعلنَّا عنه، تهاويت على مقعدي قائلًا بيأس:

- أجِّله شهر كمان ماليش نفس.. مفيش استعجال وماحدش بيشتري اليومين دول.

- اليومين دول هُمَّا اليومين بتوعنا يا مايسترو، الخواجات مشيوا وسابوا لنا كل كنوزهم بتراب الفلوس ده غير بقى الباشوات والبهوات اللي عاوزين يبيعوا حاجتهم علشان يعيشوا وكمان...

أشرت له بسبابتي ليصمت، ثم بكفي كلها لينصرف، قبل أن أُغلق الصالـة تذكرت أمرًا مهمًّا كان يتعين عليَّ القيام به منذ شـهور مضت، سـألت أورفانيللـي الصغير عن الصورة التي طلبـت منه أن يضعها في إطـار مُذهـب منذ يوميـن، أومـأ بالإيجـاب وأحضرها مـن المخزن، لاحظـت أنهـا عريضة للغايـة وهو يحملها بصعوبة ويسير بها وسـط الصالـة بحـذر، توجهت قـرب المدخل طالبًـا منه أن يتبعنـي، رفعت صـورة أعضاء مجلس قيـادة الثورة وهم يلتفون حـول الرئيس محمد نجيـب فـي مكتبه،كنا قد وضعناهـا منذ عامين بدلًا مـن صورة فاروق معنا، أسـندتها إلى الجدار برفـق منكفئة على وجهها، علَّقت بدلًا منها الصورة الجديدة، صورة جمال عبد الناصر.. منفردًا.

نظر لي أورفانيللي الصغير مندهشًا، لكني وأدت سؤاله في حنجرته لمَّا رفعت كتفَيَّ عاجزًا عن الرد.



2/19

أصـغِ لـي جيدًا، في يـومٍ ما قرَّر إبليـس أن يتحدى ربَّـه على إغواء الرجل الصالح أيوب ليكفـرَ بدينه وييأس من رحمة خالقه، قَبِل الرب التحـدي، فبـدأ إبليـس يُذكِّر أيـوب بدماملـه وجروحه التـي لا تندمل وتأبـى مغادرة جسـده، وسـوس له كي يُفقـده الأمل في الشـفاء منها، راح يُشـعره بعجزه وبعدم قدرة خالقه على مسـاعدته ليُدخل في نفسه

أن حياتـه لا قيمة لهـا، والتخلص منها يُريحه حتـى ينفد صبره ويكفر، وبينمـا الـرب يُراقب في صمـتٍ كان إبليس يحاول مـرة تلو الأخرى، لكـن أيـوب بقي علـى حاله صابرًا راضيًـا بما ابتلاه به ربه، حتى سئم إبليس اللعبة وخسر الرهان.

اعتدلت في جلستي مقتربًا أكثر من أورفانيللي الصغير الذي يُصغي لكلامي مندهشًا وسألته:

- اقتنعت؟

ظلَّت ملامحه محايدة وهو يعيد تقليب فكرته برأسه ويهزها بالنفي لسؤالي، يُريد تحويل ثلث الصالة لمحل تُحف قديمة بمدخل منفصل وكتابتها باسـم أبيه، وجهة نظره أن سـوق الأنتيكات ستلقى رواجًا في القريب، أما صالات المزاد فسـوف تتراجع مع الوقت ويخفت نجمها ثم إلى زوال.

- موضة قديمة وحتروح لحالها.

ردَّدهـا للمـرة الثانيـة بثقـة، سـاورتني الشـكوك فيه أكثـر، يحاول الحصـول على نصيب أبيه بصورةٍ ملتويـة، مُغلَّفة بالنصيحة المخلصة كي لا تنكشف، هززت رأسي متحيرًا، كيف عرف الفتى أن أباه له ثلث الصالـة إلا إذا كان التقـى يوسـف حسـني أو ليلى قبل موتهـا وأطلعاه علـى ورقة المبايعـة؟! يعجبني ذكاؤه، لكن شـكِّي يغلبنـي ويقتل كل ما هو جميل فيه، الوردة ذات الشـوك الحاد لا نقترب منها إلا بحرصٍ

لكننا لا نستطيع الاستغناء عنها، أشعر أنه ابني أكثر من عاصم الذي من صلبي، فقبلت مناوراته حتى النهاية.

لم ييأس أورفانيللي الصغير، دافع عن فكرته وهو يخيفني من الضباط الأحرار وكراهيتهم لكل ما كان يُحبه الملك والطبقة الراقية، نهضت من مكاني واقتربت منه، تفرست في ملامحه محاولًا اختراق صدره لمعرفة نواياه، لكن الفتى جامد الوجه لا يجفل له رمش، لم أفلح في الصبر أمام مقاومته وسيل كلماته المنهمرة لإقناعي، فقاطعته قائلًا:

- شوف.. كل حاجة حوالينا عدت على مزاد قبل ما تجيلنا، الكهربا اللي بتنور بيتك الشركة الإنجليزي كسبتها بالمزاد، المية اللى بنشربها من الكوبانية رسيت عليها بالمزاد، الخضار والسمك والفاكهة اللي بتاكلها، كلها من تجار اشتروها في مزاد.. العربية المستعملة اللي بنركبها، الخواتم والمجوهرات وعفش البيوت والسجاد واللوحات، كل حاجة تقريبًا بنستعملها، المزاد حياة موازية.. أنت نفسك معروض في مزاد.. بس منتظر دورك.

بدهشةٍ قال الصغير:

- أنا؟!

رددت بثقة بعدما شعرت بانجذابه:

- أنا وأنت وكل الناس حوالينا، أنت معروض وغيرك واقف مستني دوره في مزاد الجواز والشغل والشراكة والصداقة والعلاقات

الخاصة والسياسة والمصالح.. كل دي مزادات بشكل مختلف، أنت بتختار اللي يناسبك وينفعك لو معاك تمنه أو لك مصلحة فيه، ولو هو محتاج لك حيشتريك ويدفع فيك أكتر من قيمتك، لكن ساعات بتضطر تقبل بأي حاجة غير اللي كنت عاوزها لأنك ببساطة ماقدرتش على تمنها، وفي نفس الوقت ماحدش عرض يشتريك.

أطرق أورفانيللي الصغير، وبسرعة رحت أُردِّد بصوتٍ عالٍ حتى يتشكل وجدانه:

- لو كان إبليس كسب الرهان كنت اقتنعت بكلامك وقفلت صالة المزاد لكن أيوب صبر على بلوته يا خواجة.

***

دقَّ جرس الهاتف، كان الفتى هو الأقرب له، لكن بنظرة واحدة من عيني تخشبت يده ولم ترفع السماعة، اقتربت وجذبتها، جاءني صوتها على الطرف الآخر معاتبًا بحنان:

- موش ناوي تيجي تزوره، شهور طويلة ماتعرفش عنه حاجة مع أن الباب في الباب، ربنا يحنن قلبك علينا يا سي منصور.

طوال الطريق إلى شقة باب اللوق التي خصصتها لروحية في عمارتي الجديدة مؤخرًا وأنا شارد في ابني عاصم، تركته لها رضيعًا لا يتجاوز بضعة أشهر كي ترعاه وتربيه بدلًا من أمه التي دخلت السجن، الآن صار طفلًا يقترب من الثالثة، وقتها تركت لي بهيرة

الولـد مجبرة، لكني لم أشـعر بعاطفة كبيرة نحـوه، ألحَّت روحية التي لا تُنجب كي ترعاه.. فاستجبت.

منـذ عامٍ تقريبًا أنهت بهيـرة فترة العقوبة، لكنها سـافرت فجأة إلى أورُبـا، قيـل لـي إنها تزوجـت فلم أصـدق، بعدهـا انقطعـت أخبارها عنـي، باعـت بقيـة ممتلكاتها في مصـر بعد وفـاة أمها ولم يعُـد لديها مـا تبقى هنا لأجلـه، حاولت بشـتى الطرق أن تسـتعيد عاصم الصغير لحضانتها لكنها لم تصبر طويلًا كعادتها في معاركها، خسـرتها بسـرعة لمَّا اختارت السـفر والزواج ليسـقط حقها في حضانة الطفل، لم يكُن لديَّ مانع لإعادة عاصم لبهيرة قبل سـفرها، لكن روحية صممت على الاحتفاظ به، بكت وتوسلت لي، ركعت عند قدمَيَّ كي لا أعيده لأمه، فاسـتجبت لها مرة ثانية، شـعرت بأننـي أعوضها عن عـدم الإنجاب، أهديتها ابني عاصم كقطعة مجانية في مزاد لا أريدها، لكني أعلم مدى شغف زبوني بها، كان مكـسبي الوحيد من هذه الصفقة أنني أشعت في كل مـكان لزبائـن بهيرة أنها هـي التي تركت طفلهـا الوحيد وهاجرت مع عشيقها بعدما حاولت سرقة نصيبي في صالة أورفانيللي ومنصور، وصدقني زبائنها وكـسبتهم من جديد.

تفرسـت فـي ملامح عاصـم النائم ممسـكًا أطرافه الطويلـة برفق، يسـيل لعابه من فمـه ببطء، قدماه ويداه دافئتـان، يرفس فجأة.. يصحو فزعًا ويبتسـم بالكاد ويحاول أن يتحدث لكـن بصعوبة، أعلم بظروفه الصحية وتأخره كثيرًا في الكلام لكني أزيح مشـاكله ناحية روحية كل

مرة، لا يُشبهني على الإطلاق، بينما تُصر روحية على أن روحه كلها مني، ابتسمت لها بفتور، عاصم يذكرني ببهيرة، بأكبر صفقة فاشلة في حياتي وربما الوحيدة. لكن ظلت مشاعري محايدة لا أحبه ولا أكرهه.

أخرجت مائة جنيه وتركتها في كفِّها وأنا أوصيها به وبعلاجه، طلبت مني المبيت ليلة مثلما كنَّا في الشقة القديمة، احتضنتها وربتُّ المنديل الذي يُغطي نصف شعرها، انساب بهدوءٍ بين أصابعي وأغمضت عينيها بينما ابتسامة خجل تتشكل على شفتيها، لكني لم أعُد كما كنت، ماتت الرغبة لمَّا تبخَّر مُحفِّزها، اختفت بهيرة فنحيت جانبًا كل ما كان يعطيني لذة الانتقام منها، حتى رغبة الجنس فترت. غادرت قبل انهمار دموعها مثل كل مرة، لم أعُد قادرًا على جبر الخواطر، فبداخلي شرخ يكبر كل يوم، شِقَّاه يتباعدان مع الوقت، ولم أجد مَن يُرمِّم شروخ روحي بعد.



2/20

ظهور حسن الكردي بمدخل الصالة دون موعد لا يعني سوى نذير شؤم هذه الأيام، مثل غراب ينعق وهو يُحلِّق قبل أن يهبط على جيفة، ما إن شاهدني حتى أومأ برأسه ناحية المكتب وسبقني إليه، جلسنا متقابلَين وأنا أُصغي لكلامه غير مُصدق، كبَّلتني الصدمة بقيود ثقيلة

أعاقت حركة عقلي فلم أرد لفترة، أصاب القلق الكردي ذاته حتى إنه نهض ليطمئن عليَّ ويُربِّت كتفي ويُحرك كفَّه أمام عينَيَّ. أخبرني بأنهم سيفرضون الحراسة على الصالة وبعض ممتلكاتي خلال أيام.

سألته بصعوبةٍ عن السبب، فأنا بعيد عن السياسة، ولم أكُن يومًا سليلًا لعائلةٍ من الباشاوات والإقطاعيين، حتى عزبتي الجديدة التي اشتريتها مؤخرًا من ورثة أحد الباشاوات لا تزيد على خمسين فدانًا كما حددوا لنا. المصيبة الأكبر أنني اشتريت الأرض التي عليها الصالة والمخزن منذ شهرين من ورثة مالكها، لم تعُد «أورفانيللي ومنصور» بالإيجار وصارت من ممتلكاتي وحدي.

استرخى الكردي في جلسته، أشعل سيجارة وقال بنبرة العارفين بخبايا الأمور:

- لأنك هرَّبت فلوس ومجوهرات كتير مع ألبير مزراحي، وهُمَّا معتقدين إن جزء منها يخص جلالة الملك.

- ومين اللي بلغهم بالكلام الفارغ ده يا كردي؟

- هو في غيره.. بوللي طبعًا. قال لهم إنك اشتريتها في السر من الخواجات بعد المزاد الكبير إياه.

- أنا فلوسي كلها ضاعت وألبير مات والصالة فيها عمري وتاريخي وأعز عندي من كل حاجة حتى من ابني عاصم.. يا ريت تفهمهم الموضوع ده. بوللي كداب يا كردي.

- أنـا ما أقـدرش أفهم أي حد أي حاجة يا منصور، ولا أقدر أتكلم معاهـم في فلوس، كلها كام شـهر ويتصرفوا معايا زي خيل الحكومة، أنا كل أملي ما يضربونيش بالنار، ويسـيبوني أعيش اللي فاضل لي من عمري في هدوء.

- والعمل يا كردي؟!

- تنقل فلوسك والعمارة والعزبة والصالة بسرعة لأي حد غيرك.. بوللي فك لجام لسانه علشان يضمن حريته.

عُدت لحيرتـي، تفكيري مشـوش،حتى الكردي صـارت ملامحه مهـزوزة أمام عيني، طلبت لنفسـي فنجانًا من القهوة وشـكرته بصوتٍ خفيض، دفنت رأسـي بين كفّي لعله ينصرف ويتركني لمصيبتي، لكنه ظل جالسًـا، عيناه تتنقلان بسـرعةٍ بين خزينتي ووجهي، وابتسـامة لزجة تنفـرج ببطءٍ مـن بين شـفتيه الغليظتيـن. تنهدت بضيـقٍ وفتحت درج المكتب، قدَّمت له مائة جنيه وشـكرته، لكنـه لم يمد يده ليأخذها، بل بسط كفيه ورفعهما في وجهي وهو يقول ببجاحةٍ يُحسد عليها:

- الحراسة ممكن تاخد الصالة وعمارة باب اللوق والعزبة، وأنت مستخسر ألف جنيه في العبد لله؟!

***

يتعـرض أحـد مخازنـي بالمعادي لسـرقات منتظمة مـن مجهول، قطعة صغيرة الحجم ذات قيمة كبيرة تختفي كل أسبوع، السارق خبير

ولا شك، شدَّدت الحراسة ومع ذلك لم نستطع الوصول إليه، وفي الوقت ذاته لا يمكنني إبلاغ البوليس.

يُدرك السارق نقاط ضعفي مع أن مخازني شبه سرية وليست باسمي، لا يعرف مكانها إلا عدد قليل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ممَّن يعملون معي. تبعثرت شكوكي بين عمالي وعمال آخرين وحراس للمخازن جلبتهم من العزبة، فلم تستقر هواجسي على أحدهم، زادت حيرتي حتى قادتني لكهف اليأس وتركتني وحيدًا لكني لم أضل طريق العودة بعد.

وقعت عينَيَّ على الإطار المذهب الذي يضم كمبيالة صالون صيدناوي القديمة، ليتك لم تمُت يا أورفانيللي، كم أحتاجك هذه الأيام، تركت لي بذرة جميلة لكنها مريبة، صحيح أن الخطابات الحمراء توقفت، لكن الشك يجري بداخلي في أورفانيللي الصغير منذ عرض فكرته بتغيير النشاط، لا بد وأنه عرف بقرار الحراسة مثل الكردي، وأراد أن يستغله لصالحه، لا دليل تحت يدي عليه ولا يزال يحتل مساحة لا بأس بها في قلبي، على الأقل تحميه من تدابير عقلي إلى الآن.

لم تمر ثمانٍ وأربعون ساعة حتى أبلغوني بقرار فرض الحراسة، لم أتخذ خلالها أي قرار بنقل ملكية ما أملك لأي شخص، تمكنت فقط بعلاقاتي من سحب غالبية أموالي من البنوك، أخفيتها لدى روحية بشقة باب اللوق أسفل سرير عاصم، هذا الطفل ينام فوق عشرة آلاف جنيه كل ليلة ولا يدري. وضعت بجوارها أهم قطعتين

من مقتنيات الملك حصلت عليهما بالكاد من مزايدين أجانب، ساعة ذهبية أهداها هتلر لفاروق، ومبسم سيجارة من العاج هدية أخرى من ملك الحبشة، قيمتهما عشرة آلاف جنيه أخرى على الأقل، روحية هي المرأة الوحيدة التي أثق بها في هذا العالم، أخفيت الخبر عن الجميع عدا الريس هارون، فهو الوحيد الذي يمكنني الوثوق به بعد روحية، على الأقل بقية القطع التي اشتريتها من مزاد المجوهرات الملكية ستظل بأمان بعدما استأجرت مخزنًا جديدًا باسم الريس هارون، وإلى أن تهدأ العاصفة سأبدأ في إخراجها تباعًا لبيعها.

أتوا إلينا بموظف جديد لقبه الشابوري ونسيت اسمه الأول، صار شبه مقيم معنا بالصالة يراقب الإيرادات والمصروفات، يتابع البيوع والمزادات، يراجع الدفاتر، يفحص القطع بالمخزن الخلفي، لكنه لا يعرف شيئًا عن المخازن الأخرى المستأجرة بغير اسمي فأفلتناها من الحراسة. بدأ الشابوري يحضر معنا المزادات التي نقيمها، أحيانًا يتدخل بالرأي أثناء المعاينة مع أنه لا يعلم الفارق بين المقعد والمنضدة، وفي أول يوم عمل له ظنها «دِكَّة».

سمحت لي إدارة الحراسات باستخدام شقتي في عمارة باب اللوق طوال حياتي تمهيدًا لترثني الدولة بعد مماتي، لكنها حرمتني من إيجار بقية الشقق وإيراد أطيان العزبة وبالمثل مكاسب الصالة. مر الوقت ثقيلًا وأنا أعمل لحساب الحكومة، أبيع وأكسب وأسلم المبالغ للشابوري الذي لا يفارقني، ثم أحصل آخر كل شهر على مصروف منه يكفيني بالكاد، صرت موظفًا حكوميًّا مرة ثانية.. لكن هذه المرة في صالة مزاد مديرها شابوري.

بعـد فـرض الحراسـة راح أورفانيللـي الصغيـر يلومنـي على عدم سـماع نصيحته بتقسـيم الصالـة وفتح محـل للأنتيكات، مـع إلحاحه كـدت أضعـف وأوافقـه، حتـى أرشـدني الريـس هـارون إلـى طريق الخروج في اللحظة الأخيرة، همس في أذني ببضع كلمات كانت طوق نجاة، أعجبتني الفكرة للغاية، اشـتريت الشـقة التـي بالطابق الأرضي والملاصقـة لصالة المزاد مـن ناحية المخزن، كتبتها باسـم روحية ثم طلبـت من مالكهـا أن يبيع لنا غرفة البـواب التي خلفهـا فوافق، انتقل البواب لسـطح العقار وأفرغنا غرفته مـن محتوياتها ثم أغلقناها،قطعنا نصـف الطريـق وتبقـى ما هو أكبـر وأخطـر، أو كما وصفهـا هارون.. «مرحلة الخروج من النفق».



2/21

حملتنـي رحلـة اسـتعادة صالتـي على ناقـة هزيلة، تسـير ببطءٍ في صحـراء قاحلة لكني لم أيأس بعد، ترددت مـرات عديدة على مكتب رئيس إدارة الحراسات والأموال المصادرة، رفض كل مرة أن يقابلني، لكن صارت صداقة بيني وبين مدير مكتبه من كثرة ترددي، اليوزباشي أحمد سـعيد عيسـوي، علمت أنه ضابط بوليس فـي الأصل، خدم في قسـم عابدين قبل أن يختاره رئيسه لإدارة المكتب، شردت في الكفاءة التـي يتطلبها هـذا المنصب بـالإدارة الجديـدة وما يحتاجـه من دراية

باللوحـات والأثاث والمجوهـرات والأراضي الزراعيـة والمحلات التجاريـة، وعلاقـة ذلك كلـه برجال البوليـس، لكنه بـدَّد حيرتي كلها دفعة واحدة لمَّا أخبرني أن رئيس الإدارة خال والدته.

تعددت اللقاءات بيننا حتى إنني لم أعد أطلب مقابلة غيره، كل مرة ترتسم بوضوح علامات الرضا والإعجاب على ملامح مدير المكتب مـع كل قطعة أهديها له، آخرهـا كان خاتمًا ثمينًا من مجوهرات الأمير وحيد الدين الذي استبعدته اللجنة مع قطع أخرى بناءً على مشـورتي لهم واشتريتها منهم وقتها على أنها مقلدة.

شـكرني اليوزباشـي يومها بحرارة شـديدة بعدما سـال لعابه عليه، فتجرأت وطلبت منه تقديم التماس جديد لرفع الحراسـة، رغم فوات المواعيد بعد رفض طلبي السابق الذي قدمه أورفانيللي الصغير بصفته محاميًـا وكنت أول زبائنه. بعد أقل من أسـبوع قبلوا الالتماس الجديد الـذي قدمـه أورفانيللـي الصغيـر أيضًـا، رُفعـت الحراسـة جزئيًّا عن ممتلكاتي ما عدا الصالة وعمارة باب اللوق، أفرجوا عن عزبة دمنهور لأنها لا تُدر مالًا بعدما بارت الأرض.وتشققت،أيضًا تركوا لي السيارة الفورد الحمراء لأنني رخصتها باسـم أورفانيللي الصغير وقت شرائها من المزاد.

قدَّمت التماسًـا آخر بعد شـهر كلَّفني ساعة ذهبية قيمة من مقتنيات الأميـر وحيد أيضًا، لا بأس.. فأنا حصلت عليها بملاليم، السـاعة كان لها مفعول السـحر، ساعدتني في رفع الحراسة عن شقتين بعمارة باب

اللوق، لكني لم أفلح في رفع الحراسة عن بقية ممتلكاتي بسـبب نقل اليوزباشي إلى وظيفة أخرى بجامعة الدول العربية، فيما يبدو كمكافأة على كفاءته في منصبه الأول.

ظلت صداقتنا قائمة لكنها باتت فاترة، جمعتني به سـهرات خاصة كثيـرة، جاءت جلسـتي إلى جواره فـي كل مرة بتعمُّد منـي، لكنه بات متحفظًا في الحديث كمَن لا يعرفني من قبل، ثم تعمَّد تجاهلي مع أنه من المؤكد يتذكرني عدة مرات كل يوم، فلا يزال يرتدي سـاعة الأمير وحيد الدين حول معصمه الأيسر.

***

أوشـكت الطبقة الراقية على التـآكل، باتت تنزوي في بيوتها لتثرثر بحريـة وهنـاك وجدته مرة أخرى مندسًّـا بينهم، يحاول أن يتشـبه بهم ويجاريهم لعله يخرج بمعلومةٍ تسـاعده فـي ترقية، أو يفوز بزيجةٍ تمد له جذرًا جديدًا يثبته.

بدا لي اليوزباشـي أحمد عيسوي ليلتها مهمومًا، ألححت عليه كي يفضفض لـي، أريد النفاذ لنقطـة ضعف جديدة لأنقـذ صالتي، بالكاد انطلق لسـانه ببطءٍ بعد كأس الويسـكي الخامسة، فلما فرغ من الكأس السـابعة التي أعددتها له بعناية ثقل رأسـه ومـال نحوي، أفضى لي بما يقُض مضجعه ويُطيِّر النوم من عينيه كل ليلة. أخبرني بأنه تقرر بعد أيام قليلة رفع علم دولة عربية شـقيقة نالت اسـتقلالها بعد كفاح مرير ضد الاستعمار خسرت فيه شهداء كثيرين، سيحتفلون بانضمامها للجامعة

العربيـة وهـو المسـئول عـن هـذا الاحتفـال. همـس بقلـق أن رئيس الجمهورية طلب منه أن يكون الاحتفال شـعبيًا لائقًا بنضال الشـعوب العربية، أضاف بأسـى أنه يشعر باحتمال عدم التجديد له بمنصبه إذا ما خرج الاحتفال باهتًا.

تفهمـت مخاوفه على منصبه الرائع الذي يُدرُّ عليه أموالًا كثيرة بلا عمل حقيقي، فقط الشجب والإدانة وإبداء الامتعاض ومشاعر الحزن مـع مزيد من الألـم والكلمات الحنجوريـة، خاصة إذا تعلق الموضوع بعدوان إسرائيلي.

مال الرجل أكثر نحوي وهو يتمتم:

- بذمتك يا منصور بيه هو في حد في مصر دريان بنضال الشعوب العربية اليومين دول إلا الشيوعيين واليساريين وكلهم في السجن؟!

ومضت الفكرة في رأسـي، تركتها تختمر حتى قرب نهاية السـهرة ثم أمسكت بيده وضغطت عليها قائلًا بثورية:

- لا تقلق يا معالي الباشا سيكون الاحتفال لائقًا بنضال كل الدول العربيـة والإفريقيـة كمان، وسـيتصل بك الرئيـس عبد الناصر بنفسـه علشان يشكرك بعدها.

تركـت الرجـل علـى ذهوله متعلقًـا بكلماتي كحشـرةٍ بيـن خيوط عنكبـوت بعدما عرفت منه اسـم الدولة وموعد الاحتفـال. في صباح اليـوم التالي أرسـلت كـروان لعزبتـي بدمنهور، دبَّرت أكثر من عشـرة

لوريَّـات، نقلت مائتين وخمسـين فلاحًا من شـباب القريـة ورجالها، أمـرت أن يرتـدي غالبيتهـم بنطلونًـا وقميصًـا، تركـت خمسـين فقط بالجلابيب، أعطيت كل واحد منهم نصف جنيه ووجبة أشرفت روحية علـى إعدادها، رُبع دجاجة وملعقة أرز كبيرة في علبة كرتونية صغيرة، اقترح هارون إضافة علبة سجائر بلمونت قصيرة فوافقته.

فـي صباح اليوم المحدد احتشـد الجمـع بالسـاحة الخارجية أمام بوابـة جامعـة الـدول العربيـة بالقرب من ميـدان التحريـر، حان وقت رفع العلـم إعلانًا بالانضمام إلى الجامعة فعزفت الموسـيقى السـلام الوطنـي وارتفـع التصفيق عاليًا، هتفت جموع شـباب العزبة في حُرقة بحيـاة الدولـة ونضالهـا وشـهدائها وزعيمهـا المفدى حتـى انتفخت عروق رقابهم مثلما لقَّنهم كروان، دمعت عينا سفيرها من مشاعر الود والعروبة التي يُكنها المصريون لهم، وراح يشـكر اليوزباشي بحرارة، أنا نفسي تأثرت من المشهد. في نهاية اليوم ودَّعني اليوزباشي عيسوي بمكتبه قائلًا بانفعال:

– شوف يا منصور بيه ده جميل عمري ما حانساه وأي حاجة تطلبها حاعملها لك.

– الصالـة يـا أفندم أبـوس إيدك.. خـدوا كل حاجـة وادوني صالة المزاد بتاعتي.

– أوعـدك خلال شـهر يكون الموضوع اتحل، أنا بنفسـي حاتكلم مع رئيس اللجنة شخصيًا.

قبـل أن أنصرف مـن عنده تذكرت ما أبلغني بـه الريس هارون هذا الصباح، اكتشـف سرقة فازة من مقتنيات فاروق كنَّا اشتريناها من أحد المزايدين الأجانب بعد مزاد فبراير الكبير، تلك السـرقة هي العاشـرة في فترة وجيـزة، توقفت فـي منتصف الغرفـة ثم اسـتدرت وأنا أقول بخجل:

- عندي طلب بسـيط لواحد من معارفي، المخازن بتاعته بتتعرض للسـرقة من شهور، لكن خايف يبلغ البوليس علشان أغلب الحاجات اللـي عنده زي ما سـعادتك عارف مش متـسجلة رسـمي، ومنها اللي بيـروح هدايا للنـاس الكبار المحترمين، يا ريت لو تسـاعدنا برجالتك القديمة في المباحث نعرف مين اللي بيسرقه من عماله، واحنا نتصرف معاه بمعرفتنا من غير محاضر ولا تحقيق وناخد حقنا بالطريقة البلدي بتاعتنا.

ندت ابتسـامة خبيثة من بين شفتي اليوزباشي أحمد عيسوي، رجع بظهره في مقعده وأشعل سيجارة قائلًا:

- ومالـه.. معارفـك حبايبنـا يـا منصـور، اعتبر الموضـوع خلص خـلاص، وياريت نعمل زيارة خاصة بكرة ولا بعده لمخازن صاحبك لأن أختـي علـى وش جواز ومـا يصحش نـروح للغريب نشـتري منه جهازها.



2/22

لـديَّ صديـق قديم يملك ورشـة لتقطيع المـاس وتنظيفه، كل يوم يُفاجـأ بسـرقة فص دقيـق منه فـي حجم حبـة العدس، فكلـف رجاله بالبحث والتقصي لكنهم لم يكتشـفوا السـارق، فقط اشتبهوا في عامل واحد يخـرج بعد انصراف الجميع، يبدو مريبًا في تصرفاته لكنه يغادر خاوي الوفاض حتى ملابس العمل يتركها في الورشة، راحوا يفتشونه بدقـة كل مرة فـلا يجدون شيئًا، راقبوه طويـلًا فلم يصلـوا إلى دليل، نزعـوا كل ملابسـه، فتشـوا جسـده، ذهبوا به إلـى طبيب ليُفـرغ ما في معدته، فكان جوفه فارغًا أيضًا.

ظـل كـروان وأورفانيللي الصغير وهارون ينظرون لي بدهشـة وأنا أحكي لهم القصة، هزَّ كروان رأسـه بحيـرة، بينما أطرق هارون صامتًا كعادتـه، في حين انبرى أورفانيللي الصغير مندفعًا مؤكدًا أن العامل لم يسرق.

أشـعلت سـيجارة واسترسـلت شـارحًا لهم أن العامل المشتبه فيه هو السـارق بالفعل، كان كل يـوم يأخذ فصًّا صغيرًا من الماس لا يكاد يُـرى، يضعه بحرصٍ بين جفني إحدى عينيه، يظل واقفًا في استسـلام خاضعًا للتفتيش وهو مطرق، ضاغطًا بجفنه على الفص كي لا يسـقط منه ولما ينصرف يضعه في جيبه حتى يعود لبيته سـالمًا، فلم ينكشـف أمـره لأن صاحب الورشـة كان ينظر بصورة أقوى ممَّا يسـتحق الأمر،

لمسافة أبعد ممَّا يتخيل، بينما الحل أمام عينيه، فكل أعضاء الجسد تكذب إلا العينين، تفضحان صاحبهما بسرعة،فلو كذب ترمشان فورًا، ستلاحظون ذلك لو دققتم النظر لوجه أي سارق، لكننا جميعًا نغفل عن هذه الحقيقة.

أنهيت حكايتي الخيالية وظللت أتفرس في عيون ثلاثتهم، لا يزال سعد كروان مطرقًا، بينما برقت عينا أورفانيللي انبهارًا بالحكاية، ثم استدرك مؤكدًا أنه كان يعرف طريقة السرقة مسبقًا لكنه لم يشأ إفساد القصة، في حين ابتسم هارون ابتسامة غامضة، نهضت قائلًا بنبرةٍ آمرة:

- يلا بينا يا ريس هارون إحنا اتأخرنا على الشهر العقاري علشان أسجل لك الملكية!

انتبه أورفانيللي الصغير على الجملة الأخيرة، رفع رأسه وتهلل وجهه، سرت حركة طفيفة في جسده الساكن، على الأقل باعتباره محاميًا وجحا أولى بلحم ثوره، لكني أعدت كلامي وأنا أنظر لهارون وحده، لا بد من نقل الملكية بسرعة من روحية إليه فيما يخص الشقة التي بالطابق الأرضي وحجرة البواب،نصحني الضابط عيسوي الذي صار الآن قنصلًا في وزارة الخارجية أن أبعد عنها الشكوك من فرط ما امتلكت،مؤكدًا أن الحكومة ستُصدر قانونًا جديدًا خلال أسابيع، يُمكِّنهم من سؤال أي شخص السؤال الذي لا يحب أن يسمعه طوال حياته ولا ورثته بعد مماته: من أين لك هذا؟

***

كبـر ابنـي عاصم فجـأة أمام عينـي، لـم أدرِ به إلا وهـو صبي على مشارف العاشرة، اقترح سعد كروان نزوله إلى العمل بالصالة فرفضت بحِدَّة لصغر سنه، فقال لي بهدوءٍ وهو يبتسم مشجعًا:

- ما الخواجـة أورفانيللي الصغير نزل الصالة وهو من دوره تقريبًا وكان زي القرد واتعلم في أقل من سنة.

- هو في زي أورفانيللي الصغير يا كروان، ده ابن جِنِّية في شطارته ونباهة مخه.

- ابنـك أولـى يا منصور بيه إنـه يتعلم على إيـدك، خصوصًا الدنيا رايقة وممكن ياخد وقته من غير استعجال.

وافقت على مضض لسـبب في نفسـي لم أُفضِ بـه لكروان، مرَّت شـهور لكن شتَّان بين عاصم وأورفانيللي الصغير، كلاهما نزل الصالة وهـو صغير، كلاهما تلقى الرعاية ذاتها منـي ومن هارون ومن آخرين بالصالـة، ربما تفانى العاملون عندي في تدليـل عاصم أكثر ممَّا فعلوا مع أورفانيللي الصغير، لكن عاصم ظل بليدًا كسـولًا لا يتعلم بسرعة، مندفعًـا فـي رأيه، لا يكتم سـرًّا لفتـرةٍ كافية، يخفت بسـرعة بعد توهج قصير لتأتي بعدها كل ردود أفعاله بطيئة، شره للطعام، محب للرفاهية والحيـاة المخمليـة الناعمة، يفزع إذا ما نالت أتربـة من قميصه فيتعكر مزاجـه، وأحيانًـا يتـرك الصالة ليعود مع السـائق إلى البيـت لتغييره ثم لا يقـاوم كسـله وخموله ويخلد للنوم، حمـل كل صفات أمه وملامح غريبـة عني وعنها لكنـي تقبلتها مضطرًّا لعلمـي بظروفه، لم يرث مني

سوى اسمي وتبخر كل ما نقشته روحية على شخصيته كأنها رسمت على صفحة الماء، ربما يكون عاصم معذورًا وأنا تجنبت عليه، لا بأس سأعطيه فرصة ثانية، لكنها هذه المرة مع أورفانيللي الصغير لعله يغير منه ويتشرب الصنعة ويتعلم كيف يصطاد زبون المزاد ويجبره على إخراج ما بجيوبه، أو على الأقل رفع السعر ليتورط فيه غيره.

خداع الزبائن الجدد أسهل بكثير ممَّن سبقوهم كما ردد صبحي جاد قبل موته بسكتة قلبية مفاجئة، لم يحتمل صدمة مزاد فاروق ورحل بعده بشهور قليلة، مات في صالته على كرسي مذهب ضخم يشبه كرسي العرش، وكأنه متمسك بعصرٍ مضى ولا بوادر تُشير إلى احتمالية رجوعه يومًا ما.

عدت أتذكر كلماته عن خداع الزبائن الجدد لكني جبنت عن فعلها، فغضبتهم عظيمة لن تمر دون خسائر موجعة وربما تكلفني حريتي، فلنكسب قليلًا حتى ينقشع الضباب، على الأقل كل ما أكسبه الآن يذهب للحكومة، ولا أعرف إن كنت سأستعيده يومًا في القريب أم سأموت وأنا مجرد موظف في صالة «أورفانيللي ومنصور»، حتى الآن لم يوفِّ الضابط عيسوي بوعده في رفع الحراسة عنها، وإن كان قد صدق في وعودٍ أخرى على الأقل، عرفت مَن الذي يخونني ويسرق مخازني بانتظام ولحساب مَن، ثم منحني عيسوي هدية إضافية عندما أخبرني بحقيقة هروب يوسف حسني إلى حيفا، لكني لم أستقر على نهاية مناسبة لمَن خانني بعد.

- ما لك يا ريِّس؟!

رفعت عيني عن الجريدة ونظرت للشابوري في ضيق من فضوله وتلصُّصه قائلًا:

- أبدًا كنت باشوف الوفيات بتاعت النهارده في جورنال الأهرام.

- لكن أنت فاتح الصفحة الأولى يا ريس، والوفيات في الصفحة الأخيرة!

سكتُّ لبرهةٍ ثم قلت له:

- ما هو اللي أنا بدور عليه يا شابوري موش بيموت غير في الصفحة الأولى.

مزَّق دخول كروان دهشة الشابوري من ردِّي وفتَّتها حتى حار في لملمتها. مال سعد على أذني هامسًا:

- البطاقة الجديدة خلصت بس سعادتك لازم تمضي ضامن على الورق علشان أقدر أنفذ أوامرك.

حملقت في وجهه بضيق، وددت لو أعدت تشكيل كل مَن يعملون معي من جديد، غالبيتهم قطع فالصو خُدعت فيها، كرهت المؤامرات والخيانة، هواء الصالة كله فسد ولا بد أن نفتح الأبواب والنوافذ معًا لخروجه كما قال هارون.



2/23

هناك طريقتان لصيد الأسماك، أن تُلقي شبكة كبيرة وتنتظر ما يدخل بها وقد تعود خالي الوفاض، والثانية أن تختار الطُّعم المناسب لحجم السمكة التي ترغب في اصطيادها فتحصل عليها وحدها، لا يهمني الكم أبدًا، فاخترت الانتظار لحين تمكني من إعداد الطُّعم المناسب لأسماكي التي أنوي التهامها.

- جاهزين يا مايسترو.

قالها هارون فأجريت أول تجربة بالأمس ونجحت، فتحنا بابًا من الشقة التي اشتريتها بنصيحة من هارون يؤدي لغرفة البواب، الحجرة متصلة بصالة المزاد وبها باب سرِّي صغير للغاية بلون الحائط، يُفتح عبر ممر على شارع خلفي جانبي لا سبيل للوصول إليه إلا عن طريق فتحة الخروج الثانية منه في غرفة مكتبي، ممر سرِّي غطيناه بخزانة جديدة صارت تخفيه بالكامل لكنها مفتوحة من الخلف، بدت مثل طاقة كبيرة طويلة تسمح لرجل بالغ بالمرور منها منحنيًا ليجد نفسه في مكان آخر، لكنها تسمح بأشياء أخرى أيضًا سأنفذها بمفردي بعد نقل الملكية لهارون، ثم نبدأ أنا وهو في نقل القطع من المخازن إلى حجرة البواب القديمة كل يوم أحد في إجازة الصالة. لكني قبلها سأنفذ ما أُكرهت عليه ولم أكن أود أن أفعله، سيكون لي شأن آخر مع من سرقني ومَن خان محبتي، للأسف لا سبيل إلا البتر هذه المرة.

الصفعة التي لا نتعلم منها نستحقها مجددًا، استدعيت كروان وأورفانيللي الصغير لمكتبي، ظللت صامتًا لبرهة طويلة وأنا أتفرس فيهما بضيقٍ وقرف، راحا ينظران لبعضهما ويتبادلان الحيرة ككرة تنس الطاولة، بدا من اضطرابهما وكأنهما محكوم عليهما بالإعدام، ينتظران فقط السؤال التقليدي عن الرغبة الأخيرة لكلٍّ منهما. استنفد سعد كروان مرات النجاة كلها، ثم كانت الخيانة التي لا غفران فيها، باعني لعزيز أرقش الذي يحرك الخيوط كلها من الخارج كي تخسر صالتي، معلومات العيسوي عن سرقات مخازني بالمعادي صدمتني، كروان ينتقي القطع الدقيقة ويخفيها في تجاويف قطع كبيرة مطلوبة بالفعل للعرض وفي الطريق يستخرج المسروقات القيمة لتُباع خارج المزاد لحسابه مع أرقش، الآن حان وقت الانتقام من كروان، سـأدفنه في الممر المعتم وراء الخزانة ولن يعرف عنه أحد شيئًا بعدها، لكنني قبل أن أخطو خطوة واحدة في هذا الطريق لا بد وأن أسافر إلى باريس أولًا، بعدما توصلت لطرف خيط تركه ألبير مزراحي لي قبل وفاته ودلَّني عليه أحمد عيسوي من خلال معارفه بوزارة الخارجية، الخيط الذي سأجذبه حتى آخره برفق، ثم ألفُّه بعنفٍ على رقبة أورفانيللي الصغير بعدما عرفت مكان يوسف حسني الذي أخفاه عني طوال الفترة الماضية.

***

المصائب تأتي أحيانًا كرصاصةٍ وحيدةٍ تُصيبك في مقتل ومع ذلك لا تُميتك، فقط تتركك عاجزًا ذليلًا. رفض الشهر العقاري تسجيل

الملكية للريس هارون لأنه يهودي، فأجّلت الفكرة مؤقتًا لحين انتهائي من المزاد الكبير الذي نُعد لـه منذ فترة، وننوي بيـع بعض المقتنيات المهمـة خلالـه، نزلـت الإعلانـات بالصحـف، أُلصقـت الدعاية عن المزاد على أعمدة الإنارة وجدران المباني بالشـوارع المؤدية للصالة. انتهت المعاينة والليلة سيجري المزاد، لكن لسوء الحظ كُسرت ساقي ووضِعت في الجبس، طلبت من كروان تأجيل تذكرة السـفر إلى باريس أسبوعين، وأخبرته بعكس ما أنوي عمله حتى آمَن خيانته مؤقتًا.

انزعـج أورفانيللـي الصغير لكسـر سـاقي وأصر أن أحضـر المزاد على كرسـي متحرك واشـتراه بالفعل. راقت لي الفكرة فلم أتغيب عن مزاد مهم أبدًا، ذهبت مـع روحية إلى الصالة لأول مـرة وهي تدفعني برفق، لا أعرف سـببًا لموافقتي السـريعة علـى تواجدها معي، لم تكن فـي حاجـة لأن تُلح عليَّ، بمجرد أن عَرضَت الأمر وافقتها، يسـاورني شعور غريب بأنني ممثل مسرح كبير وأريد جمهوري كله معي في هذه الليلة، كأنها ليلة العرض الأخيرة.

دخلـت الصالـة قبل بـدء المزاد بنحو سـاعة، تعكَّـر مزاجي عندما لمحـت لبيب الضمراني يحوم قـرب المدخل على الرصيف المقابل، سـألت أورفانيللي الصغير وسعد كروان عن سـبب ظهوره المفاجئ، أكـدا لـي أنهما لن يسـمحا بدخوله أيًا كان السـبب، تولـى أورفانيللي الصغيـر تنسـيق الأمـر مـع أحـد عمـال الصالة لكنـي ظللت منشـغلًا بالضمراني، سـيطر ظهوره على تفكيري حتى أصابه بشـلل. أصدرت أوامـري بغلق باب الصالة الأمامي بعـد دخول المزايدين جميعًا ومنع

الضمراني من الاقتراب، لكن بعد قليل حدث الأسوأ، اقترب مني عاصم وهو يحمل ظرفًا أحمر صغيرًا، مد يده به نحوي قائلًا:

- الجواب ده وصل الصالة النهارده باليد،واللي جابه قالي أسلمه لحضرتك شخصيًا.

لم يُفدني عاصم في أوصاف الرجل الذي سلَّمه الظرف، كل ملامحه غريبة علينا، اتجهت شكوكي للضمراني لكن مَن الذي جنَّده ضدِّي؟! عادت الرعشة لأصابعي وأنا ألتقط القصاصة الصغيرة بعدما نسيتها لشهور طويلة توقفت فيها الخطابات، هذه المرة كُتبت بخط اليد، خط جميل منسق منمق.. قرأت «نتلقى العزاء غدًا في عمر مكرم، لكنك لن تتمكن من الحضور معنا هذه المرة.. يوسف حسني».

تلك أول مرة يصلني خطاب موقَّع، أخيرًا أفصح عن نفسه كأنه يتحداني علانية، طويت الخطاب ورحت أفكر في كلام أحمد عيسوي الذي أخبرني به وأنا أهز رأسي غير مصدق.

بدأ المزاد في موعده وأنا شارد الذهن تمامًا، تسيطر الرسالة على عقلي وصورة لبيب الضمراني لا تفارق مخيلتي، يقلقني وجوده رغم ما فعلته السنون به ومظهره الذي بات يبعث على الشفقة. قطعة تلو الأخرى تُعرض وتُباع بالسعر الذي توقعناه وزيادة، أجَّلت عرض مقتنيات الملك فاروق فهي عادية ولا تحمل حرف (F) المعتاد عليها إلا واحدة فقط، المزاد شرس ومزدحم ممَّا جعلني متوترًا، الأمور في الصالة تسير في طريقها المرسوم لكنها تتأزم مع مرور الوقت بداخلي.

جلست روحية مرتبكة بجواري، تتلفت حولها كثيرًا، تبتسم أحيانًا ببلاهة، تشد ذيل فستانها القصير لتداري فخذيها، تُنادي على عاصم كل برهة لتطمئن عليه، كان يرتدي بدلة ضابط واسعة لونها كاكي، تعجبت من هيئته الغريبة وكتفيه المتهدلتين فيها، فكرت في لوم روحية على هذا الاختيار، لكني تراجعت عن الفكرة مؤقتًا حتى نعود للمنزل، بعدما وجدت استحسانًا من بعض الزوار لملابسه، تلك أول مرة تحضر فيها روحية مزادًا وتجلس إلى جواري في العلن فلا داعي لمعاتبتها الآن، اقتربت روحية بكتفها مني، ربما تشعر بحرج.. لست أدري.

التفتُّ خلفي بهدوء لأراقب الحضور، لمحتُ الضمراني يجلس في الصف الأخير، يبدو مضطربًا للغاية، ابتسم لي بتوسل، بدا لي من حركات جسده ويده أنه يريد الحديث معي، تملكني الغضب ورحت أنظر ناحية كروان معاتبًا لكيفية دخوله، لكنه منشغل بإدارة الجلسة وهارون يناوله، رحت أفتش بعينَيَّ عن أورفانيللي الصغير فلمحته بالكاد في نهاية الصالة، الوحيد الذي يتصدر المشهد ويتحرك في الصالة كالديدبان كان الشابوري.

اقترب مني الضمراني ببطءٍ وقد تبدَّلت ملامحه، فجأة سمعت صوت أبواب تُغلق بعنف ثم انقطع التيار الكهربي، غرق المكان في ظلام دامس لا يمكن أن نرى معه كفوف أيدينا، ثم سمعت صوت عيار ناري يُطلق ليشق همهمات الحضور ورهبة العتمة المفاجئة، علا الصراخ، لا أرى شيئًا، حولي هرج ومرج وأصوت أقدام مهرولة،

عبارات متداخلة كثيرة، آلام شديدة تضرب صدري وسائل ساخن لزج يسيل من بطني وفمي بينما روحية تصرخ بهلع، لم أقوَ بعدها على فعل أي شيء، بات الأمر أشبه بقرار يتخذه المرء في أحلامه، فلم أستطع الاختيار بعد سماع صوت الرصاصة.

دارت حياتي أمامي بسرعةٍ للحظات كشريطٍ سينمائي، مشاهد متلاحقة ألهث وراءها، لا أتبين منها مشهدًا واحدًا بدقة، فجأة توقفت الصورة على مشهد أورفانيللي وهو يموت أمامي في الصالة، يبتسم بشماتةٍ ممسكًا بمسدسٍ كبير، بينما ليلى تُغادر فراشها في المستشفى بنشاط، وتنظر نحوي باحتقارٍ وتشفٍّ، ثم انطفأ نور عيني مع صوت الرصاصة الثانية، لكني لم أعرف الهدف الذي أصابته هذه المرة.

«حاولت مرارًا وتكرارًا تغيير مسار حياتي عند كل منعطف،

نجحت في مرات كثيرة لكن في محطة معينة تُصبح حياتنا

مثل كوابيسنا وأحلامنا، لا يمكننا تغيير مسارها أبدًا».

منصور حامد التركي

1961 - 1911





النهاية

أورفانيللي منصور



3/1

لا أحـد يتذكر أبـدًا الخطوة الأولـى.. كيف كانـت ومتى حدثت؟ يقتربـون منـك، يرحبـون بحضـورك، يفرشـون لـك رمالًا فـي طريق ممهدة.. تسير مطمئنًّا وهم إلى جوارك، فجأة تثقل خطواتك وتغوص قدماك.. تسـحبك الرمال الناعمة برفـق، تلتفت فلا تجد أحدًا يمد يده لك، تلك هي الخطوة الأخيرة التي تبقى في الذاكرة إلى الأبد.

ولادتي غريبة مثل حياتي، وضعتني أمي على ظهر باخرة قادمة من مينـاء كابري عندما كانـت بصحبة أبي أورفانيللـي الذي أحمل نصف اسـمه، أمـا النصف الآخر فلشـريكه في الصالة وثالثهمـا في الرحلة.. منصور.

عشت سـنوات طفولتي الأولى حياة على وتيرة واحدة مع جدتي، نخشـى أمـي أن أُكوِّن صداقات مـع آخرين مؤكدة علـى أنها صديقتي الوحيدة في الدنيا، بينما ظل أبي مشـغولًا بعمله طوال الوقت، تحكي

لي جدتي لأبي قصصًا مسلية كل ليلة، لا أتذكر منها إلا واحدة لغرابتها وكانت تحكيها كثيرًا، حكاية الفتى الذي ظهرت له جِنِّية من بطن سمكة اصطادهـا بعد عناء، فطلبت منه أن يتمنـى أمنية واحدة لتُحققها، تمنى أن يصطاد سـمك البحر كله، جفَّفت الجِنِّية الماء وجعلت الفتى يسير علـى الرمال وحيدًا والأسـماك الميتة حوله حتى نـدم على طمعه. لم أفهم شيئًا من القصة وقتها لكنها أعجبتني، تمنيت أن أقابل الجِنِّية يومًا ما، لكنني اليوم سأختار أن أبيع السمك كله وهو لا يزال في الماء.

رحلـت جدتي فجأة مع كثيرين مـن جيراننا بعد إصابتها بالكوليرا، انقلبت حياتي من بعدها، صمَّم أبي على أن أعمل طوال أشهر الصيف كل عام وأيام الجمع والآحاد من كل أسـبوع بالشـتاء في حين رفضت أمـي عملـي، كانت الغلبـة لأبي ولاقت هـوى في نفسـي، اصطحبني لصالة مزاد فخمة، أخبرني بأنه شـريك فيها، شعرت لشهور عديدة أنه يكذب عليَّ، صحيح تلقيت معاملة طيبة لكنها لا تشي بأنني ابن لأحد أصحاب الصالة. بعد وقت طويل أدركت أن أبي لم يكن كاذبًا، بل هو الذي صدَّق الكذبة وحده.

لا مـكان في ذاكرتي حاليًّا إلا لصالة «أورفانيللي ومنصور»، طغت ذكرياتي فيها على مخيلتي فابتلعت مشاهد الطفولة وحكايات جدتي، أتذكر جيدًا أول مرة سـمعت فيها دقات الجرس الثلاث، شكل العصا التـي يشـير بها منصـور نحو أحـد الجالسـين بالصالة مهنّئـا بفوزه في المـزاد، أرقام أول مرة أسـمعها وأعجز عن عدهـا، تتصاعد حتى تبلغ عنـان السـماء من أجل قطعـة كريسـتال أو تمثال برونـزي وأحيانًا من

الخشـب، رجال لهم هيبة وشـوارب ضخمة ويرتدون ملابس فخمة، سـيدات بقبعـات زاهيـة وفسـاتين راقية، وأجانـب كثيـرون يصرفون المئات وربما الألوف من أجل شـراء أشـياء قديمة. شـعرت أن بالأمر سرًّا ولا بد أن أعرفه.

التصقـت بالريس هـارون وتعلمت على يديه، أعجبني ذكاء سـعد كروان، وراقبت لبيب الضمراني لكنه لفظني مبكرًا، لم أرتَحْ أبدًا لعزيز أرقـش فتجنبته متعمدًا، واقتربـت أكثر من منصور التركـي فاحتواني، وجدتني أسـجل كل يوم ملاحظات في نوتـة صغيرة، ما رأيته وتعلمته من هارون، ثم أعود لها كل أسـبوع لأحذف وأضيف حتى اسـتوعبت ما خفي عليَّ من أسـرار المهنة في أشـهر قليلة. ليت التعليم بالمدرسة كان بهذه المتعة.

بـدأت بتلميـع القطـع المتناثرة بطـول وعـرض الصالة، أمسـكها بحـرص، أضمها لصدري كطفل لو كانت خفيفة، أزيح الأتربة الرقيقة عنهـا كأنني أجفـف دموع فتاة صغيرة، رُقيت بعدهـا كصبي مناولة من المخـازن، ثم أصبحت أقـف في قلب الصالة للاسـتقبال من المخزن لمناولة سـعد كـروان، حتى صرت أنـاول منصور بيك شـخصيًّا وهو يُدير المزادات في مرات نادرة، فقد كان يُفضل سعد كروان دائمًا.

العمـل مع منصور مختلف عن كل مَن شـاهدتهم يديرون صالات مزادات، يعرف منصور زبونه من يوم المعاينة، لم أرَه يفشل مرة وقلدته مرات ففشلت، حتى أدركت أن لكل منَّا مكانًا في صالة المزاد ومكاني

بجـواره، علـى مقربة منه، إلى الـوراء قليلًا، لكنني لـن آخذ موقعه في وجوده.

- جرِّب مرة تانية.

أمسـكت بقطعة خشـبية، ضغطت بأسـناني عليها برفـق كما طلب منصور، سألني عن إحساسي، أجبته:

- حاسس إنها فاضية من جوه، وطعمها مُر.

- تمـام.. تبقـى فالصو يا خواجة.. عاوزك تمشـي ورا إحساسـك دايمًا.

تعلمت يومها كيفية كشـف القطع الخشـبية المقلدة، جرَّبت مرات عديـدة في قطع لا أعرف حقيقتها، غالبًا كنت أنجح من أول مرة، لكن في نهاية الشـهر أخبرني منصور بأنني اسـتطعت تحديد سـبعين قطعة مقلـدة من إجمالـي مائة قطعة عرضهـا عليَّ، ثم ضربنـي على مؤخرة رأسي كعادته وهو يقول بصوته العالي:

- موش بطَّال يا خواجة.. شكلك حتتعلم بسـرعة.

***

تواجـدت أمي في الصالة الشـهور الأولى لعملـي لكنها كانت بلا عمل، تجلس بجوار سـكرتيرة المايسـترو طوال اليوم ولا تفعل شـيئًا سـوى غـزل بلوفـر من الصوف لأبـي من خيـوط التريكـو، ظننتها في البدايـة سـتتعلم مثلي لكنها لم تمسـك ورقة واحدة، لـم تلمس قطعة

معروضـة، ولـم يطلب منها أحد رأيًا أو مشـورة، بدت مثل فازة جميلة مهملة تُعرض في كل مزاد ولا أحد يزايد عليها أو يهتم بمعرفة قيمتها، حتى تعددت بلوفرات أبي بألوان مختلفة.

زارنا الكردي شماشـرجي الـ لك ومن يومها تبدَّل الحال، صـارت أمي القطعة الأهم في صالة أورفانيللي ومنصور، يطمئن على وجودها المايسـترو كل صباح، يوليها كروان عنايـة خاصة، ويراقبها أبي بعيون قلقة بعدما زادت مرات تردده على الصالة في الشـهور الثلاثة الأخيرة قبل رحيله، لم أكن مرتاحًا لما يدور حولي وزادني تواجدهما توترًا.

«الخواجـة» أصبـح اسـمي مـن أول لحظـة وصلـت فيهـا لصالـة «أورفانيللي ومنصور»، ورثته عن أبي في حياته القصيرة معي بالصالة، ولازمنـي بعد مماته مع قبعته الإيطالية التي اشـتهر بهـا وكنت أرتديها كثيرًا، صار الجميع يناديني به بعدما اختاره منصور لي، حتى الضمراني الذي أشـعر بأنه لا يحبني ناداني بـه، كنت أرى في عينيه نظرة إعجاب يحـرص علـى إخفائها بسـرعة كلما لاحـظ أنني لمحتهـا. ولم أعرف السبب.

يدق الجرس في الثانية ظهرًا، يحصل العاملون على راحة لساعتين بالصالـة، تُغلَـق الأبواب، يذهب الجميع لبيوتهـم القريبة لتناول طعام الغداء والقيلولة لساعة ثم العودة في الرابعة، أحيانًا يصطحبني منصور لكبابجـي الدَّهان مع سـعد كـروان، وأحيانًا أخـرى لا يلتفت لي على الإطـلاق فأقضي بقية اليوم متسـكعًا في شـوارع وسـط البلـد، مكتفيًا

بسندوتش صغير من الفول، وأعود قبل الموعد للبقاء في المخزن الخلفي الذي يتركون بابه مواربًا، أشرب الشاي مع الحارس الجالس هناك طوال اليوم لإبعاد الغرباء.

- واد يا خواجة.. تعالى علشان تشوف الشغل الجديد.

أمسك الضمراني بمبرد وراح يسكب عليه ماء النار بحرص، طلب مني مسحه بقطنة ففعلت، أخرج قطعة صنفرة ومغناطيسًا كبيرًا ثقيلًا من حقيبة قماشية صغيرة بجواره، رَصَّ قطعًا فضية وذهبية أمامي، راح يُريني ما يحدث لكل قطعة تأثرًا بالمغناطيس لكي نكتشف المُقلَّد من الأصلي في المعادن، يصنفر واحدة ويبرد أخرى من حوافها، أنظر لعينيه متعجبًا ممَّا يفعله، يبتسم بخبث وتتسع الابتسامة، تظهر أسنانه الصفراء الكبيرة ذات الفلج، يلطمني لطمة خفيفة طالبًا مني التركيز على يديه فقط.

أدركت بعد فترة أن غالبية القطع مُقلدة، المخزن في حقيقته ورشة دقيقة لإعادة تقديم القطع على أنها قديمة بل مُغرقة في القِدم، لا شيء يستعصي على أصابع التركي ورجاله، كل قطعة لها كلمة سر لا يعرفها سواهم، مفتاح لا يملكه غيرهم، يفكُّون شفرتها ويقدمونها في صورة أخرى، يحرص منصور على مقارنتها بما كانت عليه قبل التعديل. كل قطعة يلتقط لها صورة فوتوغرافية قبل أن تمتد لها يد غيره، ثم يضع الصورتين بجوار بعضهما، يعُود خطوة للوراء قائلًا كلمته الشهيرة لمَن حوله.. «استابينا» . الآن حصلت القطعة على إجازة بعرضها للبيع في المزاد.

حملت فازة كبيرة سـاترًا وراء الريس هارون ووضعناها بالمخزن، ربط هارون قطعة من القماش حول عيني وعقدها على مؤخرة رأسـي حتـى آلمتنـي، رحت أتحسـس الفازة وهـو يبدلها كل مـرة، ربما كان يرفعها ويعيدها مرة ثانية فقد شعرت بالملمس ذاته أحيانًا، يعلو صوته طالبًـا مني تحسُّـس قاعدتها ثم أمرني برفعها، ظللنا هكذا لمدة سـاعة تقريبًا، هارون يسـأل وأنا أُجيب حتى سـمعت تصفيقًـا خفيفًا بالقرب منـي، رفع الريـس هـارون العُصابة عن عينـي، لأجد منصـور التركي أمامي..

- برافـو عليك يا خواجة، غيَّر هدوم الشـغل وحصَّلنا على العربية علشان حتسافر معانا.

أدركـت اليوم أنني اجتزت الامتحـان الأخير بنجاح وتخطت ثقتي بنفسـي حواجـز مخاوفي، فانطلقـت تعدو مع طموحي لتسـبقه، لكن القدر فيما يبدو كان متربصًـا بي عند أول منحنى.



3/2

مسـاحات خضـراء تبدو بلا نهاية، ظللت مسـتمتعًا طـوال الطريق بمناظـر الحقـول التـي أراها على يمينـي، بالكاد ألمح كل فتـرة بيتًا أو اثنين من بعيد وسـط الغيطان، رُحت أتسـلَّى بعَدِّها، أحصيت عشـرين بيتًا، ثم نمت على كتف سعد كروان قبل أن نتجاوز مدينة طنطا.

- اصحى يا خواجة وصلنا إسكندرية، إحنا جايين نشتغل، ابقى نام في بيتكم بعد ما نرجع.

صحوت على كفٍّ الضمراني الغليظة تهزني بعنف مع صوته الأجش، يبدو كفرس نهر لكنه ليس وديعًا مثله، رائحة فمه تثير الغثيان وهو يقترب مني بملامحه المخيفة، يُحرك فكَّه كل برهةٍ كأنه يلوك شيئًا بين أسنانه، يُشبه كثيرًا أحد الممثلين الذي لعب دور رجل العصابة الشرير في فيلم لأنور وجدي وليلى مراد، شاهدته في السينما مع أمي ولا أتذكر اسمه، كان الممثل يُخيفني جدًّا، لكن أنور وجدي أشبعه ضربًا في النهاية فصفَّقت له.

غادرت العربة وأنا أفرك عينَيَّ وأتمطَّى، أفقت بسرعة على روائح الجَملَكَّة والكحول من على رأس الطريق قبل دخولنا شارع الليثي بالعطارين، لا شيء يُباع هنا إلا الأنتيكات، حتى الباعة السرِّيحة يحملون تماثيل صغيرة وقطعًا فضية فوق طاولة خشبية مُعلقة بدوبارة غليظة تتدلى على رقابهم، يتحركون برشاقة وخفة بين المارَّة.

مشيت بجوار كروان وراء منصور والضمراني، ندخل حانوتًا لدقائق قليلة يرحبون بمنصور التركي بحفاوة، يجول بعينيه بسرعة في المكان، يتبادل نظرات مع الضمراني، يهز الأخير رأسه كبندول ساعة، يبدو أن منصور يبحث عن قطعة محددة ولا يجدها، مئات التحف معروضة في محلات ذات واجهات صغيرة من حولنا، لا محل يُشبه الآخر من الداخل، بعد أكثر من عشرين محلًّا وقف منصور في نهاية الشارع طالبًا من الضمراني استعجال شخص يُدعى البربري.

انشقَّت الأرض فجأة عن رجال بشرتهم خمرية تميل للسمار، رحَّبوا بنا وأحضروا مقاعد ومنضدة صغيرة، رُصَّت عليها أكواب الشاي وفناجين القهوة، كنت راغبًا في تناول زجاجة مياه غازية مثلجة لكن منصور لم يُعطني فرصة الاختيار، مال على كتفي وهو يردد الجملة التي سبق وقالها لي في مناسبة مشابهة:

– واحد بطولك وعرضك ده الناس بتفتكره أكبر من سنه وبتعامله كراجل ماينفعش يشرب كازوزة وقت الشغل زي العيال الصغيرة.

حضر المعلم سعيد البربري مهرولًا مع الضمراني، رجل مهيب الطَّلة له شارب كثيف واسم على مسمى فهو شديد السَّمار، يرتدي جلبابًا بُنيًّا واسعًا داكنًا ويضع على كتفيه شالًا حريريًّا وينتعل حذاءً أبيض من لون الشال يلمع بصورة مبالغ فيها، لم يُصافحنا، انصبَّ ترحيبه كله على منصور ثم جذب مقعدًا بجواره وتهامسا قليلًا، بينما رجاله يتعدون خطوات وعيونهم على شفتَي البربري، علا صوت منصور سائلًا كروان عن الطاولة الفرنسية ذات الأربعة عشر مقعدًا لشحنها. تعاظمت دهشتي، فمنصور أتى إلى هنا لا لكي يشتري وإنما ليبيع، والأغرب أنهم اشتروا منه، باع لهم ما لم يجده معروضًا لديهم.

مال منصور على أُذن البربري وهمس ببضع كلمات على إثرها التفت الرجل رافعًا يده فاقترب منه أحد صبيا'نه، أمره البربري بإحضار تمثال معين، عاد الصبي بعد قليل حاملًا تمثالًا من البرونز، يبدو ثقيلًا

مـن ثني ركبتي الصبي أمامنا وهو يلهث، تفحص منصور التمثال بعينه ثم أخرج حافظة نقوده، فأقسم البربري ألا يأخذ منه مليمًا مردفًا:

- ده عربـون محبـة يا تركي بيه، عيب عليك يـا راجل تطلّع فلوس هنا..كلنا صبيـ''ـك وعايشين من خيرك.

***

علا شـخير الضـمراني في طريق العودة للقاهـرة، بعدما التهم أكثر من نصف صينية جمبري وثلاث سـمكات دينيس في سوق الطباخين، فهمـت من الكلام الدائـر بين منصور وكـروان أن الطاولـة التي باعها للبربري فرنسـية بالفعل لكنها ليسـت قديمة فلم يمر عليها سوى عشر سنوات، تشاءم أصحابها منها لمّا مات أبوهم فوقها وهو يتناول طعامه عليهـا فباعوها للتركي بمائة جنيه، أما البربري فقد دفع فيها اليوم ألف جنيـه راضيًـا، بعدمـا أخبره منصـور بأنها مـن مقتنيات الخديـوِ توفيق وتحمـل علامته المميزة، تلك العلامة التي احتاجت لثلاثة من صبيان مدرسـة الزخرفيـة كي يحفروها على الخشـب طوال أربعـة أيام كاملة بمخزن الصالة تحت إشراف الريس هارون لتخرج صورة طبق الأصل من منضدة الخديوِ وعليها حروف اسمه الأولى، فهمت أيضًا أن سعيد البربري كان بائعًا سريحًا ثم عمل دلالًا حتى ترقى وصار من أصحاب الدكاكيـن، الغريب أن التركي رغم خداعه للبربري كان يحتاج إليه في أحيـان كثيـرة، أخبرني هـارون أن البربري هو مَن سـاعد أبي ومنصور وقت افتتاح الصالة بجلب المشتري الإنجليزي لحجرة نوم صيدناوي

وإقناعه بالمزايدة على منصور ورفع السعر يومها، لم أفهم سببًا للغش مع هذا الاحتياج سوى أن الثقة الكبيرة تبعد الشكوك. فلن يخطر ببال البربري أن منصور الذي يلجأ له طلبًا للمشورة يمكن أن يخدعه.

توقفت السيارة أمام بيت منصور ودون أن يلتفت ناحيتي قال لسعد كروان بلهجةٍ آمرة:

- وَصِّل الخواجة للصالة مع الضمراني، وأول ما أورفانيللي بيك والست ليلى يوصلوا كلمني.

كنت على موعد مع القدر تلك الليلة لكني لم أكن مستعدًّا للقاء. لمحت أبي في الصالة لكنني ظللت منتبهًا لعملي في المناولة، أشعر بأنه يراقبني، يريدني أن أفعل شيئًا محددًا لكنه لا يخبرني به، نظراته ونصائحه البسيطة عن الأمانة تشي بذلك، وبالرغم من أنه لا يجهر بما في صدره لكنَّ عينيه تفضحانه كل مرة، هذه الليلة بدا حائرًا مهمومًا زائغ النظرات، وعلاقتنا لا تسمح لي بأن أسأله عن أحواله فلم يكن يفتح لي قلبه لنهايته. فقط يتركه مواربًا.

- يمكن تكون الفازة مسروقة، بس أنا سمعت كمان إنها متهربة..

جملة عابرة قالها أحد الزبائن فظللت متسمرًا بمكاني في منتصف الصالة لمَّا أوقفوا المزاد، الإشاعات تولد بسرعة حول القطعة المعروضة، لا أفهم شيئًا ممَّا يدور حولي حتى سمعت سعد كروان يُخبر أبي بأن منصور ينتظرهما في قسم بوليس عابدين، هرولت

لألحق بالسيارة قبل أن يركباها، لكنَّ يدًا غليظة أمسكت بي، التفتُّ لأجد الضمراني ينظر لي شزرًا وهو يقول بحسم:

- أنت حتستنى معايا هنا وأنا حافهمك كل حاجة بعدين.

أفلتُّ ذراعي منه وجريت، لم ألحق بسيارة أبي فوصلت لقسم البوليس لاهثًا، لمحت منصور يتهامس مع المأمور في الفناء بينما يبدو أبي فزعًا، أشار لي منصور كي أتوقف مكاني فامتثلت، ثم اصطحب أبي في عربته وابتعدا، ارتكنت على أقرب سيارة، أشعر أن قدمَيَّ ثقيلتان ودقَّات قلبي تتسارع، مرَّت نصف ساعة وأنا أنتظر عودتهما حتى لمحت الضمراني قادمًا للقسم بدراجته البخارية ذات المقعد المجاور، توقف بجانبي قائلًا بنبرةٍ لم أعتدها منه فخدرتني:

- اركب معايا يا ابني أنا حاقولك على كل حاجة علشان ترتاح وتريَّح أبوك في تُربته.. ربنا يرحمنا جميعًا ويسترنا.

تحجَّرت الدموع في عينَي، أُذناي مرهفتان لسماع تفاصيل الفجيعة، طوال الطريق يروي الضمراني ما حدث من أمي وكيف لم يتحمله قلب أبي الضعيف فكانت كلمة النهاية التي كتبها القدر، لكن الأحداث لم تنتهِ بالنسبة لي بعد.

شعرت بأنهم أطلقوا الرصاص بغزارة على خيول ذكريات الماضي فانطلقت في العتمة تصطدم بي في رعونة وتهور لتهرب من تساؤلاتي، أربكتني تحركاتها فحاولت تفاديها كي لا تدهسني تحت حوافرها، موت أبي كان صدمة كبيرة، ليس لرحيله عني فقط، إنما لغموض

ظروف وفاته، الأسئلة تقتلني يأسًا كل ليلة من الوصول لإجابة تُريح قلبي حتى جاء شقيق والدتي يوسف حسني ذات يوم، قال كلامًا كثيرًا وفتح لي بابًا جديدًا، لم أستطع تكذيبه بسهولة ووجدت صعوبة في تصديقه، فكان بابًا أوسع للحيرة.



3/3

سر المهنة لن يبوح به أحد لك، لكنك ستتعثر فيه حتمًا وستلتقطه بسهولة كلما قطعت خطوات طويلة بعملك. لا تتغير إجابة الريس هارون مهما ناورت بأسئلتي عن سر تقدير القطعة بقيمة محددة ولا يخيب أبدًا. ناداني منصور لأقترب،أمسك بالعصا الخشبية الطويلة وراح يقلب الخليط عكس عقارب الساعة، قدور كبيرة على أفران عريضة تغلي المياه فيها، العمال يلقمونها بكميات كبيرة من قشر البصل ثم يقلبونها جيدًا مثلما علَّمهم المايسترو، يمر منصور من وراء ظهورهم، يكتفي بنظرةٍ من بعيد، يهز رأسه موافقًا أو يُربِّت كتف أحدهم استحسانًا لسير العمل بورشة الضاهر. عرفت من كروان أن هذه الورشة كانت شقة أم منصور ورفض بيعها بعد وفاتها، لا توجد صورة لها على الجدران، فقط صورتان كبيرتان لأبيه وجده متجاورتان وأخرى له وهو في مثل عمري، واقفًا على مقعد ليبدو أطول من آخرين بجواره.. أحدهم أبي.

رفع منصور صوته مُحدِّثًا العامل وهو ينظر نحوي لأنتبه:

- لازم القشـر يغلـي ويدوب لغاية ما المية تشـرب البصل وبعدها السجادة تشربه.

فـي إحـدى غرف الورشـة الفسـيحة كان بعض العمال قـد أغرقوا قطع السجاد بماء البصل المغلي، ثم خلعوا أحذيتهم وراحوا يدوسون عليها، اسـتوقف منصور أحدهم وفحص باطن قدمه، فجأة هوى بكفِّه على وجهه، انتفضنا جميعًا من هول الصفعة، ترنَّح الرجل وسقط على ظهره، راح منصور يوبِّخ الريس هارون بعنف على قذارة قدم العامل.

الخصم ثلاثة أيام مع بعض الصفعات أو ركل مؤخرة المخطئ هو العقـاب الأرحم عنـد منصور، وعلى مَـن يناله أن يحمد ربـه، فبعدها تتنوع الجزاءات وتتصاعد حتـى تصل إلى الجلوس بالبيت كالحريم، وهـو عقاب لن تجده إلا فـي صالتنا، فلا يمكن أن تقبلك صالة أخرى أو حتى حانوت بسيط بوسط القاهرة إذا كنت مطرودًا من «أورفانيللي ومنصـور»، هي الأعلى راتبًا للمديريـن والأكبر يومية للعمال، الأرقى مـن بين كل الصـالات، الوحيـدة التي تقـدم وجبة مجانيـة وصندوق سـجائر صغير كل يوم للعاملين، ثم إنها متفردة فهي التي زارها الملك فاروق مرتين، مَن يتركها يعتبرونه مطرودًا من الجنة ولا بد أنه أكل من شـجرة التركي المحرمة، ومَـن يخرج منها يتعامل معـه الكل من بعيد كما الجمل الأجرب.. لا يؤكل ولا يُركب.

***

كرهت أمي وسيرتها لما أخبرني الضمراني بحقيقة فعلتها، لم أكن سعيدًا بحالي، أريد الانتقام ممَّن تسببوا في موت أبي.. وأولهم أمي، لم أستطع البكاء وقتها، لم يحِن وقت الحزن بعد، أفكر في أخذ ثأري من الملك وحاشيته، دارت في رأسي أفكار صبيانية، تفور وتغلي وتتبخر بعد قليل لتأتي غيرها. تخيلتني أُلقي قنبلةً على موكبه أثناء خروجه من قصر عابدين بعربته المكشوفة وأفر هاربًا على دراجة الضمراني البخارية، أو أذهب للقاء مولانا باعتباري ابن ليلى ثم أطعنه بخنجرٍ من الخناجر التي نبيعها في الصالة، تملَّكني الغضب حتى مزقت صورته التي تصدرت جريدة «المصري» منذ يومين بعدما أطال لحيته. مع الوقت شعرت بأنني نسيت البكاء، ولا بد أن تظل عيناي رائقتين بلا دموع حتى أرى عدوي بوضوح.

عشت مضطرًا مع خالتي بعد وفاة أبي وضياع شقة شبرا منَّا، بعد استيلاء صاحب البيت عليها لدخول أمي المستشفى، لم أعُد أرغب في الذهاب إلى المدرسة، فرحَّب منصور التركي بهجري للدراسة، صرت عاملًا من الفئة الممتازة في الصالة، أحصل على جنيهٍ ونصف الجنيه يوميًا مثلي مثل مساعد رئيس العمال، لا أحد يعرف قيمة راتبي سوى الريس هارون، فهو مَن يسلمني إياه كل أسبوع بتعليمات من منصور.

بعد فترة من رحيل أبي قلب خالي يوسف الموازين كلها، زارني قبل الفجر زيارات طويلة متكررة وحكى لي روايات أخرى، شعرت بأنني أتأرجح بين الحقيقة والكذب، أكاد أهوي في المسافة الفاصلة

بينهمـا، لكنـي خفت ألا يراني أحـد فأبقى بها وحيدًا حائـرًا. ظننته في البدايـة يكذب علـيَّ، يختلق قصصًا لتهدئتي، انتظـرت أن ينهي روايته بـأن أبـي هو الـذي دفع أمـي للذهاب إلـى القصـر، أعلم أنـه لم يكن يحـب أورفانيللي ولم يكونا علـى وفاق، لكن خالي خذلني، دافع عنه باستماتةٍ وشرح لي ما خفي عني، ومع خيوط النهار وضحت الحقيقة أمامي وهدأت نفسي.

اصطحبنـي خالي لزيارة أمـي، ذهبت متلهفًا للقائهـا. بكيت لأول مـرة في حجرتها بمستشـفى بهمان، انهمرت دموعـي على أبي وعلى حالهـا وأنا فـي حضنها، كانـت قوية.. متماسـكة وليسـت رخوة مثل أبـي الطيب، ظلت تربت رأسـي، كلماتها جفَّفت دمعي وأشـعلت نار الانتقـام بصـدري، أوصتنـي بتنفيذ وصية أبـي الوحيـدة.. الصالة ولا شـيء غيرها. خرجت مع يوسف حسـني متحفزًا وحائرًا، عدوِّي أمام عيني أراه كل يوم بوضوح، من السـهل قتله لكن يوسـف وليلى يريان غير ذلك، يريدان الصالة والثروة أولًا وبعدها منصور التركي سيموت لوحده من الحسرة.

يرى خالي أن الانتقام يجب أن يكون على مهلٍ ليموت منصور كل يـوم ألف مرة، سـتتلذَّذ بموتـه البطيء، أما لو عجَّلنا بقتله فسـنفقد لذة تعذيبه وهو يموت أمام أعيننا، راح يردد كلمات الجاحظ بأن ألذ طعامٍ ما كان بعد جوع، وألذ جماعٍ ما كان بعد اشـتداد الشـبق وطول العُزبةِ، وألذ نومٍ ما يعقب السـهر..

سكت يوسف برهة ثم أضاف بعينين لامعتين:

- وألذ انتقام ما جاء على نار هادئة، لترى عدوك يتقلب عليها ويئن من سعيرها.. فيشفي غليلك.

***

عدنا من السجل المدني أنا وسعد كروان والريس هارون وثلاثة من العمال، غيروا لنا خانة الديانة بالبطاقة، صارت الآن اليهودية بدلًا من الإسرائيلية التي كانت تُكتب من قبل، كل شيءٍ تغير بعد الحرب في فلسطين، ذلك أفضل كما قال الريس هارون ولم أفهم السبب، فبطاقتي جديدة ولم يكن ديني عائقًا لأي شيءٍ في حياتي منذ ولدت.

دقَّ جرس هاتف الصالة للمرة الثالثة، كنت الأقرب إليه هذه المرة فرفعت سماعته، جاء صوته خافتًا وهو يقول:

- أنا خالك يوسف، ما تردش عليا كأن الخط انقطع زي المرتين اللي فاتوا.. حانتظرك الليلة بعد الشغل عند جنينة عَدس ناحية الباب الغربي.

وضعت السماعة، التقت عيناي بعيني منصور، أعطاني الإجابة التي توقعها يوسف حسني، فهززت رأسي مؤمِّنًا على كلامه بأن الخط انقطع ولم أسمع سوى صفارة، أمسك منصور بالسماعة ووضعها على أذنه لوهلةٍ وهو يرمقني بنظرةٍ حادةٍ تفاديتها على الفور، بعدها ناولني علبة صلب الماس النمساوي التي اشتراها من بعض مهربي الجمرك بالإسكندرية والذين عرَّفهم عليه البربري، وهرولت لألحق بالضمراني الذي ينتظرني على دراجته البخارية.

قفـزت بالمقعد الجانبي الذي لا أحب الجلوس فيه لأن الضمراني يقود بسـرعة عالية، أشعر دائمًا بأنني سأصطدم بشخصٍ أو عمود إنارة أثناء سـيرنا، أُغمض عيني وأصرخ فيه ليُهدِّئ قليلًا من سـرعته فترتفع ضحكاته عالية كل مرة ويضاعف السرعة. وصلنا مصلحة سَك العملة بمنطقة الدرَّاسة، سـدَّد الضمراني قيمة استئجار الفرن الكبير، وسلَّمنا قطع الصلب للعامل ثم جلسنا نشرب الشاي، كل برهة أنظر في ساعتي قلقًـا كي لا أتأخر على موعدي مع خالي، بعد نصف السـاعة أخرجوا القطع من الفرن، وضعها الضمراني في إناء كبير مملوء بالزيت، أحكم غلـق غطائه ثم عدنا للورشـة، سـلَّمنا الإنـاء للعمال لينتظـروا بجواره ساعتين على الأقل حتى تتشرب الفضة الزيت بالكامل، بعدها يبدؤون فـي صنع أشـكال مختلفة منهـا لا يمكن تمييزها عـن القطع الأصلية، تمهيدًا لبيعها بالمزاد على أنها فضيَّات قديمة من أورُبا.

غيرت ملابس الشـغل وانصرفـت، قرب الثامنة مسـاءً اقتربت من المدخل الغربي لحديقة عدس، لمَّا تأكدت من أن الطريق خالٍ اتجهت لبـاب الحديقة، قبل بلوغه رأيت سيارة أجرة مصر، سـتروين سـوداء قديمة تُشـبه سـيارة أبي لكنها تحمل عداد التاكسي، أنارت مصابيحها مرتين فانتبهت، مع المرة الثالثة اقتربت، بداخلها شخص تلفع بكوفية تُخفي نصف وجهه، يرتدي نظارة غليظة وبيريهًا يُغطي رأسـه وجبهته، سمعت صوتًا من وسط كل هذه الأغطية يُناديني:

- اركب يا خواجة.

كان يوسف حسني هو صاحب النداء. ركبت بجواره وسرنا في طريق من اتجاه واحد لا وقوف فيه ولا عودة منه.



3/4

الخريف هو أقسى فصول السنة بالنسبة لي، صغيرًا يذكرني باليوم الطويل في المدرسة، بالغروب المتعجل للشمس، بعتمة الليل التي تداهم حجرتي لأبدأ المذاكرة، بأبي الذي يعود من عمله ليُتابعني ويمنعني من لعب الكرة بالشقة، بقسوة أمي كي أستذكر دروسي وأصبح مهندسًا، بزيارات خالي يوسف القصيرة في الخامسة مساءً لتناول الشاي، بصبر هارون ورقَّته معي، بشِدَّة منصور وهو يُلقنني أصول العمل في صالة المزاد، بغلاظة الضمراني وقسوته في تعليمي كيفية كشف المقلدات.

ذكريات مزعجة قاسية أحتفظ بها، لم تكد تخرج من رأسي حتى أتت غيرها أشد قسوة لتحل محلها للأبد.

في الخريف تتساقط أوراق الشجر وتتأهب الطبيعة للاكتئاب من الريح التي تترك الأشجار عارية حائرة، حتى لو حاولت إخبارها بأن أوراقًا جديدة ستأتي إليها مع الربيع لن تصدقني، فهي الآن لا تسمع.. صارت كتلة صماء من خشب.. لن تنصت لأحد حتى تنمو أوراقها من جديد، هكذا كنت عندما رحلت ليلى.. ماتت أمي.

- البقية في حياتك.. شد حيلك وافتكر إحنا عاهدناها على إننا نريح قلبها.

هززت يومها رأسي ببطءٍ ليوسف حسني، رحل أبواي غدرًا بسبب منصور وكروان، لم يُرحني فضح علاقة منصور بروحية أمام زوجته بهيرة هانم ولا اضطرابه من خطابات يوسف، لماذا أتركه يعيش ويستمتع بمحاولة النهوض كل مرة بينما أستطيع دفنه للأبد؟! كلما رأيت منصور يسير وسط القطع الكثيرة في الصالة شعرت بأنه يراوغني، جسم الثعبان يكبر كل مرة أطول من سابقتها وأنا مخدر بكلمات خالي يوسف وربما أُلدغ في أي وقت.

***

سلَّمتني أمي قبل رحيلها ورقة المبايعة بثلث الصالة بخط منصور التركي في حضور خالي يوسف، استقر رأي ثلاثتنا يومها على أن المحكمة لن تُعيد حقنا بعدما خسرت أمي القضية الأولى، سنكشف أوراقنا بلا مقابل إذا ما استأنفنا دعوانا، الثلث الذي يمثل نصيبنا لم يعُد كافيًا، فالصالة كلها أقل ما يقدمه لنا منصور قربانًا لجريمته كما قال يوسف وهو يشرح كيفية تهريب منصور معظم أمواله مع مزراحي. لكن الأيام تمر وتصير أسابيع لتشكل شهورًا تتكون منها سنوات ولا شيء يتغير حتى سؤالي بعدما عرفت الحقيقة من خالي:

- إمتى حناخد حقنا من منصور؟

يسكت يوسف لبرهة طويلة كأنه يمسح سؤالي من ذاكرته ثم يجيبني إجابة لم أسألها:

- الجواب ده لازم يوصله الليلة..

سلَّمني الظرف الأحمر واستعجلني كعادته، سئمت خطابات التهديد التي يرسلها يوسف لمنصور كل مرة عن طريقي أو بواسطة آخرين من أصدقائي نظير ربع جنيه لمَن يقبل بالمهمة الخطرة، لكني لا أجد وسيلة لتكديره سواها، اتفقت مع يوسف لتحديد اللحظة المناسبة للانقضاض على منصور، سنجعله يموت حسرةً وحزنًا على حاله مثلما فعل مع أبي لكنه لم ينفِّذ اتفاقنا، حتى اكتشفت أن وعود يوسف مجرد خطوط عريضة لخطة عامة، ولا شيء يرضيني حتى الآن، لكني مضطر لمسايرته وإسكات خالتي الأرملة العجوز التي أعيش عندها وأمنع حماقة اندفاعها كي لا تكشف خططنا، أحاول تهدئتها كل مرة بحجج مختلفة لتصبر، بعدما باتت لا تفكر إلا في الانتقام ممَّن قتل شقيقتها الصغيرة.. ليلى.

عُدت للصالة، ظللت أراقب منصور من بعيد وهو يمر بين الزبائن أثناء المعاينة متظاهرًا بتلميع بعض الفازات، يؤكد لإحدى السيدات أن ما تتفحصه قطعة «ستيل» فرنسي لكنها ليست أصلية، تحمل الملامح الباريسية فقط، تشكره السيدة على أمانته ودقة معلوماته، مسكينة فهي لا تعلم أنه سيبيع لها قطعة مقلدة مثلها بعد قليل على أنها أصلية، يشرح لأخرى تاريخ سجادة عجمية، يرفعها ويتحسَّس خيوطها بكفِّه، يطلب من السيدة أن تفعل مثله، ثم يسألها عن إحساسها لتُجيبه بما يتوقع. يبتسم ويبحث عن ضحية جديدة.

اقترب منصور من عامل يمسـح تمثالًا برونزيًا بقطعة قماش مبللة، جذبهـا من يده برفق، تشـمَّمها ثم طلـب منه زيادة تركيزهـا منبهًا عليه بتوخي الحرص حتى لا يُزيل مادة «الباتينة» من فوق التمثال. يؤكد لنا التركي مرارًا أن الباتينة سر الصنعة وكل صانع لديه سر يخفيه.

تذكـرت كلمـات منصور فـي أول درس لقَّنه لـي.. الجرس للفت الانتبـاه، والشـاكوش للطرق، والعصا للإشـارة، والخبـرة بالعين، ثم بَسَـط ذراعه ممسـكًا بقطعـة كريسـتال ممدَّدة علـى كفِّه، سـائلًا إياي عنها، قبل أن أُجيب امتدت يدي لتلمسـها، ضربني بعصا الإشارة على يـدي ضربة أوجعتني لأيام طويلة بعدمـا تورمت أصابعي، وظل يكرر كلماته:

- بعينـك.. اتعلـم تفحـص بعينـك وحدهـا، حِـس بالحتـة ومـا تلمسهاش غير لما يغلب حمارك يا جحش.

خرجـت مـن ذكرياتـي علـى صـوت منصـور وهـو يرحـب بأحد الباشـاوات، يبدو أنه زبون مهم من زبائن الصالة، فقد اصطحبه لغرفة المكتـب علـى الفور، دخلـت صينية القهـوة خلفهما يحملهـا الريس هارون بنفسـه ثـم لحقتها قطع صغيرة أحضرها الضمراني بإشـارة من عيـن منصـور، فُرِد كتالـوج كبير أمام الباشـا تُقلَّب صفحاتـه ببطءٍ بين يدي كروان، الباشـا يُعامَل معاملة الباشـوات حتى لو تم إلغاء الألقاب ورفعنا رؤوسـنا بعد الثـورة، القطع تأتي إليه ليُثمِّـن ويختار ويزايد في الغد بالسـعر الـذي يتفق على سـقفه مع منصور، تسـحبت كقط جائع

أتشمَّم الفريسة فاكتشفت بعد قليل أن الزبون الأبيض السمين المهم هو وزير الداخلية الأسبق وأكبر جامع تحف في مصر كلها، أفرجوا عنه منذ أسبوع من الاعتقال، فنزل الصالة ليزور منصور وبالمرة يعطيه درسًا خصوصيًّا كما همس لي الريس هارون، درس من المعلم الكبير كما لقَّبه.

كانت تلك أول مرة أرى منصور يجلس كتلميذ على حافة مقعده، ساقاه مضمومتان وصوته خفيض وكلامه قليل. ساعة كاملة قضاها معنا الباشا، تفحص صورًا فوتوغرافية لغرف نوم وصالونات قديمة واختار إحداها ليبدلها له منصور بتلك التي في قصره بجاردن سيتي، بعدها حرص على مصافحتنا قبل انصرافه، سار منصور بجواره متأخرًا بخطوة وهو يودِّعه، قُرب الباب خلع الباشا خاتمه ودسَّه في جيب منصور بعدما همس له بكلمات قليلة وركب سيارته وانصرف.

تفحَّص منصور الخاتم بالعدسة وهزَّ رأسه بعدم رضا ووضع ساقًا فوق أخرى، استدعى هارون وكروان وعرضه عليهما، كل منهما وضع تقديرًا مختلفًا عن الآخر، سألني منصور عن رأيي فتلعثمت في البداية وبعدها قلت:

- قيمته من قيمة صاحبه يا مايسترو والباشا كان...

قاطعني منصور بسرعة:

- غشيم يا خواجة، كل تقديراتكم فشِنك ماعدا هارون، الخاتم ما يساويش رُبعميت جنيه فعلًا، الباشا خلاص راحت أيامه بعدما

صـادروا منه التقايل كلها، أنا حاعتبره مجرد تذكار يفكرني بزباين العز بتاع زمان.

سـكت برهـة وارتـدى الخاتـم فـي بنصـره ورفع كفَّـه مبتسـمًا ثم أردف:

- دلوقتي إحنا نعملها بجمِيلة ومعروف للباشا ونعتبر الخاتم مقابل الفرق بين الصالون اللي حياخده وصالون بيته القديم، وقصادها الباشا يدلنا على زباين من معارفه عندهم تقايل نشتريها منهم بتراب الفلوس ونديلـه عمولـة، هـو أكيـد محتاج قرشـين بعـد الحراسـة والمصادرة والبهدلة اللي شافها.

ختم منصور كلامه بدفعة قوية لدرج مكتبه ونهض قائلًا بعدما نظر في ساعته:

- يلا بينا يا خواجة عندنا مشوار مهم في إسكندرية.

هـذه المرة لم يكن معنا سـوى الريس هارون،أدركت أن المشـوار يحمل قدرًا من الأسرار يرى المايسترو أن العاملين بالصالة لا يقدرون علـى كتمها. عندمـا اقتربنا من الطريـق المؤدي لمدخل الإسـكندرية انحـرف منصـور بالعربة ودخل في سـكة غريبة، تسـاءلت بعفوية عن اتجاهنا فأجابني بلا مبالاة:

- كينج مريوط.

***

قصر كبير تشي جدرانه برونق مفتقد، البربري ورجاله في انتظارنا بمدخله على طرف حديقة شاسعة جرداء، واقفون صفًا كتشريفة ملكية لاستقبال المايسترو، هرولت لألحق بهارون الذي كان يمد خطواته ليسبق منصور والبربري.

في البهو الرئيسي وقفت مشدوهًا من كَمّ التحف والأثاث الموجود بالقصر، والسقف الذي يرتفع لأكثر من عشرة أمتار وتتدلى منه ثريات ضخمة حولت المكان إلى نهار ساطع لمَّا أضاء البربري أنوارها، من بعيد لمحت هارون يوجِّه ثلاثة من رجال البربري يحملون مقعدًا كبيرًا وأريكة متوسطة مبطنة بالقطيفة، تبادل منصور وهارون نظرات غريبة، أشار بعدها منصور لرُكن قصي اختاره بسرعة لتوضع فيه القطعتان، ثم أخرج كاميرا صغيرة وراح يضبط زاوية التصوير، التقط عدة صور للمقعد والأريكة بجوار قطع أخرى، البهو مقسم لستة صالونات رحبة ومنسقة بعناية، كل منها مختلف عن الآخر، كأنك خرجت من بيت ودخلت آخر جديدًا. تكرر الأمر عدة مرات في كل صالون، ثم سلَّم منصور الفيلم للبربري وهو يستعجله لإرسال الصور بعد تحميضها إلى القاهرة في أقرب وقت.

ودَّعنا البربري حتى السيارة وهو لا يزال يؤكد على دعوة الغداء التي اعتذر عنها منصور بحسم. في طريق العودة لم أكن في حاجة لأن يشرح لي أحد ما رأيت، منصور أذكى ممَّا كنت أتخيل وكل خطوة يبهرني عن التي قبلها، هذه القطع التي تم تصويرها اليوم مملوكة لنا وبعضها تم تصنيعه بورش لحسابنا، شحنها هارون من الصالة قبلها بيومين ليصورها منصور في قصر البربري بكينج مريوط، هذه الصور

هي المستندات التي ستدعم حكايات منصور للمشترين من المزايدين وقت المعاينة، سيحكي لهم عن المقعد الذي كان في القصر الفلاني، والأريكـة التي كانت بقصـر آخر ثم يطلب من هـارون كتالوج الصور ببسـاطة، ويتركهم بعدها يكملون كذبته من خيالهم ويصدقونها، وهو واثق من أنهم سيحبكون نهايتها أفضل منه.

فجـأة تبادل منصور والريس هارون نظـرات صامتة لكنها بدت لي خبيثة ثم باغتني قائلًا:

- اتعلِّمـت حاجـة من المشـوار يـا خواجة؟ والا سـافرت جحش وراجع حمار؟

سـألني منصور مبتسمًا وهو ينظر لي عبر مرآة السيارة فرويت له ما فهمته بتحدٍّ حتى لا ينعتني بالحمار مرة ثانية، لكنه لم يُبدِ أي انفعالات وتظاهـر بأنـه يعبث بمفاتيح الراديـو لضبط المحطة، بينمـا تهلل وجه الريـس هـارون وصفق ثم ربَّت كتـف منصور والتفـت ناحيتي محيّيًا، فأدركـت أنـه صاحب فكرة اصطحابـي معهما لكينج مريوط وكسـب الرهان من منصور.



3/5

ظننـت في بداية عملـي بالصالة أن منصور يخسـر أحيانًـا ليُجامل زبائنه، فاكتشفت أنه يطوِّع مسار كل شيءٍ لصالحه، الخسـارة كلمة غير

واردة في قاموسه، مثلها مثل المكسب القليل لا يرضى بهما أبدًا، هو مايسترو على المنصة أثناء المزاد ومايسترو أعظم قبل أن تبدأ المعاينة، يردد كلماته الشهيرة على مسامعنا بمناسبة وبدون مناسبة حتى حفظناها.. «إحنا بنكسب من تغفيل الناس وحبهم للاقتناء والتغير ولو جاملت أو قلت الحقيقة كاملة حتخسر وماحدش حيصدقك، الناس بتحب حكاياتنا علشان تحكيها لناس تانية مغفلة أكتر منها».

اقترب منصور وسلَّمني ملعقة فضية شبه متآكلة، أخرجها من جراب قديم يحوي أخريات، قلَّبتها في يدي ولم أفهم ما يريده، فقال ببرود وكأن الأمر روتينيًا:

- حطها في درج من أدراج البوفيه الكبير بحيث ما تبقاش ظاهرة.

نفذت ما طلبه والدهشة تحاصرني، جذبني هارون برفق من ذراعي وأخبرني بأن منصور يترك قطعًا صغيرة أحيانًا بداخل القطع الكبيرة المعروضة في المزاد، ليُعطي انطباعًا للمشترين بأن المالك الأصلي قد نسيها ولم تمتد يد بعده إليها، ستجد ملعقة في بوفيه قديم، وقد تعثر على قلم حبر بدون غطاء في درج مكتب.. وهكذا، سيفرح المشتري بالهدية المجانية مع أنها بلا قيمة، لكنه سيُصدق حكاية منصور التي رواها له قبل الشراء وستلتصق بذاكرته للأبد.

و[illegible]ازات التي أمرني منصور بنقلها في مكانها، ثم مضيت بخطى متاقلة إلى خارج الصالة أدخن سيجارة، عادة رذيلة نجح الضمراني في ربطي بها ولم أستطع الفكاك منها، جلست على حجر

أملس ضخم قريب من المدخل، أخرجت علبة فضية صغيرة من جيبي، فتحتها فبرز منها الراقصان الصغيران المركَّبان على زنبرك، رجل وامرأة تشابك كفاهما، أدرت المفتاح أربع مرات ثم تركته، لتنبعث الموسيقى الخافتة من العلبة، مقطوعة إيطالية قديمة اسمها «أعيش لهدف واحد وحلم أخير».. أعطاها لي منصور بعد موت أبي، قال إن قبطان السفينة التي وُلِدت عليها أهداها لأبوَي، ثم أخبرني بأن أبي كان يريد بيعها لكنه احتفظ بها، اندهشت من كلامه فقد بدت لي جديدة وكأنها صُنعت بالأمس لكني لم أُعلق.

أغمضت عينَي وأنا أسمع المقطوعة الموسيقية متخيلًا أبي وأمي وهما يحملاني طفلًا على ظهر مركب كبير، لكن كلما سمعتها قفزت لمخيلتي صورة أمواج هائلة تغرق ثلاثتنا.

- منصور بيه هنا يا أفندي؟

انتبهت فوجدت أحد الدلالين يقف أمامي،انزلقت من فوق الحجر بدفعة واحدة، عدلت ملابسي واصطحبته للمخزن من الباب الخلفي، جلست معه أنا والريس هارون، أبلغنا بوفاة ثلاثة باشاوات كانوا يعيشون بمفردهم بلا أهل ولا أولاد في مناطق الجيزة وجاردن سيتي وشبرا، أعطانا العناوين والأسماء وكشفًا بأهم المقتنيات في كل بيت، انسحبت بهدوء أثناء انشغال هارون بكتابة بيانات الدلال ليصرف له إكرامية، بقية السيناريو أعرفه ورأيته عدة مرات حتى حفظته، سيُطلق منصور رجاله إلى بيوت الباشاوات المرحومين بحجة تقديم العزاء،

سيدخلونها ويشربون الشاي والقهوة ليتفحصوا الصالونات وأطقم الصيني والسيفر، سيطلبون دخول دورة المياه لعلهم يلمحون قطعًا أخرى في طريقهم إليها، ثم يعودون إليه بالمعلومات فيتحرك للشراء.

قررت في هذه اللحظة أن أُعكر مزاجه الرائق وأُجفف ريقه الذي جرى على فرائسه الثلاث، طرقت باب غرفة المكتب ودون انتظار الإذن بالدخول دلفت، وجدت سعد كروان جالسًا أمامه، انتظرت حتى أذن لي ثم وضعت يدي في جيبي وأخرجت ظرفًا أحمر قائلًا بلا مبالاة:

- يا مايسترو.. الظرف ده واحد رماه على باب الصالة وجري.

أمسك منصور بالخطاب بيدٍ مرتعشة، ظللت أنظر له في تشفٍّ غسل قلبي مؤقتًا، لكنه لم يُرِحه بعد. أدركت مبكرًا أن منصور يشكُّ فيَّ، تركته بلا تأكيد أو نفي، تعمَّدت أحيانًا تغذية الشك بداخله حتى يقتنع أنني الذي أرسل له الخطابات، ثم أظهر أمامه بمظهر البريء وأحول الدفة إلى يوسف حسني بصورة صريحة، فينقلب الشك في نفس منصور حيرة وارتباكًا، بعدها أنقل شكوكه كلها باتجاه كروان، أجدت اللعب على وتر عاطفته بتلقين كامل من خالي يوسف، أعرف أن منصور يحبني كابنه بل ربما أكثر منه، فعزفت له لحن الوفاء كل يوم.

نجحت في إثارة الشك لديه بأقرب رجاله وأربكت حساباته حتى طرد الضمراني، حان الآن غرس بذرة جديدة مماثلة لسعد كروان الذي

شارك في قهر أبي حتى مات حسبما أخبرني خالي يوسف، لكن الأمر ليس بسهولة التخلص من الضمراني الذي كانت أخطاؤه كثيرة بسبب عدم حذره وثرثرته طوال الوقت، فسهَّل عليَّ معرفة كل ما يُكلِّفه به منصور من مهام سرية، وأيضًا لم يتعرف عليَّ وأنا أقلد صوت منصور عبر الهاتف، يبدو أن الأفيون الذي يتعاطاه قد لحس نافوخه وأفقده تركيزه. أما كروان فهو متعلم، ذكي، شديد الحذر كثعلب مخضرم، يعرف كيف يدخل عرين الأسد ولا يقترب من مخالبه أبدًا، ليخرج سالمًا كل مرة كما يصفه الريس هارون.

***

راح السوق بعد الثورة في غيبوبةٍ لم يُفق منها إلا لمامًا فعدت للدراسة، اقتربت السنة النهائية من الانتصاف وأردت الحصول على البكالوريا بأي وسيلة للالتحاق بكلية الحقوق، انضمامي لحركة «حدتو» منذ شهور شجعني على الاستمرار في الدراسة، تأثرت بكلمات خالي عن الحركة الشيوعية ووجدت فيها ضالتي، أشبعت عندي فضول المعرفة، شعرت براحة غريبة كلما حضرت اجتماعًا مع قيادات الحركة بشقة في وسط البلد، أو بأخرى نائية قرب نهاية شارع الهرم، أو بتلك المزرعة الصغيرة التي على مشارف الجيزة من ناحية طريق الصعيد والمملوكة لابن باشا سابق انضم للحركة مؤخرًا.

على مشارف السابعة عشر من عمري كنت عضوًا بأهم منظمة شيوعية، يومها اصطحبني خالي معه بالعربة للقاء بعض قيادات حركة

«حدتو»، أربعة أحرف مختصرة للحركة الديمقراطية للتحرر الوطني، شدتني كلمات أحدهم لمّا قال إن الدودة تأكل الثمرة من الداخل أولًا فيظنها المرء سليمة لفترة بينما قلبها يتداعى، هكذا ظنَّ الناس بهيئة التحرير أو ثمرة الثورة التي زرعها عبد الناصر معتقدًا أنها ستكبر، وستكون عصا موسى التي ستبتلع كل الحركات السياسية الأخرى والأحزاب، لكن السوس ظل يأكلها كل يوم من جوفها، في حين كنَّا أكثر ترابطًا وتماسكًا في حركة «حدتو».

اعتبرت نفسي واحدًا منهم منذ أول لقاء مع أنهم رحبوا بي في تحفظ، لم يُبدوا قبولًا أو رفضًا فاعتبرت سكوتهم رضا. ظللت أحضر اجتماعاتهم حتى انتبهت العيون إلينا، بدأت المباحث العامة تسير وراءنا، علمت أن البوليس صوَّر حركتنا لعبد الناصر على أنها طوفان سيُغرق حركة الضباط الأحرار ويسيطر على الشارع، تشبَّع ناصر بالمخاوف وأطلق رجاله المسعورين خلفنا، انقلبت علينا الحكومة وصاروا يفتشون عنَّا وينقبون وراءنا، حتى بات باب المعتقل أقرب لنا من أبواب بيوتنا، فاشتعل حماسي أكثر.

دوري الأساسي الذي كلفني به خالي هو ركوب سيارة التاكسي التي يستخدمها كأنني زبون، هي ذاتها سيارة أبي القديمة التي اشتراها يوسف من أمي لصالح المنظمة وحوَّلها لتاكسي، لكن لوحات الأرقام المثبتة عليها مزورة، يغيِّرونها كل فترة. أفهمني أن السيارة تُستخدم كمقر متنقل للاجتماع، يقف بها في أماكن معينة ليركبها قيادات الحركة

ثم ينطلق بهم في شوارع القاهرة وضواحيها لساعات، يتناقشون طوال الطريق ثم ينزل كل منهم في مكان مختلف ليركب آخرون وأنا راكب دائم حتى لا يشير أحد للسيارة.

استخدمنا التاكسي أيضًا في مراقبة منصور التركي قبل كل خطاب يُسلِّم إليه ويكتبه خالي، بعدما كلَّف منصور بعض رجال كروان بمراقبتي، كان من السهل عليَّ كشفهم وخداعهم من خلال ركوبي السيارة كل يوم مع يوسف حسني، حتى صرت أنا مَن يسير وراءهم ويتبعهم وهم لا يتنبهون لوجودنا أبدًا. ظللنا أسابيع نلعب اللعبة ذاتها، حتى وافق خالي على قتل منصور التركي بطعنةٍ موجعة، لكني ما زلت على قناعتي بأنه ثعبان لن يموت إلا بقطع رأسه.



3/6

ليل القاهرة في بعض المناطق غامض، والسير في شوارع وسط البلد بعد العاشرة مساءً في الشتاء مُقلق، يبدو المشهد أقرب لما أراه في السينما، رجل بمعطف طويل وقبعة يُسرع الخطى وفجأة يُطلق عليه مجهول الرصاص، الحوانيت المغلقة كأنها شخوص تراقب بسكونٍ ما سيحدث بعد قليل.

أوقف يوسف حسني السيارة في شارع جانبي حتى لا يستوقفنا «كونستابل» ويسألنا عن التراخيص فيكتشف تزييف اللوحات

المعدنية، ترجَّلت ورحت أتمشى على الرصيف المقابل جيئةً وذهابًا حتى لمحت ألبير مزراحي يغادر بيته في طريقه للجراج القريب حيث يترك سيارته، هرولت ناحية يوسف وأخبرته بخروج ألبير، أدار السيارة مسرعًا وانطلقنا خلفه، هدَّأ يوسف من سرعته حتى يعطيه الأمان وهو يسير نحو ميدان مصطفى كامل، قبل أن يعبر ألبير مزراحي نهر الطريق ضغط يوسف على دواسة البنزين بأقصى ما يمكنه، صدمه بعنف وهو يحاول التراجع، شعرت بعظام ألبير تتكسر أسفل عجلات العربة لمَّا مررنا فوقه في المرة الثانية، انتابتني رجفة هائلة، ظلت كفِّي ترتعش لفترة ولا أتحكم بها، نظرت لخالي منتظرًا تفسيرًا لما حدث لكنه اكتفى بالقيادة كأننا في نزهة، اتجهنا ناحية ميدان الأوبرا، دار يوسف بالعربة دورة كاملة عائدًا لميدان التحرير، ثم انحرف يسارًا إلى كورنيش جاردن سيتي ومنها عبر كوبري عباس في طريقه إلى جراج الهرم.

التفت لي بهدوء شديد وهو يضبط محرك راديو السيارة فانبعثت أغنية «كل ده كان ليه» لعبد الوهاب وقال:

- بالمرة نشوف أحوال المطبعة لغاية ما يغسلوا العربية من الدم اللي عليها ويغيروا النمرة.

قالها وظل يدندن مع كلمات الأغنية بينما كفَّاي ترتعشان من الحادثة.

***

ليس لديَّ أصدقاء مقربون، تمنيت أن يكون لي أخ أو حتى أخت، في أحيان كثيرة يحتاج المرء لأن يفضفض مع شخص ينتمي إليه، شخص من دمه، يفهمه دون أن يقول كلامًا كثيرًا وبلا مقدمات أو حسابات، لكن عائلتي فيما يبدو تكتفي دائمًا بطفلٍ واحد، وربما اشترط القدر عليهم أن يكون ذكرًا كل مرة، جدي ليس له إخوة وكذلك أبي، وها أنا ذا أكمل مسيرة العائلة.

ابتسمت بمرارةٍ وأنا أتذكر كلمات منصور وهو يحدثني عن علاقته بأبي، كيف كان كل منهما طفلًا وحيدًا فتمسكا بصداقتهما أكثر، الحقيقة أنني تمنيت أن يكون منصور أبي.. لكنه الآن عدوِّي ولا أصدقاء لي في هذه الدنيا سوى يوسف حسني، هو الوحيد الذي اخترته، ومجبر أنا على هذا الاختيار.

وضعت بيريهًا فوق رأسي وسيجارة بين شفتَي وانطلقت بالسيارة في حين جلس يوسف بالأريكة الخلفية صامتًا متلفعًا بكوفيته، على ناصية قهوة التجارة بشارع محمد علي توقفت على يمين الطريق، ودَّعني وطالت نظرته قليلًا وهو ممسك بيدي، سلَّمني خطابًا وطلب عدم فتحه إلا في حالة موته، أصابني اضطراب مفاجئ حتى كدت أبكي، لا أعرف ما الذي يُقال في لحظات الوداع ومشاهد النهايات، لكنه حسمها بأن شد على كفِّي وانصرف في اتجاه الغرفة التي يستأجرها على مقربة من المقهى. لم أكن أتوقع أنها المرة الأخيرة التي سأقود فيها سيارة يوسف حسني، يومها طلب مني تولي القيادة مؤكدًا أننا سنمر من شوارع وطرق لا يوجد بها كونستابل، أخبرني

بأنه سيُغادر مصر خلال يومين بالقطار إلى حيفا وحتمًا سيجد وسيلة للاتصال بي.

اختفى خالي بعدها لكنه لم يُسافر إلى حيفا كما قال، ما شغلني هو معرفة مكانه، كل السجون والأقسام القريبة تُنكر وجوده، بعد مرور ستة أيام أصابني اليأس، وفي اليوم السابع ترك منصور جريدته مفتوحة على صفحة الحوادث، ربما تعمَّد ذلك، لمحت صورة يوسف حسني بمنتصف الصفحة، قرأت بعيون دامعة خبر انتحاره، لم أصدق أنه فعلها، أحسست أنني وحيد لأول مرة في حياتي، لم أُصادف شعورًا بهذه القسوة حتى وقت رحيل أبي وقتل أمي. تغيبت عن الصالة ليومين متتاليين لم أذق فيهما طعم النوم ولا قربت الطعام، ذبلت روحي فجأة بموت يوسف الدرامي، ارتعشت أصابعي وخفق قلبي وأنا أفتح وصيته، الرسالة التي أوصاني بعدم فتحها إلا لو مات، وجدت وصيته أن أُطلق إشاعة هروبه إلى حيفا في صفقة مع البوليس حتى تستمر الرسائل الحمراء من بعد رحيله ولا يشك منصور فيَّ، مات وهو يخطط لي، مات وهو يدلني على طريق يحتار الثعبان في التفافه فلا يجدني بسهولة، صدق توقع خالي لمَّا كذَّب منصور خبر الانتحار بالجريدة وصدَّقني حتى صار أكثر خوفًا من يوسف حسني وهو ميت.

اليوم فقط شعرت بأنني يتيم.. واليوم أيضًا تراجعت عن فكرة قتل منصور، تبخرت شجاعتي، سالت فورة غضبي على جبين خوفي فأغرقتني في متاهة، ربما لا أكون مبالغًا إذا قلت إنني أريد البقاء بجوار منصور للأبد، هو الوحيد في هذه الدنيا الذي أستمد الأمان منه، شعور

غريب مُربك لكل حسابات عقلي الذي حار معي وتعب مني، تقلبات رأيي لا تدفعني للأمام ولا تعيدني للوراء، تجعلني أدور حول نفسي حتى أصابني الدوار فسقطت، ولدهشتي لم يقتلني التركي مع أنني صرت فريسة سهلة تحت قدميه الآن، فقط أراني أنيابه، فارتبكت حساباتي كلها من جديد.



3/7

أنهيت دراستي بكلية الحقوق وقيدت نفسي محاميًا، لم يكن مناسبًا أو مقبولًا التردد على المحاكم أو استقبال الموكلين بقميص وبنطلون فقط كعادتي، لكني لا أملك إلا بدلة واحدة صارت ضيقة وقصيرة، قرأ منصور أفكاري يوم التحاقي بمكتب المحامي الشهير ألبير جريش، اصطحبني إلى محلات سالم بوسط البلد، اشترى لي تسعة أمتار من قماش «هيلد» الإنجليزي لتفصيل ثلاث بدل بالصديري، ثم توجهنا إلى صالون الشوربجي، ابتعنا قماش «لينوه» لتفصيل دستة قمصان بياقة عالية بسبب طول رقبتي، بعدها توقف منصور بعربته أمام محل «جورج» بشارع سليمان باشا، اشترى لي ست ربطات عنق حريرية وأهداني نظارة شمسية بيرسول جديدة، أخرجها من تابلوه السيارة وأخبرني بأنه لم يستخدمها.

تمتمت بكلمات شكر متفاديًا النظر لعينيه، ربت ساقي وطلب مني الانحراف يسارًا بالسيارة باتجاه العتبة، كان يشعر بإرهاق فترك لي

قيادة سيارته الفورد الحمراء التي لا يقودها حتى سائقه، لكنه رخَّصها باسمي منذ شرائها ولم أعرف السبب، قلت بلطف رغمًا عني:

- لو عندك مشوار مهم أنا ممكن أعمله لك بعد الضهر وأوصلك البيت دلوقتي ترتاح.

- أنا مش حارتاح يا خواجة غير لما أشوفك زي ما أنا عاوز. ونفسي تبطل جري ورا النسوان وتضيع فلوسك عليهم، ساعات القطعة الواحدة تبقى قيمتها في تفردها يا طِفِس .

كلماته تمس مشاعري كل مرة، تزيح غضبي جانبًا وتتنمر للانتقام فيتراجع خطوة للوراء بصعوبة، نعم خطوة واحدة فقط، فصورة أبي وأمي واضحة أمام عيني لم تغب بعد رغم نعومة منصور معي. جلود الأفاعي كلها ناعمة اكن الحمقى فقط هم مَن يتحسسونها مطمئنين. أردت الخروج من شجوني كي لا أضعف أمامه للحظة فضحكت قائلًا:

- ما جايز أكون أنا القطعة الواحدة دي يا مايسترو، وكل النسوان بيجروا وراها وعاوزين يعملوا عليها مزاد.

اكتفى منصور بابتسامة باهتة وظل صامتًا حتى توقفنا أمام محلات «كسيبة» بالعتبة، أخذ العامل مقاس قدمي بخيط ممتد حولها، ثم رسمها على ورق كرتون مقوى، طلب التركي من صاحب المحل تفصيل حذاءين لي، بُني وأسود برباط رفيع، تكلف الهندام سبعين جنيهًا دفعها بالكامل، رغم ذلك لم أكن مسرورًا وأوجعتني الحيرة.

عدت لبيتي واستلقيت على فراشي، رأيت ليلى وأورفانيللي أمام عيني يقتربان مني ببطء، يتمتمان بكلمات تعبر عن استيائهما مني، أغمضت عيني فرأيتني أمامهما مرة ثانية، مرتديًا ملابس منصور التركي الجديدة وهما يخلعانها عني بضيقٍ حتى تبقَّت النظارة الشمسية، فجأة جذبتها أمي بعنف ثم ألقتها بعيدًا فتحطمت، صرخت في وجهي بكلمات لم أفهمها كلها.. لكني أدركت ما تُريد.

***

مررت بين أعمدة دار القضاء العالي بوسط البلد تتملكني رهبة، شعرت بالخشوع لمَّا سرت في البهو الكبير، انتابتني رجفة خفيفة بمجرد صعودي الدرج الطويل العريض ثم صار الحال أسوأ بداخل قاعة المحكمة، أصابني تلعثم غريب واضطراب بلا سبب، تقطعت كلماتي أمام القاضي في أول يوم عمل كلما طلبت تأجيل قضية أو إثبات دفاع بمحضر الجلسة، عُدت لصالة المزاد متأففًا، تخففت من ربطة العنق بضيق وزفرت طويلًا..

- ما لك يا متر؟

التفتُّ لمنصور الذي يقف في وسط الصالة كزبون حائر، حكيت له ما أصابني من لعثمة واضطراب أمام القضاة، اتسعت ابتسامته واقترب مني قائلًا:

- شوف يا خواجة لازم تتخيلهم عريانين، بيستحموا أو بيعملوا أي حاجة لأنهم ببساطة بني آدمين زينا، حتلاقي الخوف راح منك وتعرف تتكلم زي البرابانت، لكن نصيحة مني دي مش شغلتك.

- لكن أنا باحب المحاماة يا مايسترو، وحاسس إني ممكن أنجح فيها وفي نفس الوقت الصالة موجودة.

- صاحب بالين كداب يا خواجة، مكانك في الصالة، بتفهم في الأنتيكة رباني وبتعرف تقنع الزبون، لكن في المحكمة ممكن تخسر قضيتك لو ما عرفتش تدافع عنها وتقنع القاضي بحجتك، ووقتها ممكن يحكم بالإعدام.

ضغط على مخارج ألفاظه وهو ينطق الكلمة الأخيرة، ارتبكت، أعلم أنه يعرف جزءًا من الحقيقة بسبب مراقبتي وشكه المتزايد فيَّ، هربت منه بالسيارة أمام حديقة جروبي وهو شبه واثق أنني كنت هناك، رأيته بوضوح هو وهارون في مرآة السيارة وتلاقت أعيننا، لكنه لا يريد المقامرة بأوراقه الناقصة، وأظنه لن يفتح نافذة اليقين ليرى الضوء رغم تأكده من توقيت ظهوره، وأنا لن أزيح ستائر الشك المتبقية التي تحجب عنه شمس الحقيقة كلها.. على الأقل الآن.

ودَّعت مهنة المحاماة بعد أشهر قليلة كأنها كانت نزوة عابرة، لم أجد نفسي بها ولم يكن منصور في حاجة لخدماتي كمحام، أموره لا تعرف طريق البوليس أو المحاكم، كلها تنتهي بالصالة، سواء حضر إلينا مفتشو الضرائب أو موظفو الغرفة التجارية من تلقاء أنفسهم، أو توسم كروان فيهم قابلية للارتشاء فأحضرهم للقاء المايسترو. المصب كان في مكتب منصور بقلب الصالة، لكنه لا يُقدم الرشوة صريحة، يُخرج رزمة النقود الجديدة من جيب، وبالأخرى يمسك بظرفٍ أبيض، وبينما يُحصيها ببطءٍ يُصرح بالخدمة المطلوبة من الموظف، عينا

منصــور لا تنــزلان من على وجه المرتشـي حتى يبدأ فـي وضع النقود بالظرف ويتركه على حافة المكتب ثم يولي ظهره لكل مَن في الغرفة. في كل مرة تواجدت فيها بالمكتب يتكرر المشهد ذاته، يأخذ الموظف الظرف بخفة ويدسـه في جيبه وهو يتجنب النظر لنا، وفي كل مرة كان منصـور يلتفت فجأة نحـوه بمجرد أن تمتد يد الموظـف للنقود وكأنه كان يراه بظهره فلا يعطيه أي فرصة للتراجع.

- بكـرة الصبـح تقابلنـي عنـد الصالـة السـاعة 8 وتجيـب معـاك الكاميرا.

كلمـات قليلة قالها لي منصور ووضع سـماعة الهاتف بعدها، كان يداين موظفًا كبيرًا في الحكومة بمبلغ خمسـمائة جنيه قيمة ما اشـتراه من المزاد، ظل الرجل يماطل في السـداد متسـترًا بمنصبه الذي يؤهله ليكـون وزيرًا في التعديل الوزاري القادم كما أُشيع وقتها، اصطحبني منصـور إلـى منـزل الرجل قـرب الثامنـة والنصـف صباحًـا ومعي آلة التصويـر بينما حمل هو حقيبة يد صغيـرة لا أعرف ما بها، انتظرنا أمام البيت على الناحية الأخرى حتى خرج الرجل لعمله بسـيارة الحكومة ثم صعدنا للشـقة تلفني الدهشـة وتمـلأ الثقة منصـور، فتحت زوجته البـاب فدفعها منصـور بعنف ودخلنا مع أنهما يعرفـان بعضهما جيدًا، اتجه لغرفة النوم مباشـرة، جلس على حافة السـرير طالبًا حقه، هددته السـيدة بالصـراخ، أمسـكت بسـماعة الهاتـف مؤكـدة على اسـتدعاء البوليس لنا في الحال.

فتح منصور حقيبته بهدوء، أخرج منها بيجامة حريرية حمراء، ثم بدَّل ملابسه بسرعةٍ فائقة، وضع ساقًا فوق أخرى وطلب مني تصويره، التقطت له ثلاث صور وحرصت على إظهار زوجة الموظف في خلفية الكادر وهي تحاول إخفاء وجهها، بعدها ابتسم لها منصور قائلًا بنبرةٍ لا تقل برودًا عن ابتسامته اللزجة:

- تحبي أطلب أنا البوليس علشان يمسكنا متلبسين في شقة جوزك؟ أكيد حضرتك عارفة إن الراجل مجرد شريك في قضايا الزنا، وساعات بيعتبروه شاهد وبيروَّح بيته بعد ما ياخدوا أقواله في النيابة.. قُلتي إيه؟

انهارت السيدة وجلست على حافة الفراش من الناحية الأخرى تبكي بحرقة، استعجل منصور نقوده، فاتصلت بأصابع مرتعشة بزوجها في مكتبه، روت ما يحدث أمامها كأنها تحكي كابوسًا ثقيلًا ملتصقًا بذاكرتها، أشعل منصور سيجارة وطلب كوبًا من الشاي لكنها لم تقوَ على القيام من مكانها، لم ننتظر كثيرًا حتى سمعنا مفتاح الشقة يدور بعصبية في الباب، اندفع السباب من فم الزوج لمَّا وقعت عينه علينا، لكن منصور لم يرد، بهدوءٍ أمسك بالهاتف وهو يسألني عن رقم البوليس متظاهرًا بأنه لا يتذكره بدقة.

في السيارة طلب مني إحصاء المبلغ بعدما نزلنا متعجلين، صحت بحماس:

- خمسمائة جنيه بالتمام والكمال يا مايسترو.

- اسـتابينا.. ما تنسـاش تبقى تحـرق النيجاتيف بتـاع الصور، ربنا أمرنا بالستر.

ظلت تلـك الحكاية بذاكرتي، أتذكرهـا بتفاصيلها كلما وقعت في مشكلة مشابهة، لكنني لم أملك جرأة منصور بعد.



3/8

أنا مجرد آلة مسـتأجرة،أقود السـيارة بهم، أنقل رسائل من أحدهم لآخرين، أذهب للمطبعة لتسـلم منشـورات أو تسـليم أخـرى جديدة لطباعتها دون معرفة محتواها، لم يسألني أحد يومًا عن رأيي في قضية أو موقف سياسـي، ولمَّا تدخلت في الحديث مرات لم أتمكن في أي مرة من قول رأيي كاملًا، دائمًا يقاطعونني، لا يمهلونني أبدًا للاسترسال أو شرح وجهة نظري، يسفِّهون من آرائي، ربما يرونني صغيرًا أو تافهًا لست أدري، أي شخص يمكنه القيام بدوري، أعمال عضلية بلا تفكير أو تخطيط، لا تحتاج شخصًا مثلي على الإطلاق. راودني شعور أنهم يتحملون وجودي رغمًا عنهم إكرامًا لذكرى يوسـف حسـني، سئمت دوري فـي منظمة «حدتو» مثلما هجـرت المحاماة ضجرًا بها، فبدأت أهتـم بالصالـة مرة ثانيـة وأقلل من تواجـدي معهم متحججًـا كل مرة بأمـرٍ مختلف، فوجدت ترحيبًا بغيابي زادنـي ضيقًا وحنقًا، ثم حذَّرني عامل المطبعة موسـى يشـع منهم مؤكدًا أنهم سـوف يبلغون عني إذا

ما اكتشف البوليس أمرهم، تسهُل التضحية بي عند اقتراب الخطر، فاتفقوا فيما بينهم على أن أكون كبش فداء الحركة.

مع الوقت بدأ صبري ينفد، أريد الثروة والصالة وكل شيء، لكنني مجرد تابع يلهث وراء منصور وهو يصعد إلى القمة وربما يدفعني في أي لحظة فأهوي ولا أنال شيئًا ممَّا تمنيت. في هذه الفترة من التفكير المضطرب جاءتني علامة من السماء تخبرني بوداع منصور للأبد، فُرضت الحراسة على صالة «أورفانيللي ومنصور»، بات الأمر أشبه بكلمة النهاية التي تُكتب في آخر الفيلم، ساعدتني تلك الخطوة من الحكومة على اتخاذ القرار الذي تأخر سنوات طويلة.

جمدت مخاوف منصور مني في ثلاجة الثقة مؤقتًا، جلبت له أسطوانات قديمة أصلية لعبده الحامولي وسيد درويش كان يبحث عنها منذ فترة ليبيعها بمكسب كبير لأحد الهواة، يومها بعدما تفحص هديتي شعرت بأنه ينظر لهارون وكأن لسان حاله يقول لقد عدلت عن شكوكي في هذا الصبي. تلك المنح تسكته وتريحه كمسكنات للشك.. فكررتها، لا مفر أمامي من اللجوء لها كل فترة حتى أستكمل ما أعددته في هدوء.

استغرق الأمر مني شهرًا كاملًا من التخطيط ووضع كل الاحتمالات في الحسبان، يومها فضَّلت عدم دخول الحارة الضيقة بسيارتي وترجَّلت، لاحظت أن عيونًا ترقبني بحذر ربما لأنني غريب عنهم، اقتربت من شباب يقفون على ناصية حارتين وسألتهم عن بيته فلم يُجبني أيٌّ منهم بوضوح، بدوا غير ودودين معي، أمطروني بأسئلة

كثيرة عن سبب سؤالي عنه، قبل أن أشرع في الرد شعرت بكفٍّ تربت منتصف ظهري بقوة، التفتُّ بسرعةٍ فوجدت صبيًّا صغيرًا يهرول مبتعدًا عني، ثم تعالت ضحكات الشباب بجواري، تحسست حافظة نقودي على الفور فوجدتها مكانها، لم أفهم ما الذي فعله الصبي، بعدها التفتُّ للشباب، لم يعودوا فجأة مهتمين بإجاباتي عن أسئلتهم، ثم أشار لي أحدهم بلا مبالاة ناحية إحدى الحارتين قائلًا:

- رابع بيت على الشمال والأوضة على اليمين في الأرضي.

طوال سيري في اتجاه البيت الذي وصفوه لي وجدت المارة يبتعدون عني، يبتسمون لبعضهم ويتهامسون،ثم سمعت صفيرًا متقطعًا، رأيت طفلًا لم يتجاوز العاشرة من عمره يلوِّح براية بيضاء عريضة من فوق منزل صغير، أسرعت من خطواتي مرتبكًا عندما بصقت امرأة أربعينية بدينة نحوي، ثم راحت ترقبني بتحدٍّ وهي تدندن بلحن غريب وحاجباها يتراقصان بينما كفاها تتأرجحان..

«ما لها كبيرة كده ليه يا أفندي.. قد الفطيرة كده ليه يا أفندي»!

تحسست مؤخرتي لا إراديًّا على كلماتها، ثم سمعت صوتًا أعرفه آتيًا من خلفي وأتيت إلى هنا من أجله فالتفتُّ نحوه بلهفةٍ وهو يقول:

- بتعمل إيه هنا يا واد يا خواجة؟!

***

أحيانًا يصبح الزمن مثل فنان سريالي يعبث بالوجوه والأجساد، يحفر أخاديد عميقة بالملامح ويرسم خطوطًا طويلة بعدد السنين، ثم

يصير مثل الريح التي تقتلع معها كل ما ضعف عن مقاومتها.

رأيت أمامي شبحًا لرجل يقترب مني متكئًا على عصا غليظة، لولا صوته لما عرفته، نال الزمن كفايته منه ثم ترك المرض ينهش ما تبقى فيه، صار نحيلًا عجوزًا، سقطت غالبية أسنانه واسودَّ وجهه، شاب الكثير من شعر رأسه ولحق عرج خفيف بإحدى ساقيه، صافحني بترحاب، ثم راح يمسح ظهري بكفه، لاحظت بقايا ذرات بيضاء علقت بأصابعه وباطن يده أشبه بالدقيق، علت دهشتي فقال موضحًا وابتسامته تتسع:

- العيال الناضورجية افتكروك مُرشد للحكومة فعلِّموا على ضهرك بالجير علشان الناس تبعد عنك وماحدش يبيع لك حشيش!

في طريقنا إلى حجرته بحي الباطنية اكتشفت أن لبيب الضمراني لا يسكن في الحارة التي دلَّني عليها الشباب الذين قابلتهم، إنما بعيدًا عنها بأكثر من حارتين أو ثلاثة، كلها ملتوية كثعابين، قطعناها ونحن نتبادل حديثًا وديًا عن الصحة والأحوال دون تفاصيل، عدا أنني سألته عن سرعة تعرفه عليَّ رغم مرور سنين لم يرَني فيها، فقال بحماس:

- الروح ما بتروحش يا واد يا خواجة، ثم أنا مربيك على إيدي وأنت لسه عود أخضر طري.

هبط الظلام علينا أثناء السير ولفَّ الطرقات بسكونٍ مريبٍ رغم حركة البعض من بعيد، بدوا لي مثل خيالات سوداء تتراقص على أضواء مصابيح السيارات القليلة التي تقف على ناصية كل حارة دون

أن تدخلهـا، ما إن لمحهـم الضمراني حتى طلب مني الوقوف مكاني، اختار سـيارة على مسـافة أمتار منَّا، وضع رأسـه بداخل نافذة السـائق لبرهـةٍ ثم ابتعد وهو يُحصـي بضعة جنيهات بيـن أصابعه، اقترب مني فهممت بالتحرك، لكنه تجاوزني للاتجاه الآخر في طريقه لسيارة ثانية تُطلق أنوارًا متقطعة، رفع ذراعه ملوحًا لقائدها مقتربًا من نافذته، تكرر المشهد ذاته ليعود وهو يحصي جنيهات أخرى، لم يتوقف عندي هذه المرة أيضًا، لكنه جذب ذراعي بقوة قائلًا بحسم:

- يـلَّا بينـا نخلـع مـن هنـا بسـرعة يـا خواجـة أنـا خلَّصت شـغل خلاص!

صعدنـا درجات مشـروخة شـبه محطمـة بمنزل آيل للسـقوط، ثم عبرنا من باب خشـبي متهالك إلى السـطح حيـث الحجرة التي يعيش فيهـا، توسـط الضمرانـي أريكـة منبعجـة، أمامهـا موقد صغير بشـعلة وحيـدة خافتة فوقـه كنكة صدئة تآكل نصف مقبضهـا، ثم أخرج قطعة سـوداء من جيب جلبابه أكبر من حبة العدس، أذابها مع القهوة قبل أن تفور، وضع كوبًا أمامي وراح يرتشف الآخر بتلذذ، أعاد إحصاء النقود التي جمعها من أصحاب السيارات، ظهرت علامات رضا على وجهه لمَّا تجاوزت الحصيلة الجنيهات العشـرة، أبديت امتعاضي في مبالغة وأنا أقول:

- مين يصدق إن الضمراني اللي كان علامة جودة لأكبر صالة مزاد في مصر يبقى تاجر حشيش؟!

- أنـت بـس اللـي حيصـدق لأنك غشـيم يـا خواجة، أنـا لا بعت ولا اشتريت.

اعتدل في جلسته بعدما وضع ساقًا أسفل مؤخرته وراح يخلط تبغ سيجارته بالحشيش بهدوءٍ مسترسلًا:

- أنا لطشـت الفلـوس منهم زي العادة لأنهم أغـراب عن المنطقة ومـوش زبايـن وطلعت علـى هنا معاك مـن غير ما أديهـم حاجة لأني أصلًا موش باتاجر في الصنف، أنا الحمد لله باتعاطاه وبس.

- طيـب حتعمل إيه يا معلم ضمراني لما يكتشـفوا بعد شـوية إنك نصاب؟

- موش باقولك غشـيم.. هو في حد حيروح قسم البوليس يشتكي إنه دفع فلوس في مخدرات وما استلمهاش؟!

تعالت ضحكاتي رغمًا عني، أعجبتني فلسـفة الضمراني لأسلوب حياتـه وطريقـة جمعه المال، قبـل أن أفاتحه في سـبب مجيئي انتبهت لضوضـاء بالحارة، اقترب الضمراني من النافذة الضيقة كثعلب عجوز حـذر، أزاح بحرص جانبًا من السـتارة القـذرة المهترئة، ثم هرول إلى دورة الميـاه المواجهة للصالة التي تسـتقبل روادهـا برائحة نفاذة تُعلن بوضوح عن حالتها، نهضت لأتبين الأمر من وراء السـتارة، شـاهدت رجـلًا غاضبًـا يرفـع صوته بالسـباب لآخـر مجهول من سـكان البيت ولا أحد يُجيبه، حوله صبية يستفزونه بضحكاتهم، أحدهم يتعمَّد العبث بمؤخرتـه ثم يفر هاربًا والرجل لا يدري ماذا يفعل معهم، تارة يسـبهم وتـارة يقذفهم بحجـر صغير، فهمت أنه ضحية مـن ضحايا الضمراني

بإحدى السيارتين وقرر الحصول على حقه بتجريسه، هززت رأسي متعجبًا ممَّا أراه منذ وطئت قدماي هذه المنطقة الغريبة.

قبل أن أجلس عاد الضمراني يلهث، حاملًا دلوًا مملوءًا بالمياه الساخنة على ما يبدو، طلب مني إطفاء مصباح الحجرة، ثم سكب الماء دفعة واحدة من النافذة. سمعت شهقة أعقبها صوت ضحكات الصبية عاليًا، ثم موتور سيارة يزمجر حتى ابتعدت وخفت الصوت، عاد الضمراني لجلسته وسجائره الملفوفة قائلًا:

- لا مؤاخذة يا خواجة، قول لي من غير لف ودوران أي ريح طيبة رمتك علينا؟

أشعلت سيجارة وأنا أتفرس في وجهه بعدما لاحظت اضطرابًا خفيفًا بفكه السفلي يحاول أن يُخفيه بصعوبة، لا شك أنه قلق لظهوري المفاجئ، لكني قلت ما يُربكه أكثر:

- إيه قولك ترجع تشتغل في الصالة تاني؟

هرش الضمراني ذقنه ولمعت عيناه الكسولتان ولم يرد، فبادرته بالضربة القاضية قائلًا:

- وتبقى شريك كمان في صالة «أورفانيللي ومنصور».

ندت من بين شفتَي الضمراني ابتسامة استنكار واسعة أعقبها بشخرةٍ بسيطةٍ ثم قال بتهكم:

- ومنصور بيه اللي مشغلك حيوافق على الكلام الفارغ ده بأمارة إيه؟! إوعى يكون ده ملعوب يا واد؟

أخرجت من بين طيّات ملابسي مسدسًا صغيرًا أسود وثلاث طلقات، وضعته على المنضدة الخشبية أمام الضمراني واقتربت من النافذة، أزحت الستارة مستنشقًا الهواء بقوة ثم أشعلت سيجارة جديدة في انتظار ردِّه على عرضي.



3/9

أحيانًا تعطيك الضحية الرصاصات التي تقتلها بها مع أن مسدسك كان فارغًا، خدمني منصور من حيث لا أتوقع، سأتمكن من إدخال الضمراني إلى الصالة عبر باب الممر السري من مكتبه دون أن يعترضه أحد بعدما استطعت تقليد المفتاح الذي سرقته من منصور. سيقتله الضمراني الليلة وينتهي الكابوس إلى الأبد. بعد ساعات قليلة من الآن سيبدأ المزاد، تزاحُم الجمهور يومي المعاينة يشي بأن المزايدة ستكون شرسة والصالة مزدحمة، صحيح أن منصور لا يحب المفاجآت في المزادات ويطوعها لتكون كما توقع، كأنه يشاهد فيلمًا للمرة الثانية ويحفظ كل تفاصيله، لكنه هذه المرة لم يكن مهتمًّا بسبب مزاجه السيئ لمَّا كُسرت ساقه، وبدا عدائيًّا معي ومع سعد كروان بصورة غير مسبوقة.

لمحت الضمراني يتمشى على الرصيف المقابل للصالة فتوجهت ناحيته، التفتُّ عدة مرات حتى ظهر كروان من وراء الواجهة الزجاجية الأمامية اليسرى، تظاهرت بأنني أوبِّخ الضمراني وأتشاجر معه، دفعته برفـقٍ في صـدره ثم اقتربت منـه حتى التصقت به، سـألته هامسًـا عن المسـدس الذي سـلَّمته له وعمَّـا إذا كان جاهـزًا لتنفيذ مـا اتفقنا عليه فاكتفـى بهز رأسـه، بدا لي متـرددًا خائفًا، لـم تُرحني هيئتـه المتخاذلة وزادت شكوكي في ولائه، عيناه تشيان باستسلام وشيك ووشاية على أعتـاب المخاض، مع ذلك دسسـت بجيبه مفتاح الممر السـري الذي سـينفذ من خلاله إلى قلب الصالة، تركتـه وانصرفت محتفظًا بملامح الغضـب والضيق على وجهي ليقرأها كروان، لكنها في الحقيقة كانت قرفًا وندمًا من لجوئي للضمراني وشـكًّا يتنامى فيه كل لحظة. يا ليتني اعتمدت على غيره.

عُدت مسرعًا للصالة وذهني منشغل بالضمراني، تظاهرت بفحص بعض القطع التي ستُعرض اليوم، بعضها يخص الملك فاروق والأميرة شويكار، فازة نادرة بلجيكية ومرآة حمَّام كبيرة، مسدس فضي محفور عليه الحرف الأول من اسم فاروق، ولوحة شطرنج من العاج تنقصها قطعـة الملـك الأبيـض بينمـا الملـك الآخر تاجـه مفقود فصار يشـبه الوزيـر، وشخشـيخة ملونة قال منصـور إنها تخص الأميـرة فوزية لما كانت طفلة، ربما يكذب كالعادة.

- آلا أونا.. آلا دوي.. آلا تري.. مبروك سعادة البيه.

عـلا صوت كروان عاليًا بالصالة، رُسِّـيت أولى المعروضات على رئيس مصلحة البريد السابق، مجموعة من الطوابع الفرنسية الجميلة، لكنهـا لم تلقَ قبولًا كبيـرًا لدى المزايدين فلم يرفعوا السـعر،غالبيتهم ينتظرون بشـغفٍ القطع التي تخص فاروق وأرجأ منصور عرضها إلى الثلث الأخير من المزاد ليضمن حضورًا طوال الوقت.

بعد نصف سـاعة انسـحبت بهـدوءٍ ناحية البـاب الخلفي، غادرت الصالـة دون أن يرانـي أحد، دخلـت المخزن وانتظـرت خمس دقائق مـرت ببطءٍ شـديد، وجـدت الضمراني ترك لـي المفتاح فـي المكان المتفق عليه بيننا بعد دخوله، أشعلت سيجارة لم أشعر بمذاقها وزادتني توترًا، في الموعد الذي حددته فصلت سكينة الكهرباء وعُدت مسرعًا للصالة متسترًا بالظلام.

بعد أقل من دقيقةٍ دوى عيار ناري، ندت صرخة مكتومة أخيرة من منصـور وهو على كرسيه المتحرك، ثـم علا صريخ روحية عشـيقته، أُضيئـت قداحة وسـرعان مـا انطفـأت، راح كروان يصيح فـي العمال كـي يغلقوا كل أبواب الصالة ويمنعـوا الناس من الخروج، كنت واقفًا أمـام قطـع الملك فاروق التي لم تُعرض بعـد ولا تزال على المنضدة، عينـي عليهـا كي لا تمتد لها يـد خفية في العتمة وتسـرقها، عندما أعاد أحـد العمال التيـار الكهربي رأيت الضمراني مرتبكًا مضطربًا ممسـكًا بالمسـدس، أمامه منصور فوق كرسيه المتحرك، تدلت رقبته والدماء تنزف من مقدمة صدره وتغطي قميصه ويبدو قد فارق الحياة.

صرخ الضمراني بصوتٍ عالٍ وعيناه تبرقان بشدة:

- والله العظيم ما كنت ناوي أقتله.

ظل يـردد عبارتـه ثم ابتعد عـن الحضور بمسـافة وعينـاه تائهتان، لا يـران ممسـكًا بمسدسـه، لا أحـد يقترب منـه وباب الصالـة مفتوح أمامه.

حرصت على ألا تلتقي نظراتنا فيفشـي سـرنا، بدا الضمراني كقط حبيـس يتأهب للهجوم إذا ما فكر أحدنا في الإمسـاك به، اصطدم أحد المزايدين بفازة من ارتباكه فتحطمت، أربك صوت تهشمها الضمراني فجرى نحو باب الصالة، فجأة توقف بمنتصفها وهدَّد الزبائن بمسدّسه، أطلق رصاصة في الهواء كي لا يتبعه أحد منهم ثم هرول هاربًا مرة ثانية لكنه تعثر وسـقط على وجهه أمام المدخل الرئيـسي بسـبب ارتباكه، في اللحظة ذاتها ألقى عاملَيْن من الصالة بجسـديهما فوقه وتمكّنا منه، في حيـن كان كـروان يتصل بقسـم بوليس عابدين. لم تمـضِ دقائق كثيرة حتـى كان الضمرانـي مقبوضًا عليه، وخلفه لسـوء حظـه أكثر من مائة وخمسين شاهد عيان.

***

تذوقـت الدمـاء فأعجبني طعمهـا مثلك، ألم أكتبها لك في رسـالة سـابقة؟ طموحاتـي تتخطى السـماء، بينما أحلامك كلها سـتهبط بعد قليـل لترقـد بجوارك في قبرك، ألم أخبرك بنهايتك في رسـالة أخرى؟ الآن أرحت أبي وأمي وشفيت غليلي منك.

حملوه على نقالة بعدما غطوا وجهه تُشيِّعه وجوه فزعة وهمهمات مندهشة وعويل مكتوم لبعض العمال ودموع صامتة من الريس هارون، أغلقوا أبواب السيارة التي وضعوا جثمانه فيها ثم تحركت به ورافقه سعد كروان فقط، راحت السيارة تصغر وهي تبتعد عن نظري، ظللت واقفًا أمام الباب الرئيسي لصالة «أورفانيللي ومنصور»، لا أريد النظر إلى لافتتها، سأغيرها يومًا ما حتمًا بعدما تصير ملكي وحدي.. صالة أورفانيللي، المسألة مسألة وقت ولا شيء أكثر لتحقيق وصية أبي التي أوصتني أمي بتحقيقها. وداعًا يا منصور.. وداعًا يا مايسترو.

تنفست بعمق وأشعلت سيجارة، جلست على الحجر الأملس بجوار باب الصالة بعدما تم تشميعها والتحفظ على كل ما بها بداخلها وأخذ بيانات كل العاملين فيها، فتشوا الجميع قبل السماح لنا بالمغادرة، الوحيد الذي كان يحمل سلاحًا ناريًّا هو الضمراني، كل أصابع الاتهام أشارت إليه بثقةٍ لا تقبل الشك فحبسوه.

في صبيحة اليوم التالي زُرت الضمراني بتخشيبة القسم، أنقدت الصول جنيهًا ليسمح لي بالحديث معه من وراء قضبان الحجز دون تلصُّصٍ من آخرين، صرخ الضمراني في وجهي عندما رآني:

- أنا ماقتلتوش يا خواجة والله العظيم ما أنا، منصور مضروب في صدره، وأنا كنت واقف وراه وقت ما الكهربا قطعت، أنا وعهد الله كنت متردد وخايف، فكرت أكتفي بالعربون وأخلع،بس الشيطان ابن كلب شاطر،غواني وطمّعني وخلاني آجي الصالة،قلت أستسمح

منصور بيه يمكن يرجعني الشغل، وأول ما سمعت ضرب الرصاص طلعت المسدس أدافع عن نفسي وقلت أنت أكيد حتخلص مني، لكن وأيمانات المسلمين ما عملتها، ده أنا كنت ناوي أرجع لك الفلوس و......

لم يُكمل الضمراني عبارته، شددته من مقدمة جلبابه بعنف، ضغطت على كلماتي محذرًا:

- وطّي صوتك واخرس يا ضمراني الكلب.

ثم أردفت بنبرةٍ أهدأ:

- امسك على الكلمتين دول في التحقيق، قول إنك كنت واقف ورا منصور وأنا حاعرف أخرجك، بس إيَّاك تجيب سيرة عن الاتفاق اللي بينَّا وإلا تشيل القضية لوحدك.. فاهم والا أقول كمان يا خسيس؟

- فاهم.. فاهم.. بس والنعمة أنا جبان، لا خاين للعِشرة ولا خسيس، دي ساعة شيطان وراحت لحالها وماخبصتش عليك،أبوس إيدك يا خواجة ما تسيبنيش.أنا حتى ماعنديش محامي.

- أنا حابقى المحامي بتاعك يا ضمراني.. اطمن. وما تشغلش بالك بالأتعاب أنا حاخد منك الفلوس اللي إديتهالك بما أنك ما قتلتش منصور زي ما بتقول.



3/10

شـعرت بسَـكينةٍ هائلةٍ تغلفني بينما المقرئ يرتل سورًا قصيرة من القرآن مع أني لا أفهم منها شيئًا كثيرًا، بعد مرور ساعتين شعرت بتعبٍ من جراء الوقوف وتلقّي العزاء فجلسـت في نهاية الصالة بركنٍ منزوٍ، انتبهـت للجالس بجواري وهو يبتسـم لي نصف ابتسـامة ويعزيني في وفاة المايسـترو، تفرسـت في وجهه لبرهة بعدمـا صعب عليَّ معرفته، تبدلت ملامحه مثل أحواله، أفلتت مني ابتسامة تشفٍّ لم أستطع منعها وأنا أقول له:

- معقول؟ بوللي بيه مهندس السـرايا بشـحمه ولحمه.. الله يرحم أيامك يا...... والا بلاش لتزعل من الكلمة.

رد الرجل ببرودٍ يحسد عليه:

- لا يـا خواجـة أنا عـارف الكلمة اللي بتدور فـي بالك، لكن أنت عندك عقل ومتنور ومنصور بيه كان بيعتبرك البريمو في الصالة.. عيب لما تفكر كده.

- لا مؤاخذة يا بوللي بيه دي موش شتيمة، دي صفة لمعاليك على قدر خدماتك الجليلة لمولانا.

- خسـارة أنك بتفكر زيهم.. شـوف يا حبيبي فاروق كان ملك ابن ملك، تربية سـرايات.. يعني أي سـت كانت تتمنى أنه يكلمها أو حتى

يبتسم لها، موش محتاج لبوللي ولا لغيره علشان يعمل له كده.

شعرت بخجلٍ لوهلة، كلمات بوللي وطريقته في الحديث مقنعة، لكنني لم أنسَ بعدُ أنه أحد كلاب منصور الذين ذهبوا بأمي رغمًا عنها للسراي ففقدتها وأبي من قبلها بسبب هذا المشوار المشئوم، هذا الغراب العجوز الذي يجلس أمامي وقد سقط معظم ريشه ولم يعُد ينعق أو يطير ساهم بالدور الأكبر في تلك المؤامرة، الآن فقد قيمته كأي قطعة فالصو في المزاد، وبعدما كان الناس يتهافتون عليه ويُغرقونه بالمال ويسمونه سرًّا فاروق الثاني، صار لا يساوي ثمن الخشبة التي سيُدفن فيها، مع ذلك شعرت بشفقةٍ تتخلل مشاعري على حاله، أعرف أنه أخبر الضباط بكل ما يعرفه أو حتى ما كان فاروق يفكر فيه لكي ينجو بنفسه.. معذور.. ربما لو كنت مكانه لفعلت أكثر ممَّا فعل.

وقعت عيني على حذائه فوجدت به ثقبًا كبيرًا يظهر منه أحد أصابعه بوضوح، كان يرتدي جوربًا متهدلًا، تتناثر بعض بقع الزيت على أكمام سترته كجزر صغيرة، فأخرجت خمسين جنيهًا من جيبي ودسستها بكفِّه، قبل أن أقول له كلامًا يطيب خاطره ليقبلها أعادها لي قائلًا:

- ميرسي حبيبي أنا لقيت شغل في محل حلواني، بوللي موش محتاج صدقة من أفندية.

انصرف بوللي غاضبًا، لاحظت عرجًا يسيرًا بمشيته وهو يبتعد عني، يبدو أنهم جردوه من ممتلكاته كلها بما فيها عصاه الأبنوسية،

ظللت في مكاني حتى غادر الجمع الغفير مسجد عمر مكرم بعد قراءة الفاتحة، لم أرَ في حياتي كل هذا العدد من المعزين في سرادق واحد، كل مَن تعامل مع منصور حضر، لم يتغيب أحد، كأنه مزاد كبير من الجمهور لوداع المايسترو، فرصة لتذكر أيام الزمن الجميل كما يقولون عنه الآن، مع أنه لم يكن كذلك بالنسبة لي.

انصرفت بالعربة الفورد الحمراء في طريقي لشقة الهرم لجمع بقية متعلقاتي منها، لاحظت سيارة سوداء كبيرة تسير خلفي منذ تركت المسجد حتى عبرت كوبري قصر النيل، انحرفت أقصى اليمين باتجاه الزمالك فانحرفت ورائي، قرب منتصف كورنيش النيل هدأت من سرعتي، نظرت في المرآة فوجدت السيارة توقفت، نزل منها شخص وأكمل سائقها سيره وتجاوزني فعاودت السير باتجاه الهرم، قرب ميدان الجيزة لاحظت مرة ثانية أن عربة زرقاء صغيرة لا تزال تسير خلفي منذ كنت بالزمالك، ثم وجدت مرسيدس بيضاء تقترب مني وتحافظ على المسافة بيننا، لتختفي العربة الزرقاء فجأة في شارع جانبي، مضيت في طريقي حتى بداية شارع الهرم ثم ضاعفت من سرعة السيارة حتى انحرفت أقصى اليمين، تركت العربة بعيدًا وترجّلت مسرعًا، كل برهة أتلفت خلفي لكني لم أرَ المرسيدس البيضاء مرة ثانية.

توقفت أمام مدخل البيت القديم لوهلة، أدرت المفتاح لكن قبل أن أغلق الباب وجدت يدًا غليظة من خلفي تهبط على كتفي، ثم ظهر أكثر من عشرة رجال ازدحم بهم مدخل البيت، اقتادني اثنان منهم

مقيد الحركة إلى داخل الشقة ثم هوت كفٌ ثقيلة على وجهي، توالت عشرات الركلات والصفعات بكل جسدي وانهال السباب فوق رأسي، وجدتني متكومًا لا أتذكر كيف سقطت، الدماء تنزف من فمي ورأسي بغزارة، أقدام كثيرة تدب بالمكان، سمعت أصوات ضوضاء من إحدى الغرف، ثم خرج أربعة رجال يحملون بعض الأظرف الحمراء والآلة الكاتبة التي أكتب الخطابات المرسلة لمنصور عليها، كلها نسيتها هنا، لتعتلي الابتسامة جميع الوجوه.. إلا أنا.

***

الأهرام الثلاثة مضاءة لكنها ليست بالدرجة ذاتها، الكبير أكثرها ضياءً والأوسط يظهر بوضوح لكنه ليس مكتملًا، أما الصغير فقد توارى مستمدًّا ظهوره الخافت من انعكاس ضوء الهرمين الآخرين.

بصقت بمجرد خروجي من قسم شرطة الهرم، لا أصدق أنه أبلغ عني، حتى بعد رحيله لا يريد ترك ذكرى طيبة، ظللت واقفًا أمام قسم البوليس بعدما أفرجوا عني أبحث بعينَي عن سيارتي الحمراء ولا أجدها، لولا تدخُّل الضابط أحمد عيسوي لكنت في التخشيبة منتظرًا ترحيلي للنيابة، وبعدها في السجن مع مئات الشيوعيين المحبوسين مثلما يحدث هذه الأيام. عرفت من ضابط مباحث القسم أن منصور أبلغ قبل وفاته بأسبوعين عن شكوكه في انضمامي لمنظمة «حدتو» وأن خالي يوسف لا يزال هاربًا، بالتأكيد كان يهدف من بلاغه إلى القبض على يوسف حسني، صار شبحًا بالنسبة له ولم يعُد هناك

خيط يوصله إليه سـواي، راقبوني حتى ضبطوني متلبسًـا بشـقة الهرم، ما لا يعرفه منصور وضباط القسـم أنني أبلغت الضابط أحمد عيسوي بالمعلومات كلها قبل شـهرين ليُخبر بها زملاءه القدامى بالأمن العام، دلَّلته على الشـقة التي بها المطبعة ومخزن حفظ المنشورات، رسمت لـه خريطة تفصيلية، حـدَّدت له أماكن التوزيع وأمددته بأسـماء معظم أعضـاء التنظيم الذين يسـتقلون معي السـيارة التاكسـي بعدما أكد لي عامـل المطبعـة موسـى أنهم سـيضحون بي وحـدي لو انكشـف أمر المنشورات. تنفسـت الصعداء، لولا أن ضباط القسم هنا يرتعبون من اسـم اليوزباشي أحمد عيسوي واتصلوا به لكنت من المفقودين، فمَن يذهب وراء الشمس هذه الأيام سيعيش بقية حياته في غروب.

عصافير كثيرة اصطدتها بحجرٍ واحد، قدمتهم وليمة شهية للحكومة لعلها تنفعني في طريقي الذي سـأخطو فيه أولى خطواتي، الغريب أنه رغم انتقامي من الجميع ظل الضيق محشـورًا في حلقي بسبب وشاية منصور التركي بي في خسَّـةٍ ونذالة. مع ذلك لسـت نادمًا فهو يسـتحق الموت ألف مرة على مجمل أعماله.

- عندنا تعليمات من الباشا بعدم تسليمها.

ظللت متسـمرًا مكاني أمام ضابط القسـم عندما عُدت لسؤاله عن الفـورد الحمراء، أدركـت بعد تفكير قصيـر أنها مكافأة عيسـوي التي قررها لنفسـه مقابل أن يُصدقوني ويُخلوا سـبيلي وأُستبعد من القضية كشـاهد ملك، مثلي مثل بوللي، يوم أو يومان على الأكثر ويرسـل لي

مبايعة لتوقيعها، فعلها من قبل مع منصور وحصل على شقة بعمارة باب اللوق بالطريقة ذاتها لمّا رفع عنها الحراسة، خرجت بابتسامة مهزومة تحمل كل المرارة، أشرت لأقرب تاكسي في طريقي لوسط البلد، إلى محطتي الأولى التي سينطلق منها قطاري.. قطار الثروة وصالة أورفانيللي.. إلى روحية عشيقة منصور.

تبدَّل حال الشقة، راحت روح منصور منها ولمساته الأنيقة البسيطة فيها، ساد ذوق روحية على المكان فشعرت بضيق. جلست أمامها على منضدة السفرة، ظلت تتفرس فيَّ بقلقٍ بينما عاصم يجلس على رأس المائدة متصدرًا مكان أبيه، لم أُعره اهتمامًا ووجَّهت كلامي لها، كنت محددًا، أرى هدفي بوضوح، أريد ثلث الصالة، نصيب أبي، لكنني لا أستطيع كشف أوراقي كلها بعد، روحية مجرد عشيقة لمنصور ولا صفة رسمية لها،أما كتلة الدهن الذي يجلس بيننا، فهو لا يزال صبيًا لا يملك من أمر نفسه شيئًا. وأشعر دومًا أنه بليد الذهن بصورة ملحوظة.

أعدت على مسامعها كلمات العزاء التقليدية ثم تجاوزتها بسرعة كحاجز منخفض منطلقًا نحو غايتي، حدثتها بوجهٍ باسمٍ وصوتٍ مفعمٍ بالثقة مثلما علَّمني منصور، شرحت لها فكرتي القديمة، تخصيص ثلث الصالة الأخير بالشقة التي كتبها منصور باسمها لتكون محلًا لبيع التحف الصغيرة، وبينما أُعدد لها مزايا الفكرة أخرجت روحية ورقة مطوية من محفظة صغيرة لم تتركها منذ جلسنا،دفعتها نحوي برفقٍ

وهـي مُطرقة بحـزنٍ غارقة في دموعها.. قرأتهـا غير مصدق، صدمتني المفاجأة وأطاحت بأحلامي كلها فبعثرتها أمامي.



3/11

صـرت أكـره المفاجـآت وأحـب التأكـد مـن كل التفاصيـل بنفسـي،تحولت لنسـخة كربونية من المرحوم منصور التركي، عالمي الـذي أنظمـه يجـب أن يسـير مثـل السـاعة السـويسـرية التـي تحيـط بمعصمـي وورثتهـا عنه خلسـة قبل تغسـيل جثتـه. لكن هذا الشـعور يقتلنـي، أريد الخروج مـن عباءة منصور وأرغب في أن أكون نفسـي، أصبحت مسـاعدًا لكروان في الصالة بأمر مباشـر من روحية أو الهانم كمـا بات يُلقبها الجميع هنا، اكتشـفت مع الوقـت أنني كالمطر، هناك حاجة إليه لكن كلما ازداد ضجر منه الجميع، رغم ذلك باشرت عملي كأنها صالتي وحدي.

لا أصـدق حتـى الآن ما قرأته عيناي في الورقـة المطوية يوم زرت السـت روحيـة في بيتهـا وأجبرني علـى تغيير مخططي، آخـر ما كنت أتوقعـه أن يتزوجهـا منصور رسـميًا قبل رحيله بشـهرين لترث الصالة وما عليها وما خفي أيضًا وهو ليس بقليل، مفاجأة مذهلة توالت بعدها مفاجـآت أخـرى عندمـا اكتشـفت أن كروان هـو الشـاهد الأول على

عقد زواج روحية ومنصـور، ثم كانت المفاجأة المدوية عندما راحت الســت روحية تمطرنـا بقراراتها المؤلمة مثل بندقية سـريعة الطلقات، دعتنـا لاجتماع ضيِّق بالصالة، اختارت يوم الأحد حيث تكون مغلقة، جلسـت على مكتب المايسترو، ربما لأول مرة في حياتها وتمنيت لها أن تكون الأخيرة، بجوارها سـعد كروان مبتسـمًا بتحدٍّ، وعلى يسارها كتلـة الدهـن عاصم يعبث فـي خصلات شـعره، وأنا وهـارون أمامها مترقبـان، أما بقية العمـال فقد تراصوا وقوفًا في صفَّيـن خلفنا، عقدوا أذرعهـم على صدورهم، تفضحهم عيونهم، القلق يطل منها خوفًا من تخفيض مُنتظر لرواتبهم.

لا أعـرف لمـاذا ذكَّرنـي المشـهد بمحكمـة الثـورة التي كنَّـا نتابع جلسـاتها بالجرائـد، قضاة لا علاقة لهـم بالقانون، يحاكمـون مدنيين مظلومين، ومحامون منتدبون لزوم الشـكل، يلتمســون الرأفة كأقصى أمانيهـم، وقضـاء نافـذ فـور صـدوره لا يجـوز رده ولا حتـى الدعـاء باللطف فيه.

قالـت روحيـة بصوتهـا المبحـوح إن منصور تـرك لهـا وصية قبل وفاته وعلينـا جميعًا الالتزام بها لنُريحه في قبره، نظرت صوب الريس هـارون فوجدتـه كعادتـه يكتفي بهـز رأسـه ولا يعلق، فتحـت روحية حقيبتهـا وأخرجت ورقة كبيـرة، راحت تفردها ببطءٍ لتزيدنا تشـويقًا، ثـم قرأت على مسـامعنا وصية التركي.. رحت أتثـاءب من تفصيلات ماليـة لا تعنينـا وتهمها وحدهـا باعتبارها وريثة مع كتلـة الدهن، حتى انتبهـت للفقرة الأخيرة التي تقول فيها.. «ويتولى الريس هارون رعاية

عاصم حتى يبلغ سن الرشد فيكون مسئولًا وحده عن الصالة وإدارتها ولحين ذلك يكون سعد كروان مديرًا لصالة أورفانيللي ومنصور، ويختار معاونيه ومساعديه من العمال دون الرجوع لأحد».

شعرت لوهلة أن روحية تدير مزادًا على الصالة نفسها لحسابها، تبيع تاريخها وأصحابها بثمن بخس لسعد كروان، تملكتني الحيرة من تبدُّل روحية، كيف تتحول السيدة التي كان يقول عنها المايسترو إنها «بنت بلد جدعة» إلى امرأة لئيمة، شرهة، طامعة في السيطرة على كل شيء ليتردى بها الحال إلى تحالف مشبوه مع كروان.

انتحيت جانبًا بعد الاجتماع بالريس هارون،سألته بدهشة عن القتيل الذي يموت فجأة برصاصة في الصالة لكنه مع ذلك يترك وصية قبلها، ابتسم الرجل العجوز وهو يخبرني بأن الاحتمال الوحيد لأن يفعل ذلك أن يكون القتيل شريكًا في قتله، ثم غامت ابتسامته.

عاد هارون لصمت الوجوم بعدها فجذبته من ذراعه قائلًا بحسم:
- مستعد تقول كلمة حق يا ريس هارون؟

ظل العجوز ينظر في عيني بعمق ثم تركني ولم يرد.

راح العمال يكدسون القطع بالصالة بعدما أمرتهم روحية بترتيبها قبل انصرافها، نهرهم هارون مثلما كان يفعل منصور التركي وهو ينعتهم بالغباء، لا أبالي كثيرًا، الأمر سيان بالنسبة لي، مَن يأتي إلى هنا سيشتري حتمًا حتى لو رأى المخزن فقط، لأنه يقتني قطعة من صالة «أورفانيللي ومنصور»، تلك قيمة أضافها منصور لنا ولا تتوافر لأي

صالـة مزاد أخرى، هكـذا علمتني التجربة، أهم ما في الصالة اسـمها، هـو الذي يجـذب الزبائن، الشـبكة التـي تجمع كل الأسـماك الكبيرة والصغيرة على السـواء، يُزيِّنها اسـم أبي أو اسـمي كله الآن.. لا فرق، لكن ما يفسد المنظر هو حرف الواو الذي يفصل بيني وبين المايسترو، قريبًا سأمحوه من عليها بعدما قررت التخلص من المدير الجديد الذي أوصت به روحية، قبل أن يبتلعني بوصيتها المزورة.

***

الذيـن لا يتعلمون من دروس التاريخ محكوم عليهم بتكراره، وأنا تعلَّمـت الـدرس جيدًا ولن أُكرر خطأ منصـور عندما مد يده إلى جحر الثعبـان لاصطيـاده، لا بد أن تسـتدرجه للخارج أولًا ثم تفصل رأسـه بعدها بضربةٍ واحدة.

- عاوز أقابل أحمد باشا عيسوي ضروري.. موضوع شخصي.

لـم يكن لـديَّ حلول أخرى للقاء الباشـا، مشـاغله كثيـرة بعد نقله لـوزارة الخارجيـة وسـكرتيرته تبدو وكأنهـا لم تعرف معنى الابتسـام مـن قبل، غابت لنصف دقيقـة ثم دعتني للدخول بضيـقٍ كأنها هُزمت فـي معركة. لـم يمنحني وقتًا حتـى للجلوس، سـألني بضيقٍ مضاعف عـن هـذا الموضـوع الشـخصي، وبدا من سـؤاله أنـه ينـوي عقابي لو تلاعبـت به، كشـفت أوراقـي كلها علـى طاولته، صرت مسـتعدًّا لأي خسـارة أمام الآخرين إلا روحية وكروان. تفحَّص ورقة المبايعة بخط منصور ووثيقة زواجه من روحية التي حصلت على صورة رسمية منها بمعاونـة من الريس هارون وعاد بظهره للـوراء وهو يقلب عرضي في

رأسـه، التنازل عن ثلـث الصالة له نظير الخلاص مـن الأفاعي الثلاثة كروان وروحية وكتلة الدهن. لكنه فاجأني قائلًا:

- شـوف يـا خواجة أنـا باحبك لله فـي لله ومش عـاوز حاجة من الصـالة وماتهمنيش. أنا حاخدمك علشان خاطر المايسترو الله يرحمه لكن اعمل حسابك دي آخر خدمة وبعد كده تحل مشاكلك لوحدك.

خرجت وأنا أرى أمامي قطع الدومينو متراصة على طاولة الصالة، تنتظر لمسـة واحدة من عيسـوي لتسـقط ويبـدأ دور جديـد بقواعدي أنا. لكني لن أسـامح نفسي وسأظل ألعن غبائي في عدم ملاحظة توقيع كروان اليهودي على عقد زواج روحية ومنصور المسلمَين.

مرت أسـابيع لكني إلى الآن لا أعرف لماذا تأخروا عن ضبط سعد كروان بعدما أخبرني عيسوي بأمر البطاقة المزورة التي يحملها وشهد بها على عقـد زواج منصور وروحية، الدليل في جيبـه، يتحرك به ليلًا ونهـارًا، لا يحتاجـون لأي مجهود في إدانته، علـى الأقل بجناية تزوير ليختفي بالسـجن بضع سـنين، كفيلة بمنحه لقب مرحوم قبل خروجه منه.

- كـروان اتصل امبارح بالتليفون وطلب إجازة أسـبوعين، قال إنه مسافر إسكندرية عند جماعة قرايبه.

اسـودَّ وجهي على كلمات هارون وهو يُخبر روحية بسـبب غياب المدير، لا بد أنه اشـتمَّ خبر القبـض عليه ويريد الفرار خارج مصر عن طريق البحر، اتصلت بضابط البوليس الذي أمره عيسـوي بمساعدتي، استمعت كثيرًا وكدت أرقص وأنا ممسك بسماعة الهاتف، طلبت رجاءً

من الضابط في كلمات قليلة، وبعد نصف الساعة كنت داخل تخشيبة قسم شرطة شبرا، وجدت كروان وراء القضبان كفأر غيطان محاصر بعدما أوسعه الفلاحون ضربًا بالعصي، يبدو غريبًا للغاية عن المشهد من حوله، عشرات النشالين واللصوص والقوادين والشحاذين يمتلئ بهم الحجز، رائحة التّتن تخترق أنفي رغم المنديل الذي أتلثم به، قميص كروان خرج من بنطاله مثل راديو نُزعت سلوكه عنوة، يمسك في يده بنظارته الطبية محطمة وعيناه تشيان باعتداء سخيف وقع عليه منذ قليل ونال كفايته من كرامته، اقتربت منه قائلًا بشماتة:

- ولا يهمك السجن للجدعان.. اعمل لي توكيل في مكتب المأمور وأنا مسئول عن قضيتك يا أبو البلابل.

خرجت من القسم وأنا أمسح بَصقة كروان من على وجهي بمنديلي المحلاوي، لا تزال بقاياها عالقة بقميصي، لكني مع ذلك كنت أبتسم بعدما اجتزت عقبة ثـ ـمة كبيرة، عُدت للصالة وزففت الخبر لروحية في حضور الريس هارون، تهلَّل وجهه واقترح بغير اتفاقٍ بيننا تعييني مديرًا مؤقتًا لحين إنهاء قضية كروان، ظلت روحية تنظر نحوي نظرة غامضة مريبة أخافتني، لكنها لم توافق.. ولم ترفض.



3/12

صار الكل يتجنب المزادات لأنها كاشفة عن ثروات مخبأة، الجميع يخفي كل شيء، أمواله ورأيه وحتى أحلامه، فقط أنياب

روحيـة الوحيدة هي التـي بدأت في الظهور، خفضت راتبي الشـهري أولًا، كأنهـا تعاقبني على ترشـيح هارون لي كمديـر للصالة مع أنها لم تمنحنـي المنصب، فصرت نائبًـا لمجهول وكأن القـدر يعاندني حتى اللحظـة الأخيرة، ثم قطرت يدها في تصنيـع القطع المقلدة، اقترحت عليهـا أن ننتهز فترة فرض الحراسـة وركود السـوق فـي تجميع القطع التي يحتفظ بها الباشوات في بيوتهم، يحتاجون للمال وسنبيع قطعهم بأضعـاف ثمنها يومًا ما قريبًا، تقبّلت روحية الفكرة على مضض لكنها لم تبسـط كفها لأشـتري كل مـا أريد، بالكاد جمعـت بعض القطع من البيوت وأودعتها مخازن منصور بمنطقة المعادي.

اليـوم ضممـت روحيـة إلى خصومـي.. وقفت في الصـف بجوار عاصـم التركي، تقدمته بحكم سنها رغم أن نصيبها في الصـالة أقل منه، تنهدت مشجعًا نفسـي على مواصلة الطريق، على الأقل تخلصت من عقبة كبيرة.. سعد كروان، النيابة قدمته للمحاكمة محبوسًا منذ أسابيع، يواجه تهمًا بالتزوير واستعمال البطاقة المزورة. البطاقة التي اصطنعها ليهـرب من الترحيل ومصادرة أملاكه العقاريـة العديدة التي وضع بها كل ما كسبه من منصور.

جـال بخاطـري رفع قضيـة مدنية لإبطـال عقد الـزواج بين روحية ومنصور باعتبار أن كروان شـاهد العقـد كان يحمل بطاقة مزورة لكن تنقصنـي الصفة، وكتلة الدهن لن يوافق علـى توكيلي ضد زوجة أبيه، يعتبرها أمه ويلتصق بها كالرضيـع رغم تجاوزه العاشرة بكثير، فعدلت عن الفكرة.

رحت أتأمل أسماء الباقين، أرقش رحَّلوه من مصر مع يهود كثيرين فهاجر إلى فرنسا، وبهيرة تزوجت كما نسمع واختفت من البلد فلا خوف منهما، شطبت اسميهما من الورقة، نظرت للصف الذي رسمته، ثم وضعت اسم مصطفى الشابوري بخط صغير بجوار روحية وعاصم، عقبة حكومية رسمية بسبب صفته رغم طيبة قلبه وسذاجته، لكني لن أفلح في تجاوزها إلا إذا حملني الضابط أحمد عيسوي بين ذراعيه وعبر بي إلى بر الأمان، بعدما عجز تفكيري عن تمهيد طريقي من جديد.

***

- خليه جنبك في كل خطوة يتعلم منك، زي ما المرحوم منصور علمك زمان.

أفقت من شرودي على كلمات روحية، يقف عاصم بجوارها مبتسمًا في بلاهة، تليق بسخافته وثقل ظله ومحاولاته الفاشلة لإظهار نفسه أكبر من سنه، ناديت على الريس هارون وسلمته له قائلًا بصوتٍ عالٍ كي تسمعني روحية:

- عاوزه يبقى أحسن مني ومنك يا أسطى هارون.. دي وصية المرحوم ولازم ننفذها.

ظلت ملامح هارون جامدة كمَن يقاوم أمري من داخله ثم ذهب بالصبي إلى المخزن، وقفت روحية تتحدث مع الشابوري ثم فجأة لطمت خديها وعلا صوتها، اقتربت ففهمت أنه أخبرها بصدور

الحكم اليوم على كروان بالسجن عشر سنوات، تنهدت بعمق، تركته يخيفها قدر الممكن ويسوِّي خوفها بداخلها ثم جذبتها برفق ناحية غرفة المكتب لما شعرت بنضوجه، ملت بجسدي ناحيتها وأنا أطمئنها قائلًا:

- صدقيني يا ست روحية لو الحكومة عرفت إن كروان وقَّع على عقد الجواز ببطاقة مزورة ممكن يبطلوه، أحسن حل للموضوع أننا نكتب الصالة كلها باسم أي حد تثقي فيه بورقة عرفي بينك وبينه علشان تضمني حقك.

ارتجفت روحية وبكت، هزت رأسها في اتجاهات مختلفة، فلم أفهم هل وافقت على فكرتي أم نفضتها من رأسها، لم يعُد أمامي سوى خوض معركة روحية بمفردي بعدما فشلت في لقاء عيسوي مرة ثانية لتعيينه قنصلًا بإحدى سفاراتنا في أورُبا. عادت روحية لشراستها من جديد، خفضت راتبي مرة ثانية وهددتني بالاستغناء عن خدماتي وتعيين مدير جديد، ثم حشرت أنفها في أمور كثيرة كنت أديرها مع هارون من خلف الشابوري لنحقق مكاسب بعيدًا عن الحراسة المفروضة على الصالة ولا أعرف كيف عرفت بأمرها، لا بد وأنها جندت بعض العمال ليكونوا عينًا لها علينا، لكننا لم نستطع كشف جواسيسها بعد.

- كروان..

قالها هارون ومضى ناحية المخزن مكانه المفضل الذي يتوارى فيه منذ أعوام طويلة ولا يمل من البقاء به، كأنه صومعته المقدسة،

لكنني لم أقتنع بشكوكه في أن كروان يُدير الصالة من السجن، ولم أتقبل توطد الصلة بين روحية وكروان بهذه الصورة، من المؤكد أن هناك ثالثًا ظهر على المسرح بعد سقوط منصور وكان قبلها متواريًا بالكواليس، لكنني لا أعرفه بعد فهو لا يزال يتحرك من وراء الستار.
لعنت حظي الذي يجعلني متأخرًا بخطوة كل مرة، يدفعني بقوة حتى باب صالة «أورفانيللي ومنصور» لكنه لا يمكنني من دخولها منفردًا، فلجأت لخطتي البديلة.

***

- محكمة..

قالها الحاجب في فتور، ربما لأن القضايا مدنية، لا أحد يكترث بعودة الحقوق أو حتى سلبها كما همس لي هارون الجالس بجواري، استقر القضاة على مقاعدهم، نظر أوسطهم في ورقة صغيرة أمامه ثم نطق بالحكم بعد سنة كبيسة في أروقة المحاكم. ربت هارون ساقي بينما غلبتني دموعي لأول مرة من زمن بعيد.

خرجنا من محكمة عابدين وبيدي صورة من الحكم كأنها شهادة ميلادي من جديد، فضَّلنا أن نعود للصالة مترجلين، لكن هارون غيَّر مسارنا في الطريق واختار الجلوس على مقهى قريب، أعاد على مسامعي حكاياته القديمة التي كان يحكيها لنا بأوقات الراحة، روى أن الثعبان لن يهاجمك قبل أن يزحف نحوك ولو لأمتار قليلة، لا يلدغ من سكونٍ أبدًا، وعليك أن تنتبه لكل حركة في الحشائش وبين حبات

الرمال الناعمة طالما تسير بلا دليل، كلها علامات لتشعر به وهو في طريقه إليك، حتى ولو لم تَرَه، سيترك أثرًا يدلك على أنه قريب منك، فإن فعلها بعد ذلك كله فلا تلومن إلا نفسك.

عدنا للصالة فلم نجد سوى روحية بها، اقتربت مني بحذر، على شفتيها طيف ابتسامة مبتورة غامضة، تشي بمرارة مكبوتة وفي الوقت ذاته بعرض جديد في الطريق قد يكون بعضه لصالحي كما خُيِّل لي، أمسكت بكفي ثم طوقت رسغي بساعة يد ذهبية تحمل حرف (F) وعلى قاعدتها العلم الأخضر القديم والهلال والنجوم البيضاء، لا أنكر أن الدهشة جرفتني لمسافة بعيدة ولم تُعدني لثباتي بسهولة، ترنحت أفكاري وتشتَّت تركيزي وزاغ بصري، اتسعت ابتسامة روحية ببطء، تدهشني السيدة بقدراتها كأن روح منصور استقرت في جسدها بعد موته، تدير عقلها وتوجِّه تصرفاتها فتعرف متى تدور مع منحنيات الطريق ولا تحيد عنه أبدًا.

تأملت الساعة التي تعود لعصر الملك فاروق باندهاش، من أين أتت بها إلا إذا كان منصور قد سلَّمها قبل رحيله مفتاح مغارة كنوزه التي لا نعرف عنها شيئًا. أعلم أنه اشترى أشياء كثيرة من مزاد فاروق الكبير واشترى قبل رحيله بثلاث سنوات قطعًا أخرى من مزاد وزارة الخزانة على بقية مجوهرات الأسرة المالكة لمَّا دخله باسم روحية، ولا بد أنه التقط منه قطعًا نادرة لم يعرف القائمون على المزاد قيمتها الحقيقية.

شقَّ صوت روحية المبحوح اندهاشي قائلة:

- اسمعني كويس يا نور عيني، أنت صحيح كسبت القضية بتلت الصالة بورقة المبايعة اللي معاك وشهادة الريس هارون وده حقك، مبروك عليك نصيب أبوك في الصالة، لكن أنت واحد وأنا وعاصم اتنين.. الساعة دي قطعة من قطع المرحوم منصور الله يرحمه، كان مخبي منها كتير كأنه يا حبة عيني كان حاسس بالغدر وأنه حيمشي بدري ويسيبنا.

ندت من عينيها دمعة لزجة بدت لي أنها اجتهدت في ذرفها لتكسب عطفي ثم استرسلت بنبرةٍ مختلفة:

- أنا ماعنديش سيولة كفاية في الصالة علشان ندوَّرها كويس، لكن عارفة ومتأكدة إن حتة زي دي ممكن تتباع كويس على إيدك وتعمل لنا قرشين حلوين. إيه رأيك نفتح صفحة جديدة بيني وبينك؟

نقلت بصري بين الساعة وعينيها ثم انحدر نظري بنعومة على صدرها وفخذيها، ما زالت تتمتع بجسد طري شهي رغم تجاوزها الأربعين بكثير، اعتدلت بجلستي وأنا أبتسم ابتسامة تُقرأ من اليمين كما اليسار.. ابتسامة تقبل عدة تأويلات وتفتح أبوابًا تدعو مَن يتردد في طرقها لفتحها بسهولة. وما عليَّ إلا الانتظار.



3/13

تحـولات روحية بعدما حكمت المحكمـة لصالحي بثلث الصالة مربكـة للغايـة إلا أنها فـي الوقت ذاته مُربحـة، ما زالـت تثيرني كأنثى فأنا أضعف أمام النسـاء بسهولة سقوط ذبابة في إناء الحساء الساخن، تجذبنـي الحرارة المتصاعدة وأتخيلها سـحبًا تشـعل رغبتي فأسـارع مغمضًـا نحوهـا، روحية تحتفظ بقـدر كبير من أنوثتها يثير الشـهوة لو نفض عنه تراب شـجون الأرملة الحزينة، لكنها قرأت نظراتي بوضوح فتعمـدت تغيير نبرتها لتذكرني بأنها في سـن أمي، ولو كانت تزوجت منصـور مبكـرًا لأنجبـت طفـلًا بنفـس عمـري الآن، باتـت أحلامـي بمضاجعتها سـرابًا، لا بـأس.. فلتكن علاقتنا علاقـة عمل فقط، عملًا بالمثـل القائل إن الطبق الذي نأكل منه لا نبصق فيه.. كما يقول الريس هارون.

بعت السـاعة خارج المزاد كطلبها حتى لا تقاسمنا الدولة في نصيبنا، اشتراها أحد جامعي التحف الكبار بمبلغ معقول مكنني من شراء سيارة جديدة وتجديد شقة خالتي بعد وفاتها، لـم أشأ خداع روحية هذه المرة في السـعر الـذي بعت به، قلت لهـا الحقيقة كاملة وأصـررت على أن يسـلمنا المشـتري المبلغ داخـل الصالة وفـي مكتب منصـور، أردت اسـتدراجها كي تُخـرج كل ما في جرابها من مقتنيـات التركي المخبأة لكنها راوغتني مرة ثانية، لم تخبرني عن المكان وتركتني ألهث شهورًا

طويلة، تذكرت مسـدس فاروق الفضي المزخرف الذي كان معروضًا بالمـزاد الأخير ليلة مقتل منصور ولـم نبعه واختفى بعدها من الصالة، ادعت أنها لم تره ولا تعرف عنه شيئًا، كانت تتحدث بلامبالاة وكأنني أسـألها عـن قلم حبر قديم نسـيته فـوق مكتبي فلم أصدقهـا، ثم ألقت لـي بقطعة ثانيـة صغيـرة ذات قيمة كبيرة كمـا قالت، حليـة من الفضة تحمـل حرف (F)، لكن هذه المرة سـاورتني الشـكوك فـي القطعتين معًـا، بهما شـيء مـا لا يريحنـي كنت قـد تجاوزته مع القطعـة الأولى لكـن عقلي لفظه في الثانية، فمنصـور كان يزيف مئات القطع ويبيعها، لكنـه لم يفعلها في قطع فاروق أو فؤاد أبدًا، هذه القطع ليسـت صنيعة المايسـترو، ولا هي قطع أصلية، تلك قطـع مقلدة تقليدًا متقنًا لكنه لن يخدع تلاميذ المايسترو وأنا أولهم.

ذهبـت بالقطعـة لهارون لأقطع شـكّي بيقين المُعلم، قـال دون أن يلمسها بعدما تفحصها لقرابة دقيقة من كل الزوايا:

- فالصو يا خواجة.. بس شغل مش بطال يخدع زباين كتير.

- ومين يا ريس هارون يقدر يعمل الشغل ده في رأيك؟

هنا أمسك هارون بالقطعة وتحسسها لبرهة ثم قذف بها لي قائلًا:

- ده مش شـغل الورش بتاعتنا.. ده شـغل مسـتورد من بلاد بره.. مُولـد فـاروق وعيلته لسـه ماخلصش، وطـول ما هو عايـش حيفضل الهوس بمقتنياته موجود، ولما يموت حيزيد.

بعد بيعي القطعة الثانية طلبت من روحية قطعة ثالثة وزيارة المخزن الذي تحتفظ فيه ببقية القطع، فاجأتني بأنها اكتفت من المزادات وتنوي بيع نصيبها ونصيب عاصم بالصالة، ثم عرضت عليَّ الشراء على أن أسدد القيمة التي تطلبها على أقساط إن أردت، ظلت دهشتي ملتصقة بملامحي حتى مسحها الريس هارون بكلمات قليلة، لا أحد يشتري السمك وهو لا يزال في الماء، الصالة تحت الحراسة وأي مبالغ سأدفعها ستدخل جيب روحية وحدها، ولن أحصل إلا على ورقة بلا قيمة، ستتركني قابضًا على الماء بيدي بينما السمكة لا تزال حرة.

اكتفيت بحكم المحكمة الذي أعاد لي نصيب أبي بالثلث واتبعت حكمة هارون، لكني أضفت إليها بندًا ينقصها، راقبت روحية على مدار شهور لمعرفة مكان المخزن الذي تحتفظ بالقطع فيه، لكنها لم تذهب لمكان آخر سوى بيتها والصالة. أربعة أشهر لم تُغيِّر نمط حياتها كأنها موظفة حكومية منضبطة، فقررت زيارة شقتها بباب اللوق فلا بد أن القطع هناك.

استغرق الأمر أسبوعًا لسرقة مفتاح الشقة وعمل آخر مصطنع، اخترت يومًا وسط الأسبوع حتى أضمن وجودها بالصالة وعاصم بمدرسته، قبل الظهر دخلت الشقة، فتشتها بالكامل لكنني لم أجد شيئًا ولا توجد خزانة لديها، وجدت علبة مجوهراتها بدولابها، كلها قطع عادية حتى حُليها وساعتها جديدتان، لا أثر لقطع منصور التي ادَّعت أنه تركها، بعدما غلبني اليأس قررت المغادرة، فجأة سمعت مفتاحًا يدور وباب يُغلق وخطوات تدب قرب الصالة. كنت أقف في

ممر صغير يفصل غرف النوم والمطبخ ودورة المياه عن بعضهم، تواريت وراء حافة باب غرفة، لمحت من بعيد عاصم التركي، بدأ عرقي يتصبب بينما عقلي منشغل باختلاق حجة جاهزة لو رآني، لكني فشلت في إيجادها، ظللت مكاني وهو لا يقترب من ناحيتي، أيقنت أنه جلس بالصالة فقررت المجازفة والخروج، لا بد وأنه منشغل بأمرٍ ما، سرت على أطراف أصابعي، وجدته جالسًا أمام التلفزيون يشاهد فيلمًا لكنه خفض الصوت تمامًا، بدأت أتحرك بخطوات محسوبة وعيناي على عاصم لأتأكد أنه منشغل عني بالشاشة، ما إن وضعت يدي على مقبض باب الشقة وأدرته حتى أحدث صوتًا بسيطًا، لاحت على إثره التفاتة من عاصم نحوي ثبتتني مكاني بعدما تلاقت عيوننا.

***

اخترقت بسيارتي الفيات كورنيش الإسكندرية، أقودها بسرعة بسبب خلو الطريق من السيارات والمارة، وصلنا بعد الفجر بساعة تقريبًا، قرب المنشية انحرفت يسارًا ثم قطعت عدة طرق متوازية، بعدها انحرفت إلى أقصى اليمين حتى وصلنا إلى العطارين. اجتزنا الحي ولم يكن هناك سوانا حتى وصلنا لمنطقة الغيطان، علَت جلبة وسمعت صياحًا مختلطًا بعبارات ترحيب، ظهر البربري وسط كوكبة من رجاله، يتتشرون حولنا كالجراد في منطقة زراعية مكشوفة ممتدة تتجمع فيها مئات القطع الخشبية كما أمرته. الطقس شديد البرودة والأمطار لم تتوقف عن الهطول منذ وصولنا، علمنا أنها كذلك منذ

أسـبوع مضى. غمزت بعيني للريـس هارون ثم التفـتُّ ناحية البربري قائلًا:

- شُفت يا معلم بربري أنا لما أقول لك كلمة لازم تصدقها.

- تمـام يـا خواجة. أنت تربيـة المعلم الكبير صحيـح وورثت عنه المخ والمفهومية كلها.

سـعيد البربـري صار الآن تاجـرًا كبيرًا يبيع الأنتيكات لحسـابه في صالة تحمل اسـمه، لا يزال يرتدي جلبابه البني الشـهير وشاله الحرير الأبيض، عصامي حقيقي لم يتخل عن أصوله ويفخر بماضيه، لم يتغيَّر كثيـرًا عمَّـا رأيته آخر مرة، نـال الزمن منه بالكاد، شـاب فوداه ونحلت مقدمـة رأسـه، فقد بعضًا من وزنـه فخفتت هيبته. لكنـه الآن يقف بين يـدي كصبي مناولة يتعلم ويتلقـى الأوامر، كنت قد اقترحت عليه ترك الأخشـاب التـي يسـتعملونها في صناعـة المقاعد والمناضـد المباعة بالمـزادات في الخلاء أثنـاء فترات النوة،ليُغرقها المطر أيامًا وأسـابيع حتـى تتشـرب المـاء العـذب، فيسـتقر الخشـب ويصبح أكثـر صلابة وقِدمًا، مثلما تُغرق الأمطار الغابات في أورُبا.

- من شهرين يا خواجة وهو على الحال ده.

- عفـارم يـا بربري، وحتى لو الشـمس طلعت والجو زنهر سـيب كل حاجة مكانها،لازم الخشـب يفضل تسعين يوم في الهوا مع المطر والشـمس وبعدها النجارين يشـتغلوا عليه. المهـم دلوقتي وريني حتة الأنتيك اللي عندك وقُلت لي إن فيها خدوش.

ابتسمت مراقبًا ما حولي كأنني ناظر مدرسة فخور بتلاميذه، صبيان البربري وبينهم عاصم الذي يقف بليدًا كعادته، لدهشتي لم يقُل لي عاصم شيئًا ولو تلميحًا من بعيد عن رؤيته لي بشقة روحية، بدا طبيعيًّا للغاية ممَّا أثار شكوكي أكثر، خاصة أنه أدار وجهه ناحية الشاشة مرة ثانية عندما كنت بالشقة وكأنه لم يرَ شيئًا، مع أنني متأكد أنه التفت ناحية اليمين ورآني.

- جبت لنا تُحف إيه معاك النوبة دي يا خواجة؟

أخرجني البربري من شرودي بسؤاله فرأيت استعراض عضلاتي لأبهره وصبيانه مرة ثانية، استخدمت حيلة قديمة نعرفها جيدًا بصالات المزاد، نُشيع أن الأنتيكات تفقد نصف قيمتها إذا ما خُدِشت، وبالتأكيد البربري لا يُدرك أن القطع المخدوشة والمكسورة تُباع في المزاد بقيمة عالية إذا ما أُضيف للكسر أو الخدش لمسة تاريخية بحكاية مختلقة،مثلما برع فيها الحكاء الأعظم منصور التركي على مر السنين، سأعيد التاريخ من بعده، سأروي حكايات جديدة بطريقتي هذه المرة، المهم أن تكون محبوكة، أما قابليتها للتصديق فهو أمر لا يتوقف أحد عنده كما قال منصور، فالمزايد كالجائع سيلتهم ما تضعه أمامه وربما يعجبه طعمه أيضًا، وبعد أن يهضم طعامه سيفكر في قيمة ما دفعه، سيتحسر قليلًا، وقد يندم بعض الوقت، لكنه في النهاية سيعود إليك جائعًا مرة ثانية.

نجحت حيلتي وبِعت كل ما جلبته معي للبربري، وتركته منفوخ البطن كبرميلٍ من فرط الشبع.



3/14

«إعدام الضمراني المتهم بقتل منصور التركي صاحب صالة المزادات الشهيرة أورفانيللي ومنصور بوسط القاهرة».

قراءة الجرائد أثناء قضاء حاجتي واحدة من عاداتي اليومية المفضلة، أمُرُّ على العناوين الرئيسية بسرعةٍ وأخصص غالبية الوقت لصفحة الحوادث، أنتظر خبرًا محددًا كل يوم، حتى وقعت عيناي عليه أخيرًا متصدرًا الصفحة..

جذبت عصا السيفون في ابتهاج، راقبت فورة المياه وهي تبتلع فضلاتي مبتسمًا لأول مرة، مات الشاهد الوحيد على تورطي في قتل منصور التركي، دُفن السر الذي أرهقني كتمانه لشهور طويلة قاربت العام، مات الضمراني وهو ذئب ابن يعقوب، أعدمه القضاة لأن الأدلة كلها ضده، عيار الرصاصة التي أُطلقت على منصور من ذات عيار السلاح الذي ضُبط مع الضمراني، كل زبائن الصالة شهدوا بأنهم رأوه يبتعد عن التركي بخطواتٍ ممسكًا بالمسدس، والطبيب الشرعي أثبت أن الرصاصة التي أصابت صدر المجني عليه خرجت من السلاح الذي كان بيده، فالعيار ذاته ومسدس الضمراني به آثار احتراق البارود لمّا أطلق منه رصاصة نحو سقف الصالة أثناء هروبه، وتبقى به رصاصتان فقط، فقد وضعت له ثلاث رصاصات في الخزينة

يـوم اتفاقي معـه على قتل منصور، مات الضمراني متهمًا وأنا الشـاهد الوحيد الذي يعرف ببراءته. لكني سأظل شاهدًا أخرس للأبد.

فردت جسدي على سريري، لم أعُد أشعر بآلامي وقلقي، أغمضت عينَيَّ مستعيدًا ليلة الحادث بفخر، لم يفطن أحد لحيلتي ولن ترِد على مخيلة أي شـخص بعدمـا أُغلِق ملـف القضية بمـوت الضمراني، مَن الذي سيذهب تفكيره الآن إلى مسدس الملك فاروق المزخرف الذي عرضه منصور في اليوم ذاته ضمن قطع المزاد الأخير، مَن الذي يعرف أنني سـلَّمت لبيب الضمراني مسدسًـا من العيار ذاته بعدما أدخلته من الممر السري، واستغللت فترة انقطاع التيار الكهربي لإطلاق الرصاصة على صدر منصور من مسـدس فاروق الذي حشوته قبلها بيومٍ واحد، ثـم وضعته مكانـه فارغًا بمنتهـى الهـدوء بعدها. خطَّطتُ لكلّ شـيءٍ بمـا فيه تردد الضمراني وتراجعه وصدق توقعي، كان سيُفشـي سـري لمنصـور، صحيح أنا لم أحصل علـى الصالة إلى الآن، لكني بعيد عن حبل المشنقة الذي اكتفى برقبة الضمراني وحده دون شريك له، خاصة أنـني في مرافعتي عنه بالمحكمة لم أُشـكِّك في السـلاح المسـتخدم، ولم أجادل في الأدلة أو تناقض شـهادات الشـهود، لـم أزحزح عقيدة القضاة نحو البراءة شـبرًا واحدًا، بل تعمَّدت الإسـهاب في وجود أدلة تُدينه كأنني أُذكِّرهم بها وأُرسـخها فـي وجدانهم، اكتفيت بالكلام عن طيبـة قلب الضمراني وحُسـن نواياه وظروفه المرضيـة والاجتماعية، وهو كلام إنشـائي لا يُسـمن ولا يُغني من جوع، يسـمعه القاضي بأُذن ليُخرجه من الأخرى.. المهم وقتها طريقة إلقائه على مسامع الحضور

كي أُبرئ ذمتي كمحام، فبدوت كمَن يترافع عن مُذنب ويطلب له الرأفة والرحمة لكنه مقتنع بأنه لا يستحق كليهما، فكان ملخص مرافعتي: «فليذهب الضمراني إلى الجحيم غير مأسوف عليه».

ذهبت للصالة قبل موعدي، كان مزاجي رائقًا من بعد إعدام الضمراني، صافحت الجميع بترحاب وتناولت معهم الشاي، طلبت من الشابوري وروحية صرف مكافأة للعمال رحمة على روح منصور بعدما شفى حكم المحكمة غليلنا، آن الأوان للمايسترو أن يستريح في قبره، قلتها بطريقة مسرحية فدمعت عيون الغالبية.

اقترب الشابوري كعادته مني لمَّا يريد أن يقول لي شيئًا مهمًّا وهو يضع كفه على فمه:

- أنا خايف عليك يا خواجة..

لا أُنكر أنني ارتجفت، ظللت أنظر لعينيه بخوفٍ لأحثه على مواصلة الكلام، لكنه تلفَّت حوله، لمح بعض العمال قريبين فسكت، حلَّق طائر القلق فوق رأسي ونهش عقلي بنهمٍ مخلفًا هواجس كثيرة وراءه، تخيلت حبل المشنقة يتأرجح في فضاء الصالة بدلًا من الثريا الرفيعة حتى نطق الشابوري:

- أنت من خمس سنين ونص بتدير الصالة زي الفُل والعين عليك، لكن لا مؤاخذة في الكلمة أنت يهودي وده مش على هوى الحكومة بتاعتنا ومش حتعرف تسجل نصيب أبوك الله يرحمه بالحكم اللي معاك، أنا باعتبر نفسي واحد منكم وعارف إن المرحوم كان بيحبك

زي ابنه وأكتر وبصراحة عاوزك تفضل موجود يمكن ربنا يكرم والحراسة تتشال، أنا سامع كلام من بعيد عن الموضوع ده ويمكن تترفع قريب أوي.

وجدتني بغير تفكير أحتضنه وأُقبّله، دمعت عيناي، لا أعرف أهي دموع فرحة بزوال الخوف أم بقرب إعادة الصالة، حتى ولو كانت إشاعات أو مجرد سراب، على الأقل أفضل من عتمة الطريق المجهول الذي نسير فيه ولا نعرف إن كنَّا نتقدم أم نرجع للوراء كل مرة.

جذبته نحو المكتب، أشعلت له سيجارة من علبتي وجلست أمامه كتلميذٍ ينتظر التوجيه، رجع الشابوري بظهره في مقعده ونفث دخان سيجارته على استحياء بعيدًا عن وجهي وهو يقول بثقةٍ غريبة:

- مفيش غيره ابن الجنية اللي يقدر يحييك من جديد والحكومة تغفل عينيها عنك.

- ويطلع مين ده؟!

- نعيم الورداني.. موظف السجل المدني بالعباسية اللي بيزوَّر بطاقات اليهود.

ظللت أُحملق في وجه الشابوري بدهشة، وصورة سعد كروان بملابس السجن بتهمة التزوير في بطاقة شخصية تتراقص أمام عيني. لكني لم أقُل شيئًا.

***

دقَّت العصا مرة واحدة معلنة عن بدء الخطوة الأولى، تتحرك الساق اليسرى بصعوبة شبه زاحفة، تلحق بها اليمنى على الفور وكأنها ظلها، تتكرر الدقات مرتين من بعدها لتبدأ من جديد نفس الدورة، صف من سيدات أنيقات بقبعات واسعة وفساتين صباحية بألوان زاهية يتحركن بالكاد، منحنيات للأمام في حركة شبه ساكنة كأنهن يتابعن سلحفاة تحاول الاختباء من عيونهن المفتوحة بالكاد، عنايات وصفية وتماضر.. ثلاث هوانم من زمن فات يدخلن الصالة متكئات على عصي خشبية، كل منهن تسير على ثلاثة أرجل، أصغرهن تجاوزت الخامسة والثمانين وتصر على أنها لا تزال على مشارف السبعين، مع أنهن يحكين لمَن يُجالسهن قصصًا فات عليها ثمانون عامًا وربما يزيد. جلسن بالصف الأخير، الصف الوحيد الذي به أماكن شاغرة بعدما احتل الصفوف الأولى آخرون.. زبائن جدد لا نعرفهم ولا يعرفوننا، لا يُقدِّرون ما نعرضه إنما يشغلهم اقتناؤه، سنبيع لهم ما امتلكه الأولون وسيشترون منَّا بالسعر الذي يرضونه وحدهم.

أكثر من ست سنوات على وفاة منصور مرت رتيبة لكنها كفيلة بتغيير القاهرة، المباني زادت وتشوهت، ونوادي الضباط والهيئات العامة احتلت ضفتي النهر فلم نعُد نراه إلا خلسة، بالكاد يظهر شريط منه في المسافات الضيقة بين الأشجار التي لم يقطعوها بعد، الناس كثرت والأسعار ارتفعت، أتوبيسات النقل العام مُكدسة بالبشر، المساحات الخضراء العامة أحاطوها بسياجات سوداء كالحة عالية،

حبسـوها عنَّا أو حبسـونا أمامهـا لا فرق، حرمونا من السـير فوقها كي لا نتلفهـا، فاسـتحال لونها الأخضـر إلى لون القش في ظـل حمايتهم لها. الضوضاء لا تُحتمل في أي مكان، الناس تائهون.. ضجرون بكل شيءٍ حولهم، هذه ليست القاهرة التي أعرفها، ولا هؤلاء البشر رأيتهم مـن قبل. حتـى زبائن الصالـة لـم يعودوا كمـا كانـوا، بالتدريج تبدلت الأماكـن، مَن كان يقف وراء زجاج الواجهة يتفـرج على المزاد، صار أكثـر جرأة وتواجـد بنهاية الصالة متابعًا، ثم تشـجع اليـوم وزايد حتى صـار يحتل المقدمـة، وتراجع الباقـون حتى غادروا بلا عـودة وباتت فلولهم على مشارف القبور.

مال الشابوري على أذني وهو يضع يده على فمه زيادة في الاحتياط هامسًا:

- صدقني مفيش حل تاني لغاية ما الموجة تعدي.

- إزاي بـس يـا أسـتاذ شـابوري عاوزنـي أزوَّر بطاقة من السـجل المدنـي؟ أنـا كـده حابقـى زي اللي رايـح يسـتخبى مـن البوليـس في القسم!!

- نعيـم الوردانـي بيزوَّر بعلم الحكومة لكن مـش أي يهودي يقدر يوصـل لـه، أنا مش حاورطـك يا أسـتاذ أورفانيللي. الحكومـة بتاعتنا مـش عاوزة أصحاب راس مال لكن عـاوزة صنايعية اليهود في مصر، فسابوهم يعملوا كده ويطلعوا بطاقات مزوَّرة بعلمها.

- لـو نعيـم الورداني مضمـون زي ما بتقول ما كانش سـعد كروان دخل السجن.

ابتسم الشابوري بخبث وتلفت حوله مرتين ثم همس:

- كـروان يهـودي بخيل..اسـترخص وراح عمـل بطاقـة بالطريقة البلدي عند واحد يعرفه في ميدان الأوبرا بتاع عقود وتقليد توقيعات.

ضحكـت رغمًا عنـي بينما استرسـل الشـابوري بجدية في شـرح فكرتـه لحمايتي، سـاورتني شـكوك كثيرة في كلامه، وفـي هذا النعيم الوردانـي الذي يعمـل بعلم الحكومـة وربما بأوامر منهـا، ربما يكون كلام الشـابوري صحيحًـا فنعيـم لا يمكنه تزوير كل هذه المسـتندات بسـهولة ولا يُضبط أبدًا إلا إذا كان هناك اتفاق مسبق بغض الطرف عن هذه البطاقات، لكني لا أحتاج لبطاقة مزورة، لن تكون مصلًا ضد وباء الترحيـل لو أصابنـي الدور، وربما ألحق بكروان في السـجن، لا أريد السير مع القطيع وفي الوقت ذاته لا أرغب في بقائي شاة شاردة يسـهل افتراسها.

بعـد تفكيـر طويل واستشـارة هارون،اختـرت الاحتفـاظ ببطاقتي اليهودية وجواز سـفري حتـى لا يضيع نصيبي فـي الصالة بعد صدور حكـم المحكمـة باسـمي الحقيقـي أورفانيللـي منصـور أورفانيللـي الوريث الوحيد لأبي حتى ولو لم أسـجله، فلديَّ شـعوري بأن الأمور سوف تتغير يومًا ما قريبًا. لا أحد يدري.



3/15

وقعت الكارثة عندما كذب علينا عبد الناصر، لم نُلقِ إسرائيل في البحر ولم نتناول الغداء في تل أبيب، بل كادوا يأكلون طعام عشائنا في بيوتنا لو استمرت الحرب أيامًا أخرى قليلة، ثم كذب ناصر مرة ثانية لمَّا قال في خطاب التنحي إنه مستعد لتحمُّل المسئولية، ولم يقُل لنا إنه المسئول الأول عن هزيمتنا، لكني صدقته رغم مناورته، لم أكن وحدي، معي ملايين لا تزال تصدقه، ربما نصفهم لا يعرفون أنه يكذب عليهم، وحتى لو عرفوا الحقيقة، لا زعيم بلا أخطاء، وعبد الناصر لم يكن نبيًّا، رغم هزيمتنا ورغم الحراسة المفروضة على الصالة ما زلت أحبه وأثق في نواياه الطيبة، رغم قيود البيع المفروضة علينا وتبدل المجتمع أريد بقاءه ليحكمنا، لا بديل له، ولا أحد غيره يستطيع إصلاح ما فسد منَّا وانكسر فينا حتى ولو كان هو مَن تسبَّب فيه. لا بأس من بعض الخداع طالما النوايا طيبة لاستعادة الحقوق.

أنهيت قراءة مقال حسنين هيكل لأعرف بوصلة الأيام القادمة ثم قلبت الجريدة على وجهها، الصفحة الأخيرة تحتلها صورة الزعيم، تأملتها.. غابت ضحكته الشهيرة وخفت بريق عينيه، يبدو منتكسًا بالفعل، أسفلها عبارة بخط عريض «كلنا وراءك يا جمال».. مناداة الرئيس باسمه الأول مجردًا من الألقاب خلق حالة من الحميمية بيننا

وبينه، أشعرتنا أنه واحد منَّا، يعرفنا جيدًا ولا نريد غيره، مواطن عادي كما قال هو عندما أخبرنا بنواياه في العودة لصفوف الجماهير.

جذب الشابوري طرف الخيط برفق عندما أمسك بالجريدة متظاهرًا بتصفحها، ثم اقترح عليَّ وضع لافتة تأييد لناصر بمناسبة عودته بعد التنحي، لم يكن في حاجة لإعطائي فرصة طويلة للتفكير فقد كنت متقبلًا للفكرة، ولا فائدة من الجدال مع الشابوري في السياسة، فهو يُعلِّق صورًا لعبد الناصر على جدران غرف بيته بضعف عدد أولاده.

رفعنا لافتة عريضة طويلة بعرض الشارع أمام الصالة، أجبرتنا جميعًا على الانحناء كلما أردنا المرور من تحتها، ابتسم الشابوري وهو يتأملها بفخر:

– كده إحنا على هوى الحكومة مؤقتًا بس لو تطاوعني في موضوع البطاقة كمان نبقى رسينا على بر الأمان.

لفَّتني الدهشة من كلامه وعباراته، يتحدث كأنه ليس منهم، فكرت في مصارحته بهواجسي وتنبؤاتي، النظام كله لن يعيش طويلًا بعد النكسة فلم تعُد له جذور ولا أغصان قوية تقاوم الريح العاتية، أوراقه تتساقط وخريفه يقترب، لكني تراجعت في آخر لحظة، فالثعلب لا يصير كلبًا وفيًّا مهما أطعمته.

***

مات عبد الناصر بعد هزيمتنا بثلاث سنوات أشبه بدقات المزاد الشهيرة، لترسو التركة على نائبه أنور السادات من بعده، الحسنة

الوحيدة التي أذكرها له أنه رفع الحراسة عن صالة أورفانيللي ومنصور بعد شهور قليلة من توليه الحكم.

الأيام متشابهات مثل يوم واحد طويل توقفت فيه عقارب الساعة عن الدوران، ثم فجأة راحت تتسابق، ليجري بنا الزمن وكأن عبد الناصر كان يكتم أنفاسنا جميعًا طوال السنوات السابقة.

- بكرة يا نور عيني تروح العنوان ده وإن شاء الله ترجع لنا بالبشارة.

قالتها روحية وهي تبتسم ابتسامة غامضة ثم طبعت قبلة حانية على وجنتي، ذهبت لتسلم خطاب رفع الحراسة رسميًا باعتباري المدير المفوض من أصحابها روحية وعاصم التركي وأحد ملاكها، علمت أننا سننتظر بعدها شهورًا طويلة لتفعيله كما أخبرونا، لا بأس على الأقل انزاحت الغُمة قليلًا لكني لم أفرح بعد فالاحتفال المبكر يجلب الفأل السيئ معه.

وصلت فوجدتها فيلًا صغيرة في شارع خليل أغا بحي جاردن سيتي، على واجهتها لافتة سوداء كبيرة تشير إلى أنها إدارة تابعة لوزارة الخزانة، شعرت بأنني كنت هنا يومًا ما، وبصعوبة أدركت أنها فيلًا علي باشا إبراهيم التي عُقد فيها مزاد كبير لبيع مقتنياته يوم حريق صالة أورفانيللي ومنصور.

تحسرت على حال المبنى ثم سألت عن مكتب اللجنة الحكومية لرفع الحراسات، ناداني الموظف لأقترب، تفرس فيَّ قليلًا وهو يقلب بطاقتي مدهوشًا من اسمي، ظل يكرره بصوتٍ عالٍ ثم سألني

إذا ما كنت أعمل بصالة «أورفانيللي ومنصور» للمزادات منذ فترة طويلة أم أنني مستجد بها، أخبرته بأنني أعمل فيها منذ كان عمري عشر سنوات تقريبًا، تهلل وجهه وصافحني واقفًا بترحاب ثم جذب لي كرسيًّا مسح قاعدته بكُمِّه، دعاني للجلوس أولًا وهو يقول:

- ما أنا باشبه عليك وعلى الاسم، أنت الخواجة أورفانيللي الصغير، الله يرحم منصور بيه التركي كان راجل فاهم في الحاجات القديمة أكتر من أصحابها.. محسوبك جرجس عياد مدير الإدارة هنا وتحت أمرك.

- الله يرحمه..

قلتها مرتبكًا وأنا أبتسم ابتسامة صفراء، انفرجت أسارير الموظف ثم أخرج من أسفل مكتبه فازة لفَّها بعناية في ورق كرتوني، قدمها لي بحرص وسألني عن قيمتها، علمت أنه اشتراها من مزاد بإحدى صالات باب اللوق، فحصتها باهتمام لفترة، رحت أُقلِّبها عدة مرات بلا داعٍ مثلما علمني منصور، حتى أكسب ثقة زبوني وأشغل عقله بيدَيَّ، ثم قلت بلا مبالاة:

- تعمل لها أربعين جنيه، بس لها زبونها اللي يقدَّرها، مش أي حد ياخدها بالسعر ده.

- بركاتِك يا عدرا.. أنت راجل بتفهم وتربية منصور التركي بحق وحقيقي، أنا قلت كده أول ما شُفتها وفضلت أزايد لغاية ما رسيت

عليًا، دفعت فيها عشرة جنيه تحويشة شهرين وحياتك، بس صدقني حابيعها بأربعين زي ما سعادتك قلت يا باشا.

كلمة باشا كان لها وقع غريب على أذني، مع أني كنت أسمعها كل يوم في الصالة قبل الثورة، أما بعدها فلم نعُد نقولها إلا للضابط أحمد عيسوي ورفاقه ولا أحد سواهم. وضعت ساقًا فوق أخرى، ظللت أنظر بثقةٍ لجرجس وهو يدوِّن بياناتي في أوراق كثيرة أمامه، أشفقت عليه لشرائه فازة عادية لا تساوي جنيهين على أحسن تقدير، لن يستطيع بيعها بنصف هذا الثمن لمغفل آخر مثله. هبَّ الرجل واقفًا وقطع شرودي، قدَّم لي خطاب رفع الحراسة وهو يهتف بحماس:

- ألف مبروك يا خواجة أورفانيللي، تقدر تستلم الصالة من مصطفى الشابوري بالورق ده من غير ما تنتظروا فترة الفحص والمراجعة، ومش لازم تعدي على الإدارة العامة أنا اعتمدت الورق كله، وكمان ممكن تفتح من بكره لو تحب لحسابك وترجع أيام العز بتاعة زمان.

تأملت القرار ودمعت عيني ثم احتضنت الموظف وابتسامتي تزداد اتساعًا وهتفت:

- أنت راجل طيب وأمك داعية لك. والمسيح الحي أنا اشتريت منك الفازة بخمسين جنيه.



3/16

خطـوت أولـى خطواتـي بالصالة ممسـكًا بقرار رفع الحراسـة مع روحية وعاصم وعشـرة من العمال القدامى يتقدمهم ريِّسـهم العجوز هارون وهو يبكي، بعد عشر سنوات وثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا قفز الحلـم قفزة كبيرة نحو التحقق، لا أعـرف لماذا تذكرت نصيحة خالي يوسـف حسـني وقتها.. «إذا أردت أن تصل لهدفك سِـر وحدك، وإذا ابتعدت عنه فاعلم أنك كنت تسير مع صحبة سوء». الآن أقترب، أرى حلمـي أمامي، يمكنني أن ألمسـه بيدي بعدما انتظرت سـنوات طويلة كدت أفقد فيها الأمل، اليوم أستطيع شراء نصيب روحية وكتلة الدهن عاصم التركي ولن يمنعني أحد.

بـدا الأمر أشبه بقُبلـة الحياة، ما إن رفعـوا البـاب المعدني لأعلى وأحدث صريرًا محببًا إلى نفسـي كأنني أسـمعه لأول مرة حتى نسيت نصيحة خالي، شعرت أنني أُبعث من جديد وكأن تلك أول مرة أدخل فيهـا الصالة بعد سـنين عجـاف، قلبي يكاد يسـقط من بيـن ضلوعي، تهيأت لسـماع الجـرس والنداءات الثلاثة الشـهيرة بشـكلٍ مختلف.. الصالة تفـوح بالذكريات.. حلوها ومرها، رائحة التاريخ تلف المكان وتعبقـه، تأخرت عنهم بخطوات ليسـبقوني مع فرقة حسـب الله التي اسـتأجرتها روحيـة لتزفنا عند اسـتلام الصالـة، أريد استنشـاق رحيق

الزمن وتذوق حلاوة الحلم على مهل لأستمر حيًّا، أرغب في نفض غبار سنوات عجاف مضت عن ذاكرتي لتلمع بشجوني.

وقفت في المكان ذاته الذي كنت أقف فيه بين أبي وأمي أول يوم دخلتها فيه، هنا انسابت يدي من كف أبي وصافحت كف منصور فجذبني ناحيته، هنا كبرت وتعلمت وعملت وتألمت، قرب المنصة رتبت وناولت وقدَّرت وثمَّنت، ثم اعتليتها وأدرت مزادات صغيرة حتى نجحت، هنا تذوقت طعم الخشب وتحسست ملمس البرونز وتأملت بريق الكريستال، هنا سمعت صوت الجرس ودقات الشاكوش، هنا تناولت وجبة الظهيرة والتهمت سندوتشات منتصف الليل، هنا نمت متعبًا ليلة المزاد من بعد المعاينات وصحوت على ثورة قلبت مصر كلها، هنا عملت مديرًا برئاسة الشابوري، هنا عشت ودارت عجلة حياتي.. هنا المزاد.. وهنا مات أبي أورفانيللي.. ومنصور أيضًا.

- ربنا يرحمك يا مايسترو، ويبشبش الطوبة اللي تحت راسك.

قالها الشابوري وهو يدخل علينا مظللًا بسحابة حزن، ووجهه غائم ونور عينيه منطفئ، أشارت روحية للفرقة الموسيقية لتتوقف، أمسك شابوري بالقلم ويداه ترتعشان، ووقَّع على الأوراق وكأنه يكتب نعيه.. جذبتها منه بسرعة لما فرغ وتركت له الدهشة من تصرفي، رحت أتأمل المكان بعناية كأنني أرى حبيبتي بعد غياب طويل، أغمضت عينَي بقوة ودندنت بأغنية العلبة الفضية التي أهداها قبطان السفينة لأبوَي.. وشعرت لأول مرة أن هذا المكان.. مكاني وحدي.

***

«لا يمكنك أن تبيع جلد الدُّب قبل صيده».

مقولة ظل يرددها منصور كلما توقع أحدنا مبيعات جيدة في المزاد قبلها بأسبوع، كان يرى أن الحالة النفسية والمزاجية للزبائن لها الكلمة العليا وكنَّا لا نصدقه، لكن كل مرة المبيعات تصادف التوقعات، غاب عنَّا أن منصور اصطاد الدب قبلها بيوم وقت المعاينة ولم نرَه، هيَّأ المزايدين للحالة المزاجية التي تدفعهم للشراء بأي سعر، أصابهم بالسعار وجلس يستمتع بالفرجة عليهم وهم يتصارعون على العظام التي يلقيها لهم.

اليوم سأعيد كتابة التاريخ من جديد، لكنني سأصطاد دُبًّا قديمًا نادرًا تشتاق الناس لرؤيته، ولم ينسوه بعد. وصار بإمكانهم ملامسته واقتناء بعضًا منه.

توقفت السيارة بنا أمام فيلَّا قديمة في نهاية شارع 7 بالمعادي، لم أغادر سيارة منصور الشفروليه القديمة التي استعرتها من روحية خصيصًا لهذا المشوار، رفعت سقفها القماشي وظللت أتأمل المبنى من الخارج، أشعلت سيجارة ليفهم عاصم أن جلستنا ستطول لدقائق أخرى، حاول استنتاج ما يدور في رأسي بأسئلته الغبية، لكني اكتفيت بالابتسام بلا معنى، التفتُّ ناحية الريس هارون بنصف جسدي متجاهلًا عاصم الذي يجلس بجواري، وسألته عن رأيه في الفيلَّا، قال العجوز إنها لم تجذب انتباهه، قديمة وتبدو مهملة منذ فترة طويلة، شعرت بأنه يقول رأيه بتحفظ كي لا يضايقني، شجعته على الحديث فاسترسل:

- أقرب وصف ليها بيت عزيز قوم ذل. فيلا لبرنسيسة وجار عليها الزمن.

أعجبني وصف الريس هارون، بدا مثل كلمة السر التي فتحت مغارة علي بابا، لكن لصوصنا الذين صاحبوه تجاوزوا الأربعين عندما استولوا على مغارتنا، غادرت السيارة متهلل الوجه، في الداخل التقيت بعض العمال الذين سبقونا إلى هنا، أفهمتهم أن الفيلّا مستأجرة لشهر واحد فقط من مالكها، مهندس إنجليزي يعمل في شركة بترول ويؤجر الفيلّا وقت إجازته السنوية.

في ستة أيام فقط مثلما هزمتنا إسرائيل نفَّذ هارون والعمال ما طلبته منهم، رفعوا كل مفروشات الفيلّا التي تخص المهندس الإنجليزي، وفي اليوم السابع فرشتها من مخزن منصور القديم بالمعادي، ثم نثرت بها عشرات المقتنيات من لوحات فنية موقّعة وفازات وتماثيل وقطع خشبية وبرونزية مختلفة، لم يكد الأسبوع الثاني ينتصف حتى أعلنت صالة «أورفانيللي ومنصور» عن مزاد كبير لقطع نادرة، تمت المعاينة في ثلاثة أيام وغدًا يبدأ المزاد.

أشعلت سيجارة وأنا أجلس في حديقة الفيلّا، فجأة وجدت الشابوري يقترب مني، مضى نصف عام لم أرَه فيه، بدا شاحبًا محبطًا، انحنى ظهره وأوشكت دموعه على الانهمار، سحب كرسيًا وجلس بجواري، كاد يلتصق بي وهو يقول بنبرةٍ خانعة:

- سألت عليك في الصالة قالوا إنك كل يوم هنا، أنا طمعان في كرمك، الإدارة استغنت عني ومش لاقي آكل.

تأملت الشـابوري مندهشًـا من تصدع هيبته، تبخرت الهيبة وزالت السطوة، راح الجبروت وافترسه الذل بقسوة، أشرت ناحية باب الفيلّا وقلت:

– ادخـل نـاول مـع العمال لغاية مـا أتكلم مع السـت روحية وربنا يكرم.

دبّت الروح في الجسـد الذابل وهرول كأنني سـأغير رأيي. اقترب مني الريس هارون بعدما اطمأن على سـير العمل فقمـت له احترامًا، ربت كتفي وجلس واضعًا كفّيه على عصاه سائلًا بدهشة:

– ربنـا يزيـدك.. لكن لزومها إيـه الفيلّا دي كلها؟ مـا الصالة كبيرة وتسـاع كل المعـروض. ومـن إمتـى بنعرض عفـش كامل يـا خواجة ولوحات مرسومة باليد لفنان واحد؟

تلفّت حولي ثم وضعت كفي على فمي مقلدًا الشابوري وأنا أخبره بخطتي في زهو، المزاد لبيع مقتنيات ومفروشـات فيلّا الملكة السابقة فريـدة التـي كانـت تعيـش هنـا قبل رحيلها مـن مصر لباريـس، وضعنا بالفيـلّا كل ما نريـد التخلص منه من مقتنيات منصـور على أنه مملوك للملكـة، الذوق تغيَّر والناس تتجه لشـراء قطـع حديثة، ولكي تعيدهم للقديم لا بد وأن تنسج قصة جذابة تجعلهم يتمسكون به بل ويتقاتلون على اقتنائه.

برقـت عينا هـارون لوهلةٍ طالت حتى اسـتعاد توازنه كأنه يخشـى الانبهار قائلًا:

- طيب والناس مش عارفة الحقيقة؟ الملكة عندها أولاد ومعارف وأكيد دي مش لوحاتها، وممكن أنها...

قاطعته بسرعة:

- البيع على هوى الحكومة يا ريس هارون، أنت نسيت إن منصور بيه نفسه باع حاجات كتير في السر بعد الثورة والحكومة كانت عارفة وساكتة طالما أنها حاجات العيلة المالكة.

ادَّعى أنه لا يتذكر ما فعله منصور، لا يجرؤ على انتقاده حيًّا أو ميتًا، ثم هرش ذقنه غير مقتنع، سائلًا بصوتٍ عالٍ متخليًا عن حذره المعتاد:

- ليه يا خواجة؟ حيستفيدوا إيه؟ الحراسة أصلًا اتفرضت واتعملت علشان العيلة المالكة!

- علشان يبعدوا عنهم شبهة سرقتها بعد ما لزقت فيهم من يوم المزاد الكبير بتاع سنة أربعة وخمسين، وكل ما أنا أو غيري نبيع حاجة على إنها مملوكة لفاروق أو عيلته يقولوا الحاجات موجودة والعيلة بتبيعها للتجار. والناس حتصدق إن فاروق والباشوات هرَّبوا حاجتهم وخبُّوها من المصادرة وماحدش سرقها زي ما اتقال.

بنصف ابتسامة ونظرة عتاب قال هارون وهو يتأهب للقيام:

- منصور عمره ما اشتغل في المقلدات بس يا خواجة.. لو عاوز تقلده وتبقى مايسترو لازم تبيع حتة واحدة فالصو من بين كل عشرين حتة أصلية، لكن اللي بيحصل النهارده معناه أنك ناوي تجيب درفها. عليه العوض في الشغلانة.

أثناء المزاد كنت أتأمل الريس هارون باستمتاع أكثر من متعة مراقبتي للمزايدين، لا يصدِّق ما يراه من تكالب المشترين على القطع العادية التي كان منصور يجمعها، رفع المزايدون السعر بمبالغة مع أنني لا أستخدم الكومبارس كمنصور، زايدوا بشراسة، بيعت غالبية المعروضات بضعف الثمن الذي قدرته لها، وما تبقى بعته بأكثر ممَّا توقعت أيضًا للبربري.

هل كل هؤلاء لا يعرفون الحقيقة كما سألني هارون؟ بالطبع يعلمون،لكن لا أحد يجرؤ على الدفاع عن الملكة فريدة أو حتى خدم الأسرة المالكة، ففاروق قُرئت الفاتحة على عائلته وممتلكاته كلها في الليلة التي ولد فيها عاصم التركي. وما تم بعدها كان مخططًا له منذ اليوم الأول. مسألة وقت لا غير. أنت خسرت الرهان لأول مرة يا هارون.

سلَّمنا مقتنيات الملكة السابقة المزيفة المباعة للمزايدين مع نهاية الأسبوع الثالث، احتاج الأمر ليومين آخرين لإعادة أثاث المهندس الإنجليزي مرة ثانية، ثم سلَّمت عاصم المفاتيح بعدما تفقدت الفيلَّا وقد عادت إلى حالتها قائلًا:

- وِشَّك حلو علينا يا تركي يا صغير، اقعد لك يومين في الفيلَّا استجمام مع الست روحية، فيها حمَّام سباحة في الجنينة ممكن تستعمله وتهيص. وابقى اعزم أصحابك لو تحب.

نظر لي الفتي بانبهار شديد، صار يبدو كرجل صغير رغم أنه على مشارف التاسعة عشر من عمره لكن تصرفاته وأسئلته يعطيان انطباعًا

لمحدثه بأنه لا يزال طفلًا في العاشرة، شكرني بامتنان بينما وقف خلفه بخطوة الشابوري يضرب كفًّا بأخرى، كأنه لا يصدق ما حدث حتى الآن. أبدى إعجابه بفكرة المزاد ثم نافقني بأن إبليس يطلب درسًا خصوصيًّا مني، اقتربت منه هامسًا وأنا أقلده بوضع كفي على فمي:

- وشرفك بكرة أبيع حاجات فاروق نفسه اللي اتباعت في المزاد إياه والناس تشتريها والحكومة مغمضة برضه.

- ورحمة المايسترو تكلم لي الست روحية ترجَّعني أشتغل في الصالة وإنشالَّه تبيع قصر عابدين نفسه.

ربَّت كتفه بمودة، لكني لم أوافق ولم أرفض بعد.



3/17

لا تثق فيمَن لا هواية له، لا تُعطِ سرك لمَن يحب الثرثرة، لا تعمل مع من يزدري مهنته، تلك هي الوصايا الثلاث للريس هارون التي أكدها علينا يوم تقاعده، أحال نفسه إلى المعاش بقرار فردي صارم عندما ناهز عمره الثمانين عامًا وأصابت كفيه رعشة دائمة، قرر احترام تاريخه لتظل سيرته طويلة، أملى وصاياه وعينه على روحية، لم يكن في حاجة لأن يسميها، فأنا أُدرك مقصده، لكني لست صاحب قرار بعد.

كنا نحتفل بتوديع هارون ففوجئنا بخروج الميت من قبره بعد عشر سنوات، أنهى سعد كروان العقوبة وغادر السجن، وجدته أمامي في قلب الصالة، بدا لي مثل شبح من الماضي، لم أتوقع رؤيته مرة ثانية طوال حياتي وتصورت أنه سيموت في محبسه، كنت طويت صفحته للأبد ونسيت أنني لا أشارك القدر في كتابة مصائرنا.

لم تغيره السنون، لا يزال يحتفظ برشاقته وأناقته، فقط بعض التجاعيد البسيطة لزوم السنوات الماضية بعد تخطِّيه الستين، وكثير من الشعر الأبيض لكنه مصفف بعناية، ونظارة طبية ذهبية رقيقة أقرب للوجاهة منها للإبصار بدقة، هذه ليست أحوال وهيئة سجين فقير بعد عشر سنوات في ليمان طُرة ممَّا أثار شكوكي في أمره، لكنني نحيتها مؤقتًا.

حيَّا كروان الجميع ببرودٍ ثم جلس مع روحية يتهامسان دون أن يصافحني، تظاهرت بانشغالي في عملي بعدما حييته بترحابٍ مبالغ فيه لكني لم أمد يدي نحوه أيضًا كي لا يكسفني. تدرك روحية جيدًا أن عاصم التركي لا يستطيع إدارة الصالة بمفرده، فالفتى كسول بطيء الفهم، لا يهمه إلا الطعام وركوب السيارة الكبيرة التي ورثها عن أبيه، ثم جاء تقاعد هارون ليربك حساباتها كلها، توقعت أن تتغير روحية بعد ظهور كروان على المسرح، خمنت أنها ستعرض شراء نصيبي بالصالة بعد رفع الحراسة بدلًا من بيع نصيبها لي. يكفيني جدًّا غباء كتلة الدهن لأدرك أن سعد كروان هو شريكها ومدير الصالة المنتظر، لكنها فاجأتني، صارت لينة أكثر ووديعة كما القطة الصغيرة، حتى

سـعد كروان لم يُبدِ أي حمـاس للرجوع إلى الصالة، بـدا زاهدًا وكأن السجن كسر طموحه ونزع سمومه، لكن نظراته تشي برغبته في لدغي بسبب وشايتي ضده، لكنه لم يزحف نحوي بعد.

ما إن لمحتني روحية أحوم حولهما حتى بادرتني قائلة:

- تعالى خُد معايا فنجان شاي بكرة المغرب..

لا تعنـي كلمـات روحيـة تلك سـوى عـرض جديد، ربمـا عادت في كلامها وسـتعين كـروان مديرًا، لكنني هذه المرة مستعد للحرب. قبل موعدي بدقائق كنت بشـقتها في بـاب اللوق، بمجرد ما بدأت في ارتشـاف الشـاي حتى أخرجـت علبة مـن القطيفة تبدو قيمـة، فتحتها ببـطءٍ ربمـا لتزيد من فقرة التشـويق التي صارت تتقنـه مؤخرًا، وقعت عيني على سـاعة يد ذهبية لامعة، من النظرة الأولى أدركت أن القطعة أصليـة، الإحسـاس الـذي لا يخيب أبـدًا، يخبرنـي بالحقيقة بسـرعة ويجعـل قلبي يدق، ربمـا لاحظت روحية أنني أدركـت حقيقة القطعة من رعشة خفيفة بيدي وأنا أتناول منها العلبة لأنها قالت:

- دي هديـة بينـي وبينـك مـا تقولش عليهـا لعدوك.. السـاعة دي تمنها مش أقل من عشـرين ألف جنيه، أنا حبيعها لك بعشرة آلاف بس والباقي حلال عليك يا خواجة.

برقـت عينـاي، أدركـت الآن أن روحية لديها قطـع حقيقية مخبأة، قطـع انتقاها المايسـترو بعناية من مزاد فاروق وأهداهـا لها ولابد أنها تحتفظ بمسدس فاروق المزخرف الذي قتلت به منصور، هذه الساعة

التي بين كفي الآن كانت هدية من هتلر وبيعت في المزاد الكبير منذ سبعة عشر عامًا، لا أعرف بالتحديد كيف وصلت ليد منصور مرة ثانية، لكنني أعلم جيدًا أنه لم يضل طريقه أبدًا.

نظرت لروحية مبتسمًا بعدوى من ابتسامتها الخبيثة وقلت:

- استابينا.

***

أخشى اليوم الذي أفتح فيه نافذتي فلا يدخل منها الضوء، أخاف أن أكون قد رقدت بالفعل في قبري كمدير مؤقت للصالة وشريك بالثلث، لتصبح كل محاولاتي في فتح النافذة مجرد كوابيس شخص ميت.

توقف عقلي عن التفكير عند محطة بدت لي أنها نهاية طريق وبداية آخر.. نهاية روحية مثلما انتهى مشوار منصور من قبل. لا مفر من الخلاص منها إذا لم تدلني على مكان المخزن الذي يحوي ثروة منصور. بعد شهرين أتحفتني روحية بقطعة ثانية نادرة من مغارة منصور، مبسم من العاج كان ملك الحبشة أهداه لفاروق في عيد ميلاده الثلاثين، بعته لباشا سابق من هواة المقتنيات الخاصة بالقيمة ذاتها التي بعت بها ساعة هتلر للسفير البريطاني بالقاهرة، بعشرين ألف جنيه، حصلت روحية على نصفها، لم تكن تحلم بهذا الثراء السريع ويبدو أن لديها المزيد. لم تعُد لمزادات الصالة قيمة بجوار هذه القطع التي تتسرب كخيوط نور وسط عتمة الركود التي يعاني منها

سـوق المزاد في مصـر الآن، صار همِّي الأول أن أعـرف طريق مغارة التركي وأسـتعيد مسـدس فاروق، دليل إدانتي الباقي على قيد الحياة، ثـم بعدهـا أتخلص مـن روحية وكتلة الدهـن بهدوء، اسـتقررت على وضع سُـم لهما في الطعـام وتركهما حتى يتعفنا في شـقتهما وإلصاق التهمـة بكروان، ضربـة ثلاثية تجلب راحة البال والصالة معًا في سـلة واحدة، خرجت مشـغولًا بفكرة القتل، لكنني لا أجد ذئب ابن يعقوب بعد، فهذه المرة أصعب لأنني أحتاج لذئاب كثيرة.

حملتنـي قدماي لميـدان التحرير، ركبت الترام وجلسـت في نهاية عربـة نصف مزدحمـة، قرقعـة العجلات علـى «الفلنـكات» منتظمة، إيقاعها يضرب في أذني كل ثانية، يرتج جسـدي، أشعر بأنني في عربة الزمـن، أعود بذاكرتي للوراء محملًا بحيرة السـؤال، إلى متى سـأظل أسـيرًا لطموحي بملكية الصالة؟ متى تنتهـي الحواجز التي أقفز فوقها تباعًا، حتى راودني شـعور الارتباك الذي يسبق التعثر غالبًا وبات على وشك التمكن مني؟!

تهتـز العربـة ثانيـة، أرتـج أكثـر، يتوقـف التـرام فجـأة فـي محطة التوفيقيـة، عبـارات متناثرة عن تـرام آخر معطل. يتكدس البشـر كيوم الحشـر، الخصوصيـة ذهبـت، البعـض يلتصـق بكتفي، آخـرون فوق رأسـي، أشـعر بالاختناق رغم النوافذ المفتوحة، أعود لذكرياتي لعلِّي أهـرب مـن نظرات الناس التي تلاحقني بلا سـبب، هل يتشـفون فيَّ؟ أكاد ألمح ابتسـامات صفراء خلف الوجوه التـي تحملق بوجهي. هل يرونني مغفلًا؟!

اقترب الترام من العباسية، الغالبية يغادرون، قليلون بقوا معي في العربة، مشوار لا أعرف نهايته ولا رغبة عندي في النزول، محطات حياتي لا تناسبني، لا تروق لي إلا المحطة الأخيرة، محطة صالة «أورفانيللي ومنصور»، المحطة التي وصلت إليها بعد عناء وتعب وتخطيط ويد مغموسة في الدماء انتقامًا لأهلي، لكني لم أنزل بها بعد، فقط أراها من خلف زجاج سميك والآن اكتشفت كنزًا جديدًا أكبر من الصالة نفسها، ولن أسمح لأحد أن يترك المحطة تمر من أمامي ويمنعني من النزول بها حتى لو اضطررت لقتله، لكنني خائف من داخلي، الكلام سهل وأفعالي شبه منعدمة وخطواتي متأخرة وروحية تسبقني بخطوات. تنهدت بعمق، لا بد وأن أكون أكثر شجاعة وتفاؤلًا، فالهموم كالغيوم، كلما تراكمت.. اقترب المطر.

عُدت بنفس خط الترام إلى نقطة البداية، ميدان التحرير، شعرت بأنني أفضل حالًا في طريق العودة، لم أعُد أنظر إلى وجوه الركاب، البشر والسيارات والمباني تمر من أمامي كخيالات متسارعة تطويها عيناي، لا أقف على ملامحهم وتفاصيلهم، أرى صورة أمي نائمة، بجوارها أبي يرتدي قبعته البيضاء الكبيرة التي تغطي رأسي الآن لكنه لا يبتسم.

أسهل طريقة لصرف العفريت أن تضيء مصباح الغرفة التي يسكنها معك لتطمئن، أو تشعل فيها النار لتقتله وتستريح.



3/18

المرأة مثل شمس تشرق كل يوم لكننا لا نمل من طلتها أبدًا، ها هي أشرقت الآن، طلتها مميزة وابتسامتها مبهجة كأنها تقول للدنيا ابتسمي وودعي الأحزان كلها، مجرد نطق اسمها يطربني، طريقة كتابته بالتاء المفتوحة تعجبني عندما تأملت الكارت الصغير الذي تركته لي، تلك هي المرة الثالثة التي أراها فيها خلال شهر، تدخل وتخرج من صالة «أورفانيللي ومنصور» بهدوءٍ كنسمةٍ عابرةٍ لكنها تترك أثيرها وراءها فيتخللني، ينفذ عبر مسامي، يسري في عروقي، يروي ظمأ الشوق ويُشبع اللهفة حتى تعود مرة أخرى.

تُحييني كل مرة بإيماءة خفيفة، لتظل عيناي عليها طوال وجودها، تتحدث بكلمات قليلة كأنها تشدو، ثم تلتصق صورتها بذاكرتي عندما تختفي ليتجدد الوصل عندما تعود، تتفحص بعض القطع باهتمام ودقة، راودني شك في أن لديها خبرة كبيرة، تنتقي القطع الأصلية فقط لتقلبها بين يديها بمهارة، ربما تكون مصادفة.. لست واثقًا بعد، لم تحضر مزادًا لنهايته، ولا أبدت إعجابًا بقطعة محددة، لكنها آسرة بكل المقاييس، في نهاية العشرينيات حسبما خمنت، خمرية رشيقة، عيناها واسعتان مريحتان، تشبه أمي في شبابها ولا أجرؤ بعد على الاعتراف بأنها أجمل.

اليوم نظرت إليَّ بترحابٍ مشـجِّع، محفِّز لخطوةٍ أولى كبيرة أشبه بقفزةٍ فلم أتردد، أنتظر تلك الدفعة البسيطة لأنطلق، صافحتني بدفءٍ فقبَّلـت يدهـا، أناملها تشـي بأنها فنانـة، دارت حولي فزادتنـي ارتباكًا بجسـدها المثير، ثم جلسـت مبتسـمة كأنها ترى حبيبًا غـاب عنها منذ زمن وعينها تفتقد محيَّاه أو هكذا خُيِّل لي، بادلتها الابتسام وأنا أتصبب عرقًا وكلِّي ينتفض، قالت بصوتٍ أقرب لموسيقى وهي تمزق أوصال صمت الهيام برقة:

- تعرف أن الصالة هنا أغنى وأفخم من صالات كتير في باريس؟! حقيقي ذوقكم مختلف.

- أنتِ بتزوري صالات مزاد في باريس؟

تجاهلت سـؤالي، ثـم نهضت وسـارت بخطوات بطيئـة في دلال نحو منضدة مسـتديرة كبيرة بوسـط الصالة، التفتـت نحوي فانجذبت إليهـا باسـتدعاءٍ غامضٍ مـن بريـق عينيها، سـألتني عن إمكانيـة تغيير مـكان فازتين لتُصبحا خلف سـاعة ضخمة تتوسـط المنضدة بدلًا من تصدرهمـا مقدمتهـا، هـززت رأسـي وأنـا أزوم بالإيجاب فـي ليونة، راحـت تحمل فازة برفق لتضعها في المؤخـرة، فجأة قفز عقلي ليزيح مشاعري جانبًا سائلًا:

- مفيش مشـكلة..لكن اسـمحي لي أقول لـك ملاحظة،أعتقد إن مكانهم ورا الساعة مش حيبيِّنهم بصورة واضحة.

– ما هو علشـان كده طلبت منك أغيَّر مكانهم.. دايمًا تحط القطعة الأصلية في المقدمة علشان تخطف العين.

أدركـت الآن أنهـا لا تفعل شـيئًا بالمصادفة، هذه السـيدة الجميلة لديهـا خبرة حقيقية جعلت فضولـي يتعلق بحروف كلماتها، أما عقلي الذي انبهر فقد توارى مسرعًا ليُفسح مكانًا واسعًا لقلبي مرة ثانية، وهو يُطرِق خجلًا من تدخله المفاجئ.

أخذنا الحديث فلم ندرِ بالوقت، وامتد بنا الكلام فسحرتني العيون، تشـعبت الحكايات فلم أشـعر بالمكان، وكلما تأملت جمالها احترت في أيٍّ من أوصافها أبدأ بالغزل، استدارات جسدها تشغلني وتستحوذ علـى تفكيري، خيالاتي تصورهـا في أوضاع عديدة بفراشـي وهي لا تمنحني سوى الابتسامات حتى الآن.

كنـا نجلـس فـي تـراس فنـدق هيلتـون بعدمـا قبلت دعوتـي على الغداء،اسـمها نجـات، ولدت لأم فرنسـية وأب مصري يدعى سـامي ونسيت لقبه.. أبوها مهندس طيران يهودي، عاشت طفولتها في القاهرة ثم غادرت مصر مع أهلها بعد الثورة بعامين، استقروا في باريس حتى مات الأب في حادث سـير على حدود بلجيكا منذ أعوام قليلة. تعيش نجات مع أمها المريضة أغلب أوقات العام بفرنسا، أخبرتني أنها تعمل مترجمـة في اليونسـكو، وفنانة تشـكيلية بعض الوقـت، تعرض وتبيع بعض لوحاتها بين القاهرة وباريس، وتتردد على شقة أبيها القديمة في جاردن سـيتي كل بضعة أشـهر في إجازات قصيرة وتسـتخدمها أيضًا

كمخزن لأعمالها الفنية. ربما لم تكن اللحظة مناسبة، وربما كانت بلا معنى أيضًا، لكنني أقدمت عليها بغير تفكير قائلًا:

- على فكرة أنا يهودي زيك.. اسمي أورفانيللي منصور أررفانيللي.. بس في ناس بتفتكرني قبطي من اسمي.

قلتها وضحكت ببلاهةٍ من تفاهة كلماتي، لكنها نظرت لي بإعجاب برقت له عيناي أكثر منها وهي تسألني برقة:

- جميل جدًّا، لكن اسمك على اسم الصالة صدفة بديعة وحاجة أوريجنال خالص.

- أبويا شريك فيها بالتلت.. عمومًا دي حكاية طويلة ممكن أحكيها لك لما تيجي مصر المرة الجاية.

ارتشفت قهوتها بهدوء، ظلت ابتسامتها مذهلة وهي تقول بصوت عذب يغلِّفه الخجل كي لا يخدش صفاءه:

- أنا المرة دي ناوية أقعد شهرين أو تلاتة في مصر. عندي طاقة كبيرة لرسم لوحة جديدة بفكرة مختلفة.

قالتها نجات وتبسَّمت، بدت لوهلة كطفلة جميلة، شجعتني على دعوتها للتنزه على كورنيش النيل إذ ربما أستطيع الإمساك بيدها ثم تقبيلها ودعوتها على عشاء راقص وبعدها استدراجها لشقتي، مَن المغفل الذي قال إن قلب الرجل في معدته، أنا شخصيًّا قلبي بين ساقَي، ينبض كلما رأى امرأة جميلة ويحثني على رحلة الصيد،لكنني اضطررت لإرجاء محاولة القنص الأولى لما راوغتني الفريسة.

طلبت نجات مني انتظار أغنية تحبها سوف تعزفها الفرقة الموسيقية التي تجلس في نهاية التراس بناء على طلبها، مالت نحوي حتى ثملت من عطرها، أخبرتني بأن كلمات الأغنية التي طلبتها تقول:

«سأترك رائحة يدي بيديك الآن

لكني في المرة القادمة سأسرق قلبك وأخبئه بين يدَي»

همسها وطريقة إلقائها لكلمات الأغنية بالفرنسية وعطرها أثاروني للغاية، طلبت منها أن تحدثني أكثر عن نفسها، اتسعت ابتسامتها واحمرت وجنتاها وهي تستكمل حديثها بالفرنسية:

- أنا مثل باريس.. صاخبة نهارًا بغير ضوضاء.. متلألئة ليلًا في بهاء، لا يكفيك يومًا واحدًا لتعرفني.

- يبقى نتقابل كل يوم علشان أشوف حتة منك في كل مرة..

قلتها وضحكت.. لكني ضحكت وحدي، أطرقت نجات، ازداد احمرار وجهها كله، ثم نهضت متعللة بأنها ذاهبة لدورة المياه لإصلاح زينتها، رجعت بظهري في مقعدي، أشعلت سيجارة وقطعت الوقت بتأمل المكان من حولي، انتبهت لأن العزف سيبدأ، الفرقة الموسيقية بدأت تستعد بمطلع لحن لأغنية فرنسية قديمة اسمها.. «أهو الحب الذي يطرق بابك؟!».



3/19

جلست أمامه كتلميذ صغير مثلما كنت منذ ربع قرن مضى، أستمع وأتعلم، لديه قدرة فذة على فرز البشر وكشف معدنهم من نظرة واحدة، يخترق صدورهم ويعرف ما في ضمائرهم، لم أكن أعلم أن الريس هارون هو الذي علَّم منصور سر المهنة، هو أول مَن تلقفه بصالة المزاد القديمة في حي اليهود، تتلمذ منصور على يديه وهو في العاشرة فصار المايسترو، ومن بعده تولاني هارون حتى صرت الطفل المعجزة كما أطلق عليَّ، أفشى لي سره عندما شعر بالفشل مبكرًا مع كتلة الدهن عاصم، لكنه التمس له الكثير من الأعذار بلا سبب واضح لي إلى الآن.

فجأة بدون مقدمات سألني السؤال ذاته الذي وجهه لي مرتين من قبل وكأنه لا يرتاح لإجاباتي السابقة:

- ليه الضمراني في المحكمة وهو بيسمع الحكم بإعدامه اتهمك بتحريضه على قتل منصور؟

عادت ذاكرتي تلقائيًا لجلسة النطق بالحكم، بعدما أحال القضاة أوراق الضمراني للمفتي صرخ من القفص كأسد عجوز جريح أنني المحرض على القتل، لم يلتفت له سوى هارون، اقترب من القفص والضمراني يرغي ويزبد، وظللت أنا مكاني متعمدًا عدم النظر ناحيته،

ردَّدت في سرِّي أن قطار الموت انطلق وصافرة الضمراني الخافتة لن تفلح في إيقافه، فالسائق لن يسمعها من ضجيج العجلات والركاب استقروا جميعًا في أماكنهم.. صيحة البجعة الأخيرة لا يلتفت لها أحد عادة، يعرفون أنها تطلقها من فرط الألم، لا تبغي منها سبيلًا للنجاة أو طلبًا لمساعدة. فقط لتؤنب ضمائرنا على قتلها.

وضعت ساقًا فوق أخرى لأستعيد ثقة راحت تتسرَّب مني ببطءٍ وقلت بهدوء:

– الضمراني عمره ما كان بيحبني يا ريس هارون، دي حلاوة روح عاوز ينقذ نفسه من حبل المشنقة على حسابي. مع أني لمَّا دافعت عنه ضحيت بسمعتي كمحامي وصبي من صبيان التركي الله يرحمه.. لكن تقول إيه.. خير تعمل شر تلقى.

عندما سكنت عاصفة شكوكه في صيحة الضمراني الأخيرة أفضت بكل همومي على ضفاف الريس هارون، أخبرته بكل شيءٍ عمَّا أنوي عمله خلال أيام وطلبت مشورته، سكتَ لبرهة طويلة وظل ينظر من نافذة حجرته المطلة على حديقة قصر عابدين الخلفية، قال كلامًا كثيرًا يمكنني اختصاره في كلمتين: «صفقة خاسرة»، فرفعت صوتي وأنا أثبت نظري على عينيه، أخبرته بأنني سأغادر منضدة القمار فائزًا وعلى أسوأ تقدير لن أخسر مليمًا، إما الثروة أو رفض الصفقة، لو لم يعجبني العرض سأعود للقاهرة، وأترك عزيز أرقش وسعد كروان مُفلسَين كما هما الآن.

أطرق هارون ثم أشـاح بوجهه ناحية النافذة مرة ثانية، قبل أن يقول بثقة:

- مش حتقدر ترجع إلا بموافقتهم.. وحتفضل طول عمرك موظف في الصالة حتى لو نصيبك التلت.

- ماحـدش يقـدر يمنعني مـن السـفر. وماحدش يقـدر ياخد مني حقي.. أنا غير أبويا.

- ماتقدرش تدخل عرين أسـد وتاخد ناب من أنيابه وتخرج سليم زي ما دخلت، بيتهيأ لك يا خواجة، يا تقتله يا إما....

لـم يكمل هـارون كلامه، أغمض عينيـه وابتلع مـا كان يريد قوله، أدركت أنه يشـبهني بأبي لكني لم أشـأ الضغط عليه رغم عدم اقتناعي بمنطقه، فالأسد الذي يتحدث عنه صار عجوزًا ضعيفًا أشبه بقط كبير.. أرقـش بلا أنياب في الغربة فعلًا، هممـت بالمغادرة وصافحته بحرارة مودعًا، شـعرت بدموع تترقـرق في عينيه كأنه يودعنـي للأبد، انتابتني رجفـة للحظـة لكني تجاوزتهـا، قبل أن أغادر باب بيتـه تذكرت أنه لم يُجب عن بعض أسـئلتي التي تقلقني، التفتُّ نحوه مكررًا شكوكي في نجات، صحيح أنها حذرتني مثل هارون لكن لمرة واحدة خافتة باهتة كأنها تأدية واجب والسـلام، هل شـكِّي في محله بأنها مدسوسـة عليَّ مـن روحية لكـي أبيع الصالة لها؟ أم أنني صرت متوجسًـا من الجميع بلا سبب؟

قلبـي يميـل لنجات وعقلي لا يـزال يحجل ولم يضـع قدمه الثانية على أرض الثقة بعد.

ابتسـم هارون في اسـتنكار لأول مـرة ودعاني للجلـوس مرة ثانية وقال:

- أنا علمتك السر زمان، النهارده أنت لوحدك تقدر تعرف الأصلي مـن المزيـف بنظرة عيـن. مش محتاج حـد تاني يدلـك. وبعدين أنت عمرك شُفت خبير يقدَّر قيمة قطعة من غير ما يشوفها؟!

أخرجت من سـترتي صورة لها معي بجوار الهرم الكبير وبسـطت يدي أمامه، تأملها من بعيد دون أن يلمسها وتمتم بكلمات لم ترُق لي، طالت فترة شروده بعدها ثم هز رأسه بأسى كأنه يرفض هاجسًا سخيفًا طاف بعقله. خفت أن يظل متمسـكًا بصمتـه المعتاد فألححت عليه أن يقول شيئًا، بالكاد نطق بعد أن لمح قلقي وخوفي:

- أنـا عمري ما حكيت أسـرار الصالة لمخلـوق غير لمنصور لكن محبتك عندي تخليني أحكيلك بالقدر اللي يحميك من نفسك، روحية عمرهـا ما حتبيع لـك نصيبها في الصالة حتى لو دفعت لها ضعفه، ولا عزيز أرقش حيرجع لك فلوس من باريس، السر اللي أنت ما تعرفوش إن عاصم مولود بمرض نادر في المخ أثر على عقله واسـتيعابه وخلاه بليـد الذهن وبطيء الحركة، وكمان أثر على عينه اليمين مش بيشـوف بيهـا تقريبًـا، علـى طول كان محتـاج علاج لكن مش بيتحسـن، وأنت عارف طبعًـا أن روحية بتعتبره أكتر من ابنها فصرفت عليه اللي حيلتها ومنصـور هرَّب أغلب فلوسـه قبـل ما يموت واللي سـابه في مصر لها كان القليل.

سكت هارون قليلًا وكأنه يقلب صفحة من كتاب الأسرار الذي يتلو منه ثم أردف:

- عزيز أرقش وهو في باريس كان بيساعدها بالفلوس لما عرف بحاجتها عن طريق الراجل بتاعه هنا.. سعد كروان، وبعد ما الست روحية تقريبًا فلِّست بسبب ضعف المزادات والحراسة، وكانت الفلوس اللي بتشغل «أورفانيللي ومنصور» هي فلوس أرقش، ويمكن يكون أخد عليها كمبيالات أو اشترى جزء من نصيبها، حتى القطع الفالصو اللي كانت بتديهالك في الأول علشان تبيعها كان مصدرها عزيز أرقش، وأنت لأنك موش مركز ماعرفتش تفرق بينها وبين الأصلي.

قاطعته منفعلًا مدافعًا عن خبرتي:

- أنا متأكد إن كان عندها قطع أصلية وأنا أخدت منها...

أشار إلى فمه بإصبعه واسترسل ببرود:

- الكلام ده حصل بس لمَّا الحراسة اترفعت، وقتها الصالة حِلِيت تاني في عينها وعلشان كده ابتدت تجيب لك حتت حقيقية من ورا عزيز أرقش.. زي الساعة والمبسم بتوع الملك فاروق لأن منصور خبَّاهم عندها قبل الحراسة وغالبًا مفيش عندها قطع أصلية تانية، يا ترى فهمت دلوقتي ليه أرقش عنده تار بايت في الصالة مع منصور، وعمره ما حيسيب تاره؟ صدقني ابعد عنه وما تسافرش.

غمرني الذهول وغلّفني بصمت العاجز، رفض هارون أن يبوح بتفاصيل أكثر عن هذه الشراكة المريبة بين أرقش وروحية التي لم أتوقعها على الإطلاق، عندما تملكني اليأس حاولت طمأنته بأنها ستكون المحاولة الأخيرة، سأقتل الأسد وأتفرغ بعدها لحياتي كما أريدها. وإن لم أفلح فقد نلت شرف المحاولة.

ابتسم هارون كثعلب عجوز مُجهد وهو يقول لي دون أن ينظر نحوي:

- كلهم قبلك قالوا الجملة نفسها.. أبوك قالها قبل ما أمك تروح قصر عابدين لآخر مرة ومات بحسرته، ومنصور قالها قبل المزاد الكبير الأخير، وصبر على سعد كروان والضمراني لغاية ما سرقوه وقتلوه.. القدر أسرع منا كلنا يا بني وماينفعش ندخل في سباق معاه.

عندما هممت بالاقتراب من باب الشقة للمغادرة بدون وداع هذه المرة، علا صوت هارون بنبرة أقرب للرجاء:

- بلاش تسافر يا خواجة.. خليك هنا.. الصالة نفسها كنز حقيقي أكبر من السراب اللي مزغلل عينك في باريس. اوعدني إنك مش حتسافر وأنا أضمن لك كل اللي بتحلم بيه.. بس اصبر.

لوّحت له من بعيد وخرجت محمّلًا بحيرتي التي تكبر كبالون، كلماته عندما رأى صورة نجات عن قلبي الذي في مكانه المعتاد لكنني أحبس عقلي وراء جدران الصالة لا أفهمها، ما الذي يقصده بالمكان المعتاد؟ وما الضرر في أن يكون عقلي داخل الصالة؟

أوقفت أول تاكسي مر أمامي، وألقيت بنفسي فيه قائلًا كلمة واحدة:

- جاردن سيتي.



3/20

القاهرة تبتعد.. أتابع كثبانها الرملية المتناثرة بعشوائية من النافذة البيضاوية الضيقة، تصغر وتتلاشى حتى إنني لم أعُد أرى سوى سحابات بيضاء ضخمة بجواري تسبح في السماء عكس اتجاه الطائرة، هذه مثل الدرفيل، وثانية مثل أذن فيل، وثالثة أشبه بوجهٍ ضخم للبيب الضمراني، ضايقني تذكُّره، فنفثت دخان سيجارتي بعصبية في وجه المضيفة دونما قصد بينما تُقدم لي كوبًا من عصير البرتقال، اعتذرت لها بكلمات بسيطة، ابتسمت لي ومضت تقدم الأكواب لغيري مُحافظة على ابتسامتها البلاستيكية، لا تتسع ولا تضيق كأنها ملتصقة بشفتيها.

حاولت قطع الوقت بقراءة الجرائد لكني مررت على السطور بعينَي ولم أستوعب حرفًا، خطاب عزيز أرقش الذي وصلني أربكني، تركت مصر كلها خلفي، حزمت مخاوفي واصطحبت قلقي للقائه في باريس.

منذ عشرة أيام سابقة على سفري فوجئت بخطاب منه يصل إلى منزلي، قرأت سطوره القليلة وجلست أنتظر الزائر الغامض الذي

أخبرني أرقش بأنه سيزورني ليتفق معي على مستقبل صالة أورفانيللي ومنصور، ليلتها دق جرس الباب لأجد أمامي آخر شخص كنت أتوقع رؤيته مرة ثانية في بيتي.. سعد كروان. كعادته يسلك أقصر طريق للموضوع الذي يريد الحديث فيه، جلس دون أن يصافحني قائلًا بنبرةٍ محايدةٍ وهو يُخرج شيئًا من جيب سترته:

- عزيز بيه وصل لثروة منصور التركي في باريس، حط إيده على الفلوس اللي هرَّبها له ألبير مزراحي ولك نصيب كبير فيها، السفر بعد أسبوع والعنوان حتلاقيه في الورقة دي مكتوب بالتفصيل مع نمرة تليفون البيت.

فتحت الظرف ببطء، وجدت تذكرة سفر لباريس باسمي، وورقة بها عنوان وأرقام هواتف وخطاب من محامي فرنسي بشأن ثروة منصور بأحد البنوك الفرنسية واسمي كاملًا مدونًا بها، رفعت عيني ناحية كروان لأسأله عن التفاصيل فوجدته يتأهب للرحيل، قفزت وأمسكته من ذراعه ليشرح لي، أزاح كفي بعنف قائلًا:

- ما تسألش كتير ماعنديش حاجة تانية أقولها، لكن لو عاوز رأيي أنت كلب وما تستاهلش.

اندهشت من تقلبه الحاد المفاجئ لكنه أردف بنبرة غاضبة:

- مش كفاية اللي عملته يا ابن الكلب والا فاكرني مش عارف مين اللي بلغ عني؟ أنت عار على اليهود كلهم، عمومًا أنا كنت متوقع منك أكتر من كده، اللي زيَّك كان لازم يتعدم من عشر سنين، لكن أجلَك لسه ماجاش، وقريب حازور قبرك.

ارتجفـت من كلماته، تسـمَّرت فـي مكاني،تركته ينصـرف بهدوءٍ مثلما جاء،لكن جسـدي ظل ينتفض، فكـرت للحظة في الهجوم عليه وشل حركته وإجباره على إجابة أسئلتي، ثم تراجعت وجبنت، نزعت كلمات أرقـش عن ثروة منصور المخبأة أنيابـي وقلمت مخالبي حتى بان لحمي الطري.

انتبهـت إلى أنني ركلت قدم نجات الجالسـة بجـواري في الطائرة وأنـا أتحـرك بعصبيـة فـي مقعـدي، اعتـذرت لهـا فربتت يـدي برقة، أغمضـت عينـي محـاولًا النـوم لكني فشـلت. ظـل السـؤال وإجابته يتراقصـان أمامـي.. كيف عرف كـروان أنني قتلت منصـور إلا إذا كان التقى الضمراني بالسجن قبل إعدامه فأفشى له سرنا. حاولت مرة ثانية لكن الأرق أفزع جفنَي والتصق الضيق بوجهي كذبابة كسـولٍ في نهار حار.

***

تشعر كل امرأة بنظرة الرجل إليها، لديها رادار يكشفها عن بُعد، إما أن تمررها وتسمح له بالتمادي، أو توقفها وتسحب من صاحبها جرأته وتتركه عاريًا مفضوحًا.

تأملـت مفاتن نجـات خاصة عينيها، يسـحرني بريقهمـا، يجعلني منتشـيًا، أشـعر بأنني خفيف كطير يحلق فوق قطعة حلوى، أتشممها، أنتشـي بروائحهـا، أتـذوق طعمها على مهـل، أتركها تـذوب في فمي أولًا، تتخللنـي، تسـري فـي دمائـي وعروقـي لتجددهـا وتحييهـا، ثم

ألمسها برفق، أتحسس كل موضع منها بعناية، تقترب شفتاي من شفتَي نجات لأرتوي، قُبلة حياة كما يقولون، أستطيع تحديد طعمها الحلو.. قطعة أصلية حقيقية من لحم ودم، مخلوق ملائكي الملامح ناري الجسد.. القُبلة الأولى كالثانية كالثالثة.. لا توجد أخيرة، كل القبلات تعطيك الانطباعات الأولى، كأنها تتحور وتتجدد مرة ثانية، يتلاحم جسدانا في سيمفونية عشق، لم أعد أشعر بأجزاء جسمي الملتفة حول جسمها، لا أرى إلا رأسها وشفتيها فألثمهما، شعرت بأننا روح واحدة في جسد عريض يحتويها ويدللها، نفرغ لنبدأ دورة عشق جديدة كأننا لم نرتوِ مع أننا مغمورون في المتعة.

تمددتُ على ظهري عاريًا، فالتفتت ناحيتي وقالت:

- أنا مش مرتاحة لسفرك باريس.. إزاي تِطّمن بسهولة لمجرمين زي ما حكيت لي عنهم وتسافر لهم كأنك رايح فسحة؟ الأحسن إنك تبيع الصالة لروحية.

كانت تجفف شعرها أمام المرآة مرتدية روبًا حريريًّا شفافًا أثارني أكثر رغم أنني انتهيت منها منذ قليل، إصرارها على بيع نصيبي لروحية يزيد من شكي فيها، لكني وأدت هواجسي وشكوكي، نظرت في ساعتي وشعرت بتأخرنا على موعد الطائرة، فقلت وأنا أهم بارتداء ملابسي:

- زي ما قلت لك قبل كده، أنا مش خسران حاجة، الورق اللي بعته لي أرقش بيقول إن ليَّا نصيب كبير في الفلوس، صحيح أنا مش مصدق إن منصور ممكن يكتب لي مليم من فلوسه، لكن في نفس

الوقت ممكن يبقى الموضوع حقيقي، وأطلع بقرشين لو كانوا وصلوا لمكان الفلوس اللي هرَّبها منصور مع ألبير مزراحي، وبعدها...

اقتربت مني وأحاطت بذراعيها عنقي.. غبنا في قبلة طويلة، ثم عادت برأسها قليلًا للوراء، بدت عيناها دامعتين وهي تقول بنبرةٍ قلقة:

- الصالة مش حترجع بالسهولة اللي أنت متخيلها، سيب عاصم التركي يديرها لوحده ويفشل ويفلس، روحية ست طماعة مش حتقدر عليها، خلينا نستقر هنا وتفتح صالة لوحدك وباسمك، وأنا بخبرتي في اللوحات وأنت بخبرتك في صالات المزاد والتحف القديمة ممكن نعمل مشروع جاليري وصالة يكسر الدنيا.

هززت رأسي متعجبًا من منطقها،عندما تقترح نجات افتتاح صالة أخرى باسمي.. «صالة أورفانيللي»، فهي لا تدرك قيمة امتلاك الأصل، مهما كان المقلد متقنًا ولامعًا يظل غير حقيقي، تنقصه الروح والقيمة، ما تقوله نجات أشبه بأن تترك حبيبتك لغيرك لتتزوج بواحدة تشبهها فتعيش تعيسًا للأبد.



3/21

ابتسامة أرقش لا تعني أنه سعيد بوجودي، قد تكون محاولة لإخافتي بإبراز أنيابه، فأخذت حذري منذ وطئت قدمي مطار «أورلي»

بباريس ووجدته في استقبالي، تركت ذراعي ممدودة عن آخرها كي لا يحتضنني، لكنه كان أذكى مني، فرد ذراعيه وباعد بينهما وتلقفني.. فاستسلمت.

رمق أرقش نجات بنظرة حذرة متشككة، قدمتها له على أنها صديقة مقربة لكنه ظل متحفظًا للغاية وحيًاها ببرود، استقللنا سيارة ستروين خضراء كبيرة، لاحظت أن الموديل تطور كثيرًا عن عربة أبي التي كنت أقودها مع يوسف حسني، أخبرني عزيز أنها موديل العام الحالي، ثم ظل صامتًا كأنه سائق تاكسي حتى أوصلنا نجات إلى شقة أمها في حي مونبرناس، بمجرد نزولها دوَّن عنوانها في ورقة صغيرة ثم التفت ناحيتي وهو يقول بصوتٍ أقرب للفحيح:

- إحنا مش متفقين أنك تيجي لوحدك، مين بقى الوجه الجديد دي؟

- قلت لك اسمها نجات.. صديقة مقربة وبثق فيها وكان ممكن تتكلم قدامها لأني مش بخبي عنها حاجة.

ضحك عزيز ضحكة عالية وهو يردد بسخرية:

- الحب يا صديقي..

قبل أن أرد على تهكمه تغيرت نبرته قائلًا:

- شوف يا حبيبي الشغل مافيهوش عواطف ومشاعر.. الشغل شغل أنا لا أعرف نجات ولا غيرها والكلام حيفضل بيني وبينك لو أنت عاوز مصلحتك.

حاولت تلطيف حدة الحوار بتغيير دفة الكلام نحو إعجابي بسيارته مرة ثانية وأنا أتحسس التابلوه الخشبي برفق فقال:

- ممكن يبقى عندك أختها خلال يومين لو فتَّحت مُخَّك معايا يا خواجة، والا تحب أندهلك بنص اسمك وبلاش أفكرك بالمرحوم منصور؟!

قالها وراح يُصفِّر بلحن قديم وبدا أنه لا ينتظر مني ردًّا، فتحت نافذة السيارة المعبأة بدخان السيجار الذي لم يتوقف عن تدخينه منذ غادرنا المطار، شعرت أني بحاجة لاستنشاق الهواء ومشاهدة باريس، أول مرة في حياتي أركب طائرة وأسافر لبلد آخر،كلمات أرقش تلح على تفكيري، تشوِّش نظري فلا أرى من المدينة إلا بيوتًا وسيارات كأطياف مهزوزة، ظللت شاردًا حتى انتبهت إلى قوس النصر ونحن نقترب منه ونعبر بالسيارة من تحته، وجدته أضخم بكثير ممَّا تخيلته، التفتُّ ناحيته بعدما تجاوزناه، ضحك أرقش قائلًا:

- لو عاجبك أوي كده ممكن أبيعه لك في مزاد مخصوص للمغفلين.

ضحكت وأنا أتأمل ملامحه الواثقة الهادئة، لكني فضَّلت عدم التعليق الآن، أريد أن أسمع منه حتى يُفرغ كل ما في جعبته، وبعدها أنتقي من البضاعة ما أريد.. ما أحتاجه فقط.

- بيتهيأ لك!

أصابني الذهول من تعليقه، هل يقرأ أفكاري؟ سادت فترة صمت حتى استفسرت منه بصعوبة عمّا هُيِئ لي فقال:

- أكيد بتفكر في موضوع فلوس منصور التركي، وأكيد قلت أرقش بيضحك عليّا، فأنا قلت أقصر عليك الطريق وأجاوبك قبل ما تحكي كل ده مع نفسك. أنا مش حاخليك تسافر لغاية هنا على الفاضي.

تنهدت بعمق وهززت رأسي وأنا أؤمِّن على كلامه، بعدها لم يدُر بيننا حديث حتى وصلنا إلى شقته في جي اسمه ماريه، حملت حقيبتي وصعدت خلفه للطابق الثاني، شقة صغيرة لكنها أنيقة، تطل على حديقة واسعة منسقة بعناية، سمعت بابًا يُفتح ويُغلق بسرعة، التفتُّ على دقات كعب حذاء وخطوات بطيئة، لحظات قليلة ثم ظهرت أمامي امرأة خمسينية سمراء ممتلئة قليلًا، شعرت لوهلة أنني رأيتها من قبل، نعم أنا أعرف صاحبة هذا الوجه وتلك الملامح المضطربة والمتوترة والصوت العالي، بدَّد أرقش حيرتي بسرعةٍ قائلًا بهدوءٍ وهو يتعمَّد النظر لي:

- بهيرة هانم الشوادفي.. الست بتاعتي.

تقدمت منا طليقة منصور التركي، صافحتني بترحاب وقبَّلت وجنتَي، ثم جلست مبتسمة ابتسامة صفراء غير مريحة، بادلتها الابتسام مضطرًا وأنا أتصبب عرقًا من المفاجأة، بينما علت ضحكة أرقش قائلًا:

- بهيرة.. يساوي كام مسيو أورفانيللي؟

- كتير.. بس محتاج حد يقدر قيمته، لكن من غيرك مايساويش ولا فرنك واحد.

ضحكت وهدأت من داخلي قليلًا وأنا أقول لهما:

- النصابين في العالم كلهم شبه بعض.. نفس الكلام بنفس الطريقة، وبعدها آلا أونا آلا دوي آلا تري ومبروك عليك يا مون بيه.

ضحكت بهيرة ضحكة عصبية ولمعت عيناها بشدة، دعاني أرقش للجلوس بالشرفة المطلة على حديقة بعدما طلب من زوجته إحضار زجاجة نبيذ أبيض وبعض المحار، بمجرد أن جلسنا قال:

- أنت عارف طبعًا إن منصور هرَّب غالبية فلوسه مع ألبير مزراحي.

قبل أن أهم بالرد، أشار لي بيده لأصمت واسترسل قائلًا بجدية بالغة:

- وطبعًا عارف كمان إن منصور كان بيشغَّل فلوسه بعد ما هرَّبها، صحيح هو أخد من ألبير وصل أمانة بخمسين ألف جنيه لكن المبلغ النهارده وصل للضعف وأكتر، مائة وعشرة ألف جنيه مصري يا حبيبي ويمكن أكتر كمان.

رغم تشوش ذهني منذ رأيت بهيرة الشوادفي وعرفت أنها زوجة أرقش إلا أنني قاطعته بحسم قائلًا:

- وصل الأمانة ده اتسرق زمان يا عزيز بيه من خزنة منصور والبوليس حقق في الموضوع وما وصلناش لحاجة، ولو كان كروان قال لي التفاصيل من وإحنا في مصر كنت وفرت عليكم مصاريف السفر لغاية هنا، إنما أنتم...

قاطعني عزيز مرة ثانية وهو يضع ساقًا فوق أخرى بصعوبةٍ بسبب كرشه الضخمة:

- أنت على نياتك يا خواجة، الوصل الأصلي معايا وعقد تشغيل الفلوس بتاعت منصور والوصية اللي هنا كمان معايا.. وهي الأهم.

قالها ثم أخرج ورقتين بعناية من حافظة نقوده الكبيرة، أطلعني عليهما ورجع بظهره للوراء مشعلًا سيجاره. جلست كزاوية قائمة على حافة المقعد ورحت أعيد قراءة الوصية أكثر من مرة، غير مصدق ما تراه عيناي حتى انحدرت دموعي رغمًا عني.



3/22

«... وفي حالة وفاتي أوصي له بثروتي كلها وحده، ولا يتسلمها إلا ابني الروحي أورفانيللي منصور أورفانيللي إستيفان ألفيزي، وهو صاحب الحق الوحيد في هذه الأموال، ولا يجوز تسليمها لأي شخص آخر حتى ولو كان يحمل هذا الصك بيده، ولا بد من وجود

أصل هذه الوصية مع أورفانيللي منصور أورفانيللي وجواز سفره ولا يجوز لـه توكيل غيره، وهذا إقرار مني بذلك.. التوقيع/ منصور حامد التركي. القاهرة / ديسمبر / 1951»..

شعرت بأن أعصابي تتفكك مع قراءة الوصية للمرة الثالثة، دموعي تسيل ببطء، كادت الأوراق تسقط من بين أصابعي لولا التقطها أرقش بسرعة، نظر في عينَي وهو يقول بالنبرة ذاتها التي تحدَّث بها في السيارة:

- شُفت إنه كان ما يستحقش القتل، لكن معلش كلنا بنغلط وربنا بيسامح، هو برضه أخد حق والدك سنين طويلة ونصب على ناس كتير ماعرفوش يرجَّعوا حقهم زيك، منهم أنا وبهيرة.. مراتي، لما بلع نصيبنا في الصالة بالتزوير، المهم إن كروان لقى الكمبيالة في محفظة التركي بعد ما مات وبلَّغني علشان نصلح اللي انكسر، لكن صدقني منصور ما قتلش أمك ولا حتى أبوك، منصور نصَّاب ومزور لكن عمره ما يقتل.

هززت رأسي بلا معنى، تجاهلت تأكيده على قتلي لمنصور ليظل يقينه عالقًا في الهواء كدخان، المفاجأة ألجمت لساني، كيف كتم منصور كل هذه المشاعر الإنسانية؟ ولماذا أخفى عني الكرم الكبير وصحوة الضمير قبل وفاته؟! أم كان ينوي تغييرها عندما أبلغ عني البوليس؟! لست أدري.

دفست وجهي بين كفَّي لأمسح دموعي وأُبدِّد حيرتي، ارتحت للاحتمال الثاني، ضغطت على أسناني حتى آلمتني، وضعَت بهيرة

زجاجة النبيذ أمامي وهي تنظر لي بنظرة غريبة، تجرعت نصفها وأنا أنظر للفراغ في مرارة.

عاد أرقش للحديث كمَن يطرق الحديد وهو ساخن:

- صحيح الفلوس تخصك وحدك، لكن في نفس الوقت ماتقدرش تصرفها من غير الورق اللي معايا، علشان كده لازم أشاركك، نصيبي أربعين بالمية بس من الفلوس، وخمسة بالمية لكروان، وحلال عليك الباقي، مبلغ ما تحلمش بربعه، يومين تلاتة ونخلص الموضوع، قلت إيه يا خواجة؟

ابتسمت ابتسامة شخص ينزف مشاعره ببطء، يعلم أنه على وشك الموت، الآن أريد أن أكون شخصًا آخر، أنزع جلد أورفانيللي عني، أتركه هنا في باريس وأعود كما كنت قبل موت أبي إلى القاهرة، بريئًا، حالمًا، طموحًا، أريد حياتي كما كنت صغيرًا، مضافًا إليها نجات.. فقط.

- ساكت ليه يا خواجة؟ أكيد بتحسبهم بالمصري.. صدقني الجنيه بتاعكم في النازل.. عبد الناصر خربها من يوم ما طردنا من مصر، والاقتصاد من غيرنا ماتقوملوش قومة تاني. خليهم هنا بالفرنك الفرنساوي ونشغّلهم لك.

قلبت نظري بين بهيرة وأرقش وهما ينتظران بلهفة إجابة بنعم من شفتَي، اعتدلت بجلستي لكن قبل أن أجيب قفزت لمخيلتي لافتة

صالة أورفانيللي ومنصور، هل يخططان للاستيلاء عليها، كيف أضمن حيادهما، تلك فرصة لن تعوض أهداها لي القدر في لحظة رضا نادرة.

التفتت بهيرة نحوي وهي تهم بمغادرة مقعدها بعدما تقلَّبت ملامحها قائلة:

- ما تتعبناش معاك كتير، إحنا صرفنا فلوس كتير في الصالة وراحت علينا، كان لينا حق فيها لكن ضاع مننا بالغش، وساعدنا الولية الجربوعة اللي اسمها روحية بفلوس كتير السنين اللي فاتت لغاية ما فلِّست، ومتنساش أنها خطفت ابني عاصم وماكانِتش حتعالجه لولا أننا ساعدناها.. ولو فاهم إن عزيز طيب أنا خُلْقي ضيق، ومش حاصبر عليك أكتر من كده. الله يلعنك أنت ومنصور وروحية في يوم واحد.. جتكم القرف أوباش.

سبَّتني ولم تنتظر مني ردًّا، حسمت مع نفسها أمر موافقتي على ما يبدو، بات العرض ينتظر توقيعي كإجراء شكلي، لا أعرف ظروف زواجها من أرقش بعد ولم يعُد مهمًّا أن أعرف، ما يهمني هو استعادة صالتي، واضح أنهما يخططان لتملكها مرة ثانية ويخدعاني، وربما يجبران كروان على تغيير أقواله ليشهد بتزييف منصور لأوراق الملكية وتعود الصالة لهما، وربما فروض أخرى، لكنني لا أرى الحقيقة واضحة وسط كل هذه الغيوم.

***

انتقلت لغرفة صغيرة في بنسيون متواضع نهاية حي مونمارتر بعد توتر الأجواء بيني وبين بهيرة، تكفَّل أرقش بسداد فواتيري. قضيت يومين أتفرج على معالم باريس مع نجات لكي أتهيأ لمعركة أرقش كما أسمتها هي، شجعتني على مراوغتهم للحصول على نسبة أكبر من ثروة منصور، قبل نهاية اليوم الثالث حضر عزيز لغرفتي وبصحبته محام فرنسي، بدا عصبيًا وهو يحثني على إنهاء أمر الوصية واسترداد المبلغ المستحق باعتباري وريثًا مدنيًا لمنصور، القيمة تصل لنصف مليون فرنك فرنسي، حوالي مائة وسبعة عشر ألف جنيه مصري، سيكون نصيب أرقش منها أربعين بالمائة بخلاف مصروفات سفري وإقامتي هنا، هكذا قال المحامي ثم أردف:

- مسيو أرقش سيخصم عشرة في المية من نصيبك كأتعاب لي وفقًا للاتفاق.

الأموال تنقص كماءٍ يتدحرج نحو بالوعة كبيرة لكني لا أكترث، ليس لديَّ ما أخسره، أمامي فرصة لا بد من اقتناصها، طلبت من عزيز أن نكتب اتفاقًا بموضوع صالة «أورفانيللي ومنصور» لاستعادتها من روحية وعاصم بشهادة لكروان أمام المحكمة، فتملَّص بحجة أن بعض بنودها غير قانونية ولا يمكن وضعها في أوراق رسمية، ثم تحدث عن نصيبه ونصيب بهيرة في الصالة الذي حصل عليه منصور بالتزوير، اقترب مني بنصف جسده وهو يقول بنبرة مغلفة بتهديد صريح:

- خلي بالك من غيري ما تقدرش تحتفظ كتير بِتلت الصالة اللي هو حقك حتى لو معاك حكم محكمة، إنما معايا أضمن لك إن الصالة

كلهـا تبقـى بتاعتـك، وكلمتي هي الضمـان وأنا حاتصـرف مع كروان وروحية بطريقتي لكن بشـرط توافقني على كل حاجة أطلبها منك وأنا حاتنازل عن نصيبي ونصيب بهيرة باتفاق تاني بيني وبينك، ماعندكش حلول تانية فماتفكرش كتير.

ابتسمت لعزيز في قرف وقلت:

- يـا عزيـز بيه أنـت حتاخد فلوس مـن تركة منصـور مقابل الورقة شاملة نصيبك أنت وبهيرة هانم في الصالة كمان، ده آخر كلام عندي، ولازم نكتـب ورقـة بالاتفاق اللـي بينَّا وتضغط على كروان يشـهد في المحكمة أن منصور زوَّر العقود علشـان آخد تلتين الصالة من روحية وعاصـم وبكده أسـتردها كلها بالتلت بتاعي اللـي معايا، لكن من غير ورق مفيـش حاجة مضمونة، والمثل قدام عينك.. لو كان منصور أخد كلمة شـرف من ألبير مزراحي كان زماني في مصر مدير للصالة وأنت قاعد هنا مفلس وماتقابلناش.

هبَّ عزيز واقفًا، قرر إنهاء المقابلة فجأة، لكنه قبل أن يغادر الغرفة التفت نحوي قائلًا:

- تمنهـا فرنـك ونـص.. اسـأل عنهـا فـي محـل «بيسـتول» جنب البنسيون وبعدها أي كلب يمضي مكانك.

قالهـا أرقـش ثم صفق البـاب خلفه بعنـف حتـى كاد يخلعه معه.. فارتجفت.

غادرت البنسيون شاردًا، مررت على عشرات الرسامين المنتشرين بأدواتهم، بعضهم يضع القلم لدقائق قليلة على الورقة لتظهر صورة قريبة الشبه منك لدرجة تذهلك، وآخرون تجلس أمامهم ساعة لتحصل على بورتريه حقيقي كأنك خارج للتو من استوديو للتصوير. فضّلت النوع الأول هربًا من ملل الجلسة الطويلة بلا حراك، وقع اختياري على رجل عجوز ربما رقّ قلبي لحاله، اتفقت معه على السعر بعدما فاصلت قليلًا ثم جلست مبتسمًا. بعد عشر دقائق سلّمني فرخًا من الورق المقوى يحمل صورتي.. عيناي تائهتان، شعري منتفض، أبدو نحيفًا أكثر من اللازم.. أسفل الصورة وضع توقيعه، لم أستطع قراءته بسهولة لكن طريقة كتابته استوقفتني.. كأنها على هيئة مسدس مصوبٍ نحوي!

تذكرت كلمات أرقش أثناء عودتي، بحثت عن العنوان فوجدته، محل صغير لبيع الأسلحة الخفيفة، بعد جولة استغرقت دقائق قليلة التفت لصاحبة المحل ذات الوجه الصبوح قائلًا:

- يا ترى إيه اللي ممكن يكون بيتباع عندك وسعره فرنك ونصف؟

ضحكت السيدة وهي تُخرج علبة كرتونية متوسطة ثم قالت وهي تفتحها أمامي:

- رصاصة عيار 9 مللي أرخص حاجة عندنا، لكن لازم يكون عندك المسدس أولًا يا مسيو.

خرجت واجمًا فلم أكن أدري أن ثمني رخيص للغاية عند أرقش.



3/23

توقف المطر لكن بعض زخَّات منه راحت تنقر النافذة على فترات متقطعة فشتتت تفكيري وتشوشت صورة عزيز أرقش وكلماته وهو يجلس أمامي، عندما أخبرت نجات بما دار بيني وبين أرقش اقترحت عليَّ مماطلته لأطول وقت ممكن، لم تخبرني بخطتها لكنها طمأنتني، كل ما قالته إن عزيز أرقش لص ولا ينبغي لنا الرضوخ له بسهولة، طلبت منها مساعدتي في الاتصال بالريس هارون بالقاهرة، دعتني لبيتها وأخذت مني الرقم، حاولت الاتصال به عشرات المرات لكنها في النهاية أخبرتني بأنه لا يرد على هاتف منزله. أطرقنا ثم تحمست نجات للاتصال بهارون في الصالة، أخبرتها بيأس أنه تقاعد عن العمل. اقتربت مني وقبّلتني قبلة طويلة.. أمسكت بيدي ولم يفتر حماسها، هامسة بالفرنسية «سننتصر».

شعرت ببرودة مفاجئة فارتديت سترتي ونزعت من رأسي ما دار بيني وبين نجات ليلة أمس، ليتها معي الآن لتشجعني وتقويني لكن أرقش رفض تمامًا حضورها أو لقاءها.

تجرع عزيز قهوته دفعة واحدة، لا أعرف كيف فعلها، احمرَّ وجهه وجحظت عيناه وقال:

- في عشـرة آلاف جنيه تانيين اعمل حسابك عليهم لسعد كروان، أنت لازم تراضيه علشان يقنع عاصم التركي أنك مش السبب في موت أبوه، والا أنت عندك رأي تاني؟

أشعلت سيجارة بعدما طار برقع الكتمان مع الحياء وقلت:

- هو عاصم عنده شك إني قتلت أبوه، والا أنتم فهمتوه كده؟ والا كلامك دلوقتي تهديد صريح ليًا؟

- يـا خواجـة مصر كلهـا عارفة إن الضمراني هـو اللي قتل منصو علشـان طرده مـن الصالة، صحيح الملـف اتقفل، لكن ماتنسـاش أن كروان قابل الضمراني في السـجن وجايز يكـون كتب له ورقة يعترف فيهـا على القاتل الحقيقي، لكن الأكيد أنك تحب أن الموضوع يفضل سر وأنا وكروان بس اللي عارفينه والعدد ما يبقاش تلاتة والا إيه؟

انتابنـي الخوف من فتح ملف قديم دُفن مـع الضمراني وظننت أن أوراقه مُحيت للأبد فقلت مرتبكًا:

- أنـا حاوافق على نصيب كروان على أسـاس أنه يشـهد لصالحي فـي المحكمـة مع تنازلك أنـت وبهيرة هانم، وما أظنـش أن حد عاوز يسمع سيرة الضمراني من جديد. لكن عيب يا أرقش تهدد يهودي من دينك وطايفتك.

- كان زمـان يا حبيبي حكاية يهودي دي.. كلنا اتولدنا من جديد يا خواجة غالبًا أنـت اليهودي الأخير حاليًا.

قالها أرقش وهو يضحك، بعدها عبَّ كأسًا من الويسكي في عجالة سـال بعضه على حافة شاربه فمسحه وهو يبتسم لي بخجلٍ قائلًا بنبرة اعتذار بدت لي صادقة:

- كلنا يهود من القلب لكن للضرورة أحكام، صاحبك ناصر طلعنا من ديننا علشان نقدر نرجع مصر تاني.

أخـرج جواز سـفره وألقاه أمامـي طالبًا مني الاطـلاع عليه، فتحته وسـبحت مع اسـم أرقـش الجديـد في تيـار الدهشـة، طالعت اسـمه الثلاثـي مرة ثانيـة وجحظت عيناي أكثـر مرددًا ما أقرأ بصـوتٍ عالٍ.. أحمد عزيز البحيري!

عـادت ضحكة أرقـش ترن في الحجرة وهو يشـرح لـي كيف غيَّر بطاقته وديانته بواسـطة شـخص يُدعى نعيم الورداني موظف السـجل المدني، تظاهرت بالطبع بأني لا أعرفه، فأردف:

- كلنـا بقينا أحمد وكلنا مسـلمين قـدام الحكومـة وماحدش قدر يهوِّب جنبنـا من نظـام صاحبـك عبـد الناصر، أنـا كنت بانـزل مصر كل شـهرين أوَّرد لكـم حـتـت تبيعوهـا زي المغفلين وأسـاعد روحية بقرشـين علشـان الصالة تفضل مفتوحة وشـغالة بعد ما خربتوها أنت وصاحبك.

- أنت كداب يا عزيز، أنت تم ترحيلك على إنك يهودي، تفتكر هُمَّا مغفليـن للدرجة دي؟ لو كنت رجعـت مصر كانوا قبضوا عليك بتهمة

التزوير وتتسجن أنت ونعيم أفنـدي بتاعك وكل أحمد يهودي كمان. أنت كنت بتبعت الحتت المقلدة لكروان وهو يسلمها لروحية.

ارتبـك عزيـز قليلًا واهتزت كأسـه في يده، لكنه تماسـك بسـرعة قائلًا:

- أنـت راجـل طيب يا خواجة، نعيم إيديه تتلـف في حرير، بيعمل البطاقـة الجديـدة أجدع من بطاقات الحكومة وبعلمهـا كمان، البطاقة عملناها عن طريق الشـابوري اللي كان بيدوَّر لكم الصالة وأنتم تحت الحراسة، وأنا رُحت السفارة بتاعتنا هنا وطلعت جواز سفر جديد بناءً عليها، والقنصل من يومها ما يقوليش غير يا عزيز باشـا. مصر أم الدنيا يا خواجة.

ظل ينظر لي كذئب شره وهو يبتسم ثم قال:

- دلوقتـي النظـام اتغير في مصر والسـادات مؤكـد غير صاحبك، وإلا ماكنش حط نص رجالة ناصر في السـجن بعد كام شـهر من قعاده على الكرسي، إحنا نقدر نرجع نستعمل البطاقات اليهودي وجوازات السفر، يعني حتى لو حبيت تغدر وتقل أصلك وتبلغ عننا زي ما عملت مع كروان مش حتقدر. صدقني مقفولة زي الدومينو.

تفرسـت في ملامحه بثبات رغم ارتباكي، ثم سـألته السـؤال الذي يشغلني وحملته معي من القاهرة بلا إجابة:

- ليه صبرتم عشـر سـنين علشـان توصلوا للفلوس؟ الحكاية دي مش داخلة دماغي يا عزيز بيه..

- بساطة الوصية وصلنا لها من سنة واحدة بس بعدما طِلعت عنينا، منصور خبيث ماكنش سهل، وسعد كروان رفض يسلمني الوصل اللي معاه وهو في السجن فانتظرنا خروجه، وفي الآخر يا حبيبي أنت لمَّا تشوف قطعة حلوة في مزاد ممكن تصبر عليها كتير وترفع السعر كمان علشان تاخدها ولا إيه؟

رجعت بظهري في مقعدي ووضعت ساقًا فوق أخرى بعدما فاحت رائحة الكذب بوضوح من كلام أرقش وقُلت:

- الكلام ده تضحك بيه على حد زي كروان طمعان في ألف ولا ألفين جنيه عمولة، أو الضمراني الله يرحمه اللي كان يرضى بأقل من كده.. إنما أنا صعب أصدق أنك ماتقدرش تزوَّر توقيعي وجواز سفري وكل الأوراق اللي تحتاجها علشان تروح البنك مع المحامي وتصرف وصية منصور. أنت مش بتدوَّر على الفلوس وبس يا عزيز بيه.. ياريت تبقى أوضح علشان أشوفك كويس ونعرف نتفق.

برقت عينا عزيز ثم صبَّ لنفسه كأسًا مضاعفًا من الويسكي تجرعه ببطءٍ وهو لا يخفض عينيه عني، نهض ودار حول مقعدي في الصالة متوترًا وهو يبتسم ابتسامة عصبية، نظر لبهيرة فأومأت بالإيجاب، بعدها انفكَّ لسانه قائلًا:

- ماشي يا خواجة طالما كده نلعب على المكشوف، روحية كانت مديونة ليَّا بفلوس كتيرة وفجأة في يوم وليلة سددت كل اللي عليها ورفضت تبيع لي نصيبها أو نصيب عاصم، أنا من ناحيتي شكِّيت فيها

لغاية ما عرفت بطرقي الخاصة أنها باعت لك ساعة ومبسم أصليين من مقتنيات فاروق برّه المزاد، وعملت أنت وروحية قرشين حلوين، ده معناه أنكم راقدين على كنز من مزاد الملك، وأنا لازم آخد حقي منك، أنت كنت عند التركي أعز من ابنه، والوحيد اللي ممكن يكتم السر.. بحِسبة صغيرة عرفت أن الحاجات اللي اشتراها منصور من المزاد تساوي النهارده خمسة مليون فرنك. فاهم يعني إيه خمسة مليون يا بني آدم؟

- أنا ماعرفش حاجة عن...

قاطعني أرقش بعصبية وهو تقريبًا يصرخ في وجهي بعدما أشهر مسدسًا فجأة ووضعه على رقبتي:

- إيّاك تلف وتدور وإلا قتلتك.. إحنا بنتكلم على المكشوف.. وانا مش حاسمح لك تبيع في ثروة منصور المستخبية أنت والولية المومس اللي اسمها روحية، أنا ليّا نصيب في القطع دي لأن منصور هرَّبها من المزادات وخبَّاها عني وأنا شريكه، أنت مش حترجع مصر ولا حتطول شبر واحد من الصالة إلا لو قلت لي فين المخزن وسلمتني نصيبي منه.. النُص.. فاهم يا خواجة.. النُص.

حاولت التمسك بآخر خيوط شجاعتي قائلًا:

- مفيش غُراب بينقر عين أخوه يا عزيز بيه.. صدقني أنا...

- أنت تخرس وتنفذ اللي باقولك عليه بالحرف وإلا عمرك كله حيروح مش عينك وبس.

نجح أرقش في إخافتي حتى كدت أتبوَّل على نفسي، لكنني ظللت متماسكًا رغم رجفة قلبي ولم أهدأ إلا عندما خفض مسدسه وأعاده إلى حمالة صدره لكنه أخذ مني جواز سفري، قال إنه سيُبقيه معه لحين توقيعي وإخباره بمكان مخزن منصور، هززت رأسي يائسًا، هارون كان على حق، أرقش لن يتركني أرحل بنصيبي، لا توجد لديَّ إجابة حاضرة على كلامه فروحية لم تخبرني بمكان المخزن، وهارون أكد لي أنها لا تملك قطعًا أخرى وتكذب، ولن يصدقني أرقش إذا ما أقسمت له إنها الحقيقة لكني قلتها رغم ذلك له. قبل أن يرد عزيز انفجرت بهيرة قائلة:

- روحية قالت إنك الوحيد اللي يعرف مكان المخزن وإنك ساعدتها بقرشين علشان تشتري نصيبها، طلعت أنضف منك ورفضت تبيع لك الصالة وكشفت لنا حقيقتك يا قذر، ما أنت تربية صفيحة الزبالة منصور التركي.

شعرت بضعفي، أسمع إهانتي ولا أجرؤ حتى على ردِّها بالمثل، هربت الحجج من عقلي كقطط صغيرة جائعة تهرول وراء رائحة طعام ولا تراه، ولا أعرف سببًا لكذب روحية، استأذنت في الانصراف طالبًا مهلة يومين للموافقة على ما طلباه، وافق عليها بالكاد عزيز رغم ضغوط بهيرة وسبابها الذي لم ينقطع، اعتبرها مهلة أخيرة. مهددًا بأنه يراقب كل خطواتي في باريس.

قرب باب الشقة عاد لتحذيري مرة ثانية وهو يلوح بمسدسه:

- مـا تنسـاش.. تمنها فرنك ونص عند بيسـتول، وإيَّـاك تتكلم مع نجات اللي جبتها معاك وإلا مش حترجعوا مصر أنتم الاتنين.

قطعت المسـافة من بيتـه إلى البنسـيون مترجلًا رغـم طولها، أجر قدمين متعبتين، وصفه لي باليهودي الأخير يرن في أذني كنذير شـؤم، سـيقتلني هذا المجنون في أي لحظة، سـأموت غريبًا في بلدٍ بعيدٍ ولن أجد حتى مَن يدفنني، حاولت طمأنة نفسـي بمـا لديَّ من أموال تنتظر توقيعي لتدخل ذمتي المالية، لكن عقلي يؤكد لي أنها مثل طيور تُحلِّق فوق حقلي ولا أُمسك بها وربما لا تبيت في حظيرتي. صرت ثريًّا على الورق فقط وأرقش وبهيرة يريدان الاسـتيلاء على حقي، وفي القاهرة ينتظـر كروان عودتي مع أنني واثـق أنه قبض نصيبه مقدمًا بعد خروجه من السـجن، عندما سـلَّم أرقش الوصل الذي سرقه من جيب منصور يوم وفاته، يشـغلني الآن أمر آخر تتصدر صالة أورفانيللي ومنصور فيه المشـهد وحدهـا.. تنتظرني لتكتمـل الصورة كما أريـد، لكني لا أجد مخرجًا بعد.. بل أراها تبتعد عني.



3/24

النسـيان ليس فعلًا إراديًّا، والفكر المجهد يجلب الشـرود ليؤانسه حتى مزقته نجات برقةٍ سائلة:

- عجبتك؟

ظللت أتذوق الطعم ولم أرد، لكن يبدو أن ملامحي بدا عليها امتعاض فاستدركت نجات قائلة:

- خلاص اطلب شوربة عادية.

تمسكت بكلماتها قبل أن تحيد عنها مثلما فعلت عندما جلسنا بملهى المولان روج، عندما اقترحت نجات سهرة لطيفة كي نفكر بعدها بهدوء في حل بعدما هددني أرقش بالقتل، صخب المكان يتضاءل إلى جوار الضوضاء التي تعصف برأسي، تبذل نجات مجهودًا خارقًا كي تُخرجني من شرودي، وأنا بالكاد أتجاوب معها، طلبت حساءً آخر ولما سألني المتردوتيل عن نوعه أجبته بابتسامة مبتورة:

- أي حاجة غير شوربة الضفادع.

اندمجت مع كلمات الأغنية والموسيقى لعلّي أهدأ، لكن التفكير أفسد انسجامي، رأيت ملامح كروان وأرقش وبهيرة على وجوه العازفين وهم يدقون طبولًا عنيفة تصم الآذان، كلمات أرقش وتهديداته تتردد في عقلي كشريط تسجيل أصابه العطب فبات يكرر نغمات متباينة حتى تردد اسم القنصل المصري في باريس الذي تفاخر أرقش بعلاقته الوطيدة به. اشتعل مصباح رأسي فأضاء جانبًا من عتمة يأسي، تشبثت بالأمل وملت ناحية نجات قائلًا:

- أنا عاوز منك خدمة أخيرة. محتاج عنوان القنصلية المصرية هنا. لازم أقابل القنصل في أسرع وقت.

وجدت نجات بدورها تميل نحوي بنصفها العلوي هامسة بأن لديها الحل وهي تصفق كطفلة وجدت الحلوى التي تحبها: «الليلة سنحتفل فقط بانتصارنا».. قالتها بحماس، بدت لي كساحرة بكلماتها، أخرجت قلمًا ورسمت بابًا على جدار زنزانة حيرتي المظلمة ثم فتحته بسلاسة، دعتني للخروج لكنَّ قدمَي لم تحملاني على الهرب بعدما غشي النور عيني.

طوال طريق عودتي للبنسيون حاولت طمأنة نفسي بكلمات نجات وخطتها التي رسمتها لي، أخبرتني بكلمة السر، صلتها الوطيدة بقنصل مصر في باريس اليوزباشي أحمد سعيد عيسوي، حكيت لها ما قاله لي أرقش عن علاقته به، ففوجئت بأنها تعرفه معرفة وثيقة عائلية منذ زمن فات، طمأنتني بأنها ستتصل به وتشرح له الأمر كله، ستأخذ لي موعدًا معه في بيته لا في القنصلية وسيساعدنا بالتأكيد. ظللت أردد كلماتها لنفسي بصوتٍ عالٍ، ثم دندنت بلحنٍ كان والدي يغني كلماته أحيانًا عندما يكون مزاجه رائقًا:

«أستطيع أن أمسك قطع السحاب بيدي وأهديها لكِ.

ابتسمت الدنيا لي من جديد، ويبدو أن الابتسامة ستدوم للأبد».

خرجت كلماتي أشبه بحشرجةٍ مُشرفٍ على الموت، فكلمات الريس هارون لا يزال صداها أقوى أثرًا في أذني، والسحاب لا يزال بعيدًا مع أنني أراه بوضوح.

***

«اليهودي الذي يُغيِّر دينه لا أمان له».. جملة قالها الريس هارون كثيرًا لكنني لم أكترث بها، ربما هو الوحيد مثلي الذي رفض تغيير بطاقته، لم أعد أثق في أحد بعده، أما نجات فقد وضعت مشاعري وقلبي بين يديها وحاولت الاحتفاظ بما تبقى لي من عقل. صحيح لم يكن بيني وبينها ألف ليلة وليلة من الغرام، إنما بعد الليلة الرابعة بيننا في القاهرة تيقنت أنها سلبت عقلي من بعد قلبي، يساورني بعض الشك كل حين أنها تركت مشاعرها وراءها، وربما تكون تابعة لروحية بإصرارها على إقناعي ببيع نصيبي لها، لكنني أزداد تعلقًا بها كل مرة فطردت كل هواجسي وشكوكي إلى غير رجعة، كنت أظنها نزوة عابرة مثلما اعتدت في كل علاقاتي النسائية، سنقضي شهورًا معًا في علاقة ثم أبدأ في تجاهلها حتى تمل وتبتعد، لكني وقعت في الحب رغمًا عني من الليالي الأولى، ولا أعرف سبيلًا للفكاك منه.. بل صرت لا أريد، فالغرق في حبها متعة.. أنا أحببت نجات ولا أعرف هل تحبني مثلما أعشقها أم لا؟!

انتابني فجأة إحساس سخيف، أنني مثل عنكبوت ساذج نسج شبكة من خيوط وهمية وأوتار ضعيفة، ثم حلم باصطياد نسور وصقور، وقبع أعلاها ينتظر سقوطهم فيها، غفل العنكبوت عن أن الغابة لها قانون صارم، كلٌّ يأكل ما هو دونه، مهما كان حجم شبكته أو قوة خيوطها. في لحظة سيفترسه الأقوى والأكبر. فما بالك لو هاجمه سرب من جوارح؟!

- لا تقلق.. تشرب إيه الأول؟

بدا لي أحمد عيسوي أصغر من سنِّه وأنا أجلس أمامه في صالون شقته الفخمة المطلة على برج إيفيل، الحياة المرفهة المخملية التي يعيشها هنا صبغت وجنتيه بلون وردي، أحالته إلى شاب عشريني رغم أنه قارب على الخمسين، ابتسمت في رضا وأنا أتجرع كأسًا من الويسكي الفاخر أعدَّته لي نجات بعناية، فكرتها صائبة لمَّا أشارت عليَّ باللجوء إليه، شعرت بأنني مثل طفلٍ تائهٍ في مولد والآن فقط رأى أمه من بعيد، فهرول ناحيتها وهو يصرخ لتنتشله من المتاهة وتحتضنه ليكمل البكاء على صدرها.

جلس القنصل على أريكة عريضة حمراء بمفرده أمامنا، لا يزال متشبعًا بروح الضابط في إيماءات جسده ونبرة صوته، أمسك بناصية الحديث بعدما سمعني بغير اهتمام كبير كما توقعت وقال:

- عزيز زفت أرقش ما يقدرش يعمل لك حاجة وإلا أحبسه فورًا بتهمة التزوير، سيب لي الموضوع ده، وكروان خارج من السجن ويخاف يرجع له، برضه شيله من حساباتك، جواز سفرك حيرجع لك والفلوس بتاعتك حتحوَّلها من البنك هنا على حساب تاني في القاهرة باسم صديق من أصدقائي، ثقة وأضمنه برقبتي، الموضوع محتاج أنك تقعد هنا في باريس يومين تلاتة كمان، لكن اعمل حسابك أنا ماقدرش أضغط على روحية علشان توافق على بيع الصالة ولا حتى أفتح معاها الموضوع، ما تنساش إنها مسجلة آداب في الأصل وممكن تعمل لي فضايح وشوشرة وأنا مركزي اليومين دول في الخارجية ما يسمحش بالكلام الفارغ ده.

رغـم غسـله ليديه من موضوع روحيـة بنذالة نادرة تليـق به، إلا أن القنصـل بـدا لـي كمصباح عـلاء الدين، سـيصبح الأسـد قطًـا وديعًا، سـيمكنني خلع أنياب أرقش كلها إن أردت بلمسـةٍ واحدة، ستتسـاقط كقطـع الدومينـو وراء بعضهـا، حقَّـق لـي القنصـل غالبية مـا أحلم به بكلمات قليلة.

وضعـت كأسـي الفارغ علـى المنضـدة وانتبهـت إلى أنـه لا يزال كلامًا في الهواء، مثل دخان المصباح لا أمسـك شيـئًا منه مع أنني أشم رائحته.

- العشا جاهز يا سعادة الباشا.

شـقَّ صوت السـفرجي النوبي ذي القفطان الأحمر صمت الجلسة لينهض الباشا أولًا ونجات من ورائه، أمسـكت بيدي كأنها تدلني على الطريـق حتى لا أحيد عنه، ندت مني ابتسـامة مهزومة، فمن داخلي لم أعد قادرًا على قفزة جديدة في الظلام.



3/25

ماذا يتبقى من إنسـانيتنا لو أصبحنـا قطعة معروضة في صالة مزاد؟ كلمـات الريس هـارون دائمًا موجعة، أشـبه بوخـزات ضمير توقظك من سُبات الغفلة وتجاهل الحقيقة. ظل بالي مليًّا حتى الحافة بالقلق واللهفـة والخـوف مـن انتظار المجهـول، قرأ عيسـوي على ملامحي

مـا يمـور بداخلي، راح يؤكد وهـو يزدرد مكعبات اللحـم الصغيرة أن أرقش جبان ولن يتخطى حدود التهديد، ثم تغيرت نبرته ليتحدث فيما يخصه كي يضمن قبض الثمن مقدمًا كعادته مع كل زبائنه:

- المهم دلوقتي تعرف أن التحويل البنكي حيكلفك عشـرين ألف جنيه علشـان صاحب الحسـاب في مصر يقبل بدخول مبلغ كبير عليه من غير شوشـرة، وحتدفع أنت أتعاب المحامي الفرنسـاوي، والباقي حـلال عليـك لكن الأهـم مـن كل ده أنك تعـرف مـكان المخزن من روحية ووقتها بلغني وأنا ساعتها ممكن أتصرف من بعيد.

سكت القنصل برهة ليشعل سيجاره وعينه لم تنزل من على وجهي ثم طلب من نجات كأسًـا من النبيذ الأحمر راح يعدد مزاياه وسـنوات تخزينه الطويلة، وفجأة أردف مبتسمًا بخبث:

- وكمـان بالفلـوس تقدر تتجوز نجات.. ألف مبـروك يا ولاد، أنا كنت أعرف أبوها المهندس سـامي إبراهيم، راجل وطني وخدم مصر كتير. أنت عرفت تنقي صحيح يا خواجة.

احمـرَّ وجـه نجات وابتـسـمت برقـة، لكنـي الآن لا أرى إلا صالة أورفانيللي ومنصور فقلت بعصبية أفلتت رغمًا عني:

- أنا ماعرفش مكان المخزن يا أحمد بيه وحتى لو عرفت فأنا....

تغيرت نبرته هذه المرة وهو يقاطعني:

- إهـدا.. أنـا مصدقك.. لكن لو عرفـت لازم تبلغني.. ده جزء من تاريخ بلدنا ولازم نحافظ عليه، منصور اشترى قطع كتير من مزاد فاروق

الكبير سنة أربعة وخمسين باسم تجار أجانب وأخد حاجات صغيرة ورفيعة لكن قيمتها كبيرة، ده كان السبب الحقيقي في فرض الحراسة عليه، لكن هو ذكي وخباها كلها لغاية ما الريح تهدا. دورك النهارده تساعد بلدك وإلا تبقى مشارك في الجريمة دي في حق مصر.

هزَّت نجات رأسها مؤيدة لكلام عيسوي، لكنني لم أعبأ بعباءة الوطنية التي ارتداها على كبر، فأنا أعلم أن جسده عارٍ تحتها، مليئًا بندوب الرشوة وأخاديد الفساد، عُدت لنقطة البداية كي لا يبتلعنا موضوع المخزن وقلت:

- مستندات الوصية مع أرقش والمحامي الفرنساوي هو اللي جايبه وأنا خايف لأنه هددني وممكن....

قاطعني بعصبية وحسم قائلًا:

- المحامي بتاعه هو محامي السفارة هنا وأنا قلت لك حاتصرف ماتخافش والا نقول كمان؟! يومين بالكتير والمحامي يعدي عليك في البنسيون بالمستندات، ويروح معاك البنك تصرف قيمة الوصية وتحوِّل الفلوس على رقم حساب حاقولك أنا عليه يومها، وما تنساش أني زي ما عملت جواز سفر لأرقش أقدر ألغيه بكرة الصبح. وكمان أقدر على حاجات تانية كتير ضده، أنا لسه زي زمان يا خواجة وأعرف أتفاهم مع أرقش كويس.

ربتت نجات ساقي لتطمئنني، رغم وعود عيسوي العظيمة وثقته الهائلة في نفسه شعرت لوهلة أنني اشتريت الوهم بثمن باهظ قد

يكلفني حياتي نفسها، مع أنني في البداية أحسست أن اللقاء أعاد ترتيب حساباتي كحلم جميل واضح لا يحتاج إلى تفسير، الآن أرى عيسوي ألعن من أرقش، وألعن من عاصم وروحية وكروان مجتمعين، يعاملني بتعالٍ مع أنني كنت وما زلت أقدم له الرشاوى، نظرت ناحية نجات بعدما سكت الكلام وانفتح باب الانصراف، قرأت بعينيها أنني بدون مساعدة عيسوي ستكون فرصة حصولي على المال وتملكي الصالة أشبه بالوقوف ممسكًا بمظلة متوقعًا هبوط الثلوج في منتصف شهر أغسطس.

قبل أن أغادر صحبة نجات قلت للقنصل المنشغل بإعداد كأس جديدة من الويسكي المخلوط بالصودا بعدما ساعده النبيذ الأحمر على هضم العشاء الثقيل:

- رجاء أخير يا أفندم تضغط على أرقش وبهيرة يتنازلوا عن نصيبهم في الصالة ليًا ويضغطوا على كروان علشان يشهد إن منصور التركي هو اللي زوَّر أوراق الصالة.. أنا معايا حكم محكمة بنصيب أبويا، ولو عملوا كده حقدر آخد الصالة كلها من روحية وعاصم من غير ما أدفع لها ولا مليم لأنها ورثت حاجة ما يملكهاش منصور وأخدها بالتزوير. وصدقني هارون نفسه أكد لي إن مفيش قطع تانية عند روحية.

قال عيسوي وهو يُسقط قطع الثلج بكأسه بعناية.. واحدة ترتطم بالأخرى لتخترق صمت ثلاثتنا:

- أنت باين عليك سِكرت وخرَّفت، كروان لا يمكن يعترف على نفسه بالتزوير ويدخل السجن تاني ولا حتى يشيل القضية القديمة

لمنصـور لأن مفيش دليل واحـد على التركي، بهيـرة وأرقش خلاص بره الصالة بحكم محكمـة زي الحكم اللي معاك بنصيب أبوك، الحل أنـك أول ما ترجع مصر وتصرف القرشـين بتوعك مـن البنك تحاول مع روحيـة أنها تدلك على المخزن وليك مكافـأة كبيرة، زغلل عينيها بالفلوس اللي جاتلك من الهوا من غير تعب، أما هارون إوعى تصدقه، ده كلب من كلاب منصور وعمره ما حايقولك الحقيقة.

- لكن...

قاطعني بحسم مَن يملك إنهاء النقاش:

- اعتبر الصالة معروضة في مزاد يا أخي.. أظن تسـتحق تدفع فيها مبلـغ كبير والفلـوس جاتلك ولا كنـت عامل حسـابها وكمان روحية وعاصـم مش حيشـاركوك فيها لأنهـم لغاية دلوقتي مـا يعرفوش عنها حاجة. لأن لو عرفوا حيزيدوا الطين بلة والا إيه؟

خرجـت من بيت القنصل محملًا بالحيـرة، آيات الخوف محفورة علـى ملامحي من تهديده الأخيـر، رغم أنه مغلف برقة متناهية لا تنبئ عـن غدر قريب بإبـلاغ روحية وعاصم بثروة منصـور المهربة، أقلقني ضعفـه أمـام روحية، لا أصدقـه ويخيل لي أنـه يرتب معها أمـرًا آخر، صمت نجات المريب طوال الجلسـة أحيا شـكوكي فيها، صحيح هي مَن دبرت لي اللقاء لتحاول طمأنتي، لكنني الآن أشـك في الكل حتى نفسـي.

عـدت بذاكرتي إلى منصور، لم يُخفِ عني المايسـترو شـيئًا طوال حياتـه ولو كان هناك مخزن سـري لعرفت مكانه، حتى الممر السـري

وراء خزينـة مكتبـه كان خاويًـا يوم أدخلـت الضمراني منـه ليلة موت منصـور، علـى أي حال لا يمكنني اسـتعجال الجنِّي بعـد خروجه من المصبـاح ليلبي طلباتي كلها بسـرعة، دوري هو فـرك جانبي الفانوس السـحري فقط وها أنا فعلت والآن عليَّ انتظار كل ما يقدمه لي الجني في الوقت الذي يحدده هو، الكروت كلها الآن في يد أحمد عيسـوي، وأنـا مجرد لاعب على الطاولة أنتظر حظي مع توزيع الورق في الدور الأخير.

أرحـت نفسـي بهـذه الإجابـة مؤقتًـا، أنـا لا أدرك إلا شـيئًا واحدًا مؤكدًا، أن الحسـاب البنكي الذي سـتحوَّل عليه أموال منصور يخص أحمد عيسـوي، سـيحصل على العشـرين ألف جنيه كاملة لنفسـه، لا بأس سـأصل إلى محطة القاهرة متأخرًا، أشـبه بمَن نزل من قطاره في المحطة قبل الأخيرة ليسـتقل العربة التالية في نفس الاتجاه، المهم ألا يقتلني أرقش في باريس.. وعند عودتي سـأعتبر نفسـي جالسًا في مزاد مـع روحية كما قال عيسـوي، لكنه مـزاد على قطعة غاليـة.. أغلى من حياتي كلها.



3/26

أمـران لا ثالـث لهمـا ينبغي للمـرء ألا يتخلى عنهما طـوال حياته، صبره عندما لا يمتلك شـيئًا، وعقله عندما يمتلك كل شـيء. تسمَّرت

فـي مكاني أمام صاحب البيت وحكمة الريس هارون لا تفارق ذهني.
قبـل سـفرنا بيومين إلـى القاهرة اصطحبـت نجات لمنـزل أرقش كي أستعيد جواز سـفري بترتيب من أحمد عيسوي، صمَّمت نجات على الذهاب معي خوفًا من غدرٍ محتمل، طرقنا الباب لكنه لم يفتح وعلى صـوت الطرق المتواصل خرج إلينا صاحب البيـت، أخبرنا ببرودٍ بأن مسيو أرقش انتهى عقد إيجاره منذ يومين ورحل ولا يعرف إلى أين ثم سألني عن اسمي بالكامل، ولما أخبرته به سلَّمني جواز سفري!!

كنت أسـير في شـارع الشـانزليزيه ممسـكًا بيد نجات، نسرق قُبلة طويلـة كلما وقفنـا أمام واجهة محـل من المحلات الكثيرة، أشـارت نجـات لمحـل حريمـي علـى الناحيـة الأخـرى مـن الشـارع، عبرنـا الطريق من المكان المخصص للمشـاة، لكن زمجرت سيارة فجأة من الصف الأول، لمحت عزيز وبهيرة بداخلها، اقتربت السـيارة مسـرعة وصدمتني، طار جسـدي لأمتار في الهواء ثم هبطت بشـدة على جسم لين امتص صدمتي، ولمَّا أفقت وجدتني في صندوق سيارة نقل كبيرة وعبر زجاجها الخلفي لمحت أحمد عيسوي يقودها بسرعة بينما عزيز وبهيـرة لا يـزالان يطاردانـي.. حاولت الانبطاح لكن عيسـوي لمحني وتوقف فجأة قرب نهر السين.. أشار لي ناحية الماء وهو يصرخ لأقفز بـه، لحقني عزيز وترجَّل من سـيارته مسـرعًا وأشـهر مسدسـه وأطلق صوبي عدة طلقات فصرخت من الألم.

- خير يا حبيبي؟! نفس الحلم؟

هززت رأسي لنجات بالإيجاب وأنا أتفصد عرقًا، تجرعت قليلًا من الماء لأهدأ، نظرت حولي فوجدت بقية ركاب الطائرة ينظرون نحوي بقلق، يبدو أنني صرخت في نهاية الكابوس الذي صرت أراه منذ أيام كلما غفوت لساعات قليلة. ظلت نجات ممسكة بيدي وهي تحكي لي عن لوحاتها التي تنوي رسمها وعن عملها باليونسكو حتى شعرت ببعض الهدوء.

ترجرجت بمقعدي عندما هبطت الطائرة في مطار القاهرة، تلقائيًا وضعت يدي على صدري، يرقد بجيب سترتي شيك سلَّمه لي أحمد عيسوي بقيمة التحويل البنكي الذي تم لحساب شخص مجهول بالنسبة لي في القاهرة، بعدما اقتطع نسبته ونسبة المحامي وخمسة بالمائة لأرقش وبهيرة فاجأني بها المحامي في البنك، اتصلنا بالقنصل عيسوي فطلب مني الانصياع لأوامره حتى يضمن سكوتهما ورضخت مضطرًا. يومها رفض البنك الفرنسي إجراء التحويل لحسابي الشخصي بدون أسباب، ربما تلاعب عيسوي بي واتفق مع موظفي البنك على رفض التحويل لحسابي، مؤكد شك فيَّ وكان يتوقع مني تلك المحاولة الأخيرة بالبنك، ألحّت عليَّ نجات لأوافق كي ننتهي من الكابوس فرضخت للأمر الواقع،على الأقل نجوت من الموت لمَّا اختفى أرقش بتهديداته ومعي ورقة بمديونية صديق عيسوي، لكن ماذا أفعل لو أن حسابه كان بلا رصيد؟!

ابتسمت نجات وهي جالسة بجواري في الطائرة التي تستعد للهبوط بنا في مطار القاهرة، طبعت قُبلة حانية على وجنتي مجيبة عن سؤالي الذي حملته على أجنحة حيرتي إليها:

- هو تاريخ استحقاق الشيك إمتى؟

- بعد يومين..

قالت نجات بحماس:

- أنا عندي حساب هناك وبكره الصبح أتأكد لك من البنك، مديره كان صديق أبويا وبنته صاحبتي. ومسيو عيسوي محترم وكلمته واحدة ماتخافش. إحنا نجحنا وقطعنا أغلب المشوار.

أوصلتها لبيتها وسلَّمتها الشيك وعدت بالتاكسي إلى بيتي، تمددت على سريري، زفرت بضيقٍ من مخاوفي، نحن أضعف من أن نراوغ القدر بل وربما أغبى أحيانًا.. هل كان هارون على حق؟ لم أجد إجابة رغم أنني نزعت ناب الأسد، لكني ربما لم أغادر عرينه بعد ولا أدري ما يخبئه لي، حاصرتني الأسئلة وانحسرت فلول الإجابات، فكرت في الاتصال بهارون لأخبره بأن الأسد يحتضر وسيموت بعدما أصرف الشيك لعله يطمئنني بكلمة مشجعة، لكني لم أدرِ بنفسي حتى صباح اليوم التالي وأنا ممدد مكاني، بعدما نمت بملابسي كاملة كأنني راقدٌ في تابوت أنتظر دفني.

***

«لا تفعل مثل أبيك وتهتم بما فوق رأسك.. المهم ما في داخله»..

ترن كلمات منصور التركي في أذني كلما تهيأت لارتداء قبعة أبي، أشعر أحيانًا برغبة عارمة في البصق على صورته أو على نفسي.. لا فرق.. كلانا يستحق.

ضبطت القبعة فوق رأسي في المرآة وهندمت ملابسي وأنا أتمتم: لا تقلق يا مايسترو.. ما في رأسي سيُدهشك في قبرك، سأفوز بالقطعة الأغلى وبأقل خسارة ممكنة كما كنت تفتخر دائمًا. كل فرقة لها مايسترو، ومن اليوم سأقود وأتحكم في الإيقاع كله.. أنا المايسترو الجديد يا منصور، وناب الأسد في جيبي يا هارون.

شعرت بأنني أشتم رائحة جثث أعدائي عندما أخبرتني نجات هذا الصباح عبر الهاتف بأن الشيك له رصيد بالفعل، بعدما ذهبت للقاء مدير البنك واتصلت بي من مكتبه، زفَّت لي البشرى بأنني أستطيع صرفه كاملًا، حاولت الاتصال بهارون لكنني لم أفلح فهاتفه لا يرد، غادرت بيتي قرب الظهر مدندنًا بلحنٍ جديدٍ للست أم كلثوم، لم أحفظه جيدًا بعد، متوجهًا للقاء نجات في بيتها، سأعرض عليها الزواج اليوم، سنفتتح الصالة سويًا خلال أسابيع بعد شرائها، غدًا سأزور هارون في بيته وسأعرض على روحية مبلغًا لا تحلم به حتى ولو لم تخبرني بمكان المخزن، على الأقل ستظل تبيع القطع من خلالي، ستكون «صالة أورفانيللي» هدية القدر لزواجي من نجات،

سأخصص لها ثلثها الخلفي لتبيع فيه اللوحات والتحف، سأسمي المكان الذي يخصها «جاليري نجات»، ستبتسم الحياة مرة ثانية، سنرقص أنا ونجات على كلمات أغنية العلبة الفضية معًا، أفتقد حضنها وأريد الارتواء من جسدها، سألعقها كما كنَّا نفعل كل مرة، سأدفن أنفي بين ثنايا جسمها كله، صوتها عبر الهاتف اليوم أثارني، لهفتها على لقائي بشقتها أحيتني من جديد. لو أجلسني القدر بجواره وطلب مني رسم نهاية سعيدة لقصتي باختياري لن تكون بمثل هذه الروعة والدقة.



3/27

الساعة تقترب من الخامسة صباحًا، الوقت يمر ثقيلًا، نجات ممددة على بطنها، عارية تمامًا، بجوارها زجاجة نبيذ فارغة وكوبان يحملان بقايا القهوة وثلث زجاجة ويسكي، بينما أجلس على حافة السرير بملابسي الداخلية، أتعرق بشدة وجسدي يرتعش، لا أستطيع التحكم في حركة يدي وساقي المتوترة، أنظر إليها مذهولًا غير مصدق، كأنني أشاهد نهايتي أمامي.. الموت يرقد على بعد خطوات قريبة مني، كان يتلوى كحية ملساء منذ ساعات بين أحضاني، تلتف حول عنقي وتعتصرني، لكنها لم تبث سمومها بعد.. يا ترى متى ستلدغني وكيف؟!

ليلة أمس وعندما فرغت منها وثملنا من الشراب والعناق ذهبنا في نوم عميق سبقتها إليه، استيقظت قبلها وشعرت برغبة في التدخين، أخرجت سيجارة لكنني وجدت علبة الثقاب فارغة، ذهبت لأبحث عن أخرى فتعثرت بالصدفة في حقيبة يد نجات وأنا أسير على أطراف أصابعي كي لا أوقظها، تبعثرت بعض محتوياتها فلممتها بهدوء، بحثت بداخلها عن علبة ثقاب لكنني وجدت ولاعة فارغة، تذكرت أنها أرتني أخرى ذهبية تشبهها منذ فترة، قالت إنها تخص والدها وترغب في بيعها بالمزاد، ثم وضعتها يومها داخل علبة خشبية أنيقة بغرفة الصالون، فتحت الدرج الصغير للعلبة فوجدت الولاعة الذهبية ترقد فوق جواز سفر غريب الشكل لونه أحمر وصغير الحجم، يبرز منه الشيك الذي كتبه القنصل أحمد عيسوي لي وسلمته لنجات، أشعلت سيجارتي ودفعني الفضول لتصفح الجواز وأنا في طريقي لدورة المياه فالتقطته، كنت قد رأيت جواز سفرها المصري الأخضر من قبل في حقيبتها، لكن هذا الجواز الأجنبي بلونه الداكن أثار دهشتي.

صدمتني المفاجأة بقوة، لطمتني بعنف.. ظلت أصابعي ترتعش عندما قرأت اسمها في جواز السفر الفرنسي.. نجات عزيز أرقش، مهنتها موظفة بالمركز القومي للأبحاث بباريس، وعنوانها هو عنوان بيت أرقش في حي ماريه بباريس، الشقة ذاتها التي ادَّعى صاحب البيت أنها مستأجرة وصممت نجات على الذهاب معي إليها قبل عودتنا. كيف خدعاني لهذه الدرجة، مَن كانت تلك السيدة الفرنسية المريضة التي ادَّعت نجات أنها أمها فلم أستطع المبيت عندها بسبب

مرضها الصدري، ولماذا زوَّرت جواز سفر مصري لتصحبني به إلى باريس، كيف تظاهر أرقش بالقلق لرؤيتها ورفض الحديث في حضورها، كيف ابتلعت أنا الطعم بسهولة على العشاء بمنزل القنصل أحمد عيسوي، كيف حبكوا كل هذه التفاصيل عندما ظهرت القطع الملكية من مخزن منصور السري بواسطة روحية. يظنون جميعًا أنني أعرف مكانه فأطلقوا نجات خلفي.. كيف لم أسمع فحيح الثعبان ولم أنتبه لعلاماته التي تركها على الطريق المؤدي لعنقي، الإجابة الوحيدة على تساؤلاتي أنني كنت مشغولًا بحب نجات فعميت.

ظللت جالسًا مكاني حتى الصباح بلا حراك سوى فرك عينَي كل فترة، تلفني الحيرة ويعتصرني التفكير المشوش حتى عجزت عن إيجاد حل لمصيبتي، ضربات قلبي تتزايد وآلام شديدة تضرب معدتي العصبية، رغبة في القيء استجبت لها عدة مرات حتى فرغ ما في جوفي، تعرضت لخديعة مُحكمة على مدار شهور طويلة، ابتلعت الطعم بسهولة مثل سمكة ساذجة، ظننت من تغفيلي أن نجات تابعة لروحية، ساقتني لحتفي مثلما تُساق الشاة مغماة للذبح، سيقتلونني حتمًا خلال أيام وبالطبع القنصل أحمد عيسوي معهم بل لا شك عندي أنه مَن وضع الخطة لهم، كعادته يقفز في قطار الثروة والسلطة في آخر لحظة، بل ربما يكون الشيك ذاته بدون رصيد أيضًا، تأرجحت مخاوفي بين أموالي وحياتي ثم ثبّت الصورة على صالتي فقط.

راودتني فكرة قتل نجات منذ ساعتين، قلّبت في رأسي كل الاحتمالات والوسائل الممكنة، اقتربت من فراشها وهممت بكتم

أنفاسها لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة، أريد التفكير بهدوءٍ حتى لا أتورط وأُعدم مثل الضمراني.

عدت لجلستي وسجائري وعقلي لا يتوقف عن عشرات الأفكار التي لا تريحني، حتى استيقظت نجات مرحة ضاحكة،تلعب دور الملاك ببراعة تُحسد عليها، ما زلت منبهرًا بأدائها المذهل، اغتسلت بسرعة ووضعت عطرًا وارتدت روبًا شفافًا على جسدها العاري، اقتربت مني كعادتها حتى شعرت بأنفاسها تلفح رقبتي، استنشقت عطرها القوي وهي تهمس بأذني بعدما جذبت نفسًا من سيجارتي:

- إيه رأيك نروح الصالة النهارده؟

قلت بتردد وأنا أحاول السيطرة على انفعالي محتفظًا بابتسامة بلاستيكية تغطي غضبي بالكاد:

- لكن النهارده يوم الإجازة والصالة مقفولة وأنا مشغول بـ.....

قاطعتني بقبلة طويلة لم تُحرك ساكنًا لديَّ ثم قالت:

- أنا عارفة وعلشان كده عاوزة أتفرج عليها معاك لوحدنا.. حاجة أوريجنال خالص، إيه رأيك؟

قالتها بغنج وهي تغمز بعينها اليسرى، أبعدتها برفق وأنا أشعل سيجارة ثم بدأت في ارتداء ملابسي، قلَّبت الفكرة في رأسي بسرعة عندما انسحبت لدورة المياه بحثًا عن تهدئة مؤقتة لأعصابي بعيدًا عن

وجه نجات، شعرت أن القدر لا يزال يقف بصفي ويساندني بقوة، ها هي نجات تهديني الرصاصة التي سأقتلها بها في هدوء دون أن يدري أحد، مثلما فعل منصور من قبلها، فكرة التخلص منها تمكنت مني، لكنني أريد النجاة بنفسي، لو قتلتها في بيتها ستحوم الشكوك حولي وحدي. ستكون الصالة يوم الإجازة مقبرة رائعة لخيانة نجات وهي تستحقها بجدارة، ومثلما حدث في الجنة يحدث هنا، شخص ما يضطر لقضم التفاحة لتنتهي الحياة وتقترب النهاية، لم يتطلب الأمر تفكيرًا مني أكثر من ذلك، بمجرد أن ارتديت ملابسي، قبّلتها قُبلة خاطفة وأنا أسلِّمها مفتاح صالة أورفانيللي ومنصور هامسًا:

- عندي مشوار صغير مهم حاعمله ونتقابل بعد ساعتين هناك.

اتسعت ابتسامتها وهي تقف أمامي عارية بعدما خلعت روبها لتثيرني، راحت تمشط شعرها وتتحدث برغبةٍ عن خيالات متنوعة تصورنا في أوضاعٍ متعددة في قلب الصالة، بالممشى، قرب المنصة وفي المخزن الخلفي، تدرك نجات نقطة ضعفي جيدًا، اقتربت مني واحتضنتني ثم انسابت أصابعها لما بين فخذَي، أمسكت بيدها الرقيقة ولثمتها بقبلة ثانية وأنا أتخيلها راقدة بلا حراك، هممت بالانصراف، فقالت بنبرةٍ كمَن تذكَّر أمرًا مهمًّا فجأة:

- نسيت أقول لك أنت ممكن تظهَّر لي الشيك وأصرفه لك كاش من حسابي، المدير أكد لي أنه ممكن يعمل لي الخدمة دي، بدل ما تنتظر أسبوع علشان تصرفه.

رددت متظاهرًا بالفرحة كطفلٍ ساذج:

- عظيم جدًّا، هاتيه معاكي الصالة وأنا أظهّره هناك، لكن لازم أمشي دلوقتي لأني اتأخرت.

ودّعتني حتى باب الشقة، قبل أن أغادر قبّلتني ببطءٍ ثم همست:

- دلوقتي بس أقدر أقول لك مبروك على الصالة.. دلوقتي [illegible] نشتريها من روحية بالفلوس التي [illegible]

هززت رأسي بالإيجاب وتركتها تُقبلني بنشوة بينما ذهني شارد في خطتي، لا شك عندي الآن أن روحية بعيدة عن المؤامرة كلها. الثعبان تحرك من ورائي بينما كنت أنظر في اتجاه آخر، الاتجاه [illegible] لم أتوقعه على الاطلاق.

قفزت في أقرب تاكسي متجهًا لبيتي قلقًا متوترًا بسبب مخاوفي التي تكبر الآن، يتنفخ شعوري بأنني تعجّلت لأنني وافقتها على الذهاب إلى هناك، كان عليّ أن أكون أكثر حذرًا وأصطحب أحدًا [illegible] لا أثق في أي شخص الآن، ولا أأتمن مخلوقًا على سري.

ظللت طوال الطريق لا أرى إلا جثة نجات أمامي وأنا أتخلص منها بدفنها في الممر السري خلف مكتب منصور كي تختفي ولا تفوح رائحتها، المكان الذي لم يستخدمه أحد منذ وفاة التركي [illegible] سواي والريس هارون، مفتاحه المصطنع لا يزال بحوزتي منذ أدخلت الضمراني منه ليلة مقتل منصور، ولن يخطر ببال مخلوق أن نجات سترقد فيه للأبد.



3/28

- البقية في حياتك.. تعيش أنت من أسبوع تقريبًا.

لا أكاد أصدق كلمات صاحب محل البقالة أسفل بيته، طرقت الباب كثيرًا ولما لم يفتح صدمتني المفاجأة، لا أحد يعرف ظروف الوفاة، الرائحة فاحت فكسروا باب الشقة ووجدوه ميتًا، عجوز في الثمانين من عمره لن يهتم أحد لمعرفة سبب موته فطبيعي أن يموت، لكنني واثق أنهم قتلوه وقت جودي في باريس، ربما خنقوه أو وضعوا له سُمًّا في طعامه، طالما وصلوا لهارون فهم يقفون الآن على عتبتي لا يفصلهم عني شيء، لن أمكن أحد من رقبتي، أعدك بأن ترتاح في قبرك يا هارون بعد قليل.. وسترتاح للأبد.

دخلت صالة «أورفانيللي ومنصور» من الباب الخلفي وأوصدته ورائي، تلف المكان عتمة خفيفة، لمحت نجات من بعيد تجلس على مكتب منصور بوسط الصالة، ابتسمت ابتسامة عريضة لمَّا رأتني، نهضت وقبَّلتني مُرحبة، تركت لي مكانها وذهبت لإعداد فنجاني قهوة لنا كعادتها، قالت وهي تبتعد:

- الشيك على المكتب علشان تظَهَّره، ماتنساش..

هززت رأسي وأنا مبتسم حتى اختفت، تخففت من ربطة عنقي وسترتي، تحسست مسدسي بجانبي الأيسر، أحضرته مع مفتاح الممر السري من شقتي قبل مجيئي تحسبًا لأي غدر من جانب نجات ومَن تعمل معهم ولا بد أنهم كثيرون، ذهبت لباب الصالة الرئيسي الذي دخلت منه نجات وأغلقته بالمفتاح الذي تركته لها ونسيته هي بعد دخولها فوق مكتب منصور، ثم قمت بجولة سريعة تفقدت فيها الصالة فأدركت أننا وحدنا.

شردت في تفاصيل خطتي التي أهداني القدر إيَّاها كمنحةٍ لا تُرد، تأملت الصالة كعشيق يرى محبوبته بعد فراق طويل، ستعود لي وحدي، وقعت عيني على كمبيالة صيدناوي التي وضعها منصور على الجدار بجواره في إطار كبير وظل طوال حياته يتحدث عنها بفخر البدايات، سأضع صورة الشيك الذي أخذته من أحمد عيسوي هنا بعد قليل، ستكون بداية جديدة أتحدث عنها بفخرٍ أيضًا يا مايسترو.

تذكرت هارون وكدت أبكيه مرة ثانية، لكنني حركت ذراعي في كل الاتجاهات ثم صفقت فرحًا بانتصاري متعجلًا النهاية، ظهرت نجات فجأة بعد انتهائي من التصفيق، كأنها جنية جاهزة لتلبية أوامري، ازدادت ابتسامتها اتساعًا وهي تنحني قائلة:

- القهوة يا خواجة..

أول مرة تناديني بهذا اللقب وربما ستكون الأخيرة، ارتشفت رشفتين كبيرتين متتاليتين لأفيق بسبب قلة نومي وفقدان تركيزي،

أشـارت نجات إلى الشـيك الذي أمامي، أمسـكتها من كفها وجذبتها نحوي، قبّلتها قُبلة طويلة أثارتني ثم ضغطت على ذراعها حتى تأوهت فخففت قبضتي لا إراديًا، تحسـسـت ظهرها خوفًا من حملها لمسدس أو سـكين فلم أجد، بداخلي شك يرقى لليقين أنها ستقتلني اليوم وإلا لما ·عتني للصالة!

نظـرت لها نظـرة طويلة، شـعرت أن لديَّ الكثير لأقولـه قبل كلمة النهايـة، وددت لـو أنـني لم أرَ الحقيقـة عارية، تمنيـت أن يكون الأمر كابوسًـا وأفيـق منه على وجههـا الصبوح مثل كل مـرة، أريدها نجات حقيقيـة كمـا صدَّقتهـا، المـرأة الوحيدة التـي أحببتها بعد أمـي، لكنها خذلتـني وخانتنـي ومؤكـد تنوي قتلي مثلما تسـببت في قتـل هارون، ضغطت على ضروسي بشدة حتى آلمتني.

مسـحت نجات كفَّـي بيدها، نظرتها ميتة كأنها تعرف أنني كشـفت اللعبـة لكنهـا تثق فـي فوزها، شـعرت بضعفي لوهلـةٍ أمام لمسـاتها، تراخـت قبضتي أكثر فتراجعـت نجات خطوة وهي تدور نصف دورة، ثم انسـحبت بخفة متعللة بأنها سـتغير ملابسـها وتعود. همسـت أنها سترتدي الملابس الداخلية الجديدة التي اشتريناها سويًّا من باريس.

أنهـت ما تبقـى بالفنجان دفعة واحدة ووضعت الشـيك في جيب سترتي،أخرجـت مـسدسـي [illegible] قفازي، توجهت ناحية المخزن، لمحتهـا تُغلق سـماعة الهاتـف وهي لا تـزال [illegible]، أنني مقبـل رافعًا سـلاحي ففزعـت وهرولت وهـي تصـرخ، لكني لحقت

بها، هددتها بمسدسي بعدما وضعت كفي على فمها، سحبتها للوراء، فكرت للحظة أن أسألها عن سبب خيانتها.. أن أخبرها بخستها وأنني نويت قتلها، نظرت في عينيها، الهلع يطل منهما بلا مواربة، لم تتوقع أنني كشفتها ولا تعرف كيف عرفت بالتأكيد.

قطعت نجات الطريق على كل تساؤلاتي بما فيها الشخص الذي حاولت الاتصال به هاتفيًا قبل دخولي عندما قاومت بقوة لتهرب لما شردت عنها للحظة، لا أعرف هل اتصلت بأحد فعلًا أم لا؟ مؤكد كانت ترتب أمرًا ضدي. سبق عقلي أفكاري كلها وأعطى الإشارة ليدي، هويت على رأسها بكعب مسدسي مرتين، صرخت نجات صرخة مكتومة ثم فقدت الوعي وسقطت على ظهرها.

جثوت على ركبتَي فوقها، ضغطت بأصابعي على عنقها بقوة، انتفض جسدها ببطءٍ وتحركت شفتاها، ندت منهما آهة خفيفة ثم تأزمت جبهتها قليلًا، ضغطت أكثر ولم أرفع يدَي حتى بعدما سكنت حركتها تمامًا بحوالي نصف دقيقة. ابتعدت عنها قليلًا لكنني ظللت جالسًا على الأرض ألهث، تعلو أنفاسي كأنني كنت أركض في سباق طويل.. خرجت مني تنهيدة طويلة.. ماتت نجات.

مسحت حبات العرق عدة مرات من على جبهتي، استجمعت كل قواي وبدأت في تحريك الجثة ناحية غرفة المكتب حيث الممر السري، لكنني شعرت بوهنٍ مفاجئ في عضلات يدي ودوار بسيط برأسي وأنا أجذبها من قدميها، بالكاد وصلت للخزانة الكبيرة، -تركتها بصعوبةٍ بالغة، عرقي ينهمر بغزارة ودقات قلبي تعلو، أحسست بضيقٍ مفاجئ

في تنفُّسي لكني تحاملت على نفسي، فتحت باب الممر الغائر بعناية في الجدار، جذبت نجات من شعرها ورقبتها حتى أدخلتها به، انتبهت إلى أن قدميها تتدليان خارجه ثم تذكرت حقيبتها فذهبت لإحضارها أولًا، لا أريد ترك دليلٍ واحدٍ خلفي، قدماي تحملاني بصعوبة، ولا أعرف سببًا لتعبي الغريب المفاجئ، ربما لتوتري الشديد وعدم نومي منذ أمس. فتحت الحقيبة قبل وضعها بجوار جثة نجات بحثًا عن أي سلاح تحمله معها وكانت تنوي قتلي به فلم أجد، لا بد أنها كانت تتصل بأحد ليعاونها، لم أقوَ بعد ذلك على الحركة، حاولت مرة ثانية ففشلت، شعرت بخدرٍ ثقيلٍ في ذراعي الأيسر كأنني أحمل جوالًا من الرمل، انتقل الخدر بسرعةٍ لساقي وشفتي السفلى ثم أصابني دوار مُريع.

راودني شعور بالصراخ لكن صوتي خذلني، ندت مني ابتسامة تشفٍّ رغم كل ما يحدث لي، لا يدرك أرقش بعد أنه فقد نجات للأبد، راحت منه القطعة الغالية التي زايد عليها، لم يضع ذلك في حساباته، نصر صغير تحقق لصالحي، ولا يزال لديَّ وقت للنجاة وتحقيق نصر أكبر، نهضت بصعوبةٍ متحاملًا على نفسي، نظرت ناحية نجات مرة ثانية وبصقت عليها، مسجاة على ظهرها في مكانها لكن باب الممر لا يزال مفتوحًا، بدأت أجذبها حتى تمكنت من سحب جسدها كله، وجدت ملابسي مبللة بالعرق وكأني فقدت ماء جسمي كله، اصطدمت بساقي وظهري أثناء رجوعي للوراء ساحبًا جثتها بشيءٍ ليّن، سرعان ما سقط فأحدث جلبة بسيطة، التفتُّ فارتجفت، شعرت بصدمةٍ وأنا أرى الحقيقة ذاتها لامعة أمامي، راقدة في هدوءٍ خلف نجات، أكاد

الآن أرى وجه منصور التركي مبتسـًما في تشـفٍّ مـن غبائي وطمعي، أكاد أسـمع ضحكاته ترن في الممر السري، يفوز المايسترو في النهاية ولو بخسارة غيره معه.

ظلـت عيناي مفتوحتين من الدهشـة وشـفتاي تتمتمـان.. يا ليتني سمعت نصيحة هارون.

***

عشـرات القطع النادرة مكدسـة في علب متفاوتـة الأحجام بنهاية الممـر، غالبيتهـا يحمـل علامة فـاروق المميـزة، وربما يعـود بعضها لعصـر فؤاد، العلب القطيفة الخضراء والحمراء تتسـاقط من يدي بعد فتحها تباعًا، لا أقوى على الإمسـاك بأيٍّ منها، كفاي تتخشبان، تتسرب لأظافري زرقة داكنة غريبة، عشـرات القطع والحلي تنسـاب كقطرات ماء أمام عيني من بين أصابعي، بعضها يخص مجوهرات الأمير وحيد الديـن، ثم رأيت علبة فضيـة عليها راقصان مثل علبـة أبي، أقدم بكثير مـن التي معـي، لكني لا أقوى حتـى على مجرد لمسـها، لمحت علبة فخمة تظهر منها ماسورة مسدس فاروق الفضي المزخرف الذي قتلت بـه منصـور، دليل إدانتي أمام عيني، مَن الـذي أتى به إلى هنا؟ حاولت التقاطه لإخفائه، لكني شـعرت بتنميل شـديد مؤلم فـي أصابعي، زاغ بصـري ثـم عصف صـداع بجبهتي، آخـر ما كنـت أتوقعـه أن منصور يسـتخدم الممر السـري مخبـأً لقطعه المهربـة من مزاد فـاروق الكبير بعدمـا حصـل عليها ممَّن اشـتروها، الثـروة كلها في الصالـة ورروحية

المغفلة لا تدري عنها شيئًا، لا بد وأن هارون هو الذي نقلها إلى هنا بعد موت منصور، المسدس الفضي المزخرف فَضحَ سرك يا هارون، فالممر كان خاليًا عندما أدخلت منه الضمراني لآخر مرة.

سال لُعابي فجأة على مقدمة صدري وترنحت، تساندت على جانبي الممر، يا ليتك أفصحت أكثر يا هارون عن الفرصة الأخيرة التي وعدتني بها، بماذا أفادك الآن صمتك الطويل وأنت الوحيد الذي يعرف الحقيقة؟ لماذا أخلصت لسارق أبي وقاتل أمي وأعدت له ما سرقه وحفظته هنا؟ لماذا تركتني وحيدًا يا هارون؟.. لماذا أخفيت عني مكان الكنز وتركتني أموت؟

الآن فقط استيقظ ضميرك وارتأيت كتم السر بعد كل ما فعلته على مر السنين مع منصور في الصالة من غش وتزوير؟!

ازداد الدوار حتى مادت الأرض بي، صرت أترنح رغم وقوفي مكاني مستندًا على الجدار الرطب، ترقد جثة نجات خلفي والقطع كلها أمامي وأنا بينهما معدوم الحيلة، رجعت بضع خطوات للوراء، خرجت من الممر بصعوبةٍ ثم أضأت أنوار الصالة كلها، اتجهت للمرآة القريبة مني، تفحصت هيئتي بعدما نهشني الشك في أوجاعي المتلاحقة، رأيت ملامحي متبدلة، لساني يزداد احمرارًا وحلقي بلون الدم، لعابي يُفرز بغزارة حتى سال على صدري ولم أعد أستطيع التحكم فيه، شفتاي ترتعشان بقوةٍ وكفَّاي لا تقويان على الإمساك بأي شيءٍ حتى مسدسي سقط مني، لديَّ رغبة عارمة في القيء فلم أقوَ

على المقاومة. أدركت الآن أنني تناولت سُمًّا مركزًا في القهوة وضعته نجات عند وصولي وسيقضي عليَّ خلال وقت قصير، كيف لم أنتبه إلى أنها ستقتلني بهذه الوسيلة الخسيسة؟ ركعت على ركبتَي وأنا ألعن غبائي وغفلتي، نظرت في ساعتي، مرت عشر دقائق منذ تناولي القهوة، داهمني إحساس بأنني أتلاشى، استندت على منضدة خشبية قديمة كي لا أسقط، لكنها هوت بي وانكفأت على وجهي.

فجأة سمعت صوت أقدام، لمحت شبحًا عبر الزجاج يتحرك أمام باب الصالة الرئيسي، زحفت بصعوبةٍ بالغةٍ ناحيته غير مصدق ما يحدث لي. بات رحيلي محققًا، نظرت في ساعتي مرة ثانية متوسلًا، أرجو عقاربها أن تتوقف أو حتى تبطئ قليلًا كي لا تدفعني للمقبرة، ثوانٍ معدودات أغيب بعدها عن الصالة.. عن الثروة.. عن الحلم.. عن كل القطع التي حولي وخلفي وتستعد للسير في جنازتي، لتودعني الوداع الأخير وتذهب الصالة إلى غيري.

يفصلني عن الباب المفتوح والنجاة أمتار قليلة لأستغيث بالمارة، لكن الشارع بدا خاليًا، وقع بصري على خيالات لأشخاص لا يتحركون، يقفون على الرصيف المقابل للصالة، نظرت نحوهم نظرة أخيرة، اهتزت صورتهم أمام عيني، تأرجحوا، ثم حجبت سيارة نقل ضخمة رؤيتهم عني، وكان آخر ما لمحته قبل أن ينسدل جفنَي هو ما نُقش على جانب صندوقها الخلفي الأزرق بخط كوفي جميل: «صالة أورفانيللي».. أو هكذا هيئ لي.

«كنت أتجرعكم طوال الوقت كدواءٍ مُر،

وأدركت متأخرًا أنكم السُّم ذاته».

أورفانيللي منصور أورفانيللي

1972- 1936

« تمت»

أشـــرف العشــماوي

2020 / 12/ 17





لكل قصة بداية وحكاية ونهاية ، وحياة كل إنسان رواية هو بطلها ومن خلالها يتشكل العالم من حولنا. ببناء مدهش يقدم أشرف العشماوي أحدث رواياته، قصص أبطاله الثلاثة تحكي حياتهم لكنها تشكل فصول الحكاية الأكبر، حكاية صالة المزاد التي يقتحم بها المؤلف عالمًا روائيًا جديدًا، كاشفاً خباياه وكواليسه وطرق الخداع التي تُجرى فيه، ودور يهود مصر في السيطرة عليه منذ العهد الملكي حتى السبعينيات. تتشابك خيوط حكايات الأبطال وتتعقد علاقاتهم الإنسانية، ليجذب العشماوي أطرافها بسلاسة فتنساب لتحكي أدق تفاصيل النفوس وتصطدم بصراعات تُفضي لجرائم ، وعندما تقترب الخيوط من نهاياتها ومع دَقة المزاد الثالثة الشهيرة التي تعلن موت رغبة وميلاد أخرى تتفجر المفاجآت لتتسع أذهاننا لتساؤلات بقدر ما تتفتح أعيننا على حقائق .. هل حياتنا تشبه المزاد؟ وماذا يتبقى من إنسانيتنا لو أصبح كل منا قطعة معروضة في صالة مزادات ينتظر دوره؟.



أشرف العشماوي قاضٍ و روائي مصري صدرت له تسع روايات طويلة وكتاب وثائقي عن سرقة وتهريب الآثار المصرية ، فازت رواياته بعدة جوائز أدبية، وتُرجمت بعض أعماله للغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية.

الدار المصرية اللبنانية